الجزء الأول

فلسفة الجود والإيثار لدى الإمام علي عليه السلام

د. السيّد محمود محمّد الموسوي

دار الولاء
بيروت - لبنان

www.haydarya.com

فلسفة الجود والإيثار
لدى
الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

لبنان - بيروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس: 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - ص.ب. 307/25
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com
E-mail:daralwalaa@yahoo.com

ISBN:978-9953-546-60-5

اسم الكتاب: فلْسفةُ الجُود والإيْثار لدى
الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ـ المجلد الأول
المؤلف: الدكتور السيد محمود مناف
الناشر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة: الأولى ١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١م

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

فلسفةُ الجُود والإيْثار
لدىَ
الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

المجلد الأول

الدكتور
السيد محمود نايف

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١١٣٣٨١
التاريخ / ٣ / ٤ / ١٤٣٠هـ
٨ ٦٧٠٤

دار الولاء
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

البَحْـرُ الزّاخِـرُ

عن أَبي صـالحٍ عن أَبي هريرة قال : كنت عند النبي «ص» إذ أقبل عليُّ بنُ أَبي طالب فقال : أَتَـدري من هٰـذا؟ قلت : هٰـذا عليُّ بنُ أبـي طالب. فقال النبي «ص» : هٰـذا البحرُ الزاخـرُ هٰـذا الشَّمس الطالعة.. أسخىٰ من الفراتِ كفّاً وأوسعُ من الدنيا قلباً فمن أَبغضه فعليه لعنةُ اللـه. كنـز الفوائد للكراجكي ج ١ / ١٤٨، والدرّ النظيم ليوسف بـن حـاتم الشامي / فصـل في ذكر فضائله، ومائة منقبة لابن شـاذان / المـنقبة الثانية عشـر، وبحـار الأنوار للمجلسي ج ٢٧ / ٢٢و ج ٢٩ / ٣١٠ وج ٣٩ / ٣٥و ٨١.

مُقَدِّمَة المُؤَلف

مِن أين للإنسانِ أنْ يُحقِّق إنسانيَّته إذا لم يَتفجَّرْ ينبوعاً زاخراً بالنفعِ والعطاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

الحَمدُ لله ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ. الشعراء / ٧٨ ـ ٨٢. وصلىٰ الله علىٰ نبينا وحبيب قلوبنا محمد خاتم النبيين، وعلىٰ أَهل بيته الطيبين الطاهرين.

من الضروريِّ جداً أَن نتوجَّه في خِضَمِّ العَملياتِ البنائيَّة للأَخلاق والسلوك والتربية الإنسانيَّة، الىٰ دعوتين مباركتين للإنسانية جمعاء فضلاً عن الموحدين للهِ أو خصوص المسلمين:

الدعوة الأولىٰ: هي الاندفاع الحر نحو الخير والإحسان، وبذل ما يقدر عليه الإنسان من نفع للآخرين، وأن يكون السخاء أو الجود أو الإيثار هو الغالب علىٰ شخصياتنا وتعاملنا، والمتمكن حقّاً من أعماق نفوسنا وأرواحنا، والمخامر لضمائرنا ومشاعرنا.

الدعوة الثانية: أن يكون الحافز للإنسانية والخيرية والجود حافزاً نقياً.. سليماً.. بريئاً من الآفات.. خالصاً من الأكدار والشوائب.. فإما جودٌ وعطاءٌ وخيرٌ يُبتغىٰ به وجه الباريء العليم تبارك وتعالىٰ، وإما جودٌ وخيرٌ وذوبانٌ فيهما

لأَجلهما بالذات. فأَما المذاهب المتشعبة التي تتسرَّبُ من الميادين اللاتنزيهة واللامشروعة والتي تستغلُ مفاهيمَ المروءة والنظرة الإنسانية وتعكس عليها امتداداتها من الأهواء والمشتهيات الرخيصة والمآرب الدنيئة والمنافع الشخصية، سواء كان المتقدم بالفعل الخيري والسماح المرموق فرداً أو جماعة أو دولة من الدول، فهي الضياعُ المُحَتَّمُ والتبارُ المُؤَكَّدُ والخسرانُ الجائِمُ المُبين.

وفي الحقيقة انَّ علينا أن لا نتحوَّل الىٰ روافدَ عَذْبَةٍ من الخير والإحْسان والعطاء وكلِّ مفردات النزعات الخيِّرة فحسب، بل أن نكون محرِّضين للآخرين من الشرقيين والغربيين علىٰ فعل الخيرات والإحْسان الىٰ الناس، وعلىٰ التفاعل التامِّ مَعَ مَأساة الإنسانِ أَنّىٰ كان، فإنه لا شبهة أو ريب أن الدَّالَّ عَلَىٰ الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ وَاللَّهُ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَان. كما يدلُّنا علىٰ ذلك الرسول الأمين «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» في الحديث المشهور عنه. مَن لا يحضره الفقيه ٢ / ٥٥ والكافي، ٤ / ٢٧ / باب فضل المعروف.

إن النصائح البليغة، والارشادات المتسقة، تأخذ أثرها من النفوس والعقول بمستوىً من المستويات. وإذا كان الكثيرون من الناس ممن لا يستمعون الىٰ الحق، ولا يُلبّون دعوة الخير والصلاح، فإن الكثيرين أيضاً يستقبلون المفاهيم الصحيحة والكلمات النافعة، ويسيرون علىٰ طريقها المرسوم. حتىٰ أولئك الذين لا يُقْبِلون -بلهفٍ وشَوقٍ وجديَّةٍ كاملةٍ- علىٰ القيم البنّاءة والمبادىء الخيِّرة فإن تلك المفاهيم والأفكار المنتشرة عنها مع الحث المستمرّ علىٰ التزود منها، تؤثِّرُ فيهم ولو بعض التأثير، والأَمرُ لا يخلو من الأهميَّة بدرجة من الدرجات علىٰ كل حَال.

(٢)

في منطق فطرة الإنسان حادٍ يحدوه الىٰ الكمال، ولذا يقول الفيلسوف

الكبير المتقن أبو علي ابن سينا (٣٧٠ هـ ـ ٤٢٨ هـ): (كلُّ كائنٍ فهو بطبعه ينزع الىٰ كماله الذي هو خيريَّةُ هويته).

بل نعتقد أن حُبَّ الكمالِ لا يقتصر علىٰ الإنسان فحسب، بل يشمل حتىٰ الحيوانات العالية منها والهابطة، ويشمل كذلك عالم النباتات بأسره، وتعجبنا كلمة قد كنا قرأناها ذات يوم لأَحد المفكرين تؤيد ما نحن فيه ننقلها للقرّاء الكرام: قد أودِعت في الحنطة حركة ذاتية نحو العطاء الأَكثر، وفي الورد الأَحمر ما يزيد في جماله وعطره، وللإنسان حركة حسب اللبِّ والحب، فإذا رأينا آفة في نتائج القمح أو جمال الورد وعطره أو طهارة روح البشر لم يكن لنا أن نرىٰ ذلك علىٰ حساب الحركات الذاتية لهذه الوجودات، بل إنما هي بعلة خلاف عارض علىٰ تلك الحركة الذاتية.

والآن نستطيع أن ندرك أن كلمة الهدف الىٰ أي مدىٰ تساعدنا في تشكيل الفكر الصحيح، فهي التي تجعلنا ندرك أن هٰذا العالم الذي لا نرىٰ أَنفسنا إلّا من الأعضاء الصغار فيه، عالم أخلاقي هادف، وأننا لسنا نعيش أبداً في عالم حالك، وعلينا أن نعلم أن وراء هذه الحركات محرِّكاً وأن وراء كل شيء شعوراً وفكراً عظيماً، ويكفينا أن نعتقد بأن الحياة أمر جليل وعندئذٍ نستطيع علىٰ الحدِّ الأقلِّ المواكبة والإنسجام مع تلك الروح العامة في العالم ونعلم أن خلافه يضرنا في حياتنا..

إنه لا كمال للإنسان أَبداً مالم يتمسَّك بالقيم الإنسانية الحقة، والمبادىء الأَخلاقية السامية. إنه ليس ما بين الإنسان وبين تعامله حسب قوانين الغابِ إلاّ أن يتنكر للأَخلاق والفضائل الانسانيَّة. ونحن نعتقدُ أنَّ منطقَ الفطرةِ والوعي المشبوب هما الركيزتان الأَساسيتان في رصيد النزعة الكماليَّة للإنسان.

ومن هنا نفهم أن النشريات الأَخلاقية السليمة والمقالات والكتب ومختلف

الوسائل الاعلامية المرئية والمقروءة والمسموعة تفرز دوراً مهماً للغاية في تطوير المبادىء والقيم الفاضلة لدىٰ الإنسان، وفي إرواء الظمأ الروحيِّ والكماليِّ عنده.

لقد نشأت وتأسست في شتّىٰ العصور مدارس ومذاهب وفلسفات أخلاقية وتربويَّة كثيرة جداً، ولكن الصحيح منها محدود أو شبه محدود. وإذا كان خير المفاهيم الأخلاقية والإنسانية أصحّها وأنفعها للبشريَّة، فإن خير الصحيح وأفضل النافع منها ما جاء به القرآن الكريم والرسول الأمين «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وأئمة أهل البيت النبوي (عليهم الصلاة والسلام)، «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر»[1].

وقد لا يمثِّل هٰذا الكتاب الذي بين أيدينا، من أفكار ومواقف الإمام علي حول فلسفة الجود والإيثار وما يتمخض عنها من مواقف وآثار، إلّا حلقةً واحدةً من سلسلةٍ ذهبيَّةٍ رائعة، من أخلاقه وفكره وحكمته ومن سلوكه المائز الخلاق.

(٣)

لما كان موضوع الكتاب ينصب علىٰ موسوعة فلسفة الجود والإيْثار لدىٰ الإمام علي بن أبي طالب، فقد كان من المتوقع جداً ـ جرياً علىٰ المألوف المعتاد ـ أن يتمَّ الحديث فيه عن تنظير الإمام للجود والإيْثار وآرائه الفلسفية عن ذلك، كما هو شأن أَغلبية مادة الكتاب، لا أن يُضاف اليه الجانب العملي من سيرة الإمام من حيث اعتباره الجواد المُفْضل والمُؤثِر المتقدم الذي أدخل أفكاره وآراءه الىٰ حيز الممارسة والتطبيق وعمل بها شخصياً، كما هو شأن الكثير من مواضيع الكتاب؛ إذ لم تعد سيرة الفيلسوف، أو المفكر، أو العالم الاجتماعي كما هو

---

١ – توجد عدة آيات في سورة القمر تتضمن قوله تعالىٰ «فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ» منها الآية المباركة: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ». القمر، الآية / ٢٢.

المألوف المشهور مصدراً من المصـادر المعرفية للاطـلاع الدقيق علىٰ أفكـاره الفلسفية ورؤيته التنظيرية لـدىٰ شتىٰ الفلاسفة والباحثين والمحققين. فإذا أردنا أن نتفهَّم آراء فيلسوف ما حول الاقدام والشجاعة وميادين الحرب مثلاً فـعلينا مراجعة ما يقوله ويكتبه ويناقشه من هٰذا الموضوع، لا أن نتفحص آثاره الحربية وشجاعته بأفعاله ومواقفه فنستنتج منها رؤيته وتفكيره عن ذلك. إذ قد لا يكون من الشجعان والأبطال بتاتاً؛ ولهذا السبب يقول الفيلسوف الكبير أبو عـلي بـن سينا: لم يكن فيلسـوف قط شجاعاً مقداماً في الحروب إلا علي بن أبي طالب[1]. وهكـذا اذا أردنا أن نتفهَّم آراء فيلسوف ما حول الجود والإيْثار فعلينا مراجعة ما يقوله ويكتبه ويناقشه من هٰذا الموضوع، لا أن نتفحص آثاره العملية ومـقاماته بالفعل كرماً ونائلاً ومواساةً فنستنتج منها رؤيته ونظريته عن ذلك. فما يدرينا لعل شخصيته في جانبها الفعلي لم تتصف بذلك أبداً، فإنه حتىٰ الفلاسفة الذين يذهبون الىٰ أصـالة الشعور الإنساني بالإيْثار أو الغيرية Altruism مثل أوغست كومث ودوركهايم. فإنه ليس لنا أَدلَّة علىٰ اتصافهم شخصياً بهذا العمل الايجابي العظيم والقيام به علىٰ مستوىٰ الممارسة والتطبيق فما كلُّ مَن وصفَ الجمـالَ جميـل.

أما ذيّالك الانسـان الملائكي المتميِّز للغاية، والذي يحفل سـلوكه العـملي بأروع الأمثلة علىٰ انكار الذات Abnegation ونعني به بالتحديـد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقد زوَّد الحضارة الانسانية بموادٍّ فلسفيةٍ وعلميةٍ كبرىٰ في مختلف الحقول والمجالات الكلية والجزئية وفي الجانبين معاً الكيفي والكمي.

---

١ – أقـول: لقد فات ابن سينا أن سقراط الحكيم كان أيضاً من كبار الشجعان ومن الأبطال المعدودين، وأما أن فكره وحكمته وشجاعته واقدامه تقع دون مرتقىٰ الإمام علي بمراحل فهذا وإن كان صحيحاً ولكنه شيء آخر. وكان ابن سينايقول: عـلي بـين الخـلق كـالمعقول بـين المحسوس. انظر أعيان الشيعة، ٢٦ / ٢٩٨.

القضايا التنظيرية البارعة لدىٰ الإمام علي كثيرة بشكل ملفت للأنظار ومدهش حقاً ، والقضايا العملية البارعة لدىٰ الإمام علي كثيرة بشكل ملفت للأنظار ومدهش حقاً . بيد أنه هل يجد المحقق المتتبع بوناً بعيداً ما بين الأقوال والأعمال والنظرية والتطبيق ؟

اللهمَّ لا نعلم ذلك أبداً ما كان الانصاف طريقاً الىٰ البحث ، والتفكيرُ العلميُّ الخالصُ دليلاً هادياً الىٰ استطلاع الحقيقة .

ومن هنا نجد بوضوحٍ كاملٍ أن الكرم والإيْثار لدىٰ الإمام كواقعٍ فعليٍّ ملموسٍ ، يعاضِدُ بقوةٍ وحَصافَةٍ المسارَ التنظيري أو الفلسفي المتمثل بهذا الزخمِ الهائلِ البديعِ من الحكم والأقوال ، والذي أوردنا في ثنايا الكتاب أغلبية ما عثرنا عليه منها . هٰذا اضافةً لما في ذكر أمثلة كثيرة تدل علىٰ الجود والإيْثار في شخصية الإمام (عليه السلام) ما يدفع بالعملية التربوية والأخلاقية الىٰ الأمام ؛ حيث أن البشرية بصورة عامة لا تتطور تربوياً وروحياً بمجرد استطلاعها الواسع الكبير علىٰ أفكار سَنِيَّةٍ أَوْ قُدْسِيَّةٍ في موضوعٍ من المواضيع الرئيسية النافعة للحياة الفكرية ، حتىٰ ترىٰ من يتمثَّل تلك الأفكار ويعمل بها ويسعىٰ الىٰ تطبيقها ، ومن ثم يكون القدوةَ الحسنةَ لها في السلوك والتعامل . وعلىٰ كلِّ حال فقد أعطىٰ الإمام علي بن أَبي طالب للكرم والإيثار أَبعاداً تَأسيسيَّةً كبرىٰ عقائديَّة وفلسفيَّة وثقافيَّة ، بل أَضفىٰ عليهما (الكرم والإيثار) طابعاً موحَّداً وخلق منهما نظريَّةً متجانسةَ الحلقات متلاحمةَ الأجزاء والمفردات ، مما فسح المجال وسيعاً أَمام المؤلِّف أن يتحرَّك بانطلاقٍ في مسافات الأبعاد ومساحاتها الرحيبة ، ومن هٰذا المنطلق سوف نشاهد أنَّ هٰذا الكتاب المتخصِّص بجود أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وإيثاره قد عبَّر عن منظومةٍ حضاريَّةٍ في تفسير القرآن الكريم وعلم الحديث والدراية وفي الأدب والفلسفة والتأريخ من دون أن يخرج عن الاطار الموضوعي للبحث . والواقع ان (البحث عن الحقيقة لا يتوافق مع الملل أو الضجر

أو فتور الهمَّة وإنما يتطلَّب صبراً وأناةً وسعياً مستمرّاً في طلبها؛ فـقد يسـتدعي الأمر الحصول علىٰ مجموعة كبيرة من البيانات والمعلومات ومجالات الخـبرة المباشرة وغير المباشرة، مما يتطلَّب استقصـاء المعـلومة زمانيّاً ومكانيّاً للوصول الىٰ الحقيقة). الدكتور أحمد رجب الأسمر، فلسفة التربية في الاسلام / ٤٢.

(٤)

لم يخلُ زمان من الأَزمنة مطلقاً منذ عصـر النبوة والىٰ الآن مـن ظـالمين معتدين ومجرمين غاصبين يسعون جاهدين الىٰ تكدير المـاء السـلسل الزلال وحجب انتشار الأنوار الإلهية وهضم حق محمد وآل محمد «ص» وتشويه تلك الصورة الجميلة المتألقة لحياتهم الفذَّة وسيرتهم العطرة وتأريخهم الناصع المجيد إما في تجرىء غاشم وتصريح آثم وإما أن يدسّوا السمَّ المكيَّ بالشَّـهد الطائفيّ. فلئن لم يسعفنا التوفيق الىٰ نصر مـحمد وآل مـحمد «ص» بـالسلاح الرهـيف واليمين الحديدية الضاربة ولم نكن لهم كبش الفداء، فهل نترك نصر محمـد وآل محمـد «ص» بالكلمة العادلة والمقولة الواعـية والكتابة الراشدة.

وفي كل زمان من الأَزمنة مطلقاً ألف وكـالة اسـوشيتدبريس وألف وكـالة يونايتدبريس تقدح جوراً وطـغياناً بـالصفحات المشـرقة لمـحمد وآل مـحمد «ص». فأين أين اسوشيتدبريس المحبـين والعاشقين؟! وأين أين يونايتدبريس الكتاب الموضوعيين والمؤرخين المنصفين؟! لا نامَت عَينٌ أَطبَقَت جَفنَيْها عَـن ظُلمِ الحَبيب، وأُخرسَ فَمٌ لَمْ تُقَوِّمْه العَدَالَةُ ويُنطِقْهُ الإنصَـاف.

(٥)

لقد أصاب المفكر المعاصر ميخائيل نعيمة (وهو فيلسـوف مسـيحيٌّ وفـي الطبقة الأولىٰ من الأُدباء العالميين ١٨٨٩ ـ ١٩٨٤ ميلادي) مِفْصَـلَ الحقيقةِ حيث

يقول قول الباحث الموضوعي والخبير المتقن: إنه يستحيل علىٰ أي مؤرخ أو كاتب، مهما بلغ من الفطنة والعبقرية أن يأتيك حتىٰ بألف صفحةٍ بصورةٍ كاملةٍ لعظيمٍ عيار الإمام علي، ولحقبةٍ حافلةٍ بالأَحداث الجسام كالتي عاشها، فالذي فكره وتأمله وقاله وعمله ذلك العملاق العربي بينه وبين نفسه وربِّه لممّا لم تسمعه أُذن، ولم تبصرة عين، وهو أكثر بكثير مما عمله بيده، أو أذاعه بلسانه أو قلمه. واذ ذٰاك فكُلُّ صورةٍ نرسمها له ناقصة لا محالة، وقصارىٰ ما نرجوه منها أَن تنبضَ بالحَياة[1].

نَوَدُّ أن نُطلعَ الفيلسوفَ ميخائيلَ نعيمة أَننا قد كتبنا ما يزيد عن أَلف صفحةٍ بكثير عن الإمام علي فيما يخص فلسفة جوده وإيثاره فحسب، فلم نأتِ بصورةٍ كاملةٍ له في هٰذا المجال، فكيف لو أردنا أن تكتب عن شتىٰ جوانب العظمة والابداع في شخصيته ومكانته السامية؟! وبالفعل فقد كتب عدد من المصنفين الأَكابر المجلدات الكثيرة عن الإمام علي، وأجادوا فيما كتبوا إلا أنهم لم يأتوا بتلك الصورة الكاملة التي أشار اليها الاستاذ نعيمة.

(٦)

في الحقيقة أنه قد أَصبح الكتاب جزءً لا يتجزء من روحي وأنفاسي ودمائي ونبضات قلبي، لقد كان فيما مضىٰ من جملة أشغالي الرئيسية والمهمة ثلاثين شهراً ثم ما طفق أن أَصبح شغلي الشاغل وهمي الدائم الذي يجري بتدفقٍ وحرارةٍ في شرايين أَفكاري وحياتي عشرين شهراً وفي الليل والنهار والسر والعلن. ولا ينبغي أن نعجب لطول المدة وذلك لسبب بسيط وهو أن الطريق لم يكن معبداً أمامي ولا ممهداً من قبلي؛ فكنت بيَدَيَّ الضعيفتين وبمعولي المتقَصِّد لا غير أَشق

---

١ ـ ميخائيل نعيمة، المجموعة الكاملة، المجلد السابع / ٥٣٥.

الطريق وأُزيـل العـقبات وأَسـد الثـغرات وأنـصب المـعالم وأُشـير الىٰ المـارَّة والمجتازين أن اسلكوا هذا السبيل القويم لعلكم تهتدون. وأما الكتابات السابقة عن موضوع جود الإمام علي ـ مع غاية تقديري واجلالي لكـتّابها ولجـهودهم المشكورة ـ فهي الصفحتان أو الثـلاث مـع التـحليل والاسـتنتاج والتـعليق، أو العشرون والثلاثون صفحة سرداً وعـرضاً بـلا تـحليل ولا تـعليل، إنـها أَشـبه بـ الخويصات أو الفروثات تلك النباتات البدائية التي لم يتمايز فـيها السـاق مـن الورق فما لها بعدُ أَلياف خشبية تدعمها وتوصل لها الماء.

وبعد انتهائي بحمد الله تعالىٰ من تصنيف الكتاب أَدركت ادراك الموقنين أن أَغلبية الجوانب العظيمة من شخصية الإمام وأَفكاره العملاقة لم تستوفها البحوث والدراسات ولم تستوعبها الىٰ هذا اليوم علىٰ الرغم من كثرة الكتابات الجـيـدة والنافعة حوله (سلامُ الله عليه)، فكم من قضية أَساسية ذات شأن كبير لم تدرس أَو تبحث إلا بشكل أَولي أو بوجهة سطحية أو بصورة وجيزة أو لم يلتفت اليـها أَبـداً، كما قد أدركت بكل موضوعيةٍ أن عالَمَ ابن أبي طالب ذٰلك العَالَم الفسيحُ الأَرجاء.. البعيدُ المديات.. العميقُ الأَغـوار.. ومـا تـحفلُ الكـتاباتُ القـديمةُ والحديثةُ ـ بما فيها كتابنا هٰذا ـ إلا باشـارات خاطفةٍ الىٰ قبسات من أَضواء تلك الشمس الكبرىٰ الساطعة والمتوهجة في علياء السمـاء.

وأَخيـراً أسأَل الله عزَّ وجَلَّ بسعة رحمته، وجـزيل كـرمـه وإحسـانه، أن يتقبـل العمل، ويرزقنا الجـزاء بـالحُسنىٰ، وأن يـضـاعف لنـا ذلك مـضاعفات كثيرة، فإنه لا تغنينا جهود خمسـين شهر في تأليف الكتاب، ما لم يكـتـب لنـا الأَجر وحسن الثواب.

وقد يسعفنا العمر ويدركنا التوفيق لكتابات تفصيلية حول ما قاله المفسرون والعلماء والفلاسفة ومختلف المفكرين والمؤرخين والأدباء عن كرم الإمام علي

وإيثاره منذ بداية العصر العباسي (١٣٢ هـ) والىٰ هذا اليوم مع تحليل ما قالوه والتعليق عليه؛ فإن في ذلك مادةً بحثيةً غزيرةً ومجالاً فسيحاً غنياً جداً بمحتوياته ومضامينه، وإذا ما فاتنا الأمر لسبب من الأسباب فالأمل معقود بذوي الهمم العالية والأَقلام الرهيفة أن يواصلوا المسير وينفعوا الأجيال ويزودوهم بما ينفعهم نظرياً وعملياً في الدار الدنيا ويوم الورود علىٰ الباريء الكريم.

وأَلتمس من مختلف العلماء الأعلام والكتاب والمفكرين الأفاضل ومن جميع من من يطالعون الكتاب، اذا ما يقعون علىٰ أخطاء أو يعثرون علىٰ خلل ونواقص فيه، أن يتفضلوا مشكورين بالفات نظري وإرشادي الىٰ مواقع الخلل والخطل والزلل عملاً منهجياً سليماً بقوله تبارك وتعالىٰ: «وَتَعَاوَنُواْ عَلَىٰ ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَىٰ ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ». المائدة، الآية / ٢.

المؤلف

البريد الالكتروني munaf_2008@yahoo.com

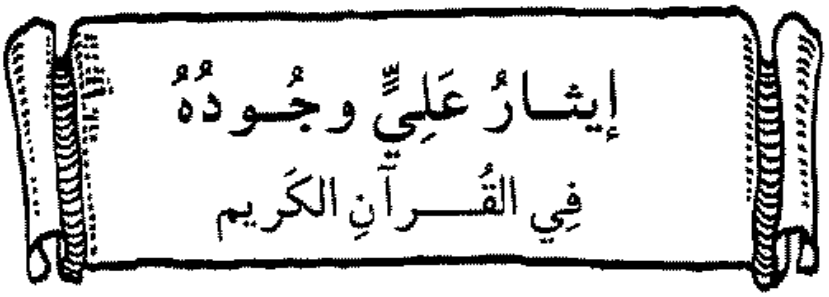

قلما تجدُ سورةً من سورِ القُــرآنِ لم يتكـرر فيها طـلبُ الانـفاقِ والوعدِ بالأَجرِ العظيمِ له .

إيثارُ عَليٍّ وجُودُهُ في القُرآنِ الكريم

يقول الفقيه الجليل الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: ما من شريعةٍ من الشرائع ولا دينٍ من الأَديان السماوية ولا كتابٍ من الكتب قد حَثَّ وبعث وبالغ في الدعوة الىٰ الإحسان والمعروف وبذل المال في سبيل الخير مجاناً ولوجه الله تعالىٰ كشريعة الإسلام وكتابها المجيد، وقلما تجد سورة من سور القرآن لم يتكرر فيها طلب الانفاق والوعد بالأَجر العظيم له[1].

لقد اكتفينا من بحث الجود والإيثار في القرآن الكريم بتفسير آياتٍ مباركةٍ نازلةٍ في حَقِّ جود الإمام أمير المؤمنين علي بن أَبي طالب وإيثاره لأَنها ألصق بموضوع الكتاب وأدنىٰ الىٰ الاختصار، ولم نبحث ـ من أجل الغرض المذكور ـ عن آيات أخرىٰ أو نفسرها ونتحدَّث عنها وإن كانت تتحدث بشكل عام عن الإنفاق والجود والإيثار بالصميم، فانَّ ذلك يتطلب من الباحث كتاباً مستقلاً كبير الحجم.

قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ:

بسمِ اللهِ الرَّحْمٰن الرَّحيم

«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهٰارِ سِرًّا وَعَلاٰنِيَةً»[2].

الإنفاق ليلاً ونهاراً سرّاً وعلانيةً

قال عِزُّ الدين بن أَبي الحديد المعتزلي شارح نهج البلاغة: وأما السخاء

---

١ – محمد حسين كاشف الغطاء، الفردوس الأعلىٰ / ١٩١.

٢ – البقرة، الآية / ٢٧٤.

والجود فحاله فيه ظاهرة، وكان يصوم ويطوي ويؤثر بزاده وفيه أنزل: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلىٰ حُبِّهِ...». وروىٰ المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم علانيةً، فأُنزل فيه: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً»[1]. وقال الشعبي وقد ذكره (عليه السلام): كان أسخىٰ الناس كان علىٰ الخلق الذي يحبه الله السخاء والجود ما قال لا لسائل قط... وهو الذي كان يكنس بيوت الأموال ويصلي فيها، وهو الذي قال: يا صفراء ويا بيضاء غرّي غيري، وهو الذي لم يخلف ميراثاً وكانت الدنيا كلها بيده إلا ما كان من الشام[2].

ويقول الدكتور الفاضل محمد بكر اسماعيل استاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر عن جود علي وإيثاره: فقد كان (رضي الله عنه) وأرضاه يؤثر ذوي الحاجات علىٰ نفسه بما هو أحوج اليه منهم، وربما يبيت طاوياً بطنه من شدَّة الجوع، ولم يثبت عنه أنَّه رَدَّ سائلاً قط[3].

روىٰ ابن عباس والسدي ومجاهد والكلبي وأبو صالح والواحدي والطوسي والثعلبي والطبرسي والماوردي والقشيري والثمالي والنقّاش والفتّال وعبيد الله بن الحسين وعلي بن حرب الطائي في تفاسيرهم: أنه كان عند علي بن أبي طالب أربعة دراهم من الفضة فتصدق بواحد ليلاً وبواحد نهاراً وبواحد سراً وبواحد علانيةً فنزل: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ».. الآية. فسمّي كل درهم مالاً وبشره بالقبول. رواه النطنزي في الخصائص.

---

١ – البقرة، الآية / ٢٧٤.

٢ – شرح نهج البلاغة ١ / ٢١، وانظر كتاب «سجع الحَمام» في حكم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام / ٢٠.

٣ – الدكتور محمد بكر اسماعيل، فقيه الأمة ومرجع الأئمة / ١٢٠.

تفسير النقاش وأسباب النزول: قال الكلبي: فقال له النبي: ما حملك علىٰ هذا؟ قال: حملني أن أستوجب علىٰ الله الذي وَعَـدَني.

فقال له رسول الله: ألا إن ذلك لك. فأنزل الله هذه الآية[١].

قال العلامة محمد باقر المجلسي عن الآية المباركة وهو يثبت نزولها بحق الإمام علي: روىٰ نزول هذه الآية في أمير المؤمنين (صلوات الله عـليه) بـهذه الجهة الطبرسي رحمه الله والزمخشري وسائر المفسرين عن ابن عباس، وقـال السيوطي في الدر المنثور: أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابـن أبي حاتم والطبراني وابن عساكر من طريق عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس قال: نزلت في علي بن أبي طالب كانت له أربعة دراهم فأنفق بـالليل درهماً وبالنهار درهماً سراً وعلانية.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن عوف مثله. وقال الطبرسي: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليه السـلام). فهذه الآية تدل علىٰ فضله (عليه السـلام) في السخاء الذي هو من أَشـرف مكارم الأخلاق، وأن الله قد قبل ذلك منه بأحسـن القبول، وأنزلها فيه ووصفه بأنه من الآمنين يوم القيامة بحيث لا يعتريه شيء من الخـوف والحـزن يـوم القـيامة، وهـذه مـن صـفات الأوليـاء والأصفياء..[٢].

معايير الاقتصـاد والتجارة

ليست أَربعة دراهم من الفضـة (أو أربعة دنانير كما في جملة من الأَخبار) بالشيء الكثير في ميزان الأَموال أو معايير الاقتصـاد والتجارة، إنها لَشيء يسير

---

١ – ابن شهرآشوب السروي، المناقب / فصل في المسابقة بالسخاء والنفقة في سبيل الله.
٢ – بحار الأنوار، ٣٦ / ٦٢ ـ ٦٣.

حقاً فلا يَستقطب الأنظار، وإنها لَنزر ضئيل بما للكلمة من معنىٰ فلا يلتفت اليه الملتفتون. ولكن الحَقَّ الذي لا يشوبه أدنىٰ ريب، والمعنىٰ الذي لا يصحُّ التنازع في محتواه أبداً: أن مقاييس العباد لتختلف اختلافاً جوهرياً عن مقاييس ربِّ الأرباب، فأربعة دراهم من الفضة التي أنفقها العبد الصالح الأوّاب لهي أكبر من تجارة الأثرياء واقتصاد المُتَموِّلين في معيار أَهل السماء، ما دام القلب خاشعاً لله وحده، وما دامت العين لا تنظر إلا اليه دون سواه، وما دام الضمير لا يمتلىء إلا بذكره وتقديسه وتسبيحه وطلب رضاه.

يقول المفكر المصري الكبير عبد الفتاح عبد المقصود: جاءه جزاء هذا الإحسان من عند الله آيةٌ كريمةٌ نزلت فيه وخَلَّدَت صَنيعه وسماحة كَفٍّ هي أحوج الىٰ السماحة من أَن تكون مسماحة «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً»[1].

وإذا ما تنبهنا الىٰ الآيات المباركة في سورة الإنسان التي تثني ثناء عظيماً وتعد بالجزاء الكريم علىٰ صنيع الإمام علي وفاطمة والحسن والحسين (سلام الله عليهم) في اشباع المسكين واليتيم والأسير من حيث آثروهم علىٰ أنفسهم وباتوا جياعاً، فسوف نرىٰ أن الانفاق عليهم لا يساوي أربعة دراهم من الفضة، ولكنه الإيثارُ الكبيرُ علىٰ النفس، نعم إنه الإيثارُ الكبيرُ علىٰ النفس الذي قدسه الله تعالىٰ في الكتاب المجيد وكفىٰ به تثميناً لا يُدرك وتبجيلاً لا يُضارع.

«إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ

---

١ – عبد الفتاح عبد المقصود، الإمام علي بن أبي طالب ١ / ٦٦. منشورات مكتبة العرفان ـ دار مكتبة التربية / بيروت.

يَعْمَلُونَ»[١].

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

بسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيـم

«وَ ٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَ ٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰٓ * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْأَخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ * فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ»[٢].

رواية في التفسـير

عن موسىٰ بن عيسىٰ الأَنصاري قال: كنت جالساً مع أمير المؤمنين بعد أن صلينا مع النبي «ص» العصر بهفوات، فجاء رجل اليه فقال له: يا أبا الحسن قد قصدتك في حاجة لي، أريد أن تمضي معي فيها الىٰ صاحبها.

فقال له: قل.

قال: إني ساكن في دار لرجل فيها نخلة، وانه يهيج الريح فيسقط من ثمرها بلح وبسر ورطب وتمر، ويصعد الطير فيلقي منه، وأنا آكل منه ويأكل منه

---

١ - السجدة، الآية / ١٥ ـ ١٧. ٢ - الليل، الآية / ١ ـ ٢١.

الصبيان من غير أن نبخسها بقصب أو نرميها بحجر، فاسأله أن يجعلني في حِل.

قال: انهض بنا فنهضت معه.

فجئنا الىٰ الرجل فيسلم عليه أمير المؤمنين علي بن أَبي طالب (ع) فرحّب وفرح به وسرَّ، وقال: فيم جئت يا أبا الحسن؟

قال: جئتك في حاجة.

قال: تقضىٰ إنشاء الله.

قال: هذا الرجل ساكن في دار لك في موضع كذا، ذكر أنَّ فيها نخلة، فانه يهيج الريح فيسقط منها بلح وبسر ورطب وتمر، ويصعد الطير فيلقي مثل ذلك من غير حجر يرميها به، أو قصبة يبخسها فاجعله في حلّ.

فتأبىٰ عن ذلك.

وسأله ثانية وأَقبل عليه في المسألة ويأبىٰ.

الىٰ ان قال: والله أنا أضمن لك عن رسول الله «ص» أن يبدلك بهذا حديقة في الجنة.

فأبىٰ عليه ورهقنا المساء، فقال له علي: تبيعنيها بحديقتي فلانة؟

فقال له: نعم.

فقال له: فاشهد لي عليك الله وموسىٰ بن عيسىٰ الأَنصاري أنك قد بعتها بهذا الدار.

قال: نعم أشهد الله وموسىٰ بن عيسىٰ أني قد بعتك. فالتفت عليّ الىٰ الرجل فقال له: قم فخذ الدار بارك الله لك، وأَنت في حل منها.

وسمعوا أَذان بلال فقاموا مبادرين حتىٰ صلوا مع النبي «ص» المغرب

وعشاء الآخرة، ثم انصرفوا الىٰ منازلهم.

فلما أَصبحوا صلىٰ النبي بهم الغداة وعَقَّب، فهو يعقب حتىٰ هبط عليه جبرئيل (عليه السلام) بالوحي من عند الله، فأدار وجهه الىٰ أَصحابه فقال: مَن فعل منكم في ليلته هذه فعلاً، فقد أنزل الله بيانها فمنكم أَحد يخبرني أو أُخبره؟

فقال له أمير المؤمنين علي بن ابي طالب: بل أَخبرنا يا رسول الله.

قال: نعم هبط جبرئيل فأقرأني عن الله السلام وقال لي: إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فعل البارحة فعلة.

فقلت لحبيبي جبرئيل: ما هي؟

فقال: اقرأ يا رسول الله.

فقلت: وما أقرأ؟

فقال: اقرأ «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ. الىٰ آخر السورة.. وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ»[1].

أَنت يا علي أَلست صدَّقت بالجنة، وتصدقت[2] بالدار علىٰ ساكنها، وبذلت الحديقة؟

قال: نعم يا رسول الله.

فقال: هذه سورة نزلت فيك، وهذا لك، فوثب الىٰ أَمير المؤمنين فقبَّل بين

---

١ - الليل، الآية / ١ ـ ٤، ثم الآية الأخيرة من السورة / ٢١.

٢ - في نسخة بحار الأنوار: وصدقت، والظاهر أنها تصحيف تصدَّقت كما يدل عليه السياق.

عينيه وضمَّه اليه، وقال له: أَنت أخي وأنا أخوك[١].

سبب النزول / رأي أهل السنة

ينقل علماء السنة روايتين في سبب نزول: «والليل اذا يغشىٰ ...».

الأُولىٰ: أنها نزلت في أبي بكر لما اعتق بلالاً الحبشي وأنقذه من يد أُمية بن أَبي خلف أحد طواغيت قريش ولقد قتله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في معركة بدر.

الثانية: انها نزلت في أبي الدحداح رجل من الأَنصار فقد رووا عن عكرمة عن عبد الله بن عباس بما مختصره: ان رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال وكان يمنعهم من أكل ما يسقط من التمر في دارهم، فشكىٰ الفقير حاله الىٰ النبي «ص» فأعطاه بها نخلة في الجنة، فقال: إن لي نخلاً وما فيها نخلة أعجب اليَّ ثمرةً منها. فلما امتنع صاحب النخلة قال أَبو الدحداح للنبي «ص»: أتعطيني ما أعطيت الرجل نخلة في الجنة إن أنا أخذتها؟

قال: نعم.

فلقي صاحب النخلة وساومه عليها بأربعين نخلة فأخذها، ثم ذهب الىٰ النبي فقال: يا رسول الله إن النخلة قد صارت في ملكي فهي لك، فذهب النبي الىٰ صاحب الدار فقال: إن النخلة لك ولعيالك[٢].

سبب النزول / رأي الشيعة

ينقل الشيعة في سبب نزلها ثلاث روايات:

---

١ - بحار الأنوار، ٤١ / ٣٧ ـ ٣٩.

٢ - انظر أبو الحسن الواحدي ت (٤٦٨ هجرية) أسباب النزول / ٢٩٩ ـ ٣٠٠، دار الكتب العلمية.

الأولىٰ: أنها نزلت في علي بن أبي طالب، كما نقلوا عن موسىٰ بن عيسىٰ الأَنصاري ورووا عن جعفر الصادق في قوله تعالىٰ: «الذي يؤتي ماله يتزكّىٰ» قال: ذالك أمير المؤمنين وهو قوله «ويؤتون الزكاة وهم راكعون» وقوله تعالىٰ: «وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزىٰ» ذاك رسول الله «ص» الذي ليس عنده من نعمة تجزىٰ ونعمته جارية علىٰ جميع الخلق.

الثانية: رواها عبد الله بن جعفر الحميري باسناده عن أبي الحسن الرضا: أن رجلاً كان لرجل في حائطة نخلة فكان يضربه (أو يضر به) فشكىٰ ذلك الىٰ رسول الله «ص» فدعاه فقال: أَعطني نخلتك بنخلةٍ في الجنة. فأبىٰ.

فسمع ذلك رجل من الأَنصار يكنىٰ أبا الدحداح، فجاء الىٰ صاحب النخلة فقال: بعني نخلتك بحائطي فباعه.

فجاء الىٰ رسول الله «ص» فقال: يا رسول الله قد اشتريت نخلة فلان بحائطي. قال رسول الله: فلك بدلها نخلة في الجنة.

فأَنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيّه: «وما خلق الذكر والأنثىٰ * إن سعيكم لشتىٰ * فأمّا من أعطىٰ واتقىٰ * وصدّق بالحسنىٰ» هو ما عند رسول الله «ص» فسنيسره لليسرىٰ الىٰ قوله: تردّىٰ[1].

الثالثة: الكليني باسناده عن أبي جعفر الباقر قال: مرَّ رسول الله برجل يغرس غرساً في حائط له، فوقف عليه فقال: ألا أدلك علىٰ غرس أثبت أَصلاً، وأَسرع ايناعاً، وأَطيب ثمراً وأبقىٰ؟

قال: بلىٰ فدلَّني يا رسول الله.

قال: إذا أصبحت وأمسيت فقل: سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلاّ اللهُ واللهُ

---

١ – سيد هاشم البحراني، البرهان، ٤ / ٤٧٠.

أَكبر، فان لك إن قلته بكل كلمة تسبِّح عشر شجراتٍ في الجنة من أنواع الفاكهة وهنَّ من الباقيات الصالحات.

فأنزل الله عزَّ وجلَّ آياتٍ من القرآن: «فأمّا من أعطىٰ واتقىٰ * وصدَّق بالحسنىٰ * فنيسِّره لليسرىٰ»[1].

أقول: تظل الرواية عن عبد الله بن عباس وعلي بن موسىٰ الرضا هي القاسم المشترك الوحيد، بين روايات السنة والشيعة في سبب النزول بهذا الصدد.

مناقشة وتحقيق في رأي الرازي

قال الرازي في تفسير قوله تعالىٰ من سورة الليل: «وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ»[2].

أَجمع المفسرون منا علىٰ أن المراد منه أَبو بكر (رض)، واعلم أن الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية، ويقولون إنها نزلت في حقّ علي بن أبي طالب، والدليل عليه قوله تعالىٰ: «وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ»[3]. فقوله: «وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ». إشارة الىٰ ما في تلك الآية من قوله «يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ». الىٰ أن قال: فثبت أن الأَتقىٰ المذكور هاهنا لا بد أن يكون أَفضل الخلق عند الله فنقول: لا بد وأن يكون المراد به أبا بكر، لأن الأُمة مجمعة علىٰ أن أفضل الخلق بعد رسول الله، إمّا أَبو بكر أو علي، ولا يمكن حمل هذه الآية علىٰ علىٰ بن أبي طالب فتعين حملها علىٰ أبي بكر، وإنَّما قلنا انه لا يمكن حملها علىٰ علي بن أبي طالب لأنه قال في صفة هذا الأَتقىٰ: «وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن

---

١ - سيد هاشم البحراني / البرهان، ٤ / ٤٧١.

٢ - الليل، الآية / ١٧ ـ ١٩. ٣ - المائدة، الآية / ٥٥.

نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ»، وهذا الوصف لا يصدق علىٰ علي بن أبي طالب، لأنه كان في تربية النبي «ص» لأنه أخذه من أبيه، وكان يطعمه ويسقيه، ويكسوه ويربّيه، وكان الرسول منعماً عليه نعمةً يجب جزاؤها، أما أَبو بكر فلم يكن للنبي عليه الصلاة والسلام نعمة دنيوية، فعلمنا أنَّ هذه الآية لا تصلح لعلي بن أبي طالب، وإذا ثبت أن المراد بهذه الآية من كان أفضل الخلق. وثبت أن ذلك الأَفضل من الأُمَّة إما أَبو بكر وإما علي، وثبت أن الآية غير صالحة لعلي، تعيَّن حملها علىٰ أبي بكر (رض) وثبت دلالة الآية أيضاً علىٰ أن أبا بكر أفضل الأمة[1].

أقول: لنا في مناقشة ما قاله الفخر الرازي وتحقيق ما ارتآه ما يلي:

أَولاً: ما ذكره الفخر من اجماع مفسري السنة علىٰ أن المراد به أَبو بكر غير صحيح لا سيما انه أوعز اجماعهم الىٰ الرواية في أبي بكر وقد علمنا أن للسنة روايتين في ذلك أنها نزلت في أبي بكر أو أنها نزلت في أبي الدحداح، وهذا يشير الىٰ أَن الفخر الرازي إما قد تجاهل الرواية الثانية المودعة في كتب التفسير عند علماء السنة، أو قد جهلها ولم يطلع اطلاعاً دقيقاً علىٰ رأي السنة فيها، وعلىٰ كل حال فإن أي الفرضين كان صحيحاً ومحققاً فان الفخر الرازي لم يذكر الرواية الثانية ولم يشر اليها.

ثانياً: نسب الفخر الىٰ الشيعة بأسرهم أنهم ينكرون الرواية في نسبتها سبب النزول الىٰ أبي بكر وأنهم يقولون بنزولها في علي بن أبي طالب، أقول: أمّا انكارهم الأَمر الأَول فانه واضح لا غبار عليه في كتب التفسير عندهم، وأمّا انهم بأسرهم يقولون بنزولها في علي بن أبي طالب، فهذا مما لا صحة له ولا دليل عليه، وقد علمنا قبل قليل أنهم ينقلون في تفسيرها ثلاث روايات: أَحدها عن إمام من أئمتهم الإمام علي بن موسىٰ الرضا (ع) أنها نزلت في أبي الدحداح،

---

١ – الفخر الرازي، التفسير الكبير ٣١ / ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

والثانية أيضاً عن إمام من أئمتهم وهو الإمام أَبو جعفر محمد بن علي الباقر أنها نزلت في رجل تصدق بحائط له، والثالثة أنها نزلت في علي بن أَبي طالب.

إذاً فأين رأي الرازي معقد اجماعهم؟ ومن صرّح له فيه؟ ومن أي كتاب من كتبهم التفسيرية أو الروائية أو غيرهما قد نقله؟

ألا يعني كلّ هذا أنَّ الرازي قد تسرع في نسبة الاجماع الىٰ السنة كما قد تسرع في نسبته الىٰ الشيعة! علىٰ أن كثرة ادعاء الاجماعات قد ابتلي به عدد كبير من العلماء، والفقهاء، ومفسري القرآن الكريم، والمؤرخين وأصحاب المقالات، قديماً وحديثاً. إما رغبةً في تأييد رأي قوم، وإما محاولة لنفي رأي آخرين، وإما تقليداً لمن تسرع في ذلك وادعىٰ الاجماع من دون تحقيق في الموضوع وتثبت في المسألة، والىٰ الله المشتكىٰ.

ثالثاً: بناءً علىٰ ما تقدم من كلام الرازي فانه فهم من قوله تعالىٰ: «وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزىٰ» بأن من نزلت فيه يتصف بأن لا أحداً له نعمة عليه من نعم الدنيا، فنفىٰ أن تكون الآية ونحوها نزلت في علي بن أَبي طالب، لأن الرسول «ص» يطعمه ويسقيه ويكسوه، علماً بأن الآية لا تعني ما فهمه أبداً، بل تعني أن مَن يؤتي ماله يتزكىٰ إنَّما يصنع ذلك قربةً الىٰ الله تبارك وتعالىٰ، وطلباً لفضله وجزائه، لا أنه يؤتىٰ ماله ليدٍ قد سلفت من الطرف المقابل فهو يعطيه مكافأة علىٰ حسن صنيعه، أي ان الدافع للعطاء ليس دافع مقابلة الجميل بالجميل الذي هو لون من ألوان أَداء الدين وإنَّما الدافع دافع التزلف الىٰ المولىٰ القدير عز وجل فهي علىٰ حَدِّ قوله تعالىٰ: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا»[1]. «مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً»[2]. وعلىٰ حَدِّ جميعِ الآيات التي تدعو الىٰ الانفاق في سبيل الله لا الىٰ هدف من الأَهداف حتىٰ

---

١ – الإنسان، الآية / ٩.
٢ – البقرة، الآية / ٢٤٥.

وإن كان جيداً في نفسه. ولو كان نفي الآيـة عن علي (عليه السلام) بسبب نعمة رسول الله «ص» عليه وانه كان يطعمه ويسقيه ويكسوه في الصغر نفياً صحيحاً إذاً يصح أيضاً أن تنفىٰ عن أبي بكر لأن أباه كان قد أنعم عليه في الصغر وكـان يطعمه ويسقيه ويكسوه، بل بناءً علىٰ فهم الرازي ينبغي ان ينفىٰ نزول الآيـة في أي إنسان علىٰ وجه الأَرض، لأنه ما من أحدٍ علىٰ وجه البسيطة إلاّ ولآخر نعمة عليه في الطعام والشراب وغيرها في سني الصغر علىٰ الحد الأَقل، حتىٰ رسول الله «ص» الذي كان في كفالة جده عبد المطلب ثم في كفالة عمه أَبي طالب أو أن أبا بكر كان ينفق عليه كما زعم الرازي في المطلب نفسه.

رابـعاً: قد أثبتنا قبل قليل أن الأَتقىٰ بمعنىٰ التقي وهذا لا يعني بالضرورة أنه أتقىٰ الناس وافضل الأَمة، ومن هذا المنطلق فان الآيـة المباركة سواء نزلت في أبي بكر، أو في علي، أو في أبي الدحداح، أو في ذلك الرجل الآخر الذي ذُكِر في الرواية عن أبي جعفر الباقر، فانه لا دلالة فيها علىٰ أنه خير الناس وأفضل الأَمة، حتىٰ وان كان في نفسه وحسب الأَدلة الأخرىٰ، أفضل الناس وأَتقاهم.

تحقيـق في معنىٰ الأتقىٰ والأشقىٰ

ما هو المقصود بالأَتقىٰ في قوله تبارك وتعالىٰ: «وسيجنبها الأتقىٰ» هل هو من يكون أتقىٰ الناس أجـمعين، فـيكون الفـرد الذي لا نـظير له فـي الايـمان والاستقامة والتقوىٰ، كما هو رأي الرازي وغيره، أم أنّ المقصود به التقي من دون نظر الىٰ تفضيله علىٰ سواه من الأَتقياء والصالحين، كما سنبينه ـ إن شاء الله تعالىٰ؟

إذا ما قلنا بالرأي الأول فيكون معنىٰ (وسيجنبها الأتقىٰ) أنّ أتقىٰ النـاس أجمعين ـ وهو منحصر بفرد واحد معين ـ سيجنب ناراً تلظّىٰ، وأما الآخرون من سائر الأَتقياء والأولياء والصديقين فلا يُجنّبون، كما يكون معنىٰ الآية السابقة من

نفس السورة المباركة (لا يصلاها إلا الأشقىٰ) أن فرداً واحداً معيناً سيصلىٰ ناراً تلظىٰ، وأما سائر المشركين والكفار والمنافقين وغيرهم فلا يصلونها.

وأحسب أن هذين الأمرين لا يصحّان بوجه من الوجوه التأويلية، السليمة والبعيدة عن التكلف واعتساف الطريق.

نقاشٌ مع العلامة الزمخشري

قال العلامة المفسر والأديب القدير جار الله محمود الزمخشري (من كبار أعلام المعتزلة): فإن قلت كيف قال: (لا يصلاها إلّا الأشقىٰ... وسيجنبها الأَتقىٰ) وقد علم كل شقي يصلاها، وكل تقي يجنبها، لا يختصّ بالصلي أشقىٰ الأشقياء، ولا بالنجاة أتقىٰ الأتقياء، وإن زعمت أنه نكَّر النار فأراد النار بعينها مخصوصة بالأشقىٰ، فما تصنع بقوله: (وسيجنبها الأتقىٰ) فقد علم أن أفسق المسلمين يجنب تلك النار المخصوصة، لا الأتقىٰ منهم خاصة؟ قال المؤلف: الآية واردة في الموازنة بين حالين: حال عظيم من المشركين، وحال عظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل: الأشقىٰ وجُعل مختصّاً بالصلي، كأنّ النار لم تُخلق إلّا له. وقيل الأتقىٰ، وجُعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تُخلق إلّا له[1]. انتهىٰ كلامه.

أقول: اذا ما حاولنا أن نطارد بحزم الصديقين وعزيمة الأحرار أشباحَ الخيال المجنَّح أمام أعيننا ومشاعرنا، فإننا سوف نرىٰ بوضوح وشفافية وبصيرة ثاقبة أن القرآن الكريم في غمار التحديد لقاعدة من يدخل النار من البشرية، سواء كانت ناراً مخصوصة حسب الاحتمال وإن كان بعيداً، أو النار المعهودة علىٰ الأرجح، كما أن القرآن الكريم في غمار تحديد قاعدة من ينجو من النار ويفوز

---

١ - الكشاف، ٤ / ٧٦٣ ـ ٧٦٤.

بالابتعاد عن مباشرتها ولقياها، وليس مجرد ضرب من البلاغة العائمة، التي تصرف المعنىٰ عن أساسه، وتهدم أركان القاعدتين التي يجهد القرآن في إرسائها بأرض صُلبة عنيدة، ولو أن ما يقوله العلامة الزمخشري كان صحيحاً، لأصبحت القاعدة الأولىٰ وكأنها لا تشمل إلّا فرداً واحداً من أهل النار، وأصبحت القاعدة الثانية وكأنها لا تشمل إلّا فرداً واحداً ينجو من عذاب النار. وفي كل ذلك توهين شديد للانذار الرباني العظيم، الذي يقضُّ المضاجع ويحذِّر من مغبة الضلال، ويدعو الىٰ التمسك الجادّ والشديد بالتقوىٰ التي هي الطريق الوحيد للفوز والنجاة والنجاح.

اسم التفضيل

نأتي بهذا الكلام من علم النحو من أجل استيضاح أكثر لمعنىٰ الأشقىٰ والأتقىٰ الواردين في سورة الليل، واللذين جاءا بصيغة اسم التفضيل. فاعلم أنه يراد من اسم التفضيل ـ غالباً ـ التدليل علىٰ أن شيئين اشتركا في صفة، وأن أحدهما زاد علىٰ الآخر فيها، ومثال ذلك زيد أعلم من عمرو وأكرم وأحلم، ومريم بنت عمران فُضلىٰ نساء زمانها وكبراهن.

هٰذا ويراد أحياناً من اسم التفضيل: ثبوت الوصف لمحلّه من دون نظر الىٰ التفضيل، ومثال ذلك قوله تعالىٰ: «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ»[1]. وقول علي بن أبي طالب: اللهم أبدلني بهم خيراً لي منهم، وأبدلهم بي شراً لهم مني. وطبقاً لهذا فمن الممكن أن لا يراد من الأشقىٰ والأتقىٰ إلّا ثبوت الوصف لمحله من دون نظر الىٰ التفضيل.

---

١ – الروم، الآية / ٢٧.

المحصلة النهائية

إن المقصود بالأشقىٰ والأتقىٰ: الشقي والتقي، مهما كان محله من الشقاء أو التقوىٰ. وإنما أبعدناهما عن التفضيل؛ لئلا يكون المعنىٰ الاصطلاحي بالنار: الاقتصار علىٰ دخول فرد واحد فيها، أو معنىٰ التجنيب عن النار: الاقتصار علىٰ واحد أيضاً ـ كما مرَّ علينا.

وإذا لم يكن المراد من الأشقىٰ والأتقىٰ: الشقي والتقي بمعناهما الشخصي، فإن المراد بهما: الشقي والتقي بمعناهما النوعي. أي أن هناك فرقاً شتىٰ: فرقة المشركين وفرقة الكافرين وفرقة المنافقين وفرقة المؤمنين.. وفرقة المؤمنين وحدها من بين هذه الفرق هي الأتقىٰ، وهي التي تنجو من النار، وهكذا بالنسبة الىٰ معنىٰ الأشقىٰ، فحزب اللامؤمنين الذي يضم فرقاً شتىٰ هو الحزب الأشقىٰ الذي يصلىٰ ناراً تلظّىٰ.

اللهمَّ صلِّ علىٰ رسولك الأَمين محمد وآل محمد، وأعذْ نَوايانا وأخلاقَنا أَن تكونَ كَنوايا وأخلاقِ أهلِ النارِ في الدنيا، وأَعِذ نفوسَنا وأجسامَنا أن تحشرَ مع نفوسِ وأجسامِ أهلِ النارِ في الآخرة. اللهم ارزقنا الجَنة واجعلنا من أفاضلِ أَهليها، في مُستَقَرِّ رحمتِك يا أرحمَ الراحمين، وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله الطيبين وصحبه الميامينَ وسلَّمَ تسليما.

تعدُّد النزول

هل أن الكلام في قوله تعالىٰ: «وسيجنبها الأتقىٰ» متصل بما قبله، فهو جزء

من المدح والثناء علىٰ من كان سبباً للنزول، أم أنه شيء آخر كما نحتمله احتمالاً قوياً، وأن سبب النزول هنا يختلف عما قبله. وبناءً علىٰ ما نميل اليه، يمكن الجمع بين بعض الروايات الواردة في الباب، ولولا هٰذا الجمع لوقع التعارض ما بينها بلا ريب، فيكون من نزلت فيه أوائل سورة الليل، غير مـن نـزلت فـيه وسـيجنبها الأتقىٰ.. وحتىٰ لو احتملنا أن ذلك الشخص قد عمل عملين طيبين كبيرين عند الله تبارك وتعالىٰ، فمدحه الله في أوائل السورة، كما مدحه واصفاً إياه بالأتقىٰ، الذي يؤتي ماله يتزكىٰ، ولكن هٰذا يعني أن العمل الطيب الأول، غـير العـمل الطـيب الثاني، مما يستدعي اثنينية سبب النزول، وهو الموافق لما نقول، ولكن الاحتمال في نفسه احتمال بعيد أي احتمال كون الآيات هذه نزلت في رجل واحـد قد عمل عملين كريمين مختلفين. ونحسب أن فائدة الجمع المذكور الذي اقترحناه، فائدة لا تخفىٰ علىٰ اللبيب، فالتفت وتأمَّـل.

وما أحرىٰ أن يكون قوله تعالىٰ: (وسيجنبها الأتقىٰ الذي يؤتي ماله يتزكىٰ) قد نزل بحق علي بن أبي طالب، وان ما يروىٰ عن موسىٰ بن عيسىٰ الأنصاري وجعفر الصادق (عليه السـلام)، يقع في هٰذا الحيِّز من الآيات، لا سيما أنَّه مدعوم بقوله تبارك وتعالىٰ: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّـذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّـذِينَ يُـقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ»[1]. الذي اشتهر بين المفسرين من علماء الإسلام جميعاً أنه نزل بحقّ الإمام علي بن أبي طالب. كما ان الآيات من أوائل سورة الليل قد نزلت في شخص آخر، سواء كان زيداً أو عمراً مما تذكره أكثر من رواية وخبر.

وينبغي التنبيه والفات النظـر الىٰ المروي عن الإمام علي بن موسىٰ الرضا (عليه الســلام)، الذي يذكر سبب النزول ثم يتعقّبه بقوله: فأنزل الله علىٰ نـبيه:

---

١ – المائدة، الآية / ٥٥.

«وما خلق الزوجين الذكر والأنثىٰ. إن سعيكم لشتّىٰ. فأمّا من أعطىٰ[1] واتقىٰ. وصدَّق بالحسنىٰ[2]. فسنيسره لليسرىٰ..». من حيث يشير الىٰ أن معناه: أن كلما جاء بعد كلمة «تردىٰ» ومنه سيجنبها الأتقىٰ، الذي يؤتي ماله يتزكىٰ، شيء آخر غير متصل بما قبله من النزول.

كما ان جميع روايات أهل السنّة في البَيْن، ما بين رواية تشعر بصحة ما نذهب اليه، وما بين رواية تؤكد صحة ذلك، وسنذكرها إن شاء الله واحدة واحدة نقلاً عن كتاب أسباب النزول للواحدي.

١ ـ رواية عكرمة عن عبد الله بن عباس التي جاء في آخرها: فأنزل الله تبارك وتعالىٰ: «والليل اذا يغشىٰ* والنهار اذا تجلىٰ* وما خلق الزوجين الذكر والأنثىٰ* إن سعيكم لشتىٰ».

٢ ـ رواية ابن اسحاق عن عبد الله التي جاء في آخرها: فأنزل الله تبارك وتعالىٰ: «والليل اذا يغشىٰ..» الىٰ قوله: «إن سعيكم لشتىٰ».

٣ ـ رواية عامر بن عبد الله عن بعض أهله التي جاء في آخرها: فتحدث ما أنزل هؤلاء الآيات إلا فيه (أي أَبي بكر) وفيما قاله أبوه: «فأما من أعطىٰ وأتقىٰ وصدق بالحسنىٰ...».

٤ ـ رواية من سمع ابن الزبير التي جاء في آخرها: فنزلت فيه: (وسيجنبها الأتقىٰ الذي يؤتي ماله يتزكىٰ...).

٥ ـ رواية عطاء عن ابن عباس وفي آخرها: فأنزل الله تعالىٰ: «وما لأحد

---

١ – يعني النخلة.

٢ – هو ما عند رسول الله.

عنده من نعمة تُجزىٰ * إلّا ابتغاء وجه ربِّه الأَعلىٰ»[١].

مطارحَـة فكريَّة جميـلة

لا ندري علىٰ وجه الدقة ما مدىٰ اعتقاد القراء الكـرام بـصحة رأي الفـخر الرازي، أوبصحة رأينا حول الآية الكريمة وسِـرِّ نزولها؛ ولكنهم إذا ما رغبوا في مزيد من البحث والتتبع؛ وصولاً الىٰ ما يطمحون اليه من الكمال أو شبه الكمال، فلسوف نحيلهم الىٰ مماحكة أو مطارحة فكرية جميلة، قد وقـعت فـي العـصر العباسي بين عالِمَين مرموقين وأديبين متعاصرين من علماء المذهب المـعتزلي وأُدبائه، ألا وهما أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وأبو جعفر الاسكافي، وقد وردت المطارحة ما بين العلمين بالصورة التالية فلنستمع اليها سمع رعاية لا سمع رواية (فإن رُواةَ العِلمِ كَثير ورعاتَه قَليل) كما يقول الإمام علي بن أبي طالب.

قال الجـاحظ: ثم أعتق أبو بكر بعد ذلك جماعة من المعذبين في الله وهم ست رقاب منهم: بلال وعامر بن فهيرة وزنيرة النهدية وابنتها، ومرَّ بجارية يعذبها عمر بن الخطاب؛ فابتاعها منه، وأعتقها، وأعتق أبا عيسىٰ؛ فأنزل الله فيه: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطىٰ وَاتَّقىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرىٰ». إلىٰ آخر السورة.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما بلال وعامر بن فهيرة، فـإنما أعـتقهما رسول الله «ص»، روىٰ ذلك الواقدي وابن إسحاق وغيرهما، وأما باقي مواليهم الأربعـة، فإن سامحناكم في دعواكم، لم يبلغ ثمنهم في تلك الحال ـ لشدة بغض مواليهم لهم ـ إلا مائة درهم أو نحوها، فأي فخر في هذا؟ وأما الآية فـإن ابـن عباس قال في تفسيرها: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطىٰ وَاتَّقىٰ وَصَـدَّقَ بِـالْحُسْنىٰ فَسَـنُيَسِّرُهُ

---

١ - أسباب النزول / ٢٩٩ ـ ٣٠١.

لِلْيُسْرىٰ». أي لأن يعود. وقال غيره: نزلت في مُصْعَب بن عُمَير.

قال الجاحظ: وقد علمتم ما صنع أبو بكر في ماله، وكان ماله أربعين ألف درهم، فأنفقه في نوائب الإسلام وحقوقه. ولم يكن خفيف الظهر قليل العيال والنسل، فيكون فاقد جميع اليسارين، بل كان ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم، ويعول والديه وما ولدا، ولم يكن النبي «صلىٰ الله عليه وسلم» قبل ذلك عنده مشهوراً فيخاف العار في ترك مواساته؛ فكان إنفاقه علىٰ الوجه الذي لا نجد في غاية الفضل مثله، ولقد قال النبي «ص»: ما نفعني مال كما نفعني مال أبي بكر.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أخبرونا علىٰ أي نوائب الإسلام أنفق هٰذا المال، وفي أي وجه وضعه؟ فإنه ليس بجائز أن يخفىٰ ذلك ويدرس حتىٰ يفوت حفظه، وينسىٰ ذكره. وأنتم فلم تقفوا علىٰ شيء أكثر من عتقه بزعمكم ست رقاب، لعلها لا يبلغ ثمنها في ذلك العصر مائة درهم. وكيف يدعىٰ له الإنفاق الجليل وقد باع من رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» بعيرين عند خروجه إلىٰ يثرب، وأخذ منه الثمن في مثل تلك الحال، وروىٰ ذلك جميع المحدثين. وقد رويتم أيضاً: أنه كان حيث كان بالمدينة غنياً موسراً، ورويتم عن عائشة أنها قالت: هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم، وقلتم إن الله تعالىٰ أنزل فيه: «وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبىٰ[1]». قلتم: هي في أبي بكر، ومسطح بن أثاثة. فأين الفقر الذي زعمتم أنه أنفق حتىٰ تخلل بالعباءة؟ ورويتم: أن لله تعالىٰ في سمائه ملائكة قد تخللوا بالعباءة، وأن النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» رآهم ليلة الإسراء فسأل جبرائيل عنهم فقال: هؤلاء ملائكة تأسوا بأبي بكر بن أبي قحافة صديقك في الأرض؛ فإنه سينفق عليك ماله؛ حتىٰ يخلل عباءته في عنقه.

---

١ – النور، الآية / ٢٢.

وأنتم أيضـاً رويتم: أن الله تعالىٰ لما أنزل آية النجوىٰ فقال: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُـمْ..»[1]. الآية. لم يعمل بها إلا علي بن أبي طالب وحده، مع إقراركم بفقره وقلة ذات يده. وأبو بكر في الحال التي ذكرنا من السعة أمسك عن مناجاته؛ فعاتب الله المؤمنين في ذلك فقال: «أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ..»[2]. فجعله سبحانه ذنباً يتوب عليهم منه وهو إمساكهم عن تقديم الصدقة. فكيف سخت نفسه بإنفاق أربعين ألفا، وأمسك عن مناجاة الرسول، وإنما كان يحتاج فيها إلىٰ إخراج درهمين. وأما ما ذكر من كثرة عياله ونفقته عـليهم فليس في ذلك دليل علىٰ تفضيله؛ لأن نفقتـه علىٰ عياله واجبة، مع أن أربـــاب السيـرة ذكروا: أنه لم يكن ينفق علىٰ أبيه شيئا، وأنه كان أجيراً لابن جدعان علىٰ مائدته يطـرد عنها الذبان[3].

وبهذا المنطلـق الوسيع نكون قد فـتحنا أمـام القـراء الأفـاضل، ونـاشدي الحقيقة، أجواءً فسيحةً من حُريَّـة الاصطفاء والاجتباء؛ ليختاروا بأنفسهم وطوع ارادتهم ما يستحسنون، وما يـرجـحون، ومـا يـريدون، مـن الآراء والأفكـار والتفاسير، وَفق ما هو المؤمل منهم، وطبقاً لما تملي عليهم ديـانتهم وصـفحات ضمائرهم، من حب العدالـة والانصاف، ومن التمسك العملي الصـادق بأهداب الموضوعية في الاصطفاء الواعي والاجتبـاء الغالي. والله وليُّ التوفـيق.

«وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْـوَعِيدِ لَـعَلَّهُمْ يَـتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً»[4].

---

١ – المجادلة، الآيـة / ١٢.
٢ – المجادلة، الآية / ١٣.
٣ – ابن أبي الحـديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ١٣ / ٢٧٣ ـ ٢٧٥.
٤ – طـه، الآيـة / ١١٣.

* * * * *

قال الله عز وجل:

بسمِ اللهِ الرَّحْمٰن الرَّحيـــم

« إنَّ الأبْرارَ يَشْرَبونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ يُفَجّرونَها تَفْجيراً * يوفونَ بِالنَّذرِ وَيَخافونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطيراً * وَيُطْعِمونَ الطَّعامَ علىٰ حُبِّهِ مِسْكيناً وَيَتيماً وَأسيراً * إنَّما نُطْعِمُكُم لِوَجْهِ اللهِ لانُـريدُ مِـنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكوراً * إنّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبوُساً قَمْطريراً * فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقّاهُمْ نَضْرَةً وسُروراً * وَجزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَريراً * مُـتَّكِئينَ فـيها علىٰ الأرائِكِ لايَرَوْنَ فيها شَمْساً وَلا زَمْهَريراً * وَدانيةً عَـلَيْهِمْ ظِـلالُها وَذُلِّـلَتْ قُطوفُها تَذْليلاً * وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنيَةٍ مَنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَواريراً * قَواريرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّروهاتَقْديراً * وَيَسْقَوْنَ فيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْـجيلاً * عَـيْناً فـيها تُسَمّىٰ سَلْسَبيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْـدانٌ مُـخلَّدونَ إذا رَأَيْـتَهمْ حِسَـبْتَهُمْ لُـؤلؤاً مَنثوراً * وَإذا رَأَيْتَ نَعيماً وَمُلكاً كَبيراً * عٰلِيَهُمْ ثيابُ سُنْدُسٍ خُـضْرٌ واسْـتَبْرَقٌ وَحُلّوا أساورَ مِن فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ ربُّهُم شراباً طَهوراً * إنَّ هٰذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وكانَ سَعْيُكُم مَشكوراً »[1].

---

١ – الانسـان، الآية / ٥ ـ ٢٢.

تفسـير سورة الإنسـان

عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنه)، وقد ذكـره الثـعلبي وغـيره مـن مفسري القـرآن المجيد في قوله تعالىٰ: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ويَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً».

قال: مرض الحسن والحسين فعادهما جدهما رسول الله «ص» ومعه أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) وعادهما عامة العرب فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت علىٰ ولديك نذراً وكل نذر لا يكون له وفاء فليس بشيء.

فقال علي (عليه السلام): إن برأ ولداي مما بهما صمت لله ثلاثة أيام شكرا.

وقالت فاطمة (عليها السـلام): إن برأ ولداي مما بهما صمت لله ثلاثة أيام شكـــرا.

وقالت جارية يقال لها فضـة: إن برأ سيداي مما بهما صمت لله ثلاثة أيام شـكرا.

فأُلبس الغلامان العافية وليس عند آل محمد قليل ولا كثير.

فانطلق أمير المؤمنين (ع) إلىٰ شمعون الخيبري وكان يهودياً فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير، وفي حديث المزني عن ابن مهران الباهلي فانطلق إلىٰ جار له من اليهود يعالج الصوف يقال له شمعون بن حانا فقال له: هل لك أن تعطيني جزة من صفوف تغزلها لك بنت محمد «ص» بثلاثة أصوع من شعير؟ قال: نعم.

فأعطاه فجاء بالصوف والشعير فأخبر فاطمة بذلك فقبلت وأطاعت.

قالوا: فقامت فاطمة (ع) إلىٰ صاع فطحنته واختبزت منه خمسة أقـراص لكل واحد منهم قرص، وصلى علي (ع) المغرب مع رسول الله «ص» ثم أتـىٰ المنزل فوضع الطعام بين يديه إذ أتاهم مسكين فوقف بـالباب وقـال: السـلام عليكم يا أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من

موائد الجنة. فسمعه علي فقال:

فـــاطِمُ ذاتَ المـــجدِ واليَـقينْ يـــا بـــنتَ خـيرِ النـاسِ أَجـمعينْ
أَمـــا تَـــرَيْنَ البـــائسَ المسكـــينْ قـــد قـــام بـــالباب له حَـــنينْ
يشكـــو إلىٰ اللـــه ويســـتكينْ كُـــلَّ امـــرىءٍ بكســـبه رهـــينْ
وفـــاعلُ الخـــيراتِ يَســـتبينْ مَـــوعِدُهُ جَـــنةُ عِـــلـيينْ
حَـــرَّمَها اللهُ عـــلىٰ الضـــنينْ وللـــبخيل مـــوقف مـــهينْ
تـــهوي بـــه النـــارُ إلىٰ سِـــجِّينْ شَـــرابُـــهُ الحَـــميمُ والغِـــسلينْ

فقالت فاطمة (عليها السلام): ما بِيَ مِن لُؤمٍ ولا ضَراعة[1].

وأعطوه الطعام ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا إلا الماء القراح.

فلما كان اليوم الثاني طحنت فاطمة (عليها السلام) صاعاً واختبزته وأتىٰ علي (عليه السلام) من الصلاة ووضع الطعام بين يديه فأتاهم يتيم فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد يتيم من أولاد المهاجرين استشهد والدي يوم العقبة أطعموني أطعمكم الله علىٰ موائد الجنة.

فسمعه علي وفاطمة فأعطوه الطعام ومَكَثُوا يومين وليلتين لم يذوقوا إلا الماء القراح.

فلما كان في اليوم الثالث قامت فاطمة (ع) إلىٰ الصاع الباقي فطحنته واختبزته، وصلىٰ علي (ع) مع النبي «ص» المغرب ثم أتىٰ المنزل فوضع الطعام بين يديه إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد تأسروننا ولا تطعموننا أطعموني فإني أسير محمد أطعمكم الله علىٰ موائد الجنة.

---

١ – في خبر مشهور: فانشأت فاطمة (عليها السلام) تقول:

أَرجـــو إذا أُطـــعمت ذا المَـجاعة أن أَدخـــلَ الخـــلدَ وَلِـــي شَـــفَاعة

فسمعه علي فآثره وآثروه ومكثوا ثلاثة أيـام ولياليها لم يـذوقوا سـوىٰ المـاء[1].

فلما كان في اليوم الرابع وقد قضوا نذرهم أخذ علي الحسن بـيده اليـمنىٰ والحسين باليسرىٰ وأقبل نحو رسول الله «ص) وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، فلما بصر به النبي «ص» قال: يا أَبا الحسن ما أشد ما يسوؤني ما أرىٰ بكم انطلق إلىٰ ابنتي فاطمة. فانطلقوا إليها وهي في محرابها تصلي قـد لصـق بـطنها بظهرها من شدة الجوع وغارت عيناها فلما رآها النبي «ص» قال: وا غوثاه بالله يا أهل بيت محمد تموتون جوعاً!

فهبط جبرئيل (ع) وقال: خذ يا محـمد هنأك الله في أهل بيتك.

قال: وما آخذ يا جبرئيل؟

فأقرأه هَلْ أَتىٰ عَلَى الإِنْسانِ إلىٰ قوله إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزٰاءً ولا شُكُوراً إلىٰ آخر السورة.

قال الخطيب الخوارزمي حاكياً عنه وعن الراونـدي وزادنـي ابـن مـهران الباهلي في هذا الحديث: فوثب النبي «ص» حتىٰ دخل علىٰ فاطمة (ع) فـلما رأىٰ ما بهم انكب عليهم يبكي وقال: أنتم منذ ثلاث فيما أرىٰ وأنا غافل عنكم. فهبط جبرئيل بهذه الآيات «إِنَّ الأَبْرٰارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كٰانَ مِزٰاجُهٰا كٰافُوراً* عَيْناً يَشْرَبُ بِهٰا عِبٰادُ اللّٰهِ يُفَجِّرُونَهٰا تَفْجِيراً» قال: هي عين في دار النـبي «ص» تفجر إلىٰ دور الأنبياء والمؤمنين.

وروىٰ الخطيب في هذا رواية أخرىٰ وقال في آخرها: فنزل فيهم ويُطْعِمُونَ

---

١ - تذكر بعض الأخبار أن إطعام المسكين واليتيم والأسير إنما كان في يوم واحـد فـبقي علي وأهل بيته (عليهم السلام) جياعاً الىٰ اليوم الثاني، وكأن هذا هو الأصح وقد تعرضنا لذلك في كتابنا (تفسير القرآن لدىٰ الإمام زين العابدين).

الطَّعامَ عَلىٰ حُبِّهِ أي علىٰ شدة شهوة مِسْكِيناً قرص ملة والملة الرماد ويَتِيماً خزيزة وأَسِيراً حبيساً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ يخبر عن ضمائرهم لِوَجْهِ اللّٰهِ يقول إرادة ما عند الله من الثواب لا نُرِيدُ مِنْكُمْ يعني في الدنيا جَزَاءً ثوابا ولا شُكُوراً.

قلت: الضمير في حبه يجوز أن يعود إلى الطعام كما ذكر ويجوز أن يعود إلىٰ الله تعالىٰ فإن إطعامهم إنما كان خالصاً لوجهه. وهذه السورة نزلت في هذه القضية بإجماع الأُمة لا أعرف أحداً خالف فيها[1].

غايـة الإيثار

إذا بقي الإنسان صائماً الىٰ الليل يكابد الجوع منتظراً تناول شيء من الطعام في أوانه، حتىٰ إذا حضر الطعام وتحرَّكت رغبة النفس إليه وهَمَّ بالأكل فإذا بمحتاج من المحتاجين يسأله بذل طعام ليس لديه غيره أبداً فإن هٰذا الصائم بتقديم طعامه الوحيد إليه يُعَدُّ في الشريعة وفي العرف الاجتماعي كذلك من المؤثرين علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة.

هناك إنسان آخر حاله في الصيام وفي مكابدة الجوع مثل حال الشخص المذكور وهكذا حاله في انتظار شيء من الطعام، إلا أن الفارق بينهما أنه بعد ذلك الانتظار وبعد تقديم طعامه للمحتاج وصبره علىٰ شدة الجوع قد صنع له طعام آخر حتىٰ إذا أوشك علىٰ تناوله إذا بمحتاج من الناس يطلب منه تقديم طعامه إليه ويصبر هذا الصائم علىٰ مضض الجوع مرة ثانية. فإن هذا الصائم بتقديم طعامه

---

١ - انظر علي بن عيسىٰ الاربلي، كشف الغمة ١ / ٣٠٢ ـ ٣٠٤، والزمخشري، تفسير الكشاف ٤ / ٦٧٠، ومحمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود ٩ / ٧٣، والثعلبي، الكشف والبيان ـ نسخة خطية ـ.

الوحيد إليه يُعَدُّ في الشريعة وفي العرف الاجتماعي كذلك من المـؤثرين عـلىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، إلا أنه أكثر إيثاراً وأصـبر علىٰ طلب رضوان الله تعالىٰ من الشخص الأول.

هناك إنسان آخر حاله في الصيام وفي مكـابدة الجـوع مـثل حـال هـذا الشخص الثاني وهكذا حاله في انتظار شيء من الطعام بل أطول منه انتظاراً، إلا أن الفارق بينهما أنه بعد تقديم طعامه للمحتاج وصبره علىٰ شدة الجوع وطـول الانتظار قد صنع له طعام للمرة الثالثة حتىٰ إذا أوشك علىٰ تناوله الطعام ومدَّ يده إليه إذا بطارقٍ للباب يلتمس منه أن يكرمه بطعامه ويبقىٰ هو متضوراً من طعنات سكاكين الجوع، فإن هذا الصائم بتقديم طعامه الوحيد إليه وللمرة الثالثة يُعَدُّ في الشريعة وفي العرف الاجتماعي كذلك من المؤثرين علىٰ أنفسهم ولو كـان بـهم خصاصة، إلا أنه أكثر إيثاراً وأصبر علىٰ طلب رضوان الله تعالىٰ من الإنسـانين المِثالِيين الأول والثاني.

هناك إنسان رابع حاله في الصيام وفي مكابدة الجوع وفي طول الانـتظار مثل حال الشخص الثالث، إلا أن الفارق بينهما أنه لم يؤثر المحتاج بطعامه هـو فحسب وإنما يرىٰ امرأته وطفليه وخادمتهم يصنعون كـصنيعه ويشـرح صـدره سروراً وحبوراً ما يراه من صنيعهم وهم يجودون بطعام للمرة الثالثة ولم تزل أسنة الجوع شُرَّعاً في صدورهم بل في نياط قلوبهم، فإن هذا الصائم بتقديم طـعامه الوحيد إليه وللمرة الثالثة وفرحه الغامر لما يعاينه من الكرم الخارق لعياله يُـعَـدُّ في الشريعة وفي العرف الاجتماعي كذلك من المؤثرين علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، إلا أنه أكثر إيثاراً وأصبر علىٰ طلب رضوان الله تعالىٰ مـن الإنسـان المثالي الأول ومن الثاني ومن الثالث. فهل نحبُّ أن نعرف من هٰذا الإنسان الرابع أم نحب أن نتجاهله ونتنكَّر لخصائصه وفضائله في سبيل أن يتضور من الحرمان

والمظلومية والجحود لمناقبه أقسىٰ مما تضور من طعنات الجوع ولهيب الانتظار من أجل الإنسان!

إنَّ هٰذا الإنسانَ العظيمَ هُوَ الذي يُشَرِّفُ الإنسانيةَ ويرفعُ شأنَها أن يُعَدَّ من جنسها. وإنَّ هٰذا الإنسانَ العظيمَ هُوَ الذي الذي لم يحدِّثنا القرآن الكريم عن أفضل منه كرماً وأعظم إيثاراً إنما هو إمام المحرومين والمظلومين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه سلام الله وتحياته الزاكيات).

«وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً»[1].

*****

قال الله عز وجل:

بسمِ اللهِ الرَّحْمٰن الرَّحيـــم

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذٰلِك خَيْرٌ لَكُمْ وأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وتَابَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وأَطِيعُوا اللّٰهَ ورَسُولَهُ واللّٰهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». سورةُ المجَادلة الآية / ١٢ ـ ١٣.

تفْسير آية المناجاة

قال شريك والليث والكلبي وأبو صالح والضحاك والزجاج ومقاتل بن

---

١ - الإسراء، الآية / ١٩.

حبان ومجاهد وقتادة وابن عباس: كانت الأغنياء يكثرون مناجاة الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» فلما نزل قوله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً»... انتهَوا.

فاستقرض علي (عليه السلام) ديناراً وتصدق به، فناجىٰ النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» عشر نجوات، ثم نسخته الآية التي بعدها.

الواحدي في أسباب نزول القرآن والوسيط أيضا، والثعلبي في الكشف والبيان، ورواه علي بن علقمة ومجاهد: أن علياً قال: إنَّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا عمل بها أحد بعدي. ثم تلا هذه الآية.

جامع الترمذي وتفسير الثعلبي واعتقاد الأشنهي عن الأشجعي والثوري وسالم بن أبي حفصة وعلي بن علقمة الأَنماري عن علي (عليه السلام) في هذه الآية: فَبِي خفَّف الله ذلك عن هذه الأمة.

وفي مسند الموصلي: فَبِه خفف الله عن هذه الأمة. وزاد أبو القاسم الكوفي في الرواية: أن الله امتحن الصحابة بهذه الآية، فتقاعسوا كلهم عن مناجاة الرسول، فكان الرسول احتجب في منزله عن مناجاة أحد إلا من تصدق بصدقة...

وقال القاضي الطرثيثي: إنهم عصوا في ذلك إلا علي فنسخه عنهم يدل عليه قوله: «فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ». ولقد استحقوا العذاب لقوله: أَأَشْفَقْتُمْ!!

وقال مقاتل بن حبان: كان ذلك عشر ليال وكانت الصدقة مفوضة إليهم غير مقدرة. وروىٰ الثعلبي عن أبي هريرة وابن عمر أنه قال: قال عمر بن الخطاب: كان لعلي ثلاث، لو كان لي واحدة منهن كانت أحبَّ إليَّ من حمر النعم: تزويجه

فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوىٰ[١].

المناجاة عشر مرّات

فرات معنعنا عن ابن عمر قال: واللهِ لا أحدثكم إلا بما رأت عيني وسمعته أُذني [في علي] أنه لما نزلت هذه الآية: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً». فنظرت إليه وقد ناجىٰ رسولَ الله «ص» عشر مرات، فأول مرة ناجاه دفع إليه ديناراً، وكلما ناجاه قدَّم بين يدي نجواه، وما فعل ذلك أحد من الناس[٢].

وفي شواهد التنزيل للحسكاني: حدثنا أبو بكر، عن سفيان حدثنا سليمان الأحول، عن مجاهد، قال: لما نزل: «إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ» كان الرجل لا يناجي النبيَّ حتىٰ يتصدق بدينار، فكان علي بن أَبي طالب أول من تصدق بدينار وناجىٰ النبي «ص»، ثم نزلت الرخصة: «أَأَشْفَقْتُمْ». الآية، ورواه عن ليث جماعة سوىٰ هؤلاء، وشبلُ بن عباد عن ابن أبي نجيح. وحبانُ عن ليث عن مجاهد[٣].

وفي شواهد التنزيل: وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري أخبرنا أبو بكر الحافظ أخبرنا أبو أحمد الحافظ أخبرنا محمد بن الحسين الخثعمي، حدثنا عباد بن يعقوب حدثنا علي بن هاشم، عن محمد بن عبيد الله، عن عبد الله بن عبد الرَّحْمٰن الحزمي عن أبيه عن أبي أيوب الأنصاري قال: نزلت هذه الآية في علي «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ..». إن عليا ناجىٰ النبي «ص» عشر

---

١ – السروي، المناقب / فصل في المسابقة بالسخاء والنفقة في سبيل الله.

٢ – فرات، تفسير فرات / ٤٦٩ – ٦١٤.

٣ – الحسكاني، شواهد التنزيل / ٩٦٥.

نجوات، يتصدق في كل نجوة بدينار[١].

قال أبو علي الطبرسي (رحمه الله): إن هذه الآية نزلت في الأغنياء؛ وذلك أنهم كانوا يأتون النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» فيكثرون مناجاته؛ فأمر الله سبحانه بالصدقة عند المناجاة، فلما علموا ذلك انتهوا عن مناجاته، فنزلت آية الرخصة.

وهذه فضيلة لم يدركها إلا أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد وردت في ذلك روايات منها ما رواه محمد بن العباس (رحمه الله) عن علي بن عتبة ومحمد بن القاسم قالا: حدثنا الحسين بن الحكم عن حسن بن حسين عن حبان بن علي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله عز وجل: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً». قال: نزلت في علي (عليه السلام) خاصة، كان له دينار فباعه بعشرة دراهم، فكان كلما ناجاه قدم درهماً حتىٰ ناجاه عشر مرات، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد قبله ولا بعده.

وقال أيضاً: حدثنا علي بن عباس عن محمد بن مروان عن إبْراهيم بن الحكم بن ظهير عن أبيه عن السدي عن عبد خير عن علي (عليه السلام) قال: كنت أول من ناجىٰ رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم وكلمت رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» عشر مرات، كلما أردت أن أناجيه تصدقت بدرهم، فشقَّ ذلك علىٰ أصحاب رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» فقال المنافقون: ما باله ما ينجش لابن عمِّه. حتىٰ نسخها الله جل وعز فقال: «أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ» إلىٰ آخر الآية، ثم قال (عليه السلام): فكنت أولَ من عمل بهذه الآية، وآخرَ من عمل بها، فلم يعمل بها أحد قبلي ولا بعدي.

---

١ – الحسكاني، شواهد التنزيل / ٩٦٦.

وقال أيضاً: حدثنا عبد العزيز بن يحيىٰ عن محمد بن زكريا عن أيوب بن سليمان عن محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً» قال: إنه حرم كلام رسول الله «ص»، ثم رخَّص لهم في كلامه بالصدقة؛ فكان إذا أراد الرجل أن يكلمه تصدق بدرهم، ثم كلمه بما يريد قال: فكف الناس عن كلام رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وبخلوا أن يتصدقوا قبل كلامه، فتصدق علي بدينار كان له فباعه بعشرة دراهم، في عشر كلمات سألهن رسول الله «ص»، ولم يفعل ذلك أحد من المسلمين غيره، وبخل أهل الميسرة أن يفعلوا ذلك فقال المنافقون: ما صنع علي بن أَبي طالب الذي صنع من الصدقة إلا أنه أراد أن يتزوج لابن عمه. فأنزل الله تبارك وتعالىٰ: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ» من إمساكها «وأَطْهَرُ» يقول: وأزكىٰ لكم من المعصية. «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا»: الصدقة علىٰ الفقراء. «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * «أَأَشْفَقْتُمْ» يقول الحكيم: أأشفقتم يا أهل الميسرة «أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ» يقول: قدام نجواكم. يعني كلام رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» صدقة علىٰ الفقراء. «فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا» يا أهل الميسرة «وتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» يعني تجاوز عنكم إذا لم تفعلوا. «فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ» يقول: أقيموا الصلوات الخمس. «وآتُوا الزَّكَاةَ» يعني أعطوا الزكاة يقول تصدقوا. فنسخت ما أمروا به عند المناجاة، بإتمام الصلاة، وإيتاء الزكاة. «وأَطِيعُوا اللَّهَ ورَسُولَهُ» بالصدقة في الفريضة والتطوع. «واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». أي تنفقون خيرا.

سبعون حديثاً في تحديد العامل الوحيد بآية النجوىٰ

اعلم أن محمد بن العباس (رحمه الله) ذكر في تفسيره هٰذا المنقول منه في آية المناجاة، سبعين حديثاً من طريق الخاصة والعامة، يتضمن أن المناجي

لرسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» هو أمير المؤمنين دون الناس أجمعين. ونقلت من مؤلف شيخنا أبي جعفر الطوسي، قدس الله روحه هٰذا الحديث، ذكر أنه في جامع الترمذي وتفسير الثعلبي بإسناده عن علقمة الأنماري، يرفعه إلىٰ علي (عليه السلام) أنه قال: بي خفَّف الله عن هذه الأمة: لأن الله امتحن الصحابة بهذه الآية؛ فتقاعسوا عن مناجاة الرسول «ص»، وكان قد احتجب في منزله من مناجاة كل أحد إلا من تصدق بصدقة، وكان معي دينار فتصدقت به فكنت أنا سبب التوبة من الله علىٰ المسلمين حين عملت بالآية، ولو لم يعمل بها أحد لنزل العذاب لامتناع الكل من العمل بها.

صدق «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» لأنه ما زال سبباً لكل خير يعزىٰ إليه، وإن الله سبحانه أراد أن ينوِّه بفضله، ويجعل هذه الآية منقبة له، دون غيره؛ إذ لم يجعل للصدقة مقداراً معيناً، ولو جعل لأمكن أكثر الناس أن يتصدقوا، ففي ترك عملهم بها، ونسخها، دليل علىٰ أنها كانت منقبة له خاصة لأنه سبحانه عالم بما يكون قبل كونه، وعلم صدقات علي، وتقاعس غيره عنها؛ فأراد الله سبحانه إظهار فضله عند تقاعس غيره، و«ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشٰاءُ واللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»[1][2].

---

١ - تأويل الآيات الظاهرة/ في تفسير آية المناجاة.

٢ ـ قال الاصفهاني في المحبرة:

وبألف حرفٍ أيكم ناجىٰ أخي ... فيهن دونكم أخي ناجاني

ولكل حرفٍ ألف باب شرحه ... عندي بفضل حكومة وبيانِ

ووردفي ملحمة أغاريد قولنا فيها:

عليٌّ وقد ناجىٰ فقدم منحةً ... له الفضلُ يُتلىٰ والتقدُّمُ فيهمُ

ومطلع الملحمة:

أُحِبُّ وإن الحُبَّ نارٌ تَضَرَّمُ ... وأيقنتُ مذ أحببتُ أنيَ أُظلَمُ

القرآن الكريم يفضِّل علياً علىٰ سائر الهداة المهديين

أقول: آية النجوىٰ من جملة الآيات القرآنية المباركة التي تبيِّن بصراحةٍ وشفّافيةٍ سُمُوَّ مقاماتِ علي بن أَبي طالب وشموخَ تَفوّقه المتميِّز الخَلاق علىٰ سائر الأَبرار المُخلَصين والأَزكياء المنتجبين والهُداة المهديين بعد رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم».

ويأتي سموُّ مقامات علي بن أَبي طالب وتفوّقه المتميِّز المذكور في آية النجوىٰ من عدَّة جهات، فللنظر اليها بتدقيق وتحقيق، ولنحكم لها أو عليها بموضوعية وانصاف:

أَولاً: ان علي بن أَبي طالب أول من ناجىٰ الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وتصدَّق بعد نزول آية النجوىٰ.

ثانياً: ان علي بن أَبي طالب كذلك آخر من ناجىٰ الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وتصدَّق بعد نزول آية النجوىٰ.

ثالثاً: ان علي بن أَبي طالب ناجىٰ الرسول وتصدَّق عشر مرّات في تلك الفترة الوجيزة نوعاً ما.

رابعاً: قام علي بن أَبي طالب بالتصدق عشر مرّات، ولم يقم أحد من الناس بذلك ولا مرَّة واحدة.

خامساً: لم يكن لدىٰ علي بن أَبي طالب آنذاك ما يتصدَّق به، وإنما تصدَّق تلك المرّات العديدة بما استقرض من المال.

«وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ

ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدًّا »[١].

*****

قال الله عز وجل:

بسمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيـــم

« لَيْسَ عَلَيْك هُدٰاهُمْ ولٰكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ ومٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ومٰا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغٰاءَ وَجْهِ اللّٰهِ ومٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وأَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرٰاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ ضَـرْباً فِـي الأَرْضِ يَـحْسَبُهُمُ الْجٰاهِلُ أَغْنِيٰاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمٰاهُمْ لاٰ يَسْئَلُونَ النّٰاسَ إِلْحٰافاً ومٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّٰهَ بِهِ عَلِيمٌ »[٢].

وسَق من تمر لِلْفُقَرٰاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا

روىٰ الضحاك عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: لِلْفُقَرٰاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا في سَبِيلِ اللّٰهِ... الآيـة. بعث عبد الرحمٰن بن عوف بدنانير كثيرة إلىٰ أصحاب الصفة حتىٰ أغناهم، وبعث علي بن أبي طالب في جوف الليل بوَسق من تـمر، فكـان أحب الصدقتين إلىٰ الله صدقة علي، وأُنزلت الآية[٣]. وسُئِـل النبي «صلىٰ الله

---

١ – مريـم، الآية / ٧٦. ٢ – البقرة، الآيـة / ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

٣ – في تفسير علي بن إبراهيم القمي: وقوله: «إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقٰاتِ فَنِعِمّٰا..» هِيَ قال الزكاة المفروضة تخرج علانية وتدفع علانية وبعد ذلك غير الزكاة إن دفعته سرا فهو أفضل وقـوله: « لِلْفُقَرٰاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجٰاهِلُ أَغْنِيٰاءَ مِنَ

عليه وآله وسلم»: أي الصدقة أفضل في سبيل الله؟ فقال: جهد من مُقِلٍّ[1].

يظهر أن ثم تضادّاً بين ماجاء عن الضحاك عن ابن عباس لما أنزل الله: لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ.. وبين قوله: فكان أحبَّ الصدقتين إلىٰ الله صدقة علي وأنزلت الآية. فتارة يفهم من صدر الرواية أن بعث الإمام علي بن أبي طالب بهذا الوسق من التمر إنما كان بعد نزول الآية المباركة، وتارة يفهم من ذيل الرواية أن بعث علي بهذا الوَسق قبل نزول الآية المباركة؛ فلذا أنها نزلت إشادةً وتمجيداً بعمله.

إلا أنه قد يكون مراده من الآية، الآية التي تلتها مباشرة، وهي قوله تبارك وتعالىٰ: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ سِرّاً وعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ»[2]. وهي الآية التي اتفق المفسرون والعلماء بالقران الكريم أنها أُنزلت في الاشادة بجود وإيثار علي بن أبي طالب. كما سوف نتحدَّث عنها بعد قليل. والله أعلم بحقائق الأمور.

التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النّاسَ إلْحافاً». فهم الذين لا يسألون الناس إلحافا من الراضين والمتجملين في الدين الذين لا يسألون الناس إلحافا ولا يقدرون أن يضربوا في الأرض يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ عن السؤال.

وجاء فيه أيضاً: ثم فسر الله الصدقات لمن هي وعلىٰ من تجب فقال: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَرَاءِ والْمَساكِينِ والْعامِلِينَ عَلَيْهَا والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وفِي الرِّقابِ والْغارِمِينَ وفِي سَبِيلِ اللّٰهِ وابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللّٰهِ واللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فأخرج الله من الصدقات جميع الناس إلا هذه الثمانية الأصناف الذين سماهم الله، وبين الصادق (عليه السلام) منهم فقال: الفقراء هم الذين لا يسألون وعليهم مؤونات من عيالهم والدليل علىٰ أنهم هم الذين لا يسألون قول الله في سورة البقرة «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ...

١ – السروي، المناقب / فصل في المسابقة بالسخاء والنفقة في سبيل الله، والمجلسي، بحار الأنوار ٤١ / ٢٥ ـ ٢٦، وعيدروس الأندونيسي، المقتطفات ٢ / ١٦٦ ـ ١٦٧.

٢ – البقرة، الآية / ٢٧٤.

«أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ»[1].

*****

قال الله عز وجل:

بسمِ اللهِ الرَّحْمٰن الرَّحيـــم

«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ»[2].

تفسير آية الولايـة

قال ابن شهرآشوب السروي في المناقب: اجتمعت الأمة أن هذه الآية نزلت في علي (عليه السـلام) لما تصدَّق بخاتمه وهو راكع، لا خلاف بين المفسرين في ذلك، ذكره الثعلبي والمـاوردي والقشـيري والقـزويني والرازي والنـيسابوري والفلكي والطوسي والطبري فـي تـفاسيرهم عـن السـدي ومـجاهد والحسـن والأعمش وعتبة بن أبي حكم وغالب بن عبد الله وقيـس بن الربيع وعباية بـن ربعي وعبد الله بن عبـاس وأبي ذر الغفاري. وذكره ابن البيع في معرفة أصـول الحديث عن عبد الله بن عبيد الله بن عمر بن علي بن أبي طالب والواحدي في أسباب نزول القرآن عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والسـمعاني فـي

---

١ - التوبة، الآيـة / ١٠٤.

٢ - المائدة الآية / ٥٥ ـ ٥٦.

فضائل الصحابة عن حميد الطويل عن أنس، وسلمان بن أحمد في معجمه الأوسط عن عمار، وأبو بكر البيهقي في المصنف، ومحمد الفتال في التنوير وفي الروضة عن عبد الله بن سلام وأبي صالح والشعبي ومجاهد وزرارة بن أعين عن محمد بن علي، والنطنزي في الخصائص عن ابن عباس، والإبانة عن الفلكي عن جابر الأنصاري، وناصح التميمي، وابن عباس، والكلبي، في روايات مختلفة الألفاظ متفقة المعاني.

وفي أسباب النزول للواحدي: أن عبد الله بن سلام أقبل ومعه نفر من قومه وشكوا بعد المنزل عن المسجد وقالوا: إن قومنا لما رأونا أسلمنا رفضونا ولا يكلمونا ولا يجالسونا ولا يناكحونا فنزلت هذه الآية. فخرج النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» إلىٰ المسجد فرأىٰ سائلا فقال: هل أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم خاتم فضة. وفي رواية خاتم ذهب.

قال: من أعطاكه؟ قال: أعطانيه هٰذا الراكع.

تفسير الثعلبي: في رواية أبي ذر أن السائل قال: اللهمَّ اشهد أني سألت في مسجد رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم» ولم يعطني أحد شيئاً. وكان علي (عليه السلام) راكعاً فأومىٰ بخنصره اليمنىٰ؛ فأقبل السائل حتىٰ أخذه من خنصره، وذلك بعين رسول الله، فلما فرغ رسول الله من صلاته رفع رأسه إلىٰ السماء وقال: اللهمَّ إن أخي موسىٰ سألك فقال: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي إلىٰ قوله أَمْرِي فأنزلت عليه قرآنا سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيك ونَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا. اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك، اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً اشدد به ظهري.

قال أبو ذر: فو الله ما استتم رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم» الكلمة حتىٰ نزل جبرئيل (عليه السلام) من عند الله فقال: يا محمد اقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال:

اقرأ «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ ورَسُولُهُ». الآية.

أبو جعفر (عليه السلام): إن رهطاً من اليهود أسلموا منهم عبد الله بن سلام وأسيد وثعلبة وبنيامين وسلام وابن صوريا فقالوا: يا رسول الله إن موسىٰ أوصىٰ إلىٰ يوشع بن نون فمن وصيك يا رسول الله ومن وليت بعدك؟ فنزلت هذه الآية. ثم قال رسول الله «ص»: قوموا فقاموا فأتوا المسجد فإذا السائل خارج فقال: يا سائل ما أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم هٰذا الخاتم. قال: من أعطاكه

قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلي. قال: علىٰ أي حال أعطاك؟ قال: راكعا. فكبر النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وكبر أهل المسجد فقال «ص»: علي بن أَبي طالب وليكم بعدي. فقالوا: رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وبعلي وليا فأنزل الله تعالىٰ: (ومَنْ يَتَوَلَّ اللّٰهَ ورَسُولَهُ). الآية.

كتاب أبي بكر الشيرازي: أنه لما سأل السائل وضعها علىٰ ظهره إشارة إليه أن ينزعها: فمدَّ السائل يده ونزع الخاتم من يده ودعا له؛ فباهىٰ الله تعالىٰ ملائكته بأمير المؤمنين وقال: ملائكتي أما ترون عبدي جسده في عبادتي وقلبه معلق عندي، وهو يتصدق بماله طلبا لرضاي؟ أشهدكم أني رضيت عنه وعن خَلَفِه. يعني ذريته ونزل جبرئيل بالآية.

وفي «المصباح»: تصدق به يوم الرابع والعشرين من ذي الحجة. وفي رواية أبي ذر (رض): كان (عليه السلام) في صلاة الظهر، وروي أنه كان في نافلة الظهر. وفي أسباب النزول للواحدي: مَنْ يَتَوَلَّ.. يعني يحب الله ورسوله والَّذِينَ آمَنُوا يعني علياً. فَإِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ. يعني شيعة الله ورسوله ووليه هُمُ الْغَالِبُونَ. يعني هم الغالبون علىٰ جميع العباد؛ فبدأ في هذه الآية بنفسه ثم بنبيه ثم بوليه وكذلك في الآية الثانية.

علي بن جعفر عن أبي الحسن عليه السلام (الإمام الكاظم باب الحوائج)

في قوله تعالىٰ: «وإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ أَبىٰ»[1]. أوحىٰ الله إليه: يا محمد إني أمرت فلم أطع، فلا تجزع أنت إذا أمرت فلم تطع في وصيك.

فقوله تعالىٰ: (والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ وهُمْ راكِعُونَ). أثبت الولاية لمن جعله ولياً لنا علىٰ وجه بالتخصيص، ونفىٰ معناها عن غيره. ويعني بوليكم: القائم بأموركم ومن يلزمكم طاعته. وإذا ثبت ذلك ثبتت إمامته لأن لا أحد يجب له التصرف في الأمة وفرض الطاعة له بعد النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» إلا من كان إماما لهم وثبتت أيضا عصمته؛ لأنه سبحانه إذا أوجب له فرض الطاعة مثل ما أوجبه لنفسه ولنبيه «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»، اقتضىٰ ذلك طاعته في كل شيء. وهٰذا برهان عصمته لأنه لو لم يكن كذلك لجاز منه الأمر بالقبيح؛ فتقبح طاعته، وإذا قبحت كان تعالىٰ قد أوجب فعل القبيح. وفي علمنا أن ذلك لا يجوز عليه سبحانه ودليل علىٰ وجوب العصمة.

والدليل علىٰ أن لفظة ولي في الآية تفيد الأولىٰ ما ذكره المبرد في كتاب العبارة عن صفات الله أن الولي هو الأولىٰ. وقال النبي «ص»: أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها... ومنه أولياء الدم، وفلان ولي أمر الرعية.

وما يعترض به السائل فلا يلتفت إليه، واختصاص الآية ببعض المؤمنين حيث وصفهم بإيتاء الزكاة، يوجب خروج من لم يؤتها، ومن حيث خص إيتاءهم بحال الركوع ولم يحصل ذلك لجميع المؤمنين، ومن حيث نفي الولاية عن غير المذكورين في الآية بإدخال لفظة إنما وإيتاء الزكاة في حال الركوع، لم يدع لأحد غيره، والرواية متواترة من طريق الشيعة، وظاهرة من طرق المخالفين، وتجري الأخبار بلفظ الجمع وهو واحد مجرىٰ الأخبار بذلك عن الواحد قوله تعالىٰ:

---

١ - انظر سورة الحجر، الآية / ٣٠ ـ ٣١.

«الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ» الآية[١]. وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ»[٢]. وقوله: «يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ»[٣]. الآية.. ثم إن قوله: (والَّذِينَ آمَنُوا) ليس على العموم بل بعضهم؛ لأنه وصف بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في حال الركوع[٤][٥].

عن خالد بن يزيد عن المعمر بن المكي عن إسحاق بن عبد الله بن محمد بن علي بن الحسين عن الحسن بن زيد عن أبيه زيد بن الحسن عن جده (عليه السلام) قال: سمعت عمار بن ياسر يقول: وقف لعلي بن أَبي طالب سائل وهو راكع في صلاة تطوع، فنزع خاتمه فأعطاه السائل فأتىٰ رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» فأعلمه بذلك، فنزل علىٰ النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»

---

١ – آل عمران، الآية / ١٧٣.
٢ – الحجرات، الآية / ٤.
٣ – المنافقون، الآية / ٨.
٤ – انظر ابن شهرآشوب السروي، المناقب / باب النصوص علىٰ إمامته (عليه السلام) فصل / في قوله تعالىٰ: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ..).
٥ ـ قال الصحابي الكبير خزيمة بن ثابت الأَنصاري الأوسي المعروف بذي الشهادتين رضوان الله عليه:

فديت علياً إمامَ الورىٰ ... سراجَ البريةر مأوىٰ التقىٰ
وَصيَّ الرسول وزوجَ البتول ... إمام البرية شمس الضحىٰ
تصدق خاتمه راكعاً ... فأحسن بفعل إمام الورىٰ
ففضله الله رب العباد ... وأنزل في شأنه هل أتىٰ

ولخزيمة بن ثابت كذلك، وقيل هي لحسان أبيات أولها:

أبا حسن تفديك نفسي وأسرتي ... وكل بطيء في الهدىٰ ومسارعِ

وأنشأ حسان بن ثابت وهي في ديوان الحميري أبياتاً منها:

فلما أتاه سائل مد كفه ... إليه ولم يبخل ولم يك جافيا
فدسَّ إليه خاتما وهو راكع ... وما زال أواها إلىٰ الخير داعيا
فبشر جبريل النبي محمداً ... بذاك وجاء الوحي في ذاك ضاحيا

هذه الآية: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُمْ راكِعُونَ». فقرأها رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» علينا، ثم قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه[١].

عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: بينا رسول الله جالس في بيته وعنده نفر من اليهود، أو قال خمسة من اليهود، فيهم عبد الله بن سلام، فنزلت هذه الآية: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُمْ راكِعُونَ».

فتركهم رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» في منزله وخرج إلىٰ المسجد، فإذا بسائل قال له رسول الله «ص»: أتصدق عليك أحد بشيء؟ قال: نعم هو ذاك المصلي. فإذا هو علي[٢].

«قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ»[٣].

* * * * *

قال الله عز وجل:

بسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيـم

«إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ»[٤].

تفسير وكيع والسدي وعطاء أنه قال ابن عباس: أُهدي إلىٰ رسول الله

---

١ – تفسير العياشي / ١٣٧.
٢ – المصدر نفسه / ١٣٩.
٣ – سبأ، الآية / ٤٨.
٤ – ق، الآية / ٣٧.

«ص» ناقتان عظيمتان سمينتان فقال للصحابة: هل فيكم أحد يصلي ركعتين بقيامهما وركوعهما وسجودهما ووضوئهما وخشوعهما لا يهتم فيهما من أمر الدنيا بشيء، ولا يحدث قلبه بفكر الدنيا، أهدي إليه إحدىٰ هاتين الناقتين؟ فقالها مرة ومرتين وثلاثة لم يجبه أحد من أصحابه، فقام أمير المؤمنين فقال: أنا يا رسول الله أصلي ركعتين أكبر تكبيرة الأولىٰ وإلىٰ أن أسلم منهما لا أحدث نفسي بشيء من أمر الدنيا. فقال: يا علي صَلِّ صلىٰ الله عليك. فكبَّر أمير المؤمنين ودخل في الصلاة، فلما سلم من الركعتين هبط جبرئيل علىٰ النبي «ص» فقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أعطه إحدىٰ الناقتين. فقال رسول الله: إني شارطته أن يصلي ركعتين لا يحدث فيهما بشيء من الدنيا أعطيه إحدىٰ الناقتين إن صلاهما، وإنه جلس في التشهد فتفكر في نفسه أيهما يأخذ. فقال جبرئيل: يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول لك: تفكر أيهما يأخذها لسمنهما وأعظمهما فينحرها ويتصدَّق بها لوجه الله، فكان تفكره لله عز وجل لا لنفسه ولا للدنيا. فبكىٰ رسول الله وأعطاه كليهما وأنزل الله فيه: «إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ (لَعِظَة) لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ (عقل) أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ (يعني يستمع أمير المؤمنين بأذنيه إلىٰ من تلاه بلسانه من كلام الله) وَهُوَ شَهِيدٌ» يعني وأمير المؤمنين شاهد القلب لله في صلاته، لا يتفكر فيها بشيء من أمر الدنيا[1][2].

---

١ – ابن شهرآشوب السروي، المناقب ٢ / ٢٠، والمجلسي، بحار الأنوار ٣٦ / ١٦١.

٢ – أبو علي الطبرسي في مجمع البيان: «لمن كان له قلب» معنىٰ القلب هنا العقل عن ابن عباس من قولهم أين ذهب قلبك وفلان قلبه معه، وإنما قال ذلك لأن من لا يعي الذكر لا يعتدّ بما له من القلب. وقيل: لمن كان له قلب حيّ عن قتادة. «أو ألقىٰ السمع وهو شهيد» أي استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع وهو شهيد لما يسمع فيفقهه غير غافل عنه ولا ساه عن ابن عباس ومجاهد والضحاك. يقال: ألق إليَّ سمعك أي اسمع. قال ابن عباس: كان المنافقون يجلسون عند رسول الله (صلىٰ الله عليه وآله وسلّم) ثم يخرجون فيقولون: ما ذا قال آنفا. ليس قلوبهم

أجودُ مَن فِي الوُجود مَن لَيس لِجُودِه حدود

مِن أَروعِ آياتِ الجَلالِ والجَمالِ في عالَمِ السُّموقِ الروحي والأَخلاقي أَنك إِذا نظرتَ إلىٰ جُودِ عَلي بن أَبي طالب وكرمه وَجَدته أَفضل الجود والكرم؛ حيث قد جاد بأَمواله وما ملكت يميناه، وحيث قد جاد بحياته كلها وبِنَفَسِه وأَنفاسِه، بل قد جاد بأَرواح عياله وأَحبته وذريته، بما لا مزيدَ عليه ولا حدودَ له. إذاً أَليس من حقنا أَن نقول ليلاً ونهاراً سِرّاً وجَهراً: **أَجْوَدُ مَنْ فِي الوُجُودِ مَنْ لَيْسَ لِجُودِهِ حُدُود.**

ومِن أَروعِ آياتِ الجَلالِ والجَمالِ في عالَمِ السُّموقِ الروحي والأَخلاقي أَنك إِذا نظرتَ إلىٰ علي بن أَبي طالب وجدته (أَعبد الناس بعد رسول الله « ص »، منه تعلم الناس صلاة الليل والتهجد والأدعية المأثورة، لقد كان يفرش له بين الصفين والسهام تتساقط حوله وهو لا يلتفت عن ربه ولا يغير عادته ولا يفتر عن عبادته، وكان إذا توجه إلىٰ الله تعالىٰ توجه بكليته وانقطع نظره عن الدنيا وما فيها حتىٰ أنه يبقىٰ لا يدرك الألم؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا إخراج الحديد والنشاب من جسده الشريف تركوه حتىٰ يصلي فإذا اشتغل بالصلاة وأقبل إلىٰ الله تعالىٰ أخرجوا الحديد من جسده ولم يحسّ، فإذا فرغ من صلاته يرىٰ ذلك فيقول لولده الحسن (عليه السلام) إن هي إلا فعلتك يا حسن. ولم يترك صلاة الليل قط حتىٰ في ليلة الهرير)[1].

فسبحان الذي جمع لعبده بين حسن العبادة وبين فضل الجود، وسبحان الذي أَغدق عليه من كل خلق كريم أَجمل ما فيه وأَنبل ما يحتويه، وتبارك الله

معهم. وقيل: هو شهيد علىٰ صفة النبي في الكتب السالفة يريد أهل الكتاب عن قتادة.

١ – الديلمي، إرشاد القلوب ٢ / ٢١٧.

أَحسن الخالقين.

ما أقربَ الشبهَ ما بين التفكيرين

من مشهورات التفسير القرآني أن أمير المؤمنين علياً تصدَّق بالخاتم وهـو في الصلاة فأنزل الله تبارك وتعالىٰ قرآناً يُتْلىٰ في الاشادة بنيَّته الإلهيَّة السليمة والثناء علىٰ عمله السماويّ الكريم: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَٱلَّـذِينَ ءَامَـنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ..». ومن المعلوم أن تفكيره (سَلامُ اللهِ عَلَيه) بأمر المحتاج واشارته اليه بخنصره اليمنىٰ وكان يتختم فيها أن يستلَّ الخاتم من يده، لم تخرجه عن محض العبادة وحقيقة الصـلاة، فـالصـلاة عبادة خالصة لله تعالىٰ والتفكير بأمر المحتاجين والمساكين وبالانفاق في سبيل الله سبحانه أثناء الصلاة كلُّها عبادة خـالصة أيضاً. فما أقربَ الشبهَ ما بين التفكير بأمر السائل والتصدق بالخاتم في الصـلاة، وما بين التفكير بإنفاق أفضل الناقتين في الصلاة كذلك. فكل واحد من التفكيرين يساند الآخر ويدعمه بصحـة العمل، وصـدق النيَّة، والتوجّه الىٰ الله عزَّ وجلَّ.

المِعراجُ القدسيُّ المركَّبُ من الصلاةِ والزكاة

أمامنا دليلان علىٰ أن علياً قد فَكَّر أثناء الصلاة بشيء آخر وهما قوله تعالىٰ: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَـوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ.». وقوله تعالىٰ: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ

وَهُوَ شَهِيدٌ »[1]. وكلا الدليلين يشيران الىٰ أن تفكيره (سَلامُ اللهِ عَلَيه) بأمر يتعلق بالكرم والجود في سبيل الله، ولا يحضرنا أبداً دليل من القرآن أو السنة أو التأريخ علىٰ أن علياً فَكَّرَ أثناء الصلاة بأمر خارج اطار الكرم والجود في سبيل الله حتىٰ وإن كان من الأمور الإلهية الخالصة كالحج والجهاد وإقامة العدل في الأرض وغير ذٰلك، فما العلَّة في الأَمر مع العلم أن مثل هذه القضايا ذات شأن عظيم في الدين، وكان الإمام علي يوليها الاهتمام العظيم جداً علىٰ صعيد النظرية والتطبيق؟

الجـــواب

إن الأُمور المذكورة علىٰ الرغم من مكانتها الجليلة والبارزة الخطوط في التشريعات الإلهيَّة المقدسة إلا أنها لم تقترن بالصلاة في القرآن أو السنة، بمعنىٰ أنه من الممكن أن يقبل الله صلاة من لم يحج عامداً مع القدرة وإن كان آثماً بتركه الحج، ومن الممكن أن يقبل صلاة من لم يجاهد أو يقم العدل في الأرض مع استطاعته وإن ارتكب أَشدَّ المحرمات، أما بالنسبة الىٰ الصلاة والزكاة فقد اقترن بعضها ببعض والتحمت أجزاؤهما وأشلاؤهما كما أكَّد علىٰ الاقتران والالتحام القرآن والسنة المطهرة، فلا صلاة لمن لم يؤدِّ ما عليه من الزكاة المالية وإن تَزَمَّل بالخشوع والخضوع، وأَطال السجود والركوع. ولذا ينبغي أن نكثر من التمعّن والتأمّل فيما يقوله الإمام علي بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) مستنبطاً إيّاه من آيات القرآن الكريم: إن الله عز وجل أمر بثلاثة مقرون بها ثلاثة أخرىٰ: أمر بالصلاة والزكاة فمن صلىٰ ولم يزكِّ لم يقبل منه صلاته، وأمر

---

١ – ق، الآية / ٣٧.

بالشـكر له وللوالدين فمن لم يشكـر والديه لم يشكر الله، وأمر باتقـاء الله وصلة الـرحم فمن لم يصل رحمه لم يتقِ اللهَ عزَّ وجلّ[١].

إذاً لقد أَصبح من الواضحات أن تفكير علي في الصلاة حول الانفاق فـي سبيل الله كان من نمط الاقبال بخشوع وتلهّف واشتياق علىٰ أداء الصـلاة، واذا قال الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم «الصلاةُ مِعراجُ المُـؤمن» وهـذا يـعطي الضوء الأخضـر علىٰ أن الزكاةَ مِعراجُ المُؤمن كذلك.

وفي سُلَّمِ هٰـذا المِعراج القدسيِّ المركَّب من الصـلاة والزكاة ارتقىٰ ابن أبي طالب ذروة عرش المديح الإلهي المبـين: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُـولُهُۥ وَٱلَّـذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ.».

---

١ – الصدوق، عيون أخبار الرضا (عليه السـلام) ١ / ٢٥٧.

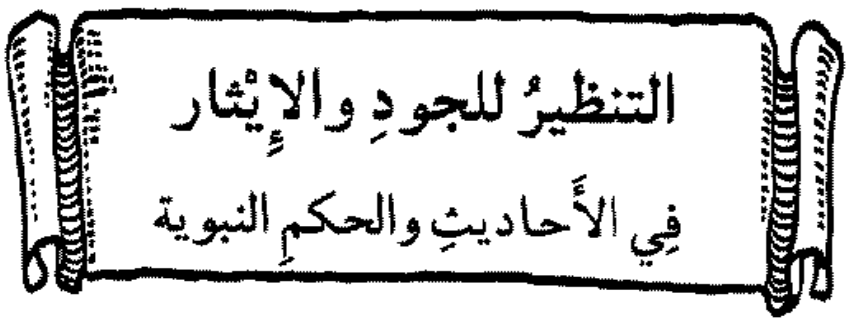

إنَّ للجنَّةِ باباً يقالُ له المَعروف، لا يدخله إلا أهْلُ المَعْـروف. وأهلُ المَعروف في الدنيا هم أهلُ المَعروفِ في الآخرةِ يُقالُ لهمْ في الآخرةِ إنَّ ذنوبَكمْ قد غُفرتْ لكمْ فهبوا حَسناتِكُمْ لمن شئتم

التنظيرُ للجودِ والإِيْثار

في الأَحاديثِ والحكمِ النبوية

رسول القيم والنبل والكرم

ليس من الممكن في يوم من الأَيام أَبداً وإن شاهدنا امتداد الأعمار الىٰ أقصىٰ حدودها ومدياتها أن ننسىٰ ذٰلك المنظر البديع جداً والرائع حقاً والغريب عن الأذهان في الوقت ذاته، بحيث أن مجرَّد تخيّله للمرة الثانية أو الثالثة أو للمرة الألف لَيبعث في العقول والأَفئدة والأحاسيس تيّاراً زاخراً من الجلال والعظمة والاندهاش، وأي واحد منا لا يمتلكه الاعجاب والاستغراب وهو يرىٰ بحراً متلاطم الأمواج يتدفَّق بغزارة كبرىٰ من كفٍّ إنسان؟

نعم نعم بكل تأكيد هٰذا ما قد رأيناه بالفعل واحتفظت به ذاكرتنا في مستقرّ الثوابت من المعلومات والمناظر الفاخرة والمشاهدات الحيَّة، إنه بحر الجود والإحسان يتفَجَّرُ من كفٍّ رسول القيم والنبل والكرم محمد بن عبد الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم». حتىٰ قال في حقه أبو طالب بن عبد المطلب لما سأله عنه أكثم بن صيفي: إنا لنُحسِنُ الظنَّ به، وإنه لَحييٌّ جَري، وَفِيٌّ سَخي. قال ذلك يوم كان رسول الله «ص» صبياً[1]. وقالت سفانة بنت حاتم: رأيته يحب الفقير ويفك

---

١ - المختار من نوادر الأخبار / ٤٣.

الأسير ويعرف قدر الكبير وما رأيت أكرم ولا أَجود منه[١]. وقال فيه الإمام علي من أَبي طالب من خطبة له (عليه السلام) في نهج البلاغة : حَتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّداً «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» شَهِيداً وَبَشِيراً وَنَذِيراً، خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً، وَأَطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً[٢].

وعن علي (عليه السلام) كذلك أنه قال: كان رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أجود الناس كفاً، وأكرمهم عشرةً، من خالطه فعرفه أحبَّه[٣]. ومن كتاب النبوة عن ابن عباس عن النبي «ص» قال: أنا أديب الله، وعلي أديبي. أمرني ربي بالسخاء والبر، ونهاني عن البخل والجفاء، وما شيء أبغض إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ من البخل وسوء الخلق، وإنه ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل.

وبرواية أخرىٰ عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه كان إذا وصف رسول الله «ص» يقول: كان أجود الناس كفاً وأجرأ الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه لم أرَ قبله ولا بعده مثله «ص».

وعن ابن عمر قال: ما رأيت أحداً أَجودَ ولا أَنجدَ ولا أَشجعَ ولا أوضأَ من رسول الله «ص». وعن جابر بن عبد الله قال: لم يكن يُسأَل رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» شيئاً قط فيقول لا[٤].

وفي مجموعة ورام[٥]: قال سهل بن عبد الله: قال موسىٰ (عليه السلام): يا رب أَرني درجات محمد وأمته. قال: يا موسىٰ إنك لن تطيق ذلك، ولكن أريك

---

١ – سلسلة أخبار العرب / مكارم العرب، ١ / ٥٣.

٢ – شرح نهج البلاغة، ٧ / ١٠٤، الخطبة / ١١٧.

٣ – الطبرسي، مكارمُ الأخلاق / في جوده «ص».

٤ – مكارم الأخلاق /١٨

٥ – مجموعة ورام ١ / ١٦٦.

منزلـة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلىٰ جميع خلقي. قال: فكشف له عن ملكوت السـماء، فنظر إلىٰ منزلة كادت تتلف نفسه من أَنوارها وقربها من الله عز وجل، قال: يا رب بماذا بلغته إلىٰ هذه الكرامـة؟ قال: بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار. يا موسىٰ لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وَقتاً من عمره، إلا استحييت من محاسبته وبوأته من جنتي حيث يشـاء.

«وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ»[1].

تفسير «لَن تَنَالُوا الْبرَّ حَتىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تحِبُّونَ»

١ ـ روي عن عبد الله بن عمر أن النبي «ص» سُئِلَ عن قوله تَعـالىٰ «لَن تَنَالُوا الْبرَّ حَتىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ»[2]. فقال: هو أَن يُنفِقَ العبدُ المالَ وهو شَحيحٌ[3] يأمَلُ الدنيا ويخافُ الفقر[4].

لمفسري القرآن الكريم عدَّة آراء في معنىٰ البرِّ في الآية، فمنهم من يقول: هو الجنة كما عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ومجاهد بن جبر المكي وعمرو بن ميمون واسماعيل السدي، ومنهم من يقول: هو الطاعة والتقوىٰ كـما عن مقاتل وعطاء ومثله عن عطية العوفي، وعن الحسـن البـصري: لن تكـونوا أبراراً حتىٰ تنفقوا المال. هذا وقد امتدَّ الخلاف في معنىٰ هذا البرّ الىٰ ما بعد جيل الصحابة والتابعين فقد فسَّر ابن عطية الأَندلسي (من أئمة الاعتزال) في تفسيره

---

١ – آل عمران، الآية / ١١٥. ٢ – آل عمران، الآية / ٩٢.

٣ – أي شَحيحٌ بالدنيا شديد الحرص عليها، غير أن من الـممكن أن يكـون الأَصـل فـي اللفظ النبوي صحيح بدل شحيح أي صحيح البدن سليم البنية.

٤ – انظر أَبو علي الطبرسي، مجمع البيان / في تفسير قوله تبارك وتعالىٰ: «لَن تَنَالُوا الْبرَّ حَتىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تحِبُّونَ...

الموسوم بـ(المحرر الوجيز) البِرَّ بما يفعله البَرُّ من أفاعيل الخير، فتحتمل الآية أن يريد لن تنالوا برَّ الله تعالىٰ بكم أي رحمته ولطفه، ويحتمل لن تنالوا درجة الكمال من فعل البرِّ حتىٰ تكونوا أبراراً إلا بالانفاق المنضاف الىٰ سائر أعمالكم[١]. وقال الطبري في تفسير الآية: لن تدركوا البرّ من الله إلا بطاعتكم وعبادتكم إياه وانفاقكم مما تحبون. ويضيف الطبري قائلاً: والمراد بالبرّ هنا الجنة لأن برَّ الربّ بعبده في الآخرة هو في اكرامه إياه بدخول الجنة، ومعنىٰ الآية: لن تنالوا أيُّها المؤمنون جنة ربكم حتىٰ تتصدَّقوا مما تحبون.

والذي نعتقده أن معنىٰ البرّ في الآية المباركة هو أنكم لا تتصفون بصفة البِرِّ الذي هو التوسعة في الإحسان وعمل الخير إلا بالانفاق مما تحبّون، فأما انفاق ما هو رذل وهيِّن مما يكون باستطاعتكم أن تنفقوا ما هو أفضل منه وأزكىٰ فلا يسبغ عليكم حلَّة البرّ التىٰ هي كريمة علىٰ الله تبارك وتعالىٰ، وهٰكذا انفاق الكمية القليلة من المال لمن يمتلك الثراء الجزيل. وجميع الانفاقات مما يحبه الإنسان ويعتزّ به من الأموال داخلة في هذا الاطار بما في ذلك الواجب منها والمستحب. ومن هٰذا المنطلق فلا يتأتّىٰ الاتصاف بالبرّ بالترجّي والتمنّي والتشهّي، ولا بالادعاءات الفارغة والأقاويل الكاذبة، وإنما يتأتّىٰ عن طريق العمل الجادّ المخلص بالمضامين الثريَّة والمحتويات الهادفة الغنية لعالم البِرّ. (لو أن المروءة لم تشتد مؤنتها ويثقل محملها، ما ترك اللئام الأغمار منها مبيتَ ليلة، ولكنها اشتدَّت مؤنتها وثقل محملها؛ فحاد عنها اللئام الأغمار، وحملها الكرام الأخيار)[٢].

ولسنا ندري مدىٰ صحة ما يقوله العلامة الطبري في تفسير الآية لا من

---

١ – المحرر الوجيز، في تفسير / لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتىٰ تُنفِقُوا..

٢ – من الكلمات القصيرة للإمام علي، غرر الحكم، الحكمة / ٥٤٧٨.

حيث كون البرّ براً من الله سبحانه إذ أنه برّ من العبد العامل للخير، ولا من حيث عبارته: إلا بطاعتكم وعبادتكم إياه وانفاقكم مما تحبون. إذ أن اضافة الطاعة والعبادة ليس من جنس الآية، وإن كان من شرائط الانفاق صدق النية. وبينا يقول في صدر تفسيره: لن تدركوا البرّ من الله إلا بطاعتكم وعبادتكم إياه وانفاقكم مما تحبون. إذا به يقول في ذيل تفسيره بعد حذف العبادة والطاعة: لن تنالوا أيُّها المؤمنون جنة ربكم حتىٰ تتصدَّقوا مما تحبون. ومن المستطاع تأويل كلامه ولكن ذلك علىٰ وجه رديء بعيد، لا يخلو من التكلف والتعقيد.

السخاء والبخلُ طريقا الجنة والنار

٢ – قال جلال الدين السيوطي في «لباب الحديث»: قال رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم»: خلق الله الإيمان وحَفَّه ومدحه بالسماحة والحَياء، وخَلَقَ الله الكفر وذمَّه بالبخل والجفاء[1].

قال اللهُ تبارك وتعالىٰ: «وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ»[2].

قال المفسر الكبير أبو علي الطبرسي في «مجمع البيان»: ثم خاطب المؤمنين الذين لا يكذبون فقال: «ولكن الله حبَّبَ إليكم الإيمان». أي جعله أحبَّ الأَديان إليكم بأن أقام الأدلة علىٰ صحته وبما وعد من الثواب عليه. «وزينه في قلوبكم» بالألطاف الداعية إليه. «وكرَّه إليكم الكفر» بما وصف من

---

١ – لباب الحديث / ١٦ طبع مع كتاب تنقيح القول الحثيث شرح لباب الحديث لمحمد بن عمر النووي النبتني ط ٤.

٢ – الحجرات، الآية / ٧.

العقاب عليه بوجوه الألطاف الصارفة عنه...

ثم عاد سبحانه إلىٰ الخبر عنهم فقال: «أولئك هم الراشدون» يعني الذين وصفهم بالإيمان وزيَّنه في قلوبهم هم المهتدون إلىٰ محاسن الأمور. وقيل هم الذين أصابوا الرشد واهتدوا إلىٰ الجنة. «فضلاً من الله ونعمة» أي تفضّلا مني عليهم ورحمة مني لهم عن ابن عباس. «والله عليم» بالأشياء كلها. «حكيم» في جميع أفعاله وفي هذه الآية دلالة علىٰ بطلان مذهب أهل الجبر من وجوه منها: أنه إذا حبَّب في قلوبهم الإيمان وكرَّه الكفر فمن المعلوم أنه لا يحبِّب ما لا يُحبُّه ولا يكرِّه ما لا يَكرهه. ومنها: أنه إذ ألطف في تحبيب الإيمان بألطافه دلَّ ذلك علىٰ ما نقوله في اللطف[1].

ليس في الحديث المنسوب الىٰ رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» والذي ينصّ علىٰ خلق الله سبحانه للإيمان وخلق الله سبحانه للكفر دلالة علىٰ المذهب الجبري في الايمان والكفر ونفي ارادة الإنسان؛ وذلك لما فيه من عبارة «حفَّه ومدحه بالسماحة والحَياء» فلو كان جبراً فلا حاجة الىٰ أن يمدحه بالسماحة والايمان الدالين علىٰ تحسينه في العيون من أجل أن تتقبَّله وتعتنقه، وكذا لما فيه من عبارة «ذمَّه بالبخل والجفاء». فلو كان جبراً فلا حاجة الىٰ أن يذمَّه. بل إن النفوس تتقبَّله أو ترفضه تلقائياً طبقاً لما تجبر عليه من القبول أو الرفض.

من الطبيعي أن يحبِّذ كلُّ صاحب دعوة وعقيدة ما يدعو اليه سواء كان علىٰ حقٍّ أو باطل، وقد حَبَّب الله سبحانه لنا الايمان وزَيَّنه في قلوبنا بصور طيِّبة مختلفة فمن ذلك الأدلَّة العقليَّة القويمة علىٰ صوابه وسداده، ومن ذلك أن حفَّه ومدحه بالسماحة والحياء، فيتيقَّظ الوجدان علىٰ حسنه وروعة جماله. وقد كرَّه

---

١ – مجمع البيان / في تفسير سورة الحجرات.

الله سبحانه لنا الكفر بصور مختلفة فمن ذلك الأَدِلَّة العقلِيَّة القويمة علىٰ اعوجاج سليقته وانحراف بنائه، ومن ذٰلك أن ذمَّه بالبخل والجفاء، فيتيقَّظ الوجدان علىٰ قبحه ومنتهىٰ بشاعته.

يأبىٰ ذلك إطعامهم الضيف وإكرامهم البيت

٣ ـ قال محمد بن عمر الواقدي: وفي يوم الفتح سمىٰ رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أهل مكة الذين دخلها عليهم الطلقاءَ لمنِّه عليهم، بعد أن أظفره الله بهم فصاروا أرقّاء له. وقد قيل له يوم الفتح: قد أمكنك الله تعالىٰ فخذ ما شئت من أقمار علىٰ غصون. يعنون النساء. فقال (عليه السلام): يأبىٰ ذلك إطعامهم الضيف، وإكرامهم البيت، ووجوههم مناحرَ الهَدْي[1].

إذا كان الضيف معزَّزاً مكرَّماً في منهاج الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» كما نرىٰ فيما جاء في كتاب «الموطأ» للإمام مالك بن أنس ٢ / ٩٢٩، و«صحيح البخاري» (٦٠١٩). عن أبي شريح خويلد بن عمر أن رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم» قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه؛ جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة.. فإن من يكرم الضيف مكرَّم معزَّز عنده كذلك. وإن قول معلِّم الإنسانية «ص»: يأبىٰ ذلك إطعامهم الضيف... لَينطوي علىٰ دلالة واضحة ومفهوم عميق راشد علىٰ ضرورة احترام الكرماء، وغضِّ النظر عن هفواتهم، وأهمية العفو عن أخطائهم وزلاتهم (ما لم يكن ذلك في حدٍّ من حدود الله أو يكون سبيلاً الىٰ تمادي بعضهم في الخطأ والزلل) وهكذا كان رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» يتعامل مع الكرماء،

---

١ ـ انظر ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٨ / ١٩.

من الإحْسان إليهم وإكرام وافدهم، والتسامح مع المسيء منهم، وهكذا كان آل بيت محمد «ص» يقتفون آثاره ويطبّقون حذافير منهاجه السَّميح الكريم.

ولقد جاء في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) أنه قال: أَقِيلوا ذَوِي المُرُوءَاتِ عَثَراتِهِمْ فما يَعْثُرُ منهُمْ عاثِرٌ إلا ويَدُ اللَّهِ بيدِهِ يرْفعُهُ[١].

كما أمر علي (عليه السلام) الوالي علىٰ البلاد المصرية مالك بن الحارث الأشتر (رض) بتقريب ذَوِي المُرُوءَاتِ وَالسخاءِ وَالسَّمَاحَةِ، واتخاذهم بطانة للقيادة، وبتَفَقُّد أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدانِ مِنْ وَلَدِهِمَا قائلاً في العهد المعروف بعهد مالك الأشتر: ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالأَحْسَابِ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسخاء وَالسَّمَاحَةِ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا وَلا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ..

من الكرم تبجيلُ الكرماء

حَقاً إنَّ من الكرم تبجيلَ الكرماء، وحقاً إنَّ من الكرم العفوَ عن الكرماء، علىٰ حَدِّ تصورنا.

إلا أنَّه مما يؤسف له أشدَّ الأسف أن هؤلاء الكرماء الذين عفىٰ عنهم الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» بالرغم من كل المآسي والنوائب التي لقيها منهم، لم يقابلوا الإحْسان بالإحْسان حسب ما هو المألوف من الكرماء ـ بل أصبح من

---

١ – نهج البلاغة / باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام ويدخل في ذلك المختار من أجوبه مسائله / ٢٠.

وظائفهم الأساسيَّة أن يقابلوا الإحْسان بالإساءة، وأن يتجهَّموا للمعروف والانعام؛ فاذا بهم بين عشية وضحاها ينقلبون علىٰ آل بيت المحسن إليهم أكبر الإحْسان، ويضيعون وصيَّته الجليلة فيهم، ويغزونهم في بيوتهم، ويسفكون دماءهم، ويتعقَّبونهم بعنف وغضب عنيد تحت كلِّ حجر ومدر.

إنه ليؤسفني كثيراً أن أقول: ما لقيَ آلُ بيتِ محمدٍ من الأَوباشِ واللؤماء، إلا دونَ ما لقوا من هذا الصنف من الكرماء.

ولم تكن مثل تلك التصرفات المشينة هي المرجوَّة والمتوقَّعة منهم ومن أمثالهم من ذَوي المُروءَاتِ والكرم في الأَساس، حتىٰ أنهم ما بعد ذلك كأنهم قد تحوَّلوا عن سجاياهم الأولىٰ؛ إذ أنه بحسب تصورنا وتقديرنا ـ وإن كانا ضعيفَيْن أو قاصِرَيْن ـ: ليس من الكرام، من كانت سجيته قطع أولي الأرحَام. وليس من الكرام، من كانت سجيته التنكّر للإنعام.

«فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»[1].

لا يُقتل الأسير اذا كان سخياً

٤ ـ في كتاب «الخصال» للشيخ الجليل محمد بن علي الصدوق عن أبيه عن سعد عن أحمد بن أبي عبد اللّه عن الحسن بن محبوب عن هِشامِ بن سالم عن أبي عبيدة الحذَّاء عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: أُتِيَ النَّبِيُّ «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» بِأُسَارىٰ فَأَمَرَ بقتلهمْ وخَلَّىٰ رَجُلا منْ بَيْنِهِمْ فقال الرَّجُلُ: كيف أَطْلَقْتَ عَنِّي؟

---

١ ـ التوبة، الآية / ١١.

فقال: أَخْبرني جبرَئيلُ عنِ اللَّهِ أَنَّ فيك خَمْسَ خِصَالٍ يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ: الْغَيْرَةَ الشَّدِيدَةَ علىٰ حَرَمِكَ وَالسخاءَ وَحُسْنَ الْخُلُقِ وَصِدْقَ اللِّسَانِ وَالشَّجَاعَةَ. فلمَّا سمعها الرَّجل أَسلمَ وحسنَ إِسْلامُهُ وقاتلَ مع رَسولِ اللَّهِ «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» حتىٰ اسْتُشْهِدَ[1].

قد ورد أكثر من حديث عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أنه أطلق الأسير بأمر الله عزَّ وجلَّ لأنه سخي؛ فهذا الحديث الصحيح السند عن أَبي جعفر (عليه السلام) عن النبي «ص»، يبرهن علىٰ هٰذا المعنىٰ، ومثله ما روي من أن جماعة من الأُساریٰ جاؤوا بهم الىٰ رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» فأمر أمير المؤمنين (عليه السلام) بضرب أعناقهم، ثم أمره بافراد واحدٍ لا يقتله. فقال الرجل: لم أفردتني من أصحابي والجناية واحدة؟ فقال له: إن الله تبارك وتعالىٰ أوحىٰ اليَّ: أنك سخيٌّ قومك ولا أقتلك. فقال الرجل: فإني أشهد أن لا الهَ إلّا الله، وأنك محمد رسول الله «ص»؛ فقاده سخاؤه الىٰ الجنة[2].

ومثله أيضاً ما روي أن أمير المؤمنين (ع) أَتىٰ رسول الله «ص» بأسيرين فأمر النبي بضرب عنقهما، فضرب عنق واحد منهما ثم قصد الآخر فنزل جبرئيل فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول: لا تقتله فإنه حسن الخلق سخي قومه. فقال اليهودي تحت السيف: هذا رسول ربك يخبرك! فقال: نعم. قال: والله ما ملكت درهماً مع أخ لي قط، ولا قطبت وجهي في الحرب، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله. فقال رسول الله: هذا ممن جره حسن خلقه وسخاؤه إلىٰ جنات النعيم[3].

---

١ - الخصال ١ / ٢٨٢، مشكاة الأنوار / ١٧٣، قصص الأنبياء للراوندي / ٣٠٧، روضة الواعظين ٢ / ٣٧٧ و ٣٨٤، وسائل الشيعة ٢٠ / ١٥٥ الباب / ٧٧ - باب وجوب الغيرة علىٰ الرجال... الحديث / ٢٥٢٩١.

٢ - البحار ٧١ / ٣٥٤ - ٣٥٥.

٣ - مشكاة الأنوار / ٢٣٣.

كما روي ما يؤكد صحة هٰذا المسار الرائع من الأخلاق العليا في الرسالات السماوية بأن قارون لما خسف الله به وبداره الأرض طلب من كليم الله موسىٰ (عليه السلام) أن ينقذه من الهلاك فأبىٰ عليه؛ فأوحىٰ الله تعالىٰ اليه: يا موسىٰ هلا أنقذته فإنه سخي[١].

أَلا يعني كل هٰذا أن الله تبارك وتعالىٰ يحب حياةَ الأسخياءِ ويحب نجاتَهم من القتل والهلاك والدمار، وإن كانوا من القوم الكافرين والمشركين؟! وإذا كان الجواب بالإثبات وهو الصحيح، فما هي العلة في ذلك الأمر العجيب؟

قد ترجع العلَّة الىٰ أن الله عزَّ وجلَّ كريمٌ جوادٌ فهو يحب من هو علىٰ شاكلة الكرم والجود والسخاء؛ وقد روىٰ الإمام موسىٰ بن جعفر (عليهما السلام) أن النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال: «إنَّ اللهَ جَوادٌ يُحِبُّ الجَواد»[٢].

وقد ترجع العلة الىٰ أن الله عزَّ وجلَّ يريد أن يحيي هٰذا السخي ويطيل عمره؛ جزاءً لما أحيا من نفوس قد هلكت أو تكاد أن تهلك لولا سخاؤه، قال تعالىٰ: «مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعاً»[٣]..

وإذا كان الأسير الجواد مستحقاً للقتل والابادة بسبب كفره، وحمله السلاح معتدياً علىٰ الآخرين، فما جريمة البائسين والمحتاجين ممن يسترفدون عطاءه، وما ذنب الأفواه الفاغرة التي تنتظر الطيب من طعامه وشرابه، وما جناية السائلين يأملون فضله وإحسانه، هل الحكم علىٰ هؤلاء جميعاً بالاعدام والاستئصال؟

---

١ - مَن لا يحضره الفقيه / ١٧٠٩، والكافي ٤ / ٤١، والوسائل ٩ / ١٨.

٢ - البحار ٧٢ / ١٣٧ «إنَّ اللهَ جَوادٌ يُحِبُّ الجَوادَ ومعالِيَ الأُمور ويكره سفسافها.

٣ - المائدة الآية /٣٢.

إن شخصية الجواد السخي هي كشخصية سيد أهل الوبر (كما وصفه النبي الأكرم صلىٰ الله عليه وآله وسلم) الزعيم الصحابي قيس بن عاصم التميمي المنقري (رضوان الله عليه)، فإذا عاش بخير فسوف يعيش العدد الكبير بعيشه، وإذا هلك فسوف يهلك العدد الكبير بهلاكه، أو كما قال بحقه عبدة بن الطبيب التميمي (رضوان الله عليه) وهو من مخضرمي الجاهلية وصدر الاسلام:

وما كان قيس هلكه هلك واحدٍ ولكنه بنيانُ قومٍ تهدَّما

وكان الشاعر العملاق امرىء القيس قد أحسن الكلام وهو يقول:

فلو أنها نفس تموتُ وحيدةً ولكنها نفس تساقط أنفسا

قد تلخص مما تقدم أن هناك مبرِّرات منطقية سائغة للعفو عن السخي المحسن اذا وقع أسيراً، وإن كان مشركاً أو كافراً، وهي إما:

١ ـ أن تعود الىٰ تكريم شخصه المُحَبَّذ الجليل بالذات باعتبار ما مرَّ علينا قبل قليل من أن الله عزَّ وجلَّ كريم جواد فهو يحب من خلقه مَن هو علىٰ شاكلة الكرم والجود والسخاء.

٢ ـ أن تعود الىٰ تكريم عمله الحسن الجميل بالذات من حيث كون التكريم ـ جزاءً وفاقاً لما أحيا المنعم السخي من نفوس قد هلكت أو تكاد أن تهلك لولا سخاؤه ـ

٣ ـ أن لا تعود الىٰ تكريمه لا شخصاً ولا عملاً ولكنه رفيف أَجنحة الرحمة الإلهية بالمستضعفين، والرأفة الربانية بمن طالهم البؤس والشقاء أن لا يفتقدوا السحابة التي تخصب الجديب اليبيس، ولا السقيفةَ التي تُظلُّ الغريب والسقيم والراقد والحيران.

«وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ

وَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»[1].

فيما يأكل السَّبع والطير أجر

٥ ـ عن الصحابي الفقيه جابر بن عبد الله الأنصاري (رضي الله عنهما) أنه قال: أتىٰ رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» بني عمرو بن عوف يوم الأربعاء ـ فذكر الحديث الىٰ أن قال ـ: يا معشر الأنصار. قالوا: لبَّيك يا رسول الله. فقال: كنتم في الجاهلية إذ لا تعبدون الله، تحملون الكَلَّ، وتفعلون في أموالكم المعروف، وتفعلون الىٰ ابن السبيل، حتىٰ إذا مَنَّ الله عليكم بالاسلام ونبيِّه، اذا أنتم تحصنون أموالكم! فيما يأكل إبن آدم أجر، وفيما يأكل السَّبع والطير أجر[2]. قال: فرجع القوم، فما منهم أحدٌ إلاّ هدم من حديقته ثلاثين باباً[3].

تعليق: يظهر بقوَّة أنَّ هٰذا الحديث ـ الذي صحَّحَه الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ـ لا يشمل الأنصار جميعاً بل خصوص بني عمرو بن عوف – وهم فخذ منهم – وأما بقية أفخاذ الأنصار وهي كثيرة فإن الاسلام لم يزدهم إلّا جوداً وكرماً وإيثاراً. وهٰذا معروف جداً في التأريخ وكتب التراجم والحديث،

---

١ – النور، الآية / ٢٢.

٢ – روي عن أبي الدرداء أنه مرَّ به رجل وهو يغرس غرساً بدمشق فقال له: أتفعل هٰذا وأنت صاحب رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم»؟! فقال: لا تعجل عليَّ سمعت رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم» يقول: من غرس غرساً لم يأكل منه آدمي ولا خلق من خلق الله إلا كان له به صدقة. مسند أحمد ٦ / ٤٤٤.

٣ – مستدرك الحاكم، ٤ / ١٣٣، وعبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب، ٣ / ٣٥٧، وروىٰ قريباً منه المتقي الهندي في كنز العمال رقم (١٦٦٨٤).

وهم الذين: «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»[1].

ولقد جعلهم الإمام جعفر الصادق مثالاً رفيعاً ينبغي أن يُقتَفىٰ ويُحتَذىٰ في التعاطف والمواساة والتراحم فعن أبي المغراء عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يخونه، ويحق علىٰ المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون علىٰ التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم علىٰ بعض، حتىٰ تكونوا كما أمركم الله عز وجل رحماء بينكم متراحمين مغتمّين لما غاب عنكم من أمرهم، علىٰ ما مضىٰ عليه معشر الأَنصار علىٰ عهد رسول الله «ص»[2].

وقال فيهم الصحابي المعتمد الفضل بن العباس بن عبد المطلب «شاعر قريش وفتاها علىٰ حدٍّ تعبير الإمام علي» من أبيات رائعة لا تشوبها شائبة الكذب والتزوير:

نصروا الدينَ وآووا أهلَهُ ... منزلٌ رَحْبٌ ومالٌ مشترك

والحمد لله أن بني عمرو بن عوف منهم عادوا الىٰ سجيتهم السمحة المعطاء كأَحسن ما يكون العوْد، وشاركوا بقية بني عمهم من الأنصار الذين ربَّوا الإسلام كما يربّىٰ الفلو بأيديهم السباط وألسنتهم السلاط[3].

ومما يؤكد هٰذا أيضاً أن وفد عبد القيس لما وردوا المدينة أقبل الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» علىٰ الأنصار قائلاً: يا معشر الأَنصار، أكرموا

---

١ – الحشر، الآية / ٩.
٢ – بحار الأنوار، ٧١ / ٢٥٧.
٣ – من كلام الإمام علي (عليه السلام) في وصف الأنصار (رض).

إخوانكم، فانهم أشباهكم في الاسلام، أشبه شيءٍ بكم أشعاراً وأبشاراً، أسلموا طائعين غير مكرهين ولا موتورين إذ أبىٰ قوم أن يسلموا حتىٰ قتلوا. فلما أصبحوا قال الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» لوفد عبد القيس: كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم وضيافتهم إياكم؟

قالوا: خير إخوان، ألانوا فرشنا، وأطابوا مطعمنا، وباتوا وأصبحوا يعلّموننا كتاب ربّنا تبارك وتعالىٰ وسنّة نبينا. فأعجب النبي «ص» وفرح بها.

« يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ»[1].

لا يجاور الله في الجنة بخيل

٦ – عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله «ص»: خلق اللهُ جَنَّة عَدنٍ بيده، ودَلّىٰ فيها ثِمارَها، وشَقَّ فيها أَنهارَها، ثم نظر اليها فقال لها: تكَلَّمي. فَقالت: قَد أَفلحَ المُؤمِنون. فَقال: وعِزَّتي وجَلالي لا يُجاوِرُني فيك بخيل[2].

لقد قالت الجنة: قد أَفلح المُؤمنون. فما هي آية فلاحهم وعلامة فوزهم؟ لا ريب أنها مجاورة الله تبارك وتعالىٰ ودخول الجنة «كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ

---

١ – البقرة، الآية / ٢١٥.

٢ – الترغيب والترهيب ٣ / ٣٦١، وبحار الأنوار ٨ / ١٩٨.

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ[١]. ولكن الله تبارك وتعالىٰ قال كما في هٰذا الحديث النبوي: وعزَّتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل. وهٰذا يعني أن البخيل لا يفلح يوم الدين لأنه لا يجاور الله في دار القرار، مما يعني أن البخيل ليس مؤمناً حقيقياً وإن صام وصلىٰ وحجَّ البيت الحرام.

ولقد ذكر الله تعالىٰ المفلحين في الآخرة مشيراً الىٰ نعوتهم التي أَوجبت لهم الفلاح والنجاح: «قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ...[٢] فجعل تبارك وتعالىٰ من أوصافهم أنهم لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ، كما قال سبحانه عن الذي ينفق المال قربةً من القربات «قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ»[٣]

إذاً لا يكفي لاحراز كأس الفلاح والنجاح أن يذكر الإنسان ربَّه عزَّ وجل ويصلي المكتوبة والنافلة حتىٰ يضمَّ الىٰ ذلك أُموراً من أهمها إيتاء الزكاة والتقرب الىٰ الله بالانفاق في سبيله. وإلا فإن الجنة في عظمتها وبهائها ونعيمها الخالد، ليست زهيدة علىٰ مبدعها وصانع جمالها الفاتن، حتىٰ يستقر فيها ويتلذَّذ برغيد العيش وتُحف الكرامة كل وارد وصادر، حتىٰ وإن كان حقيراً لئيماً أَنانياً كالبخيل والشحيح وأمثالهما.

«فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»[٤].

١- آل عمران، الآية / ١٨٥.
٢- المؤمنون الآية /١ـ ٤
٣- الأعلىٰ، الآية / ١٤ ـ ١٥.
٤ - الروم، الآية / ٣٨.

صنائع المعروف تقي مصارع السوء

٨ ـ يروىٰ عن الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السِّرّ تُطفأ غضب الربّ، وصلة الرحم تزيد في العمر، وتدفع ميتة السوء تنفي الفقر[١].

تلافىٰ نفسه بالصدقة فدفع عنه

مثال تطبيقي فيما روي عن الإمام السجاد علي بن الحسين (عليه السلام) أنه نظر إلىٰ حَمام مكة فقال: أتدرون ما سبب كون هذا الحَمام في الحرم؟ فقالوا: ما هو يا ابن رسول الله؟ فقال: كان في أول الزمان رجل له دار فيها نخلة قد أوىٰ إلىٰ خرق في جذعها حَمام، فإذا أفرخ صعد الرجل فأخذ فراخه فذبحها، فأقام بذلك دهرا طويلاً لا يبقىٰ له نسل؛ فشكا ذلك الحَمام إلىٰ الله تعالىٰ ما ناله من الرجل، فقيل له: إنه إنْ رقي إليك بعد هذا فأخذ لك فرخاً صُرِعَ عن النخلة فمات. فلما كبرت فراخ الحمام رقي إليها الرجل، ووقف الحمام ينظر إلىٰ ما يصنع به، فلما توسط الجذع وقف سائل بالباب فنزل فأعطاه شيئاً، ثم ارتقىٰ فأخذ الفراخ ونزل بها فذبحها، ولم يصبه شيء، فقال الحمام: ما هذا يا رب؟ قيل له: إن الرجل تلافىٰ نفسه بالصدقة فدفع عنه، وأنت فسوف يكثر الله نسلك ويجعلك في بلد لا يهاج من نسلك فيه شيء إلىٰ يوم القيامة. وأتي به إلىٰ الحرم فجعل فيه[٢].

جود المؤمنين وإحسانهم

٩ ـ عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) عن آبائه قال رسول الله «صلىٰ الله

---

١ ـ نزهة الناظر / ١٣، ونوادر الراوندي / ٥٠.

٢ ـ القاضي النعمان، دعائم الإسلام، ١ / ٢٤٣.

عليه وآله وسلم» : يقول الله تعالىٰ : المعروفُ هديةٌ مني الىٰ عبدي المؤمن ، فإن قبلها مني فبرحمة مني ، وإن ردَّها فبذنبه حرمها ، ومنه لا مني ، وأيّما عبدٍ خلقته ، فهديته الىٰ الإيمان ، وحسَّنت خلقه ، ولم أبتله بالبخل ، فإني أريد به خيراً[١] .

لا ريب أن للمعروف والإحْسان والجود آثاراً جميلةً تعود علىٰ صاحبها بالخير والمنفعة والبركة في الدنيا والآخرة ، وما كان ذلك يتمُّ لولا فضل الله ورحمته طبقاً للحديث القدسي الشريف : المعروفُ هديةٌ مني الىٰ عبدي المؤمن . أي أن الجود أو المعروف بالنسبة الىٰ المؤمنين ، امتيازٌ يَحصلون عليه من الله تبارك وتعالىٰ . فينبغي لهم أن لا يردّوه ، بل لا بُدَّ أن يستقبلوه بالترحيب والتأهيل ، وبالعمل وَفْقاً لما يقتضيه الواجب الديني والأَخلاقي ، وتتطلبه الحاجة الفعلية للناس ، فإن الترحيب والتأهيل به ، واستقباله بما يحسن ويجدر ، ترحيب وتأهيل ـ في حقيقة الأَمر ـ برحمة الله سبحانه ، وفضله ، ورأفته بالمؤمنين .

ولا ريب أن للبخل واللؤم والشحِّ آثاراً قبيحة تعود علىٰ صاحبها بالشر والمضرة والشؤم في الدنيا والآخرة ، وما كان ذلك يتمُّ لولا بعض المعاصي التي يقترفها المؤمن ، كما أَكَّده الحديث القدسي : وإن ردَّها فبذنبه حُرِمَها ، ومنه لا مني . وعلىٰ هٰذا الأساس فيجب الاستغفار من الذنوب والمعاصي كلها علىٰ مَنْ يتصفون بالبخل ، ممن يقال عنهم مؤمنون ، لأن الذنب الذي كان سبباً للحرمان من هدية الله يقع ضمن قائمة هذه الذنوب علىٰ وجه الاجمال ، ومن أجل أن لا يُكتبوا عند الله تعالىٰ من البخلاء واللؤماء وتسوَدَّ صحائفهم بين صحائف أهل السماوات والأرض . علىٰ أن من المحتمل ـ في تفسير معنىٰ الذنب في الحديث المزبور ـ أن عدم قبول المؤمن لهدية الله سبحانه وتعالىٰ وردِّه لها هو بنفسه ذلك الذنب البغيض ، الذي أدىٰ الىٰ الحرمان كل الحرمان من الامتياز الإلهيِّ المُقَدَّس والمنحة الربانية الكريمة المعطاء .

---

١ – العلامة محمد باقر المجلسي ، البحار ٧١ / ٣٥٢ .

قد يُفهم من الحديث القدسي فكرة الجبر، لا فكرة الاختيار، أو فكرة الأمر بين الأَمرين، وهما مِن النظريات المعروفة في الكتب العقائدية. وينشأ هٰذا الفهم المفترض من بعض العبارات في الحديث مثل عبارة: المعروفُ هديةٌ مني الىٰ عبدي المؤمن. وكذلك عبارة: وأيّما عبدٍ خلقته فهديته الىٰ الإيمان، وحسَّنت خُلُقه، ولم أبتله بالبخل. والواقع أن الحديث لا يدل علىٰ فكرة الجبر بتاباً؛ بدليل ما جاء فيه من عبارة: فإن قبلها مني، وكذا عبارة: وإن رَدَّها. فقبول الهدية من قِبَل الإنسان، وردها من قِبَل الإنسان أيضاً، وإن كان عرض الهدية وتقديمها من الله، ومن ثمَّ الابتلاء بالبخل من الله، وإرادة الخير للمؤمن السخي الكريم من الله عزَّ وجلّ كذلك كما يعرف من ذيل الحديث فتأمَّل جيداً.

«وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»[1].

تصدَّقنَ ولو من حليكنَّ

١٠ ـ أَخرج محمد بن اسماعيل البخاري باسناده عن الصحابية الجليلة زينب امرأة عبد الله بن مسعود الهُذَلي أن رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم» قال: تصدَّقن ولو من حليكنَّ[1].

نظراً للأَهمية القصوىٰ لإكرام الناس ومساعدتهم والتضامن الشريف والبنّاء معهم فإن نبيَّ الله الىٰ الناس والقائد لهم نحو الخير والصلاح والفضيلة قد اتخذ

---

١ – المزمل، الآية / ٢٠.

١ – صحيح البخاري، باب الزكاة علىٰ الزوج والأيتام / الحديث ٦٨.

شتىٰ الأَساليب التربوية وبمختلف المفاهيم الروحية والأخلاقية لتوجيه الأسرة الإنسانية نحو التعاون والتآزر والتكافل. ولم يكتفِ رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» بتوجيه الرجال وتثقيفهم، بل انطلق نحو النصف الثاني من البشرية المتمثل بالنساء ليغذيه كذلك بالمفاهيم السامقة والتعاليم التربوية الرائدة. فمن جملة ذلك أن قال لهنَّ: تصدَّقن ولو من حليكنَّ. وفي الحديث الشريف تحريضٌ عميقٌ وحَثٌّ شديدٌ علىٰ البذل والانفاق في سبيل الله جلَّ وعلا؛ وذلك لغلاء الحلي نسبياً من جهة، ولأن الحلي من أحبِّ الأشياء المادية الثمينة الىٰ النساء من جهة ثانية، حتىٰ أَصبح مدرَجَةً من مدارج التفاخر والازدهاء والتباهي لدىٰ الكثيرات منهن. الأَمْرُ الذي يعكسُ بوضوحٍ وشفافيةٍ مدىٰ تعلقهنَّ وانشدادِهِنَّ بهٰذا المَعْدِن الغالي، والجميل، والخالد. بيد أَن مَن علمهن المربي العظيم، والقائد المثالي «صلى الله عليه وآله وسلم»، الثمنَ الأعلىٰ والأغلىٰ للمبادىء السامية والقيم الشمَاء، فإنهنَّ يرخص في نفوسهن وأَمام أعينهن كل نفيس وخطير وجليل في سبيلها.

إنَّ التضحيات الجمة للنساء الصالحات الزكيات بالنفوس والبنين والأَموال أَمر مشهود مشهور ومثبت في تأريخ الأديان السماوية وفي شتىٰ العصور والأحقاب، وما أَيسرَ وأعذبَ وأطيبَ التضحيةَ والفداءَ بالأَموال والحلي والمجوهرات الثمينة لمن يفدين أرواحهن وأولادهن في سبيل المبادىء العليا والقيم الإنسانية الخالدة.

«وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا»[1].

---

١ - النساء، الآية /١٢٤.

ليس الجود من مختصات الرجال دون النساء

١١ ـ روىٰ أَبو عبيدة[١] عن جابر بن زيد[٢] قال: بلغني عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم» قال: يا نساء المؤمنات لا تحقرنَّ احداكنَّ لجارتها ولو كراع شاة محرق (وفي نسخة محرقة)[٣].

لما كان الجود في الله تعالىٰ من أفضل ما يسمو بالمخلوق ويكرم مثواه، ومن أوكد الأسباب لرفع الدرجات في الدنيا والآخرة، فلذا لا ينبغي النظر اليه علىٰ أنه من مختصات الرجال، أو يجب أن يكون دور المرأة فيه دوراً ثانوياً وهامشياً، إذ لا يريد الله ورسوله الكريم «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» الخير للذكر دون الأنثىٰ أو لبعض البشر دون بعض، مع أن الجميع من عباده ومخلوقاته تبارك وتعالىٰ، ومن يسبر أغوار القرآن الكريم والسنة المطهرة يتضح له العموم والاطلاق في عالم التوجيهات الإلهية نحو مسار الجود والفضل والإحسان، فلا اختصاص للرجال ولا استثناء للنساء.

ولقد كانت المرأة المثالية الصديقة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) الىٰ جانب علي بن أبي طالب والحسن والحسين (عليهم الصلاة والسلام) حيث يتم التأكيد القرآني علىٰ الهدفية المركزية من ذلك السخاء الفائق والإيثار العجيب: «إنّما نُطْعِمُكُم لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكوراً».

ولسوف نعرف في البحوث القادمة أَن ايتاء الزكاة لون رفيع من ألوان الجود

---

١ – المقصود بأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي.

٢ – جابر بن زيد الأزدي اليحمدي: من فقهاء التابعين ومن كبار تلاميذ عبد الله بن عباس كثير العلم، والخوارج يعدّونه من رجال طائفتهم، وكان قد ولد في عُمان وعاش في البصرة ومات بها عام (٩٣) للهجرة.

٣ – الربيع بن حبيب بن عمر، الجامع الصحيح، الحديث / ٦٨٢.

والكرم وقد فرضها الله سبحانه علىٰ الناس كما فرض الصلاة، ولم يكتبها علىٰ الرجال دون النساء كما هو المجمع عليه بين الفقهاء.

معرفةُ حَدِّ الجوار تُوسِّعُ مِن مديات الكرم والاتحاف

لقد نصَّ الحديث النبوي علىٰ اكرام الجار والإهداء له ولو كراع شاة محرق، فما هو حَدُّ الجوار ليقوم الإنسان بوظيفته الشرعية والأخلاقية ازاءهم؟ هذا ما تجيب عليه الرواية التي ذكرها الشيخ محمد بن علي الصدوق في كتابه العظيم الموسوم بـ«معاني الأخبار» باب معنىٰ الجار وحَدُّ المجاورة قائلاً: أبي رحمه الله قال: حدثنا سعد بن عبد الله عن أحمد بن أبي عبد الله عن أبيه عن محمد بن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (ع) قال: قلت له: جعلت فداك ما حدُّ الجار؟ قال: أربعون[1] داراً من كل جانب[2]. والرواية واضحة المضمون وصحيحة الاسناد، وهي توسِّع من مديات الكرم والاتحاف؛ إذ بينا يتصور الكثيرون من الناس أن حدَّ الجوار لا يتجاوز بيوتاً قليلة ومعدودة تحفُّ بصاحب الدار، إذ يصرح الإمام الصادق (عليه السلام) بأنها أربعون داراً من كل جانب. وهذا يعني أن علينا أن نمدَّ أذرع الإحسان والخير الىٰ جميع هذه المساحة الكبيرة الفيحاء، ونستطيع أن نعرف حجم الكثافة السكانية المشمولة بالرعاية وأداء شتىٰ حقوق المجاورة في عالم اليوم والغد إذا عرفنا أن ما حدَّده الاسلام قديماً من الامتداد الأُفقي للبيوت، قد زاده الطراز الحديث من البناء العمودي وتشييد العمارات ـ التي تتهيأ الواحدة منها في العصر الحاضر وما بعده الىٰ استقبال أُسر كبيرة بل جماعات كثيرة ـ حجماً واتساعاً.

فَيَا مَن آمنت بالاسلام ديناً قيِّماً وبمحمدٍ «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»

---

١ – في الأصل أربعين لا أربعون وكأنه من اشتباه النساخ.

٢ – معاني الأخبار / ١٦٦.

رسولاً هادياً «أحسِنْ إلىٰ جَارِك تكنْ مؤمناً»[١].

ويَا مَن اتخذت القُرآنَ شرعةً ومنهاجاً والسنَّةَ النبويةَ شعاراً ودثاراً «أحسِنْ خلقَك معَ أَهلِكَ وجيرانِك ومَن تُعاشِرُ وتُصاحِبُ مِن الناسِ تُكتبْ عندَ اللهِ في الدرجاتِ العلىٰ»[٢].

وَيَا مَن يستطلع متلهفاً ويستفهم متشوقاً عن حَقِّ الجار ليؤديه اليه كاملاً أداء المخلص الأمين (أما حق الجار فحفظه غائباً وكرامته شاهداً ونصرته ومعونته في الحالين جميعاً، لا تتبع له عورة ولا تبحث له عن سوءة لتعرفها، فإن عرفتها منه عن غير إرادة منك ولا تكلف كنت لما علمت حصناً حصيناً وستراً ستيراً لو بحثت الأسنة عنه ضميراً لم تتصل إليه لانطوائه عليه، لا تستمع عليه من حيث لا يعلم، لا تسلمه عند شديدة، ولا تحسده عند نعمة، تقيل عثرته وتغفر زلته ولا تدَّخرْ حلمك عنه إذا جهل عليك، ولا تخرج أن تكون سلماً له ترد عنه لسان الشتيمة، وتبطل فيه كيد حامل النصيحة، وتعاشره معاشرةً كريمة)[٣].

ولايــة الحكمـاء

١٢ ـ روي عن الرسول الخاتم «ص»: إذا أراد اللهُ بقومٍ خيراً وَلّىٰ أمرَهم الحُكَماء، وجعل المالَ عندَ السُّمَحاء، وإذا أراد اللهُ بقومٍ شرّاً وَلّىٰ أمرَهم

---

١ – من جملة حديث للنبي «ص»، إرشاد القلوب ١ / ١٨٤. وقال الإمام محمد الباقر (ع»: وإن شيعتنا أهل التواضع والتخشع والتعبد والورع والاجتهاد وتعهد الإخوان ومواصلة الجيران... أعلام الدين / ١٤٣.

٢ – من وصية للنبي «ص» أوصىٰ بها علياً (عليه السلام)، تحف العقول / ١٥.

٣ – من رسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين (ع)، تحف العقول / ٢٦٦.

السُّفهاء، وجعل المالَ عندَ البخلاء[١].

تعليق لَعَمْري إن هذه لهي المشكلة الكبرىٰ للعصر الحديث، والطامة الكبرىٰ في أكثر دول العالم، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، أُمراء ليسوا بحكماء، وأغنياء من شرار البخلاء، أو كما قال رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: إذا كان أمراؤُكم خيارَكم، وأغنياؤُكم سمحاءَكم، وأمركم شورىٰ بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان امراؤُكم شرارَكم، وأغنياؤُكم بخلاءَكم، وأموركم الىٰ نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها[٢]. فأوجد سفه الأمراء وبخل الأغنياء خللاً عظيماً في قواعد الاجتماع، وركائز الحياة العامة، ومفاصل النظام السياسي، مع وجود أغطية كثيفة من التبريرات اللامنطقية واللامعقولة، والتي نأمل من الأجيال الواعية والطلائع المدركة، أن تكشف عنها، وتجلِّي قتامها المتفشي والمسيطر علىٰ الساحة العامّة والخاصّة، وأن تحاربها بكل قوة وعزيمة وثبات، وأن تسعىٰ لايجاد البديل المناسب الوضيء، حتىٰ تنعم الشعوب بالحياة السعيدة الهانئة، وتتفتح لها صفحات جديدة من العيش الرغيد، والعمر الكريم. وحتىٰ تعلمَ أن اللهَ تبارك وتعالىٰ أَراد لها الفضلَ والرحمةَ الوَسيعة، وإنما بتقصير مقصِّرين وخذلان متربِّصين، وجشع حاكمين، وقعت الشعوب فيما وقعت فيه من المحن والكوارث والعذاب الأليم.

«اللهُمَّ إنّا نرغبُ إليكَ في دَولَةٍ كَريمةٍ، تُعِزُّ بها الاسلامَ وأهلَه وتُذلّ بها النفاقَ وأهلَه، وتَجعلنا فيها من الدعاةِ الىٰ طاعتِك، والقادةِ الىٰ سبيلك، وترزقُنا بها كرامَةَ الدنيا والآخرة. اللهُمَّ ماعَرَّفتنا من الحَقِّ فحمِّلناه، وما قصرنا

---

١ – عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب (٣٨٤٧).

٢ – سنن الترمذي (٢٢٦٦)، وتحف العقول / ٣٢.

عنه فبلّغناه».

«ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ»[1].

الصيام والقيام يبعثان على الجود

١٣ ـ رُوي أنه مُدحت امرأةٌ عند النبي «ص» فقالوا: صوّامة قوّامة، إلا أن فيها بخلاً. فقال «ص»: فَما خَيرُها إذاً[2].

في هٰذه العبادة المتألقة العظيمة المسمّاة بالصوم رشادٌ وخيرٌ كثير، وفي القيام لله تعالىٰ ونصب البدن بالذكر والصلوات رشادٌ وخيرٌ كثيرٌ كذلك، وقد عملت تلك المرأة المسلمة العابدة بهاتين الوظيفتين الأَساسيتين في الاسلام عملاً جادّاً مرهقاً، بحيث أنها ليست صائمة فحسب بل صوّامة، أي بصيغة المبالغة، وليست قائمة فحسب بل قوّامة، بصيغة المبالغة أيضاً، وإن كان فيها بخل، إذاً فلماذا يظهر بِجَلاءٍ من خلال كلام رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» نفي مطلق الخيرِ عنها، أو انكار انطوائها علىٰ الاتصاف الواقعي بالخير؟

ولعل الجواب الصحيح في أن نقول: إن من الحكم الأَساسية للصيام أن يتذكر الذي أنعم الله عليه به ـ وهو يلفه الجوع ويؤلمه السَّغَب ـ أن يتذكر جوعَ الفقراء والمساكين ومَسْغَبَتَهُم، فيعطف عليهم عطفَ الحَنون، ويساعدهم مساعدة

---

١ – الحج، الآية / ٤١.

٢ – البيهقي، شعب الإيمان، رواه عن بشر بن الحارث ٧ / ٤٤٢ رقم / ١٠٩١٢، وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي، مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، رواه عن أبي جعفر محمد بن علي (الإمام محمد بن علي الباقر)، والمحجة البيضاء في تهذيب الاحياء، ٦ / ٧٦.

الرؤوف، ويطعمهم ويشبعهم ما يتمكن من ذلك. غير أنه لما كان في تلك المرأة بخل؛ فهذا يعني أن صيامها لم يحرِّك فيها نوازع الخير، والبِرّ، والرحمة، بالفقراء والمساكين.

كما أن مِن شأن القيام لله تبارك وتعالىٰ بالعبادة أن يورث الزهد في خُلُقية الإنسان، ميراثاً تلقائياً، والزهد يحرِّك في الإنسان دافع الخير والجود بالمال، من حيث يشعر أو لا يشعر. أَما تلك المرأة مع ما فيها من البخل، فإنها لم تُؤثر العبادة في سلوكها تأثيراً ملموساً مُحَسّاً، بالشكل الذي يعكس الزهد والتقشف، الذي يؤدي بطبيعته العامة الىٰ جود وبذل وعطاء. إذاً لم يكن الصيام ولا القيام بالعبادة في الحياة الروحية لهذه المرأة ـ وإن حَسُنا وراقا بظاهرهما، وكثرا بصورة ملفتة للنظر، وامتدَّ شفقهما الخلاب ـ ينطويان علىٰ المضمون العميق والمحتوىٰ الفائق لكل صيامٍ وقيامٍ محمودٍ مستحسن، ومرغوبٍ فيه مستجاد. ومِن هٰذا المنطلق فليست عبادتها أبداً، إلا عبادة شكلية، صورية، جوفاء، وشوهاء. فما خيرها إذاً؟ ثم فما خيرها إذاً؟

نعم لا خير لها، ولا خير فيها، إلا في معايير الذين يُجِلّون العناوين الكبيرة وإن كانت فارغة من المضامين الرشيدة والمحتويات الجليلة، فَمَا أَضيَعَ الاطارَ الجَميل، إنْ لَم يَضمَّ المُحتوىٰ الأَصيل، وما أَتفهَ الأشكالَ والمَظاهِر، إنْ لم تَحفَلْ باللآلىءِ والجَواهِر.

فسُحقاً ثم سُحقاً لعبادةٍ لا تَتَحَبَّب إلىٰ الله بالزهد والتقشُّف، وسَحقاً ثم سُحقاً لِجُوعٍ مُتَعَمَّدٍ لا يَتَحَبَّبُ الىٰ اللهِ بالمُواساةِ للفقراءِ والمَحرومينَ. وسِيّان في حِكْمَةِ الأَخْلاقِ بَينَ تخمَةِ الخَنازير، وبينَ جُوعِ مَن لا يُواسُونَ المُحتَاجَ والفَقير.

الغنىٰ غنىٰ النفس

١٤ – روي في المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، وفي صحيح البخاري، وأعلام الدين للديلمي، عن رسول الله «ص» أنه قال: ليس الغِنىٰ عن كثرة العَرض، إنما الغِنىٰ غنىٰ النفس[١].

غنىٰ النفس مَرتبةٌ عُليا من مَراتب السمُوِّ الأَخلاقي لا يحظىٰ بها أَو يتصف بامتلاكها إلا ذو حظ عظيم. وفي تصورنا أنها لا تتأتىٰ إلا من جهتين رئيسيتين لا ثالث لهما:

الجهة الأولىٰ: تركيبة أَخلاقية طبعت عليها بعض النفوس الرفيعة جداً والقليلة ما بين البشر في مختلف العصور. بمعنىٰ أنها مَلَكَةٌ راسِخَةٌ حالها كحال سائر الملكات الأخلاقية لدىٰ الناس، وللعلم أنَّ فيها قابلية النموِّ والازدهار، والضمور والانحسار؛ تبعاً لما تحيط بالشخص من ظروف وملابسات وأجواء حياتية ميسرة أو معقدة، وتبعاً لمقدار تأثره بالوسط التربوي والمحيط الاجتماعي وحتىٰ السياسي، ولون طبيعة هٰذا الوسط والمحيط.

الجهة الثانية: تتأتىٰ من الرياضة التربوية وكثرة الممارسات والتمارين الأخلاقية؛ حتىٰ يصبح هٰذا الإنسان أو ذاك مؤهلاً أو شبه مؤهل لتأصيل وارساء صفة غنىٰ النفس فيه. وقد يطول الزمن بالرياضة التربوية والممارسات

---

١ – المحجة البيضاء، ٦ / ٥١. وصحيح البخاري، ٨ / ١٨، وأعلام الدين / فصل في ذكر الغنىٰ والفقر.

والتمارين الأخلاقية، وقد لا يطول.

مِن الأمثلةِ الحيويةِ لِغِنىٰ النفس

١ ــ كان روح الله عيسىٰ بن مريم (عليهما السلام) يقول: إدامي الجوع وشعاري الخوف ولباسي الصوف وصلائي في الشتاء مشارق الشمس وسراجي القمر ووسادي الحجر ودابتي رجلاي وفاكهتي وطعامي ما أنبتت الأرض، أبيت وليس لي شيءٌ وليس علىٰ الأَرض أحدٌ أَغنىٰ مني[١].

٢ ــ كُسي أَبو ذر (رضوان الله عليه) بُردين فاتَّزَرَ بأحدهما وارتدىٰ بشملة وكسا غلامه أحدهما ثم خرجا إلىٰ القوم فقالوا له: يا أبا ذر لو لبستهما جميعاً كان أجمل. قال: أجل لكني سمعت رسول الله «ص» يقول: أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون[٢].

٣ ــ روىٰ حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر (ع) قال: سمعته يقول: أتىٰ أبا ذر رجل فبشره بغنم له قد ولدت فقال: يا أبا ذر أبشر فقد ولدت غنمك وكثرت. فقال: ما يسرني كثرتها فما أحب ذلك؛ فما قَلَّ منها وكفىٰ، أحب إلي مما كثر وألهىٰ. إني سمعت رسول الله «ص» يقول: علىٰ حافتي الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة فإذا مَرَّ عليه الموصل للرحم والمؤدي للأمانة لم يتكفأ به في النار[٣].

٤ ــ وما أحسنَ ما قيل في غنىٰ النفس، علماً أن البيت الأخير قد ألمَّ

---

١ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٩ / ٢٩٥.

٢ – مشكاة الأنوار / ١٧٨. وسوف يأتي حديث أبي ذر عن الرسول «ص» في موضوع ألبسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تأكلون إذ تتكرر شبيه قصة أبي ذر مع غلامه في قصة الإمام أمير المؤمنين مع غلامه أيضاً.

٣ – الحسين بن سعيد الأهوازي، الزهد / ١٠.

بالحديث النبوي المتقدم:

إلىٰ مـــتىٰ أنـــا فـــي حـــل وتـــرحـــالِ
مـــن طـــول ســـعي وإدبـــار وإقـــبالِ

ونـــــازح الدار لا أنـــــفك مـــغتربـاً
عـــن الأحـــبة لا يـــدرون مـــا حـــالي

بـــمشرق الأرض طـــوراً ثـــم مـــغربها
لا يـــخطر المـــوت مـــن حـــرص علىٰ بـــالي

ولو قـــنعت أتـــاني الرزق فـــي دعـــةٍ
إن القـــنوع الغـــنىٰ لا كـــثرة المـــالِ

ولسوف نرىٰ إن شاء الله مزيداً من تسليط الضوء علىٰ الموضوع في بحث (غني النفس وغني المال)، من هٰذا الكتاب.

من موجبات المغفرة

١٥ ـ عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: كان رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» يقول: مِن مُوجباتِ مغفرَةِ الرَّبِّ: إطعامُ الطعام[١].

وقريب منه ما رواه أنس بن مالك الأنصاري قائلاً: كنت أوضيء رسول الله ذات يوم، فرفع رأسه فنظر إليَّ فقال: يا أنس أما علمت أَن من موجبات المغفرة ادخالك السرور علىٰ أخيك المسلم تنفس عنه كربة، أو تفرج عنه غماً، أو تزجي

---

١ – المصدر نفسه / الحديث ١٨. والمقصود هنا بأبي الحسن هو أبو الحسن الأول الإمام موسىٰ بن جعفر الكاظم (عليه السلام).

له صنيعة، أو تقضي عنه ديناً، أو تخلفه في أهله[١].

إن موجبات مغفرة الذنوب والخطايا كثيرة جداً، ومن جملتها علىٰ سبيل الاختصار ما نراه في الأمثلة التي بين أيدينا:

أ - حجّ بيت الله الحرام باخلاص وتقرّب اليه تبارك وتعالىٰ.

ب - الصلاة علىٰ محمد وآل محمد «ص».

جـ قال الفقيه النبيل الشيخ الجليل محمد بن علي الصدوق في كتاب «التوحيد» / باب ثواب الموحدين والعارفين الحديث / ١٤: حدثنا أبي (رضي الله عنه) قال: حدثنا سعد بن عبد الله عن أحمد بن محمد بن عيسىٰ عن الحسين بن سيف عن سليمان بن عمرو قال: حدثني عمران بن أبي عطاء قال: حدثني عطاء عن ابن عباس عن النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال: ما من الكلام كلمة أحبُّ إلىٰ الله عز وجل من قول لا إله إلا الله، وما من عبد يقول: لا إلهَ إلا الله يمدُّ بها صوته فيفرغ، إلا تناثرت ذنوبه تحت قدميه كما يتناثر ورق الشجر تحتها.

وجاء في بحار الأنوار: سأل ابن الكواء أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: كم بين موضع قدمك إلىٰ عرش ربك؟

قال: ثكلتك أمك يا ابن الكواء سلْ متعلماً ولا تسأل متعنتاً، من موضع قدمي إلىٰ عرش ربي أن يقول قائل مخلصاً لا إله إلا الله.

قال: يا أَمير المؤمنين فما ثواب من قال لا إله إلا الله؟

قال: من قال: لا إله إلا الله مخلصاً طمست ذنوبه كما يطمس الحرف الأسود

---

١ - قضاء الحوائج، الرواية / ٣٤.

من الرق الأبيض، فإذا قال ثانية لا إله إلا الله مخلصاً خرقت أبواب السماء وصفوف الملائكة حتىٰ تقول الملائكة بعضها لبعض: اخشعوا لعظمة الله، فإذا قال ثالثة مخلصاً لا إلهَ إلا الله لم تنهنه دون العرش فيقول الجليل: اسكني فَوَ عِزتي وجلالي لأغفرن لقائلك بما كان فيه. ثم تلا هذه الآية: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ». يعني: إذا كان عمله خالصاً ارتفع قوله وكلامه[1].

د ـ قدامة بن مالك عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: من زار الحسين بن علي (ع) محتسبا لا أَشَراً ولا بَطَراً ولا رِياءً ولا سمعةً مُحصت ذنوبه كما يمحص الثوب في الماء فلا يبقىٰ عليه دنس.

عن جعفر بن محمد (عليه السلام) قال: مَن زار الحسين بن علي (عليه السلام) أول يوم من رجب غفر الله له البتة.

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إذا كان النصف من شعبان نادىٰ منادٍ من الأُفق الأَعلىٰ زائري الحسين ارجعوا مغفوراً لكم، ثوابكم علىٰ الله ربكم ومحمد نبيكم.

وقال الصادق (عليه السلام): زائر الحسين بن علي في النصف من شعبان تغفر له ذنوبه، ولا تكتب عليه سيئة في سنته حتىٰ يحول عليه الحول، فإن زار في السنة المقبلة غفر الله له ذنوبه[2].

«وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ

---

١ – بحار الأنوار، ٩٠ / ١٩٩ ـ ٢٠٠.

٢ – ومن موجبات المغفرة ما يوضحها الحديث الشريف: «من كتب فضيلة من فضائل علي بن أبي طالب لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي من تلك الكتابة حرف، ومن استمع الىٰ فضيلة من فضائله غفر الله ذنوبه التي اكتسبها بالاستماع، ومن نظر الىٰ فضيلة من فضائله غفر الله ذنوبه التي اكتسبها بالنظر». كما ورد عن رسول الله «ص».

لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ »[١].

أهون أهل النار عذاباً عبد الله بن جُدْعان

١٦ ـ عن أبي عبد الله عن آبائه (ع) عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال: إن أهون أهل النار عذاباً عبد الله بن جُدْعَان. فقيل: ولِمَ يارسول الله؟ قال: إنه كان يطعم الطعام[٢].

شخصية الجواد ابن جدعان

عبد الله بن جدعان بن عمرو التيمي من كبار الأجواد في الجاهلية، وكان معاصراً لعبد المطلب بن هاشم وعاش بعده.

وابن جدعان من قادة حرب الفجار الواقعة بين قريش وكنانة من جهة، وبين عدد من قبائل قيس بن عيلان من جهة ثانية.

ولقد عُقد الحلف الإنساني العظيم حلف الفضول في داره في مكة المكرمة، ويروىٰ عن النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أنه قال وهو يذكر حلف الفضول ويستجيده: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت إلىٰ مثله في الإسلام لأجبت».

وكان بنو هاشم، وبنو المطلب بن عبد مناف، وبنو أسد بن عبد العزىٰ، وبنو زهرة، وبنو تيم بن مرة ـ وكلهم من بطون قريش ـ قد تعاقدوا في الشهر الحرام قياماً ليكونن مع المظلوم حتىٰ يؤدوا إليه حقه، كما تعاقدوا علىٰ التأسي في

---

١ – التوبة، الآية / ١٢١.

٢ – المحاسن للبرقي، ٢ / ٣٨٩، والبحار، ٨ / ٣١٦، والبحار أيضاً ٧١ / ٣٦٨، ودعائم الاسلام، ٢ / ١٠٤.

المعاش والتساهم بالمال. وكانت النباهة في هذا الحلف للزبير بن عبد المطلب بن هاشم، ولعبد الله بن جدعان. أما ابن جدعان فلأن الحلف عقد في داره، وأما الزبير فلأنه الذي نهض فيه ودعا إليه وحثَّ عليه، وهو الذي سماه حلف الفضول وأنشد في ذلك شعراً[١].

ولأمية بن أبي الصلت الثقفي كما في ديوان شعره المطبوع، شعر كثير في مدح عبد الله بن جدعان والثناء علىٰ جوده[٢].

وقرأ ـ في كتاب «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» لقاضي مكة أبي الطيب المكي المالكي: أن ابن جدعان لما كبر وهرم، أراد بنو تيم أن يمنعوه من تبذير ماله، ولاموه في العطاء، فكان يدعو الرجل، فاذا دنا منه لطمه لطمة خفيفة، ثم قال: قم فانشد لطمتك، واطلب ديتها. فإذا فعل ذلك، أعطته بنو تيم من مال ابن جدعان حتىٰ يرضىٰ[٣].

ما أسعدَ الكريمَ وأرفعَ شأنَه

مَا أَسعَدَ الكَريمَ وأرفَعَ شَأنَهُ ذِكرٌ عاطِرٌ في الدنيا، وخَيرٌ دائِمٌ في الآخِرة. «إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ».

لقد توالىٰ المديح والثناء كثيراً علىٰ عبد الله بن جدعان علىٰ ألسن معاصريه

---

١ – قال الزبير بن عبد المطلب:

حلفتُ لنعقدن حِلفاً عليهم ... وإن كنا جميعاً أهلَ دارِ
نسمّيه الفضولَ إذا عقدنا ... يعزُّ به الغريبُ لدىٰ الجوارِ
ويعلم من حوالي البيتِ أنّا ... أُباةُ الضيمِ نهجرُ كلَّ عارِ

٢ – وذلك مثل قوله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤُك إن شيمتك الحياءُ
إذا أثنىٰ عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضه الثناءُ

٣ – شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ٢ / ١٦٨.

بما فيهم أميَّة بن أبي الصلت الثقفي الشاعر المعروف، وأكبره الناس وأجلوا قدره علىٰ سجيَّتهم المعهوده من إجلال وإكبار الأجواد والكرماء، ولا يعلم أحد منّا، بل ولا من أهله وأقربيه، كم دفع الله عزَّ وجَلَّ عنه من مكروهٍ ومشكلة وعذابٍ من عذاب الدنيا ومكروهاتها ومشكلاتها، بسبب المروءة وسخاء النفس وقضاء حوائج الناس، فإنَّ لكلٍّ ذلك آثاراً بليغةً في دفع البلاء، وفي تيسير بعض الأمور كذلك، وهو بيِّن في الروايات.

هٰذا من إيجابيّات الكرم والمروءة في الدنيا. وأمّا في يوم تحشر فيه البشريَّة قاطبة الىٰ الله تعالىٰ فالأمر أعظم وأكبر وأهول، والفوائد أوفر وأغنىٰ وأجزل، حيث يسرّ قلب الإنسان ويبهج نفسه كثيراً كثيراً أن يجد موطأً لقدميه الضعيفتين النحيلتين، وأمّا لو يُكرم بمقدار مربض شاةٍ يجلس عليه ويريح نفسه التعبىٰ، وأنفاسه الحرّىٰ، فهي أُمنية كبرىٰ تقصر الأكثريَّة من الناس عن بلوغها، بل وربَّما عن مجرَّد التفكير فيها.

في مثل هذه الأوضاع المقلقة جدّاً والمربكة للغاية، وحيث ينقسم الناس الىٰ فريقين: فريق في الجنَّة، وفريق في السعير، يستنشق الكرماء وأهل النفع للناس أريجَ ما عملوا وعبيرَ ما قدَّموا، فإن عملوا ذلك وقدَّموه طلباً لرضوان الله تعالىٰ فإن مصيرهم الىٰ الجنّة والفوز بالرضوان، وإن لم يكن عملهم وتقدمتهم للّه تعالىٰ وإنمّا لِذاتِ الإحْسان والجود، نفعهم ذلك نفعاً جليلاً، في أكثر من مشهدٍ وموقفٍ من مشاهد ومواقف عرصات يوم التناد ولو عن طريق التخفيف العظيم والشديد في عذاب النار، بل اعتبر الحديث الذي بين أيدينا عبد الله بن جدعان أهون أهل النار عذاباً، مع العلم بكونه من المشركين بالله تبارك وتعالىٰ؛ ولعلَّ أكبر السرِّ في علَّة التخفيف هو «انَّ الله جواد يحبّ الجواد» كما جاء في الحديث الشريف، وأنّ الكريم نافع للناس «والخلق كلُّهم عيال الله فأحبُّهم الىٰ الله أنفعهم لعياله» كما جاء في الحديث الشريف كذلك، و«أحبّ عباد الله الىٰ الله أنفعهم لعباده» كما جاء

في حديث آخر، و « شابٌّ سخيٌّ مرهقٌ في الذنوب أحبُّ الىٰ الله من شيخ عابد بخيل » كما جاء في حديثٍ رابع.

إذاً قد أَصبح من الواضحات أنَّ تعذيب الجواد الكريم تعذيباً أليماً غليظاً، بسبب إشراكه بالله تعالىٰ، (وإن كان الشرك لظلمٌ عظيم) أو بسبب ما دون ذلك من سيّآته الكبرىٰ، وفي ذات المستوىٰ الذي يعذَّب علىٰ صعيده بقيَّة المشركين والمجترحين لأكابر السيّآت، قد لا يكون متناسباً في أيِّ وجهٍ من وجوه التناسب مع ما يبتغيه الجواد للجواد، وما يرتضيه المحسن للمحسن، أو بعبارة أخرىٰ مع ما يكنُّه المحب للحبيب فتأمَّل. ونحن لا نقول بأنه لا يعذب مثل هٰذا الإنسان نهائياً وفي كل الحالات، ولكن نستبعد جداً تعذيبه وتسليط الشدة عليه، كما يجري الأمر مع مختلف المشركين والكافرين والأشرار والفجار بلا فرق يُعتَدُّ به ما بينها، أو بلا فروق أساسية شاخصة.

السماحة الخصيبة أفضل من العبادة الجديبة

١٧ ـ عن جعفر الصادق (عليه السلام) عن رسول الله « ص »: لشابٌّ مرهقٌ في الذنوب سخيٌّ، أحبُّ الىٰ الله من شيخ عابد بخيل[١].

يا لروعةِ السخاء، ويا لشرف النَّوال، ويا لحُسْن الجود، ويا لهذه المكانة العليا للسمحاء البهاليل عند الله تبارك وتعالىٰ!!

حقاً إنه عجيب ثم عجيب ما يقوله الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) عن رسول الله « ص »: لشابٌّ مرهقٌ في الذنوب سخيٌّ أحبُّ الىٰ الله من شيخ عابد بخيل. لا سيما مع وجود حرف اللام الذي سبق كلمة الشاب والذي يعني التأكيد.

---

١ - بحار الأنوار ٧١ / ٣٥٦.

وحقاً إنه عجيب ثم عجيب لميزان رحمة الله ولطفه الواسع بخلقه ولحبه الشديد لنفعهم والإحْسَان اليهم الذي يتضح ذلك من خلال التدقيق في أن سخاء الشاب يعود للناس وإكرامهم، وأَن العبادة الكثيرة للشيخ بحيث وصفه الحديث الشريف بالعابد إنما هي للهِ عَزَّ وَجَّل، ومع كل هٰذا فإن المقياس الإلهي العظيم يقتضي ترجيح هٰذا السخاء علىٰ هذه العبادة. الأمر الذي يعني ـ في هٰذا المضمار ـ الترجيح البيِّن الكبير لما يرجع الىٰ نفع الناس والتفضل عليهم ومواصلتهم بالخير والعطاء والتكريم.

علىٰ أن الأمر لا يعود الىٰ تفضيل السخاء المثمر علىٰ العبادة الحائلة فقط، بل الىٰ التفضيل الرباني للشاب نفسه وإن كان مرهقاً بالذنوب علىٰ ذلك الشيخ نفسه، نعم ذلك الشيخ الذي أوقف حياته علىٰ محراب العبادة ونصب نفسه للتهجد والخشوع والذكر حتىٰ وإن كان أثناء شيخوخته فحسب.

وبهذ ندرك معنىٰ ما يقوله رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» في حديث آخر: السخيُّ قريب من الله، قريب من الناس قريب من الجنة، بعيد من النار. والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار[1].

إن مشكلة هٰذا الشيخ العابد مع الله تبارك وتعالىٰ أتته من قبل عقله وقلبه معاً؛ وذلك أن عقله قد دلَّه علىٰ وجوب التعبد الكثير لمن أبدع الخلق وأكرمهم وأنعم عليهم، ولكنه لم يدله علىٰ وجوب السخاء وجمال النوال ولو وجوباً أخلاقياً وإنسانياً، كما انَّ قلبه قد اتسع لمعرفة حق نفسه والرحمة بها والاشفاق عليها، بيد أنه لم يتسع لمعرفة حق أبناء جلدته والرحمة بهم والاشفاق عليهم فهو

---

١ – المعجم الأوسط للطبراني ٣ / ١٨٦ رقم ٢٣٨٤، والجواهر المجموعة لمحمد بن عبد الرَّحمٰن السَّخاوي رقم / ١ ورقم / ٣ ورقم / ٤، وبحار الأنوار للمجلسي ٧١ / ٣٥٥، ونور الحقيقة للحسين بن عبد الصمد الحارثي / ٢٢٦، وكنز العمال للمتقي الهندي برقم / ١٥٩٢٨.

الشفيق الحنون من جهة، وهو القاسي الشديد من جهة ثانية. فكيف يحب اللهُ عَزَّ وجَل من هكذا وصفه وسيماؤه وخُلُقه، أم كيف يرجحه ويقدمه على ذيّاك الشاب المحسن المفضل المفيد لعباده. «ما لَكُمْ كيْفَ تَحْكُمون»[١].

حقاً إنَّ السماحَةَ الخصيبَةَ أفضَلَ منَ العِبادَةِ الجَديبَة، على حَدٍّ ما نعتقد.

أي داءٍ أدوىٰ من البخل

١٨ ـ قال الرسول «ص» لقوم من الأَنصار: مَن سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: سيدنا جَدُّ بن قيس. قال: بِمَ تسوِّدونه؟ قالوا: إنه أَكثرنا مالاً، وإنا علىٰ ذلك لنتهمه بالبخل. فقال «ص»: فأي داء أَدوىٰ من البخل. ليس ذلك سيدكم. قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ قال: سيدكم بشر بن البراء بن معرور[٢].

التأريخُ يعيدُ نفسه

هنالك مقولة طالما تكررت علىٰ ألسن المؤرخين والكتاب والصحفيين ألا وهي: التأريخ يعيد نفسه. وهي في مجمل محتواها مستقاة من بعض النصوص الدينية كقول رسول الله «ص»: «لتركبنَّ سننَ من كان قبلكم».

ومن نسائج هٰذا التأريخ المُعَاد تلك المقاييس الخاطئة في اختيار القائد مثل أن تكون قدراته المادية العالية هي المقياس في نصبه أو اختياره كالذي ينطق به

١- يونس الآية /٣٥.

٢ - المحجة البيضاء ٦ / ٧٣ ـ ٧٤، ونحوه ما جاء في تفسير أبي اسحاق أحمد الثعلبي، في تفسير قوله تبارك وتعالىٰ: «وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ». التوبة، الآية / ٤٩».

القرآن الكريم: وقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّٰهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنّٰى يَكُونُ لَهُ الْمُلْك عَلَيْنَا ونَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْك مِنْهُ ولَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ والْجِسْمِ واللّٰهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ واللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»[١].

وقد وقع نظير هٰذا لقوم من الأَنصار وهم بنوسلمة في قبولهم لقيادة الجدّ بن قيس لهم معللين الأمر بأنه أكثرهم مالاً. غير أن الرسول العظيم في حكمته السماوية البالغة، ومنطقه الإنسانيِّ الشامخ، يرفض رفضاً قاطعاً مقياساً رديئاً هزيلاً من هٰذا القبيل.

ومن العجيب أنهم جعلوا مقياس قيادته أنه أَكثرهم مالاً، مع اعترافهم الصريح أو شبه الصريح ببخله، فما جدوىٰ الأموال الطائلة والكنوز المقفلة مع البخل! وماذا يراد من الأموال لصالح شريحة اجتماعية، اذا كانت دائرتها لا تتجاوز الانتفاع الشخصي، فيما اذا انتفع بها ذلك الشخص المسؤول؟

إِنَّ غَضَّ النظر عن بخل القائد أو المرشَّح للقيادة مما يعني تقبل المقياس الزائغ في شرائط القائد ولو بصورة من الصور، أو عدم الاهتمام الكثير ببخله لعدم أهميته الكبيرة، ناسين أو متناسين الحقيقة المرئيَّة الناصعة أنه: «أي داءٍ أَدوىٰ من البخل».

وفي حقيقة الأمر انَّ بخل القائد أو المرشَّح للقيادة ليس بالشيء اليسير أو الهيِّن الذي يمكن الموافقة عليه، أو عطف زمام النظر والتفكير الجدِّي عن الأَضرار الكبيرة التي تلحق المجتمع بسبب آثار وجوده[٢].

١- البقرة، الآية / ٢٤٧.

٢ - عن مفسر القرآن الكريم سعيد بن جبير أن ابن عباس دخل علىٰ ابن الزبير فقال له ابن الزبير: إلام تؤنبني وتعنفني؟ قال ابن عباس: إني سمعت رسول الله «ص» يقول: بئس المرء

إنَّ البخلَ داءٌ وَبيلٌ ناقِلٌ للعَدوىٰ، وهل مِن المَصْلَحَة لعامَّةِ في شيء أن يتعرَّض الناس عن قصد أو غير قصد للداء الدويِّ والمرض الفاتك الوبيل؟

إنَّ عدم صلاح البخيل للقيادة من الواضحات لدىٰ الكثيرين من العلماء والسياسيين والفلاسفة الاجتماعيين في الجانب الشرقي والغربي من الكرة الأرضية، ولقد روىٰ المؤرخون أن مسلمة بن عبد الملك بن مروان قال لأخيه هشام: أتطمع أن تلي الخلافة وأنت بخيل جبان! فقال: ولكني حليم عفيف. قالوا: فاعترف بالجبن والبخل وهل تقوم الخلافة مع واحد منهما، وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم والتغرير الشديد ولو سلمت من الفساد لم تسلم من العيب.

غير أن دعواه الحلم والعفة حتىٰ علىٰ فرض صحة توفره عليهما ليست تكفي كمؤهلاتٍ لقيادة المجتمع، وقد لقيت الأمة الاسلامية وغيرها من الأمم والشعوب والأقليات من بخل هشام وغيره من القادة البخلاء في مختلف العصور وشتىٰ الدول الشيء الكثير والفجيع من الفقر والبؤس والحرمان. حتىٰ قال أحد المنكوبين والمحرومين لهشام بن عبد الملك: **إن الله جعل العطاءَ محبةً، والمنعَ مبغضةً فأَعني علىٰ حبِّك ولا تعني في بغضك.**

الجود شيمة

١٩ ـ عن جابر الأنصاري: بعث رسول الله «ص» بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا؛ فنحر لهم قيس تسع ركائب. فحدثوا بذلك رسول الله «ص»

المسلم يشبع ويجوع جاره. وأنت ذلك الرجل. فقال ابن الزبير: والله إني لأكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة، وتشاجرا.

فقال: إنَّ الجود من شيمة أهل ذلك البيت[١].

يتطرق الحديث النبوي الشريف الىٰ جود قيس بن سعد وجود أهل بيته من قبيل الخزرج. وللعلم أن الأخوين الأوس والخزرج معروفان بشكل عام بالجود والايثار، إلا أن بيت قيس أعرقهم وأعرفهم وأشهرهم بذلك. وإن فخراً عظيماً ومجداً طويلاً لَيلحق بيتاً عزيزاً يثني عليه رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» بالجود. ومما يؤكد معنىٰ الحديث عن رسول الله «ص» ما قاله محمد بن سيرين: كان سعد ينادي علىٰ أطمه[٢]. (من أحب شحماً ولحماً فليأت)، ثم أدركت ابنه مثل ذلك[٣].

ومن جملة قصص قيس في الجود ما ذكروه من أنه وقفت علىٰ قيس عجوز فقالت: أشكو اليك قلة الجرذان. فقال: ما أَحسنَ هذه الكناية، املأوا بيتَها خبزاً ولحماً وسمناً وتمراً.

ومن جملة قصصه في الجود أيضاً ما ذكروه عن هشام بن عروة بن الزبير عن أَبيه قال: باع قيس بن سعد مالاً من معاوية بتسعين الفاً؛ فأمر من نادىٰ في المدينة: من أراد القرض فليات. فأقرض أربعين الفاً، وأجاز بالباقي، وكتب علىٰ من أقرضه. فمرض مرضاً قلَّ عُوّاده، فقال لزوجته قريبة أُخت الصِّدّيق: لِمَ قلَّ عُوّادي؟ قالت: للدَّيْن. فأرسل الىٰ كلِّ رجل بصكه. أي أباح الأموال للمقترضين. وقال قيس: اللهمَّ ارزقني مالاً وفعالا، فانَّه لا تصلح الفعال إلا

---

١ – المحجة البيضاء، ٦ / ٦٣.

٢ – أطم وآطام: وهي الأبنية المرتفعة القوية.

٣ – لا يعني محمد بن سيرين بقوله: كان سعد ينادي علىٰ أطمه أنه قد أدرك زمان سعد بن عبادة المقتول في خلافة عمر بن الخطاب، وإنما هو خبر قد نقله بواسطة بينهما أو أكثر وأما قول ابن سيرين: ثم أدركت ابنه مثل ذلك. فهو صريح في ادراكه قيساً الذي عاش الىٰ عام ستين للهجرة.

بالمال. ولنا في الثناء علىٰ قيس بن سعد (رض) وإطرائه وتبجيله والاشادة بجوده النادر واحسانه شعر كثير من جملته:

قيسُ بن سعدٍ رمزُنا الناصحُ
يكبره الصالحُ والطالحُ

قد تاجر اللهَ بأمواله
وتاجرُ الله هو الرابحُ[1]

«فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»[2].

١- ومن جملة أشعارنا فيه أيضاً:

يا زكياً كالقطرِ قطر السماءِ ... يا زكياً لُقِّيت حُسْنَ الجزاءِ
يا سعيداً بدينه وبدنياه ... ويا ظافراً بسرِّ البقاءِ
أنت من أنت أنت قيس بن سعد ... في ذراها وفي السَّنا الوضّاءِ
مجدك المجد طارفاً وتليداً ... ما استتار الآبناءُ بالآباءِ
فرصة كالشعاع حسناً ونوراً ... أن يُعِدَّ الآباء للأبناءِ
لم يرم قيس للأنام سوىٰ ... الخير وقيسُ أُغرودةُ الأصفياءِ
صادق القول والفعال كمثل الروض ... يرمي بالروح والأشذاءِ
زاهد بالبحار إلاّ بشطىء العطر ... والذكر والهدىٰ والعطاءِ
قيس ثغر الصباح في الشفق الأعلىٰ ... وسحر الشقائق الحسناءِ
قيس نجوىٰ محاسن البيض ما كانت ... وفجرُ الصحابةِ الأكفاءِ
وحكيم كأنه ألقُ الشمسِ ... يجلّي غياهب الجهلاءِ
وخطيب بديهة لا تجارىٰ ... فاق فيها تأمل الخطباءِ
وله الشعر ما أراد أتاه ... مثل عِقدِ الياقوتةِ الحمراءِ
وجمالٌ مباركٌ يوسفيٌّ ... كالضحىٰ أو كموجة اللألاءِ

٢ - التغابن، الآية / ١٦.

الجود والمعروف والجنَّة

٢٠ ـ عن جعفر الصادق: قال أصحاب رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» لرسول الله: يا رسول الله فداؤك أباؤنا وأمهاتنا إن أصحاب المعروف في الدنيا عُرفوا بمعروفهم، فهل يُعرفون في الآخرة؟ فقال «ص»: إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، أَمر ريحاً عبقة فلصقت بأهل المعروف، فلا يمرُّ أحدٌ منهم بملأ من أهل الجنة إلا وجد ريحه، فقالوا: هٰذا من أهل المعروف[١].

٢١ ـ وقال الرسول «ص»: أول من يدخل الجنة المعروف وأهله، وأول من يرد عليَّ الحوض[٢].

٢٢ ـ عن أبي عبد الله الصادق إنَّ رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال: أرض القيامه نارٌ ماخلا ظلّ المؤمن فإن صدقته تظلُّه[٣].

٢٣ ـ وعن الصادق أيضاً أنَّ رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال: تصدقوا فإن الصدقة تزيدُ في المال كثرةً، فتصدقوا رحمكم الله.

مَنْ أرادَ الدنيا والآخرة فليحسن

في الأحاديث الأربعة الأَخيرة تذكيرٌ بليغٌ وعميقٌ بما لأهل المعروف والإحْسان من المكانة الرفيعة السامية يوم الحاجة الكبرىٰ حتىٰ لأدنىٰ الدرجات الرضية في دار يكثر فيها أصحاب الدرجات الدانية ومن هم ما دونهم، وللعلم والاطلاع أن من يدخل الجنة أو يبعد عن النار فهو من أهل المنازل الرفيعة في

---

١ – جامع السعادات ٢ / ١٦٦. ٢ – المصدر نفسه / ١٦٥.

٣ – من الحديث ١٠٩ الىٰ الحديث ١٣٥ مذكور في وسائل الشيعة / كتاب الزكاة.

يوم الدين ـ وإن كانت المنازل متفاوتة ما بين أهل الجنان ـ

وفي الحديث الأخير «تصدقوا فإن الصدقة تزيد في المال كثرةً..» تذكير بدور الصدقة في زيادة الأموال، وزيادتها تعني الاغتنام الكبير من الدنيا. فمن مجموع هذه الأحاديث الشريفة يتبين للعِيان أن في بذل المال لمستحقه دنياً غنيةً ثريةً تنتظر المحسنين، وآخرةً طيبةً كريمةً تنتظر المحسنين كذلك[1]. وخلاصة الأمر أن من أراد الدنيا فليحسن، ومن أراد الآخرة فليحسن، «وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ»[2].

السخاء شجرة من أشجار الجنَّة

٢٤ ـ أخرج البيهقي في «شعب الايمان» عن أبي هريرة، ومحمد بن عبد الرَّحْمٰن السخاوي في «الجواهر المجموعة» عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، وأبو نعيم في «حلية الأَولياء» عن جابر بن عبد الله أن رسول الله «ص» قال: إنَّ السخاءَ شجرةٌ من أَشجار الجنَّة، لها أغصانٌ متدليةٌ في الدنيا، فمن كان سخياً تعلَّق بغصنٍ من أغصانِها فساقه ذلك الغصنُ الىٰ الجنَّة. والبخلُ شجرةٌ من أشجارِ النارِ لها أغصانٌ متدليةٌ في الدنيا، فمن كان بخيلاً تعلق بغصنٍ من أغصانها، فساقه ذلك الغصنُ الىٰ النار[3].

---

١ ـ وقد روي عن النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» ما يدل علىٰ المنفعة الدنيوية للإنسان جرّاء الصدقة مثل قوله «ص»: استنزلوا الرزق بالصدقة و: داووا مرضاكم بالصدقة و: إنَّ الله لا اله الا هو لَيدفع بالصدقة الّداء والدبيله والحرق والغرق والهدم والجنون وعدّ سبعين باباً من السوء.

٢ـ المطففين، الآية / ٢٦.

٣ ـ شعب الايمان ٧ / ٤٣٥، والجواهر المجموعة الرقم / ٧، وحلية الأولياء ٧ / ٩٢، وبحار الأنوار: ٧١ / ٣٥٢.

أَلا يكفي السخاء مكرمةً وفضلاً وعزاً ومجداً لا يُقهر وقنديل خير لا يُطفأ أنه شجرةٌ من أشجار الجنَّة لها أغصان متدلية في الدنيا. هكذا هكذا ما دامت هناك دار تُسمىٰ الدنيا؟!

ولقد روي عن رسول الله «ص» أنه قال: خمس من أتىٰ الله عزّ وجلّ بهنّ أو بواحدة منهنَّ أوجبت له الجنة: من سقىٰ هامة صادية، أو أطعم كبداً هافية، أو كسىٰ جلدة عارية، أو حمل قدماً حافية، أو أعتق رقبة عانية[١].

كما روي عنه «ص»: يؤتىٰ يوم القيامة برجل فيقال: احتج. فيقول: يارب خلقتني وهديتني وأوسعت عليَّ فلم أزل أوسع علىٰ خلقك وأنشر عليهم؛ لكي تنشر علي هٰذا اليوم رحمتَك وتيسره. فيقول الرب تعالىٰ ذكره: صدق عبدي أَدخلوه الجنة[٢].

ثم أَلا يكفي البخلَ خزياً وشناراً وذلاً وصغاراً لا يُمحىٰ ولا يبلىٰ أَنه شجرة من أشجار النار لها أغصان متدلية في الدنيا. هكذا هكذا ما دامت هناك دار تُسمىٰ الدنيا؟!

وقد سمع عبد الله بن عمر بن الخطاب رجلاً يقول: الشحيح أعذر من الظالم. فقال ابن عمر: كذبت سمعت رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم» يقول: الشحيح لا يدخل الجنة[٣].

كم هو محبَّذٌ وطهورٌ وقُدسي هٰذا السخاء الذي يكون أَوَّله راسٍ في الدنيا مُشَرِّف لها ومعطِّر لآفاقها الوسيعة، ونهايته عبر الطريق الطويل الطويل راسٍ في الآخرة وفي الجنة بالتحديد متشرِّف بها ومتعطِّر بأَريجها الطيب الفواح؟! وكم

---

١ - نزهة الناظر / ١٣ ومستدرك الوسائل ١ / ٢٢٠.

٢ - جامع السعادات ٢ / ١١٦.

٣ - مجمع البحرين في زوائد المعجمين، ٨ / ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الحديث (٤٩٧١)، والترغيب والترهيب (٣٨٣٧).

هو رجس خبيث مَقيت هٰذا البخل الذي يكون أَوَّله راسٍ في الدنيا مُشَوِّه لها ومنتن لآفاقها الوسيعة، ونهايته عبر الطريق الطويل الطويل راسٍ في الآخرة وفي النار بالتحديد متشبِّث بها ومتنتِّن بصديد جهنم وبئس المصير؟!

«يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»[١].

ثلاثة مصطلحات

٢٥ ـ قال رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: الرجال أربعة: سخيٌّ وكريمٌ وبخيلٌ ولئيمٌ، فالسخيُّ الذي يأكُل ويُعطي، والكريمُ الذي لا يأكل ويعطي، والبخيلُ الذي يأكل ولا يعطي، واللئيمُ الذي لا يأكل ولا يعطي[٢].

السخي والجواد والكريم ثلاث مفردات يراد بها حسب المصطلح معنىً متحداً ـ في بعض الأحايين ـ ويراد بالسخي أحياناً مرتبة من البذل وطيب النفس بالعطاء دون مرتبة الجواد والكريم. كما ان الكريم يطلق أحيانا علىٰ الجواد ـ بنحوٍ من الترادف ـ ويطلق أحايين كثيرة علىٰ مجمل الصفات الأخلاقية الفاضلة والتي منها اتصاف صاحبها بالجود، كما في قول علي (عليه السلام)[٣]: ما استقصىٰ كريم قط قال تعالىٰ في وصف نبيه: «عَرَّفَ بَعْضَهُ وأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ»[٤]. وقوله (عليه السلام): العفو يفسد من اللئيم بقدر ما يصلح من

---

١ – الزلزلة، الآية / ٦ ـ ٨.

٢ – الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): مصابيح الشريعة / ٣٥. والمواعظ العددية / ٢٠٧.

٣ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢٠ / ٢٦٤. الحكمة / ٨٦.

٤ – التحريم الآية / ٣.

الكريم [١] أَو قوله (عليه السلام) كذلك: الرغبة إلىٰ الكريم تحركه على البذل وإلىٰ الخسيس تغريه بالمنع [٢].

وقال الراغب: السخاء هيئة للانسان داعية الىٰ بذل القنيات حصل معه البذل أو لم يحصل، ويقابله الشحّ، والجود بذل المقتنىٰ، ويقابله البخل. هٰذا هو الأصل، وإن كان كل واحد منهما قد يستعمل في موضع الآخر، ويدلّل علىٰ هٰذا الفرق أنهم جعلوا الفاعل من السخاء والبخل علىٰ بناء الأفعال الغريزية فقالوا: شحيح وسخيّ، وقالوا: جواد وباخل، وأما قولهم بخيل فمصروف عن لفظ الفاعل للمبالغة كقولهم راحم ورحيم، ولكون السخاء غريزة لم يوصف البارئ تعالىٰ به [٣].

والحديث الذي بين أيدينا قد جعل مرتبة السخيّ دون مرتبة الكريم، مفرّقاً ما بينهما بقوله «ص»: السخي الذي يأكل ويعطي، والكريم الذي لا يأكل ويعطي، وينبغي الفات النظر الىٰ أن الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» لا يعني أن الكريم ـ من الوجهة العملية ـ لا يأكل من طعام الآخرين ولا يشاركهم في الموائد أبداً. كيف يكون هٰذا والرسول «ص» نفسه مصداق للكريم الذي يُدعىٰ فيجيب، ولطالما أكل الكرماء من طعام غيرهم. وإنّما يعني ـ في تصورنا ـ ان الكريم وهو يعطي ويهب، إنما يفعل ذلك غير ناظر الىٰ حسن الجزاء، والىٰ مقابلة الجميل بالجميل، وإنما يعطي قربة الىٰ الله تعالىٰ، أو حبّاً بالكرم.

وأما السخي ـ في الحديث الشريف ـ فإنَّه مع عطائه كأنه ناظر للجزاء. كما ينبغي الفات النظر الىٰ أن السخي هنا غير السخي الوارد في كلام الخادم عن الرضا

---

١ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢٠ / ٢٧٠، الحكمة / ١٢٤.

٢ – المصدر نفسه ٢٠ / ٢٧٤، الحكمة / ١٧٠.

٣ – الذريعة الىٰ مكارم الشريعة / ٢١٧.

(عليه السلام): السخي يأكل من طعام الناس ليأكلوا من طعامه[١]. لأَنَّ السخيَّ في حديث الرضا (عليه السلام) هو الجواد بعينه، فالفرق واضح بينهما يعرف من السياق. والفارق الثاني ان السخي الأول يُطعِم ليُطعَم، والثاني يَطعم ليُطعِم، فكأن إطعام الناس شيء محبّذ اليه ومرغوب عنده لذا يسعىٰ لتحقيقه. والسخي الوارد في كلام علي الرضا (عليه السلام) هو السخي الوارد في كلام جعفر الصادق (عليه السلام): السخي الكريم الذي ينفق ماله في حق[٢]، وكذا ورد في أحاديث أخرىٰ لا مجال لذكرها.

وإتماماً للفائدة نذكر ما قاله الفقيه الجليل ابن فهد الحلي في عدة الداعي / خاتمة الكتاب في أسماء الله الحسنىٰ: الجواد هو المنعم المحسن الكثير الإنعام والإحسان، والفرق بينه وبين الكريم أن الكريم الذي يعطي مع السؤال، والجواد الذي يعطي من غير السؤال. وقيل بالعكس، والجود السخاء ورجل جواد أي سخي. ولا يقال لله تعالىٰ السخي؛ لأن أصل السخاوة راجع إلىٰ اللين يقال أرض سخاوية وقرطاس سخاوي إذا كان ليناً. وسمي السخي سخياً للينه عند الحوائج[٣].

---

١ - عيون أخبار الرضا، ٢ / ١٢. ٢ - بحار الأنوار، ٧١ / ٣٥٣ و ٣٥٦.

٣ - ونحن نودع البحث عن التنظير للجود والإيثار عن رسول الله «ص» نذكر بعض ما عثرنا عليه كذلك من أحاديثه «ص» فمن جملته:

- السخاء كَمَالُ الْمُؤْمِنِ - مستدرك الوسائل، ١٥ / ٢٥٨ / ١٦ - باب استحباب الجود والسخاء..
- العوثر علىٰ نفسه من أهل الجنة - مجموعة ورام، ٢ / ١١٨.
- السخاء حَسَنٌ لكنه في الأغنياء أحسن - مجموعة ورام، ٢ / ١١٨ وإرشاد القلوب ١ / ١٩٣.
- غني سخي أجره كأجر الخليل إبراهيم (عليه السلام) - مجموعة ورام ج ٢ / ١١٨.
- إضاعة المعروف وضعه في غير موضعه - مجموعة ورام ج ٢ / ١١٨.
- وقال رسول الله «ص»: لا ترد السائل ولو بظلف محرق - جامع الأخبار / الفصل السابع والتسعون في ردّ السائل.
- وقال (عليه السلام) لا ترد السائل ولو بشق تمرة - جامع الأخبار / الفصل / ٩٧ في ردّ السائل.

ـ وقال « ص » لولا أن السُّوّال يكذبون ما قدس من ردهم - جامع الأخبار / الفصل السابع والتسعون في ردِّ السائل.

ـ قال النبي الخاتم « ص » : الصدقة عشرة أضعاف، والقرض ثمانية عشر ضعفاً. - جامع الأخبار / الفصل الحادي والأربعون والمائة في النوادر وهو آخر الكتاب.

ـ عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله « ص » أي الأعمال أفضل ؟ قال : أن تدخل علىٰ أخيك المؤمن سرورا، أو تقضي عنه دينا، أو تطعمه خبزا. جامع الأخبار / الفصل الحادي والأربعون والمائة في النوادر وهو آخر الكتاب.

ـ عن النَّبيِّ « ص » أنَّهُ قال : إنَّ اللَّهَ جَاءَ بِالإسلامِ فَوَضَعَهُ علىٰ السَّخاءِ- مستدرك الوسائل ١٨٧ /٢ - باب وجوب الجود والسخاء بالزكاة / ٧٥٢٤-.

ـ أمرني ربي بالسخاء والبر ونهاني عن البخل والجفاء - مكارمُ الأخلاق / في جوده « ص ».

ـ ما شيء أبغض إلىٰ الله عز وجل من البخل وسوء الخلق ـ مكارمُ الأخلاق / في جوده « ص ».

التَّنظيرُ العَلَوي للجُودِ والإِيْثار

للجودِ والإحسانِ والغَيْريَّة المكانةُ السامقةُ مابين الذين يتحلّون به ، وما بين الذين لا يتحلّون معاً . والمنُّ سببٌ حادٌّ لتنقيص أهمِّيته المرموقةِ ، ومكانتِهِ الرفيعةِ بين الناس . إنَّ المَنّ إساءةٌ صارخةٌ للجودِ والإِحْسان وأعمالِ البِرِّ بالذات قبلَ الإساءة الىٰ الآخرين .

والمنُّ استردادٌ غير مشروع لبطاقة البِرِّ والإِحْسان .

التَّنظيرُ العَلَوي للجُـــودِ والإيثار

- ١ -

إنَّ أَفضلَ الأَفكـارِ الصحيحـةِ تلك التي تنزلُ إلىٰ حـيِّزِ التَّـطبيـقِ وتشـهدُ حلباتِ مُمارسةِ الواقع، كما إنَّ أفضلَ حالاتِ الواقعِ المُعاشِ ما كان مـنبثقاً عـن الأَفكارِ الصحيحة. إنَّ العلـمَ بمنزلةِ الروحِ والعمـلَ بمنزلةِ الجسـدِ، ولا حيـاةً لإنسـان بدونهما مُجتمعيْن.

ومن هٰذا المنطلق البياني فإن أَفكار إمام الأئمة علي بن أَبي طالب (عـليه السـلام) عن الجـود والندىٰ والإيـثار، وحِكَمَه وأحـاديثه القَـيِّمةَ حـول ذلك منضمَّةً الىٰ مصاديقَ وافـرةٍ من سعة فضـله ونائل كفِّه وبسـطة يـمينه، يُكَـوِّنان بمجموعهما المتناسق الأخّاذ نظريةً متكاملةً وفلسفةً رائـدةً حول العالم الرحيب للجـود والافضال والإيثار، بما لا يستغني جانب منهما عن الجانـب الآخر.

- ٢ -

إنَّ مصاديقَ الجـودِ والإيثار لَتهزُّ الأَحاسيس والمشاعر الإنسـانية، وتـثير الوجدانَ اليَقظ، ما دامت فيه الحياةُ الناشطة أو قبسات من ضيائها الساطع، كما ان التنظيرَ للجود والإيثار يحرِّك القُوىٰ العقلية ويطلق وثائق الأَفكار، فـاذا مـا تكاتف التنظير للجود والإيثار مع المصاديق العملية نتج منهما خَـزينٌ حَـرَكـيٌّ هائِـلٌ ومُوحَّد، يغذّي رؤية الإنسان ويروّي نياطَ قلبه، وبـالتالي يـبعثه تـائقاً مشتاقاً الىٰ التأسي بالأجواد الأكارم، والىٰ أن يكون واحداً من صـفهم مـحبوباً مبجَّلاً، مُحبّاً للخير والفضل والإحسان، مبتعداً عن الأنانية والانغلاق علىٰ الذات،

مشبوبَ العواطف الإنسانية النبيلة.

ونظراً للتحابب والتعانق ما بين الأفكار عن الجود، وما بين الجود كمصاديق حيويَّة، لهذا نرىٰ الإمام المرتضىٰ علياً (عليه السلام) وهو يبسط يده بالعطاء والجود يذكر في الأثناء حديثاً عن الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» حول ذلك، أو يتحدث هو بما يدعم الموقفَ العملي، والأمثلةُ علىٰ ذلك كثيرة ـ كما سنرىٰ إن شاء الله في مطاوي البحث، وثنايا الأدلة والاستشهاد علىٰ جوده ـ

أَلا يدلُّ كلُّ هٰذا علىٰ أن الإمام كما يريد أن يكون الناصحَ في مقام السيرة والعمل، فكذلك يريد أن يكون الناصحَ في مقام الحكمة والموعظة الحسنة والإرشاد المتواصل البنّاء؟

لقد خرج العطاء في أيام المنصور وأقام الشقراني من ولد شقران مولىٰ رسول الله «ص» ببابه أياماً لا يصل إليه عطاؤه، فخرج جعفر بن محمد الصادق من عند المنصور؛ فقام الشقراني إليه فذكر له حاجته فرحَّب به، ثم دخل ثانياً إلىٰ المنصور، وخرج وعطاء الشقراني في كَمِّه فصبَّه في كمِّه ثم قال: يا شقران إنَّ الحَسَن من كلِّ أَحد حَسَن وإنَّه منك أحسن؛ لمكانك منا. وإنَّ القبيح من كلِّ أَحد قبيح وهو منك أقبح لمكانك منا.

فاستحسن الناس ما قاله؛ وذلك لأن الشقراني كان صاحب شراب، قالوا: فانظرْ كيف أَحسن السعي في استنجاز طلبته، وكيف رحَّب به وأكرمه مع معرفته بحاله، وكيف وعظه ونهاه عن المنكر علىٰ وجه التعريض. قال جار الله الزمخشري صاحب التفسير: وما هو إلا من أخلاق الأنبياء[1].

---

١ – ابن فهد الحلي، العدد القوية / ١٥٢ ـ ١٥٣، والشرخ الحديدي، ١٨ / ٢٠٥.

- ٣ -

الجـودُ مَلَكَةٌ خُلُقيَّةٌ عاليةٌ موطنُها النفس، وليس مادةً علميةً بحتة مـركزُها العقل أو الدماغ، ولهٰذا لانستغرب اذا ما وَجدنا مسماحاً مُفضلاً ليس له محل رفيع من العلم والفكر والثقافة العالية، وقد لا يُحسن أن يكون في درجة من يستطيع أن يقـرأ ويكتب.

فالجـودكملكة خلقية ـ شبيه بالوفاء والصدق والإبـاء والشـجاعة والثـقة بالنفس وقوة الارادة وغيرها من الملكات الخلقية الايجابية التي لا يكـون مـن الضروري أن يتصف أربابها بالعلم أو الفلسفة أبداً وإن كان عدد مـنهم يـتصفون بذلك. ولهذا يقول كونفوشيوس: رأيتُ أُناساً عاجزين عن العلمِ، لكنّي لم أرَ أبـداً أُناساً عاجزين عن الفضـيلة.

وإذا ما رغبنا أن نثبت لوحَةً شاخصةً للتدليل علىٰ المطلب، فلنراجع بـدقَّة أكثر الأجواد ابتداءً من التأريخ القديم الىٰ العصر الحاضـر. لنلحظ أن أكثرهم لم يكونوا قد دبَّجوا ملكتهم الخلقية وعشقهم للإفضـال والإكـرام بـحِكَمٍ مُـعينة، أو بأفكارٍ عميقة، أو بنظرياتٍ فلسفيَّةٍ منسَّقةٍ أو غير منسّقة. وإذا ما رأينا طائفة من الحكم عند جماعة منهم، أو شذرات من الأفكار الجيدة، فإنهم قليلون، بل قليلون جدّاً بالقياس الىٰ الحسابات الأوَّلية التـقديريَّة مـن أعـداد الأجـواد والكـرماء والمحسنين. ولا ننكر أن بعضهم قد دَوَّن نظراته وتصوُّراته عن الجـــود والبـذل والإحْسان ببعض القصائد أو المقاطع من الشعر الجمـيل.

وفي حالاتٍ نادرة الوجود نوعاً ما يبرز مثل النبي الخاتم محمد «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» والإمام علي بن أبي طالب، وبقية أئـمة أهـل البـيت النـبوي (عليهم السـلام) علىٰ صعيد الكرم والإفضال والإيثار، فاذا نحن أمام ينبوعٍ نَرٍّ متدفِّـقٍ من فلسفة الجود، ونظريته السديدة الخالدة، يقبل عليها بتلهف ورغبة من

أَحَبَّ العلم والمعرفة والحكمة والحديث. ولقد آثرنا أن نُدوِّن في هذا الكتاب ما قاله أمير المؤمنين علي ـ وكنا قد أوردنا أشياء كثيرة مما قاله الرسول « صلىٰ الله عليه وآله وسلم » ـ تسهيلاً للطالبين والراغبين وتحبيذاً وتشويقاً لمن لم يكن منهم، وتنظيماً لوجودها متَّسقةً بدل انتشارها متفرِّقة في مختلف بطون الكتب، وإن كنا لم نأت بها جميعاً. علماً بأنَّ من الأهداف الكبرىٰ لتدوينها: أنْ لا يصبح الجود وكأنه واقعٌ غيرُ مدروسٍ أو منظَّرٍ له عند رسول الله « صلىٰ الله عليه وآله وسلم » وأَئمةِ أَهل البيت (سلام الله عليهم أجمعين) وغير بعيد عن الصواب بعداً كبيراً ما كان يقوله الفيلسوف اليوناني سقراط: إن الأَخلاق نفسها لا يمكن أن تقوم إذا لم تسبق بالعلم لأن الفضيلة تُقَدَّم علىٰ العلم.

فهلمَّ معي ـ أيها القارئ العزيز ـ وكلُّك سمع وإصغاء واستلهام فإنّك أمام آياتٍ بيِّناتٍ من العلم والفهم العميق والإدراك الحيويِّ النابض الفعّال، ومن التوفيق الإلهيّ أن تتاح للإنسان فرصة كافية للاطِّلاع الوافي عليها والتزوّد من أَفانين جلالها وجمالها ودروسها المهذِّبة للنفس والمجتمع المدني والعسكري، فالحمد لله حمداً كثيراً وله الشكر كل الشكر علىٰ سعادة التوفيق.

الْجَوَادُ الَّذِي لا يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِين

١ ـ من الجدير بالذكر ونحن نريد أن نتحدث عن الجود الإنساني فيما ينبغي أن يكون عليه طبقاً لنظرية الإمام علي، أن نتحدث باقتضاب وإيجاز شديد عن الجود الإلهي في واحدة من خطبه (صلوات الله عليه)، وذلك لأن الله تبارك وتعالىٰ الأَصلُ الأَصيلُ للجود والمنبع الأَول للعطاء الأجزل، ولأنه عزَّ وجلَّ الوحيد من بين الأَجواد والكرماء الذي له دون سواه الملكية الحقيقية ـ لا

الاعتبارية كملكية الانسان ـ ينفق منها تعالىٰ بسيولة وغزارة ويـرزق الخـلائق أجمعين، فإنه حتىٰ الأَموال التي يجود بها الكرماء فإنما هي مما خولهم ورزقهم «وَٱللَّهُ يَـرْزُقُ مَن يَشَـآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ»[١].

يقول الإمام علي (عليه السـلام) في الخطبة المعروفة بالأشباح من خطب نهج البلاغة، وهي من أعظم الخطب وأسمىٰ الكلام وأروع البيان: الحمدُ للهِ الَّذِي لا يَفِرُهُ الْمَنْعُ وَالْجُمُودُ، وَلا يُكْدِيهِ الإِعْطَاءُ وَالْجُودُ، إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلاهُ، وَهُوَ الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ، وَعَوَائِدِ الْـمَزِيدِ وَالْـقِسَمِ، عِـيَالُهُ الْخَلائِقُ ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ، وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ، وَالطَّالِبِينَ مَـا لَدَيْهِ، وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ[٢]. الىٰ أن يقول في الخطبة ذاتها: وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَـادِنُ الجِبالِ، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْـبِحارِ، مِـنْ فِـلِزِّ اللُّجَيْـنِ[٣] وَالْعِقْيَـانِ[٤]، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِـيدِ الْمَرْجَانِ، مَا أَثَّرَ ذلِكَ في جُودِهِ،

---

١ – البقرة، الآيـة / ٢١٢.

٢ – قال ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة: يفره المنع يزيد فـي مـاله، والمـوفور التـام، وفرت الشيء وفرا ووفر الشيء نفسه وفورا يتعدىٰ ولا يتعدىٰ، وفي أمثالهم: يوفر ويحمد. هو من قولك وفرته عرضه ووفرته ماله. وقوله: ولا يكديه الإعطاء أي لا يفقره ولا ينفد خزائـنه، يقال: كدت الأرض تكد وفهي كادية، إذا أبطأ نباتها وقل خيرها، فهذا لازم فإذا عـديته أتـيت بالهمزة فقلت: أكديت الأرض، أي جعلتها كادية وتقول: أكدىٰ الرجل إذا قل خيره. وقوله تعالىٰ: وَأَعْطىٰ قَلِيلاً وَأَكْدىٰ. أي قطع القليل. يقول: إنه سبحانه قادر علىٰ المقدورات وليس كالملوك من البشر الذين إذا أعطـوا نقصت خزائنهم، وإن منعوا زادت، وقـد شرح ذلك وقال: إذ كـل مـعط منتقص أي منقوص.

٣– اللجين: الفضة، قال دارد بن علي بن عبد الله بن عباس: يا أهل العراق إنا والله مـا خرجنا لنحفر نهرا ولا لنكنز لجينا ولا عقيانا، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزاز الظـالمين حـقنا. وقال الإمام علي في وصف الطاووس: وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ قَدْ نُطِّقَتْ

وَلا أَنْفَدَ سَعَةَ ما عِنْدَهُ، وَلَكانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الأَنْعَامِ، مَا لا تُنْفِدُهُ مَطالِبُ الأَنَامِ، لأَنَّهُ الجَوَادُ الَّذِي لا يَغِيضُهُ سُؤَالَ السَّائِلِينَ، وَلا يُبَخِّلُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ[٥].

الاقتداء بجود الله تعالىٰ

إن الصفوة من خيرة الجُوَداء والكرماءِ هم أُولئك الذين يحاولون قصارىٰ جهدهم أن يقتدوا بالجود الإلهي الذي عَمَّ الأَكوانَ بالخيرات والفواضل، إذ الاقتداء بالجود الإلهي غاية الغايات ومنتهىٰ الرغبات، ولكن من أين للإنسان وهو ذلك المخلوق المحدود القدرة الضعيف الكيان ـ حتىٰ وان كان جواداً غنياً بالنسبة الىٰ البشر ـ أن يقتدي بواهب الوجود والحياة بكل أبعادها وتفصيلاتها وبرازق العباد والبلاد بفيض إحسانه وعظيم جوده وكرمه؟

ثم صفات إلهية كثيرة من الممكن جداً للإنسان الاقتداء بها واتخاذها شعاراً خلاقاً في التوجّه والسلوك فباستطاعة الإنسان مثلاً أن يعفو عن الخاطىء ويصفح عن المسيء، ومن صفات الله سبحانه أنه عفوٌّ غفورٌ ولكن الإنسان يعفو عن شخص أو أشخاص والله يعفو عن خلائق وخلائق مع ملاحظة الفوارق

بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ. ٤- العقيان: الذهب الخالص.

٥ - وجاء هذا النص عن الإمام أمير المؤمنين في كتاب «التوحيد» للصدوق رحمه الله مع اختلاف وتغاير، قال (عليه السلام): الحمد لله الذي لا يفره المنع، ولا يكديه الإعطاء، إذ كل معطٍ منتقصٌ سواه، المليء بفوائد النعم، وعوائد المزيد، وبجوده ضمن عيالة الخلق؛ فأنهج سبيل الطلب للراغبين إليه، فليس بما سُئل أجود منه بما لم يُسأل، وما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال، وضحكت عنه أصداف البحار، من فلذ اللجين، وسبائك العقيان، ونضائد المرجان لبعض عبيده، لما أثر ذلك في وجوده، ولا أنفد سعة ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الإفضال، ما لا ينفده مطالب السؤال، ولا يخطر لكثرته على بال، لأنه الجواد الذي لا تنقصه المواهب، ولا ينحله إلحاح الملحين، «وإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» التوحيد / ٤٩.

الكبيرة بين خطأ الإنسان بحق أَخيه وبين ذنوب الإنسان وعصيانه وتمرّده علىٰ جبـار السماوات والأَرضين. وباستطاعة الإنسان مثلاً أَن يشكر المنعم ويثني علىٰ المفضل ويفي للمحسن مقتدياً بالشاكر العليم متأسياً بوفاء الله تعالىٰ الذي يجازي المحسنين من العباد، ولا يخلف الميعاد، ولا حاجة بنا الىٰ تبيين الفوارق بين شكر وثناء ووفاء الإنسان وبين شكر وثناء ووفاء الحميد المجيد. وهٰكذا بالنسبة الىٰ الاقتداء بجود الله سبحانه.. فإن كون الإنسان يتخلق بأخلاق الله ـ بصفة الجود مثلاً ـ أمر له شأن كبير جداً في عالم الأَخلاق والمثل الروحية العليا، ويقتدي بجود الله من بعض الجهات الرئيسية من قبيل أن فضل الله شمل القريب منه والبعيد وأن شمسه العظيمة ترسل الأمواج البديعة من أشعتها الفضية الجميلة علىٰ الصالح والطالح، وأن لآلىءَ القمرِ الزاهر تكشف الظلمات عن البرِّ والفاجر، فالجواد حق الجواد من الناس من يكرم الصديق بإحسانه ولا يغفل عن التلطف لاكرام الغريب والبعيد.

تَجَلِّياتٌ مشـرقَةٌ من الإِحْسان والنوال

فيوضُ جودٍ بلا حدودٍ ولا سدود، وسحائبُ عطاءٍ بلا انتهاءٍ ولا انـقضاء، وربيعُ إحسانٍ بلا امتنانٍ ولا امتهان، وبحارُ نوالٍ مع السؤال وبلا سؤال، هٰـذا هو اللهُ الخـلاقُ الكريـمُ البَرُّ الرحيـمُ في جوانب من جوده وعطائه، وفي تَجَلِّياتٍ مشـرقةٍ من إحسانه ونَواله. ولقد أَبان رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» في الحديث التالي جانـباً آخر من جوانب جوده وعطائه تبارك وتعالىٰ قائلاً: إنَّ للهِ باباً في سماءِ الدنيا يقالُ به بابُ الرحمةِ وبابُ التوبةِ وبـابُ الحـاجَـاتِ وبـابُ التفضُّلِ وبابُ الإحسَـانِ وبابُ الجودِ وبابُ الكرم[1].

ولقد تعرَّض القرآن الحكيم لجود الله سبحانه مُنَبِّهاً مُؤَكِّدا، ولأصابعِ اتـهامِ

---

١ - الوسائل، ١٣ / ٥٥٠.

كرمِهِ مُسَفِّهاً مُفَنِّدا، بأَصحِّ رؤيةٍ وفكرة، وأصدقِ كلامٍ ولهجة، وأعذبِ منطقٍ ولفظة، فقال في الاثبات والتأكيد وفي التسفيه والتفنيد معاً: «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا..»[1].

قالت الفَلاسفة: الجود علىٰ أقسام فمنها الجود الأعظم وهو الجود الإلهي وهو الفيض العام المطلق؛ وإنما يختلف لاختلاف المواد واستعداداتها؛ وإلا فالفيض في نفسه عام غير خاص، وبعده جود الملوك وهو الجود بجزء من المال علىٰ من تدعوهم الدواعي والأغراض إلىٰ الجود عليه، ويتلوه جود السوقة وهو بذل المال للعفاة أو الندامىٰ والشَّرْب والمعاشرين والإحْسان إلىٰ الأقارب. قالوا: واسم الجود مجاز إلا الجود الإلهي العام فإنه عارٍ عن الغرض والداعي، وأما من يعطي لغرض وداعٍ نحو أن يحبَّ الثناء والمَحْمَدة فإنه مستعيض وتاجر يعطي شيئاً ليأخذ شيئاً[2].

إذا أَردتَ أَن تدعو فمجِّدِ اللهَ واحمدْه وسبِّحْه

ما لدىٰ الإنسان من نعم وفواضل في نهاره وليله وحضره وسفره وفي جميع حالاته وشؤونه الخاصة والعامة فهي من كرم الله سبحانه وجوده عليه تفضلاً منه تبارك وتعالىٰ، سواء علم الإنسان بأكثر ذلك أم لم يعلم، وسواء قابل الفضل والكرامة بالحمد والشكر أم بالجحود والكفران. غير أن بحوراً زخّارةً من آلاء الله ونعمه لا تتأتىٰ من دون سؤال وطلب واسترفاد، وبالطبع أنه لا حاجة لله الغني المطلق الىٰ سؤال السائلين ودعاء الملحّين وتوسّلهم، ولكنه سبحانه جواد كريم يُحِبُّ أن يُسْأَلَ ويُستَمْنَحَ بالاضافة الىٰ عطائه وإحسانه ابتداءً. وإذا كان من أَدب

١- المائدة الآية /٦٤.

٢ - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٣١٩.

استرفاد كرماء البشر الثناء عليهم وتبجيل مقاماتهم السنيَّة، كالذي يقوله علىٰ سبيل المثال الوزير عبد الخالق ثروت باشا: إليك يا من قد استأسر النفوس بكرمه، واسترق الأحرار بجميل صنعه، وأولىٰ النعم والخيرات، وأسدىٰ المعروف والمبرّات، أرفع كتاباً تبعثه الىٰ ناديك العالي عوامل الحاجة، وتزجيه الىٰ ساحتك دواعي الشدة، آمل أن يكون تذكرة بأمري والذكرىٰ تنفع المؤمنين، وتذكرة بحالي والله يحب المحسنين؛ فقد كان سيدي رفع الله قدره وأعلىٰ مرتبته وعدني ومثله من يتمسك من الوفاء بالعروة الوثقىٰ ويقطع حبل الاخلاف بسيف الوفاء، ويطرِّز خِلعة الوعد بوشي العطاء: أن يرسل لي من خيراته، ويوليني من آلائه وحسناته، ويضاعف لي من مننه، ويزيدني من عطائه، ما أَشدُّ بـه أزري علىٰ الزمان..[1].

فإن الأمر ينبغي أن يكون كذلك مع الواحد المتعال (الذي لا يزداد مع كثرة العطاء إلاكرماً وجوداً). فنمجِّده ونثني عليه ونشيد بآيات إحسانه وجوده تقدمةً بين يدي استعراض الحوائج والافصاح عن مكنون المطالب.

عن الحارث بن المغيرة عن أَبي عبد الله (عليه السلام) قال: إذا أَردت أن تدعو فمجِّدِ اللهَ عزَّ وجلَّ واحمدْه وسبِّحه وهلِّلْه وأَثنِ عليه وصلِّ على النبي «ص» ثم سَلْ تُعْطَ. وعنه (عليه السلام) قال: إذا طلب أحدكم الحاجة فليثنِ علىٰ الله سبحانه وليمدحه؛ فإن الرجلَ إذا طلب الحاجة من السلطان هيَّأ له من الكلام أَحسن ما يقدر عليه؛ فإذا طلبتم الحاجة فمجِّدوا الله العزيز الجبار وامدحوه وأثنوا عليه تقول: يا أجود من أعطىٰ يا خير من سئل يا أَرحمَ من اسْتُرحم، يا واحِدُ يا أَحَدُ يا صَمَد، يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، يا من لم يتخذْ صاحبةً ولا ولداً، يا من يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ويقضي ما أَحَبّ، يا

---

١ - أحمد الهاشمي، جواهر الأدب / ٨١.

من يحول بين المرء وقلبه، يا من هو بالمنظر الأعلىٰ، يا من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وأكثرْ من أسماء الله عزَّ وجلَّ فإن أسماء الله كثيرة، وصلِّ علىٰ محمد وآل محمد وقل: اللهمَّ أوسعْ عليَّ من رزقك الحلال ما أكفُّ به وجهي وأؤدي به عن أَمانتي وأَصِلُ به رحمي ويكون عوناً لي علىٰ الحج والعمرة[١].

ما يذكره الإمام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) من مفردات الرزق الحلال إنما هو علىٰ سبيل الأمثلة أو خصوص الاشارة الى بعض المواطن، وإلا فإن باستطاعة الإنسان أن يسأل الله سبحانه وتعالىٰ ويستعطيه بعد الحمد والتمجيد والذلِّ والاستكانة ما لا يُعدّ أو يحصىٰ من ألوان الرزق الحلال، ومن كبريات حاجات الدنيا والآخرة وصغرياتها واللهُ ذو الفضلِ العظيم.

مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّة

٢ ـ قال إمام الأولياء والصديقين علي (عليه السلام): مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ[٢].

أ ـ إن ما بين الإنسان وإن كان جواداً كريماً وبين «الَّذِي لا يَفِرُهُ الْمَنْعُ وَالْجُمُودُ وَلا يُكْدِيهِ الإِعْطَاءُ وَالْجُودُ» ـ علىٰ حدِّ تعبير الإمام علي ـ لَبوناً بعيداً للغاية، وأين الذي تتعرض ملكيته وأمواله مهما كثرت وطالت وامتدت الىٰ القلة والنقصان بقدر ما يهب وينفق منها، من الذي له «خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ»؟

---

١ ـ الطبرسي، مكارم الأخلاق / ٢٧٤.

٢ ـ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٨ / ٣٣٦ / باب المختار من حكم أمير المؤمنين (عليه السلام) الحكمة / ١٣٤، والعلامة المجلسي، بحار الأنوار ٧٤ / ٣٨٧ و ٧٥ / ٦١ و ٧٥ / ٢٠٩ و ٩٣ / ١١٥.

وعلىٰ هٰذا الأســاس فإن الإنســان بشكل عــام ـ اذا لم يتيقن أو يتحسس ـ بوضوح وجلاء ـ بحصول العوض لما ينفق ويعطي، فإنه لا تسخو نفسه بالعطاء، ولا يجـود بالمال، إلا في حالاتٍ من الضرورة والاضطرار أو الحرج الشديد.

قال ابن أبي الحديد المعتزلي تعليقاً علىٰ حكمة الإمـام (عـليه الســلام) وشرحاً لها: هٰذا حَـقٌّ لأن من لم يوقن بالخلف، ويتخوف الفقر، يضن بالعطية، ويعلم أنه إذا أعطىٰ ثم أعطىٰ، استنفد ماله، واحتاج إلىٰ الناس لانقطاع مـادته، وأما من يوقن بالخلف، فإنه يعلم أن الجود شرف لصاحبه، وأن الجواد مـمدوح عند الناس، فقد وجد الداعي إلىٰ السماح، ولا صارف له عنه، لأنه يعلم أن مادته دائمة غير منقطعة، فالصارف الذي يخافه من قدمناه ذكره، مفقود في حقه، فلا جرم أنه يجود بالعطية.

وكلام ابن أبي الحديد كلام صحيح وسديد، حتىٰ في عبارته: لأن مـن لم يوقن بالخلف، ويتخوف الفقر، يضنّ بالعطية. فإن هٰذا لا يُنقض بـوجود أفـراد متميِّزين من الأكارم والأجاود يـندفعون بســماح للـهبات والأعـطيات وإن لم يتحسسوا بالخلف ويتيقنوا بالعوض، لأن شارح نهج البلاغة يشير الىٰ قاعدة عامة في ذلك، وأَما مثل هؤلاء الأكارم والأجاود، فهم لا يشكلون أكثر من حـالات استثنائية خاصة، لا تهدم القاعدة العامة ولا تنقضها. فتأَمَّـل.

وما يقوله أمير المؤمنين علي هنا حول الايقان بالخلف الداعي الىٰ الجود بالعطية، نظير لما يقوله في مواطن أخرىٰ، وكلها تصبّ في نهر واحد رقـراقٍ سائغٍ للشاربين، فلا تنافر أو تعارض بينها، ولا تضارب في معانيها ومحتوياتها، يقول (عليه السلام): إن تبذلوا أموالكم في جنب الله فإن الله مسرع الخلف[1]. ويقول

١- غُرر الحكم، الحكمة / ٨٥٧١.

كذلك: مَن بذل في ذات الله ماله عجل له الخلف[١].

وكل هٰذه المعاني تجري مع كتاب الله سبحانه حيث يجري، يقول تبارك وتعالىٰ: «وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ»[٢][٣]. ومما يقوله الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» حليف القرآن ومفسره للعالمين في ذلك: لا يَصْدُقُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّىٰ يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ[٤]. ويروىٰ أنه «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال وهو يدعو الله تبارك وتعالىٰ: اللهمَّ اجعلْ لمنفقٍ خلفاً، ولممسك تلفاً[٥].

بـ وقد سار علىٰ منهاج الإمام أَمير المؤمنين أولاده الأكرمون (ع) وعلىٰ سبيل المثال ما كان من قصة الإمام الحسين بن علي التي رواها محمد بن عبد الرَّحْمٰن السَّخاوي (وفاته عام ٩٠٢ هـ) في كتابه «الجواهر المجموعة» قائلاً: عن الحسين بن علي بن أبي طالب أنه دفع ذات يوم الىٰ سائل عشرة آلاف درهم؛ فقالت له جارية له يقال لها فضة: واللهِ لقد أسرفت يا ابن بنت رسول الله «ص». فأنشأ يقول:

١- عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٦١١، وغُرر الحكم، الحكمة / ٨٥٨٢.

٢- سبأ الآية /٣٩.

٣ - في رواية عثمان بن عيسىٰ عمن حدثه عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قلت: قول الله: وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُو يُخْلِفُهُ. وإني أنفق ولا أرىٰ خلفا! قال: أفترىٰ الله أخلف وعده؟ قلت: لا. قال: فمم ذلك؟ قلت: لا أدري قال: لو أحدكم اكتسب المال من حله وأنفقه في حقه، لم ينفق رجل درهماً، إلا أخلف الله عليه.

٤- شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٢١٦.

٥ - الذريعة الىٰ مكارم الشريعة / ٢١٨. وجاء في نور الحقيقة للحسين بن عبد الصمد الحارثي / ٢٢٦ عن رسول الله «ص»: ما من يوم غربت فيه الشمس إلا وملكان يناديان: اللهم أعطِ منفقاً خلفاً وممسكاً تلفاً.

إذا جـــمعت مـــالاً يـــدايَ ولم أُنِـــلْ

فـــلا انـبسطت كـــفي ولا نـــهضت رجـــلي

أَريـــني بـــخيلاً نـــالَ خُـــلداً بـبخله

وهـــاتِ أَريـــني بـــاذلاً مـــات مـــن هُـــزْلِ

عـــلىٰ اللهِ إخـــلافُ الذي أَتـــلفت يَـــدي

فـــلا مُـــهلكي بَـــذلي ولا مُـخْلِدِي بُـخلي[1]

جـ نجد في علم الاقتصاد الحديث اصطلاح الائتمان Credit الذي يعني مبادلة موضوع التزام حاضـر مع موضوع التزام في المستقبل، أو بـعبارة ثـانية واضحـة: التنازل عن مال حاضر مقابل مال مستقبل اعتماداً علىٰ الثقة، واشتقاق كلمة الائتمان Credit من الكلمة اليونانية Credere بمعنىٰ الثقة.

والآن فلتتسائل يا من توحدون الله تبارك وتعالىٰ هل الثقة بوفاء الطـرف الآخر في ارجاع ما قُدم له من المال، أرسىٰ دعامة وآكد من الثـقة بـوفاء اللـه وعهده العظيم حيث يهتف كتابه المجيد في أكثر من آية وآية مباركة: «وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»[2].

١- الجواهر المجموعة الرقم / ٢٠٩.

٢- البقرة، الآيـة /٢٧٢ ـ ٢٧٤.

عبادة المقرَّبين

٣ – يروىٰ عن أَمير المؤْمنين عليّ (عليه السلام): الجودُ في اللهِ عبادةُ المُقَرَّبين[١].

لا ريب أن خدمة الله تبارك وتعالىٰ حقيقة الخدمة بالصلاة والصيام وكثرة الذكر وغير ذلك عبادة جليلة من عبادات المقرَّبين، ولا ريب أن خدمة خلق الله تبارك وتعالىٰ حقيقة الخدمة عن طريق إكرامهم وإتحافهم وقضاء حوائجهم وإجابة الملهوف منهم عبادة جليلة من عبادات المقرَّبين كذلك؛ لأنَّ الخلق كلهم عيال الله وأحبهم الىٰ الله أنفعهم لعياله كما جاء في الحديث النبوي الشريف، ويقول بولانو: الضيافة من عبادة الله[٢].

علىٰ أن يتم كل ذلك تزلُّفاً الىٰ الله وطلباً لمرضاته، فحال هٰذا الجود الذي يوصف بعبادة المقربين حال العبادة ذاتها، فكما أن كثرة الصلاة والصيام والحج وغيرها من مفاصل العبادة الأَساسية لا تجدي بحال ما لم تكن تزلُّفاً الىٰ الله عزَّ وجلَّ وطلباً لرحمته ومرضاته. فكذا حالة هٰذا اللون من الجود.

إن كل عمل من الأعمال إذا أُطلق عليه في الشريعة الإلهية أنه عبادة فهو أمر جسيم حقاً؛ إذ أنه ليس عبادة لملك أو رئيس من الملوك والرؤساء ولا عبادة للمناصب القيادية ولا عبادة للأموال والأهواء والمشتهيات إنه عبادة لله الواحد القهار، أما إذا كان الجود في الله ليس عبادة من العبادات المقبولة والرضية عند الله تعالىٰ فحسب بل هو عبادة المقرَّبين فهٰذا مشهدٌ مُبِينٌ وَنَبَأٌ عَظيمٌ، نعم وَنَبَأٌ عَظيمٌ « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ

---

١ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ١٣٦٧ وغُرر الحكم، الحكمة / ٨٤٨٢.

٢ – يوسف تومال البستاني، أمثال الشرق والغرب / ٧٢.

ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ»[١].

الذين يجودون في اللـه أُوْلَـٰٓئِكَ المـقرَّبون، «وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ»[٢]. كذلك!! يا لروعة الجمال الساحر! يا لروعة الجود في الله! يا لروعة الوصف العلوي للجود في الله!

إنَّ في وصف إمام الأئمة للجـود في الله علىٰ أنه عبادة المقرَّبين حَثٌّ شديد جداً للمؤمنين بالله عز وجلّ علىٰ بذل قصارىٰ جهودهم في سبيل أن يكونوا من المقربين، وحتىٰ الذين لا يريدون منهم أن يكونوا من المقربين، فإنهم سينظرون الىٰ الجـود نظرة تقديس وإكبار مما يجعلهم في مصاف الداعين اليه والذابين عن ميادينه وحياضه ولو بنحو من الأنحاء.

ولا بِدْعَ أن يصدر هٰذا الحث الشديد علىٰ الجـود من فم الإمام علي (عليه السـلام) فإنه ما فتأ طوال حياته المباركة الحاثَّ الكبير وبمختلف الوسائل علىٰ الخير والبرِّ والنوال، وإنه لَمِن أكبر الدعاة في تأريـخ البشـرية الىٰ الإحْسـان والفضيـلة وكل خُلُقٍ عاطرٍ جميـل.

«لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ»[٣].

---

١ – الزمر، الآيـة / ٢٣.
٢ – الواقـعة، الآية / ١١.
٣ – البقرة، الآيـة / ١٧٧.

البخل فقر

٤ ـ قال أَميرُ المؤمنين عليٌّ (عليه السلام) : البخلُ فقر[١].

أحسب أن هٰذا الكلام الرائع بالرغم من وجازته المكثفة قد جاء بشيء بديعٍ متقنٍ علىٰ اطار المفاهيم الأخلاقية والفلسفة الاجتماعية ؛ فإن المعهود ما بينها أن الفقر يعني عدم المال، ولقد كان الشاعر الجاهلي أبو دؤاد الإيادي (جارية بن الحجاج) قد حَبَّر معنىً جديداً باهر المؤدّىٰ بقوله الجليل :

لا أعـــدُّ الاقـــتارَ عـــدماً ولكـــن
فَـــقْدُ مَـــن قـــد رُزئـــته الإعـــدامُ

أما أن يكون البخل فقراً فهو معنىً طريف، والتفاتةٌ سنيَّةٌ و« حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ تُغْنِ ٱلنُّذُرُ »[٢].

ولقد استفاد أحمد بن الحسين أبو الطيب المتنبي (٣٠٣ هـ ـ ٣٥٤ هـ) من حكمة الإمام أمير المؤمنين (البخل فقر) حيث يقول[٣] :

ومـــن يـــنفقِ الســـاعاتِ فـــي جـــمعِ مـــالِهِ
مـــخافةَ فـــقرٍ فـــالذي فـــعلَ الفـــقرُ

وقد أكد الإمام علىٰ كون البخل فقراً في مقولة أخرىٰ من مقولاته العجيبة قائلاً : عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنىٰ الذي إياه طلب : فيعيش فىٰ الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب فىٰ الآخرة حساب الأغنياء[٤].

---

١ – الحافظ أحمد بن محمد العاصمي، زين الفتىٰ في شرح سورة هل أتىٰ ١ / ٢٣٥، وغُرر الحكم، الحكمة / ٦٥٥٠. ٢ – القمر، الآية / ٥.

٣ – شرح ديوان المتنبي للبرقوقي، ٢ / ٢٥٥.

٤ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الحكمة / ١٢١، والباعوني، جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب، الباب ٦٦، الحكمة / ٢٨، وابن حمدون، التذكرة الحمدونية،

كما قال (عليه السلام): الفقرُ اثنان: أحدُهما العدم والحاجة، والآخرُ الحرص والفاقة[١].

ويتجلىٰ كون البخل فقراً عن طريق التركيز في مهمة المال الوافر وضرورة الانتفاع به في مختلف المجالات الدينية والدنيوية، والذي يحرِّم البخيل علىٰ نفسه وعياله وذويه ومن ينبغي الانفاق عليهم أكثر من وسيلة من وسائل الانتفاع والاستفادة في كثير من الميادين. قال الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: يقول ابن آدم: ملكي ومالي، يا مسكين أين كنت حيث كان الملك ولم تكن، وهل لك إلا ماأكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصَّدقت فأبقيت[٢].

إن تكديس الثروة لا يعود في حالة البخل وسيلةً للتمتّع، بل يمسي غاية في ذاتِها، علىٰ حَدِّ ما يرىٰ الفيلسوف الانجليزي جون ستيوارت مل John Stuart Mill[٣].

ومن الضروري أن نأتي ببعض الأدلَّة علىٰ كون البخل فقراً:

أولاً ـ الفقير كما هو معلوم لا يحاول أن ينفق علىٰ نفسه إلا شيئاً يسيراً، والغنيُّ البخيل كذلك.

ثانياً ـ الفقير لا يحاول أن ينفق علىٰ عياله وذويه إلا شيئاً يسيراً، والغني البخيل كذلك.

ثالثاً ـ الفقير لا يحاول أن ينفق علىٰ أصدقائه والمقربين اليه إلا شيئاً يسيراً، والغني البخيل كذلك.

رابعاً ـ الفقير لا يحاول أن ينفق علىٰ حلِّ أكثر مشكلاته المختلفة إلا شيئاً

---

٢ / ٢٦١، والآبي، نثر الدر ١ / ٣٢٦.

١ – الحافظ أحمد بن محمد العاصمي، زين الفتىٰ في شرح سورة هل أتىٰ ١ / ٢٣٦.

٢ – بحار الأنوار، ٧١ / ٣٥٦.

٣ – اميل برهييه، تأريخ الفلسفة / الفلسفة الحديثة، ٧ / ١٧.

يسيراً، ويبقىٰ في حالة عناء وبلاء لعدم قدرته علىٰ الخلاص مما تغشّاه وأحدق به إنْ كانت له حلول عن طريق الأمور المادية، والغني البخيل كذلك، فهو يبذل صحته البدنية وراحة باله وسرور نفسه بل وسمعته ومكانته بين المجتمع دون الأموال ماكان الىٰ ذلك سبيل. اذاً وبناءً علىٰ أساس كل ما مرَّ يكون حال البخيل، وحال من لا مالَ ولا نَشَبَ عنده سواء بسواء.

البخل جامع لمساوي العيوب

٥ – وروي عن أَمير المؤمنين علي (عليه السلام): البخل جامع لمساوي العيوب، وهو زمامٌ يُقادُ به الىٰ كلِّ سوء[١].

أ ـ من أراد أن يرسم لوحَةً فنيةً مشرقةً عن المعاني السامية، فينبغي له أن يستفيد من توظيف اللون الأسود المعتم؛ لأن وجود السواد الىٰ جنب البياض، مما يزيد الأخير نصوعاً وتألقاً واشراقا. وعلىٰ هٰذا الأساس فمن أَراد الحديث المُرَكز والشامل عن الجود والكرم والايثار، وعمن يتمثلون هذه الصفات الرائعة؛ فينبغي له أن لا يدع الحديث الدقيق عن صفة البخل، وعن تبيين وجهه الدميم.. وملامحه البشعة.. وقسماته الشوهاء.. بما يضفي تلقائياً علىٰ الطرف المضاد بهجةً ورونقاً، ويكسبه جمالاً الىٰ جماله الخَلاق.

بـ يمكن القول بأننا في اطار الفلسفة الأخلاقية والروحية يصح لنا أن نقسم المستهجَنات الأخلاقية والروحية الىٰ قسمين:

القسم الأَول: المستَهْجَنات الأَخلاقية والروحية ذات الطابع الأُحادي الجانب، ونعني بها المستهجنات التي تعبِّر بشكل مركزي عن واحدة من العيوب

---

١ – سجع الحمام في حكم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الحكمة / ٤٩٦، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٩ / ٩٥، والتذكرة الحمدونية، ٢ / ٣٢٢، وربيع الأبرار ٤ / ٣٩٣. وفي بحار الأنوار ٧٥ / ١٣ عن أمير المؤمنين (عليه السلام): والبخل جامع لمساوي الأخلاق.

والنواقص لا أكثر، وذلك مثـل صفة الاتكال علىٰ الآخريـن، وكذا صفة ضعف الارادة..

القسـم الثانـي :المستَهْجَنات الأَخلاقية والروحية ذات الطابع الالتـفافي، ونعني بها المستهجنات التي تعبر بشكل مركزي عن أكثر من نقص، وتضم اليها عيباً آخر أو عيبين أو أكثر، وذلك مثل صفة الكذب، وصفة البخل.

في كلمة الإمام (صلوات الله عليه) ما يدل بصـراحة ووضـوح عـلىٰ أن البخل ليس عيباً من العيوب فحسب، وإنما هو جامع لمساوىء العيوب أيضـاً. أما عن مساوىء العيوب التي يضمها البخل بين دفتيه ويجمعها في حضيرته الوبيلة ومرعاه الوخيم، فهي تُعرف بعد التدقيق في الأمثلة الرئيسية التالية:

أ ـ التحجر الذاتي: فإن البخيل متحجرٌ بذاتـه، أنـانيٌّ بـطبعه وتـصرفاته، ويحمله الهوىٰ الذاتي المتسلط عليه والغالب علىٰ تفكيره وسلوكـه علىٰ الانتفاع بالمال، وتوظيف الملكية في حدود دائرة المـصالح الشـخصيه المـتقوقعة دون سـواها.

بـ ضعف التفاعل الايجابي مع الآخرين: سواء من جـهة مأسـاتهم، ولولا البخل لأعانهم من أمواله، أو من جهة العيش معهم بما ينفعهم ويسـاعد من يحتاج الىٰ المساعدة، ويشارك مشاركة فعالة ومسـؤولة فـي المشـاريع الانسـانية أو المؤسسات الخيرية.

جـ قلة العناية بالكرامة والمنزلة الاجتماعية؛ حيث أن البـخيل كـثيراً مـا يتعرض الىٰ التجريح والنقد الاجتماعي بـل والسـياسي عـلىٰ حسـاب مـنزلته وكرامته، سواء يكون ذلك التجريح والنقد وجـهاً لوجـه مـعه، أو فـي الأنـديـة والمجالس الخاصة، وما بين الأصدقاء وشبه الأصدقاء والأعداء وشبه الأعداء، خصوصاً في بعض المجتمعات المتشددة والعنيفة النـقد والسـريعة الىٰ الهـجوم والاتهام، فلا هو يتوب من البخل توبة نصوحاً في بدء مسيرته، ولا هو يقلع اقلاع الصائن لشخصيته من بعد المعرفـة بما يقال عنه من السـوء والقـدح والتـنقص، ولنسأل أصحاب الضمائر الحية جميعاً هل هٰذا حـقاً شأن الراعـي لكـرامـته أن

تُمَس، ولشخصيته أن تُهتَك، ولوجاهته أن تُداس، ولعزَّته أن تُصفع؟ كلا وألف كلا.

د ـ عدم الثقة العالية بالعلي العظيم، الوهاب الكريم، الرزاق ذي القوة المتين، الذي يدر الأرزاق علىٰ العباد، ويحب المحسنين، ويجزي المتصدقين، ويكرم الكرام، ويعوض عما فات، ولا أكتم القراء الأعزاء ما أعتقده منذ صغر السنّ حيث كنت أقول أنَّه: لو زادت الثقة بالله علىٰ الثقة بالمال لما بخل الباخلون. ولم يكتف أمير المؤمنين (عليه السلام) بالقول أن البخل جامع لمساوي العيوب، بل أضاف اليه اضافة الحكيم العارف المتيقن مما يقول ويهدف اليه بأن البخل زمام يقاد به الىٰ كلِّ سوء. مما يدفعنا الىٰ رسم ايضاحات عن جملة من مصاديق السوء التي يقود لها البخل. وتتمثل هذه في أمور من بينها علىٰ سبيل المثال:

أولاً ـ البخل علىٰ الجهاد والمجاهدين: في عدد من آيات القرآن الحكيم يقرن الله تبارك وتعالىٰ الجهاد بالأموال بالجهاد بالنفوس والأرواح والدماء للأهمية البالغة لكل منهما فقال عز من قائل: «لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيماً * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً»[1].

وقال عز من قائل: «فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ..»[2].

والبخل يمنع صاحبه من الجهاد المالي ويصده بقوة، أو لا يدعه ينفق الكثير الطيب. وربما يمنع البخل صاحبه حتىٰ من مجرد المشاركة مع المقاتلين في سبيل الله لاحتماله أن وجوده في صفوفهم، قد يدفعهم الىٰ تذكيره بالانفاق في سبيل

١ـ النساء، الآية ٩٥ ـ ٩٦.　　٢ـ التوبة الآية /٨١.

اللهسبحانه أخذاً بقوله تعالىٰ: «وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ»[١]. وهٰذا سوءٌ مبين وشر عظيم وفعل قبيح شائن أثيم.

ثانياً ـ البخل في دفع الحقوق الشرعية: كما يقرن الله تبارك وتعالىٰ الجهاد بالأموال بالجهاد بالنفوس والدماء فكذلك يقرن الصلاة بالزكاة في عدد من الآيات المباركة كما في قوله عزَّ مِن قائل: وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ»[٢].

وكما في قوله عزَ مِن قائل: ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»[٣].

والبخل يمنع صاحبه من البذل المالي في الحقوق الشرعية الواجبة منها أو المستحبة ويصده بقوة، أو لا يدعه ينفق الكثير الطيب. وهٰذا سوءٌ مبين وشر عظيم وفعل قبيح شائن أثيم. بل هٰذا هو التبار الذي لا يوصَف.

ثالثاً ـ البخل علىٰ أولي الأرحام: فقد أوصىٰ الله تعالىٰ بهم وشدد علىٰ صلتهم وأمر بتفقد حالهم بالمال وغيره فقال سبحانه: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ»[٤].

والبخل يمنع صاحبه من البذل المالي لأُولي الأَرحام ويصده بقوة، أو لا يدعه ينفق الكثير الطيب. وربما يمنع البخل صاحبه حتىٰ من مجرد زيارة الأقرباء واهداء السلام لهم والمشاركة في أفراحهم وأتراحهم، لتخيله أن ذلك قد يؤدي ولو بوجهٍ من الوجوه المحتملة الىٰ استعطافه واستنزاله الىٰ دُوَيرَة الرفد وسُوَيحَة العطاء. يا رب أنت تحكم بين عبادك. أليس هٰذا من السوء المبين والشر العظيم والفعل القبيح الهجين، بل إنه ضياعٌ لا يوصَف، وتبارٌ يقصر عن نعته البيان وتكل عنه بلاغة البلغاء وألسنة الأنبياء والفصحاء.

١- الذاريات الآية / ٥٥.
٢- البقرة، الآية / ٤٣.
٣- البقرة، الآية / ٢٧٧.
٤- محمد، الآية /٢٢ ـ ٢٣.

وهٰذا الشر والضر والخطر الجسيم كله يتأتىٰ بمختلف الصور والألوان والأنحاء من أمواج السوء الذي يقود له زمام البخل[١] الوارد في حديث أمير الحكماء والمتكلمين علي بن أَبي طالب عليه وعلىٰ نبي الرحمة محمد وعلىٰ آله الطاهرين الصلوات والتحيات الزاكيات.

اعملْ فِي مالِكَ ما تُؤثرُ أن يُعمَلَ فيه من بعدِك

٦ ـ وقال الإمام علي (عليه السلام) أيضاً: يا ابن آدم كن وَصِيَّ نفسِك، واعمل في مالِكَ ما تُؤثر أن يُعمَلَ فيه من بعدِك[٢].

ما أَشبَهَ الحريَّةَ بالماء زهيدٌ بوجدانه، ثمينٌ بفقدانه. وفي عمر الانسان بعض المتسع من الوقت وحرية التصرف والحركة من أَجل أَن يصنع الخير والنبل، ويتقن عملية الفضل والاحسان، وينفق المال بالشكل المتناسب الجميل، بحيث لا يندم علىٰ التقصير أبداً في البذل والعطاء ما بعد ذلك وفي يوم يفتقد فيه الحرية بجميع صورها وأَلوانها؛ وذلك حيث تغلُّ دكتاتوريةُ الموتِ الصارمِ العَبوسِ يَديهِ

---

١ – ولنا هذه الأرجوزة في هجاء البخيل والقدح بتصرف المشين:

إن البخيلَ كالقبيحِ العاري ... مفتضحاً في الليلِ والنهارِ
مُسوَّد الوجه حليف العارِ ... ليس من الغُرِّ ولا الأحرارِ
إلا كما يعلق بالأظفارِ ... إن أهملوها ـ من قذىٰ الغُبارِ
يودُّ لو يسكن في القفارِ ... أو ينزل القبر كجرفٍ هارِ
إن عمَّقت فيه يدا الحفّارِ ... أو صار كالغوّاصِ في البحارِ
حتى يفرَّ أيّما فرارِ ... من طالب أو راغب أو عارِ
أو سائل يلهث قرب الدارِ ... قد يطرق الباب مع الزوّار
فيا لهول كرَّة الأقدارِ ... تذهبُ بالدرهم والدينارِ
والدرهمُ المنقوشُ للأغمارِ ... نِدٌّ لذيذِ العيش والأَعمارِ

٢ – ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٩٥، وبحار الأَنوار، ١٠٠ / ١٩٦، ومستدرك وسائل الشيعة، ١٤ / ١٤٠.

جَميعاً غَلاًّ شديداً مُحكماً، وتعتقل ألفاظه وبياناته اعتقالاً عنيفاً غليظاً؛ فلا يأمر بشيء قط ولا ينهىٰ عن شيء قط، ولا يشير بخير ولا شر ولا حسنىٰ ولا سوءىٰ فَيَوَدُّ لَو يُفْسَحُ لَه بعضُ المَجَالِ والوَقتِ ولو للحظات مِن أَجل أن يَهَبَ وَيُعطي في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ولو مِعشـارَ ما كان يتمكن في حياته من انفاقه، ويود لو يُـمْنَح فرصة لا تزيد عن لحظات كذلك ليأمر بانفاق معشار ماكان يستطيع أن يأمر به من امكانياته وممتلكاته ومقتنياته.

فيا أيُّـها العاقل الحصيف البعيد التفكير والنظر كن وصيَّ نفسك، واعمل في مالك ما تؤثر أن يُعمَلَ فيه من بعدك.

ويا أَيُّها المشفق علىٰ نفسه الساعي الىٰ رغادتها وسعادتها كن وصيَّ نفسك، واعمل في مالك ما تؤثرُ أن يُعمَل فيه من بعدك.

ويا أَيُّهـا الحريص علىٰ أمواله الراغب جداً في تثميرها وتكثيرها وتوفيرها كن وَصيَّ نفسك، واعملْ في مالك ما تؤثر أن يُعمَل فيه من بـعدك، فـلا تَـشيرَ للأَموال، بمثلِ الفَضـلِ والنَوال. إن النَّدىٰ والسماح، خَيرُ ما تُبتغىٰ بـه الفـوائـدُ والأَرباح. وما كنت في ساعة الموت وحفيرة القبر نادماً ومتأسفاً عليه، فإن ندمك وتأسفك يوم تقوم السـاعة وتباشر الحساب والعتاب، وتلتقي أعمالك صغيرها وكبيرها وحسنها وسيئها أشدُّ وأَخزىٰ.

« يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمَـئِذٍ بِـبَنِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْوِيهِ * وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ * كَـلَّآ إِنَّـهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ »[1].

توظيف الجاه والاستعانة بأكفّ الأفاضل

٧ ـ روي عن إمـام الأئمة أمير المؤمنين (عليه السـلام): أَمْسِكـوا رَمَـقَ

---

١ ـ المعارج الآية / ١١ ـ ١٨.

الضعيفِ بالمَعونةِ له بجاهِكُم، إنْ عجزتمْ عَمّا رَجاهُ عندَكُمْ[1].

إعانةُ الضعيفِ واجبٌ أخلاقيٌّ مقدَّسٌ، وكلما كان أكثر ضعفاً كان أكثر مَدعاةً لانتشاله وانقاذه من الضعف، لا سيما في الأوضاع القاتلة التي لم يبق منه فيها إلا حشاشة النفس وثمالة الرمق.

وتتمُّ إعانة الضعيف وانتشاله عن طريق ما يبذله الانسان المنقذ من امكانياته الذاتية وأمواله الخاصة عن كرم نفس وسماحة كفّ ما استطاع الىٰ ذلك سبيلا، لا سيما إذا كان الضعيف راجياً لهذا الانسان وآملاً فضله وإحسانه وأن تحصل إعانته علىٰ يديه، فإن من الضعفاء مع مسيس حاجتهم الىٰ اليمين المعينه يأنفون أن يقوم بحلّ مشكلتهم وتقديم المساعدة لهم كل أحدٍ من المجتمع، بل يودون أن ينهض بها فلان دون فلان، وأحياناً لا بسبب الأنفة والإباء يرغبون بشخص دون آخر، بل لأنَّ الإنسان الآخر في حقيقته أسمح وأجود كفاً وأغدق منحةً وعطاءً.

إلا أنه في حالات العجز عن أداء المهمة بالامكانية الذاتية والمقدرة الشخصية؛ فإن الشعور بالمسؤولية يبقىٰ نابضاً في قلوب الكرام والأحرار حتىٰ يتمّ حلُّ المعضلة بصورة من الصور الجميلة أو المقبولة، ولو عن طريق توظيف الجاه وقوة الشخصية والاستعانة بأكفّ أفاضل المحسنين والطيبين والكرام.

بالاسناد عن أَبي هارون المكفوف قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): يَا أبا هارون، إن الله تبارك وتعالىٰ آلىٰ علىٰ نفسه أن لا يجاوره خائن.

قال: قلتَ: وما الخائن؟

قال: مَن ادخرَ عن مؤمن درهماً، أو حبس عنه شيئاً من أمر الدنيا.

قال: قلت: أعوذ بالله من غضب الله.

فقال: إن الله تبارك وتعالىٰ آلىٰ علىٰ نفسه أن لا يسكن جنته أصنافاً ثلاثة:

---

١ ـ مشكاة الأنوار / ١٨١

رادّ علىٰ الله عز وجل، أو رادّ علىٰ إمام هدىٰ، أو من حبس حق امرئ مؤمن.

قال: قلت: يعطيه من فضل ما يملك؟

قال: يعطيه من نفسه وروحه، فإن بخل عليه بنفسه فليس منه إنما هو شرك شيطان.

قال الصدوق (رضوان الله عليه): الإعطاء من النفس والروح إنما هو بذل الجاه له إذا احتاج إلىٰ معاونته وهو السعي له في حوائجه[1].

بالاسناد عن فرات بن أَحنف عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: أيما مؤمن منع مؤمناً شيئاً مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه من عنده أو مِن عندِ غيره، أقامه الله عَزَّ وَجَلَّ يومَ القيامة مسوداً وجهه مزرقة عيناه مغلولة يداه إلىٰ عنقه فيقال: هٰذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلىٰ النار.

بيان: مزرقة عيناه بضم الميم وسكون الزاي وتشديد القاف من باب الافعلال من الزرقة وكأنه إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: «وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً». وقال: البيضاوي: أي زرق العيون وصفوا بذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلىٰ العرب؛ لأن الروم كانوا أعدىٰ أعدائهم وهم زرق ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين،

وقال في غريب القرآن: «يَوْمَئِذٍ زُرْقاً». لأَن أعينهم تزرق من شدة العطش.

والزرقة أبغض الألوان إلىٰ العرب؛ لأنها لون أعدائهم الروم. ويحتمل إرادة قبح المنظر وفظاعة الصورة انتهىٰ[2].

كان عمرو بن كلثوم العتابي قد أملق فجاء فوقف بباب المأمون يسترزق الله علىٰ يديه فوافىٰ يحيىٰ بن أكثم فعرض له العتابي فقال له: إن رأيت أيها القاضي أن تعلم أمير المؤمنين مكاني فافعل. فقال: لست بحاجب. قال: قد علمت ولكنك ذو

---

١ - انظر بحار الأنوار، ٧٢ ـ تتمة كتاب العشرة باب / ٥٩.

٢ - انظر المصدر نفسه، ٧٢ ـ تتمة كتاب العشرة باب / ٥٩.

فضل وذو الفضل معوان. فقال: سلكت بي غير طريقي. قال: إن الله أتحفك منه بجاه ونعمة وهو مقبل عليك بالزيادة إن شكرت وبالتغيير إن كفرت وأنا لك اليوم خير منك لنفسك لأني أدعوك إلىٰ ما فيه ازدياد نعمتك وأنت تأبىٰ عليَّ، ولكل شيء زكاة وزكاة الجاه رفد المستعين. فدخل يحيىٰ فأخبر المأمون به فأحضره وحادثه ولاطفه ووصله[١].

أَمَا إذا لم يسعف المرجو للاسعاف مَن رجاه بامكانية مادية كافية ولا بجاه رفيع مع توفّره علىٰ مقدرة الاسعاف والانجاد؛ فإنه سوف يكون من أَصدق الأمثلة الحسيَّة الناطقة لما يقوله المسيح عيسىٰ بن مريم (صلوات الله عليه) فيما نقل الحديث عنه الفقيه أَبان بن تغلب عن الإمام أَبي عبد الله جعفر الصادق (عليه السلام): إنَّ تاركَ شفَاءِ الجَريحِ من جُرحِهِ شريكُ جَارِحِهِ لا محالَة.

الجودُ حارسُ الأعراض

٨ ـ قال أَميرُ المؤْمنين (عليه السلام): الجودُ حارسُ الأَعراض[٢].

أ ـ أخذ معنىٰ الحكمة العلوية (الجودُ حارسُ الأَعراض) عبد الله بن المعتز الخليفة العباسي[٣] فقال بما يُشبهها كثيراً: السخاءُ حارسُ العِرضِ من الذمّ[٤].

---

١ – في رواية رفاعة بن موسىٰ عن الصادق (عليه السلام): ما آمَنَ بالله ولا بمحمدٍ ولا بعليٍّ مَن إذا أَتاه أَخوه المؤمنُ في حاجة لم يضحك في وجهه فإن كانت حاجته عنده سارع إلىٰ قضائها، وإن لم يكن عنده تَكَلَّفَ مِن عند غيره حتىٰ يقضيها له، فإذا كان بخلاف ما وصفته فلا ولاية بيننا وبينه.

انظر بحار الأَنوار ٧٢ ـ تتمة كتاب العشرة باب / ٥٩.

٢ ـ التذكرة الحمدونية، ٢ / ٢٦٠، وابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٩٥، وربيع الأبرار، ٤ / ٣٥٧، وفرائد السمطين ١ / ٤٠٥، وبحار الأنوار، ٦٦ / ٤١٠، وسجع الحمام في حكم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الحكمة / ٥٨٥.

٣ – عبد الله بن المعتز بن المتوكل العباسي سيد الشعراء من آل العباس بن عبد المطلب،

بـ تتجسَّد حراسة الجـود للأعراض بالدرجة الأولىٰ وكواقعٍ بارزٍ وملموسٍ لدىٰ الحكام والرؤساء وأكابر أفراد الشرائح الاجتماعية المتقدِّمة؛ لأنهم ـ بصورة عامة ـ أحوج ما يكونون الىٰ حراسة أعراضهم والدفاع عن حريمهم والذود عما لهم من وجاهة رسمية أو شعبية معينة. كما ان هؤلاء المـذكورين ـ فـي الأَعـم الأَغلب ـ هم المتمكنون أكثر من غيرهم علىٰ البذل والعطاء ولهم القدرة العالية علىٰ السيْب والكرم وقطع ألسنة القادحين والذامين والحاسدين.

ولكن قد يقال انَّ عدداً غير قليل من الحكام والرؤساء وأكابر أفراد الشرائح الاجتماعية علىٰ الرغم من جودهم وإحسانهم لم يسلموا من ألسنة حداد لبعض الناس، وفي صفحات التأريخ شواهد غير قليلة علىٰ ذلك. كـما أن فـي الحـياة الاجتماعية والسياسية المعاصـرة في كثير من الدول ما يؤكد علىٰ صحته.

قلـنا: انَّ مثل هذه الحالات المَقيتة وإن كانت غير قليلة الىٰ حدِّ الشـذوذ، ولكنها في نفس الوقت ليست بتلك الكثرة السـائدة أو التـي يـصح أن تـوصف بالشمولية والعـموم. كما أنه لولا حراسة الجـود وذيادته لأصبحت مـن الكـثرة والانتشار بمكان عجيب. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه أيهما أفضل وأسـلم بيت عليه حارس وفيٌّ حازمٌ، يدافع بقوة ويقظة عن ممتلكات البيت وعن أهله وقد يُقْتل في يوم من الأيام، أَم بيت ليس له حارس أو محامي، فهو في مَعْرِض النهب والسلب ومَظنَّة القتل والاعتداء من قبل الرائح والغادي؟

جـ روىٰ أَبو عثمان الجاحظ أن زياد بن أَبيه مرَّ وهـو والي البـصرة بـأبي العريان العدوي وكان شيخاً مكفوفاً ذا لسن وعارضة شديدة فقال أَبو العريان: ما هٰذه الجلبة؟ قالوا: زياد بن أبي سفيان. قال واللهِ ما ترك أبـو سـفيان إلا يـزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمداً فمن أين جاء زياد! فبلغ الكلام زياداً وقال له قائل: لو سددت عنك فم هذا الكلب. فأرسل إليه بمائتي دينار. فقال له رسول زياد إن ابن عمك زياداً الأمير قد أرسل إليك مائتي دينار لتنفقها. فقال:

ولد عام ٢٤٩ هـ وبويع بالخلافة عام ٢٩٦ هـ وقُتل في الاسبوع الذي بويع فيه.

٤ ـ نثر الدر ٣ / ١٥٣.

وصلته رحم إي والله ابن عمي حقاً. ثم مرَّ به زياد من الغد في موكبه فوقف عليه فسلم وبكىٰ أبو العريان، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: عرفت صوت أبي سفيان في صوت زياد. فبلغ ذلك معاوية فكتب إلىٰ أبي العريان:

ما ألبستك الدنانير التي بعثت
أن لونتك أبا العريان ألوانا

لله در زياد لو تعجلها
كانت له دون ما يخشاه قربانا

فلما قرئ كتاب معاوية علىٰ أبي العريان قال اكتب جوابه يا غلام:

أحدث لنا صلة تحيا النفوس بها
قد كدت يا ابن أبي سفيان تنسانا

أما زياد فقد صحت مناسبه
عندي فلا أبتغي في الحق بهتانا

مَن يُسْدِ خيراً يصبه حين يفعله
أو يُسْدِ شراً يصبه حيثما كانا[1]

العدلُ سائسٌ عام والجودُ عارضٌ خاص

٩ ـ سُئِل الإمام علي (عليه السلام): أَيُّهُما أَفْضَلُ الْعَدْلُ أَو الْجُودُ؟ فقال: العَدْلُ يَضَعُ الأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، والْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا، والْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، والْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ؛ فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وأَفْضَلُهُمَا[2].

---

١ – انظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦ / ١٨٧ ـ ١٨٨.

٢ – شرح نهج البلاغة ٢٠ / ٨٥ الحكمة / ٤٤٦. والتذكرة الحمدونية لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي المعروف بابن حمدون ١ / ٢٥٤ وروضة الواعظين الباب ٤٦٦ / مجلس في

لقد فضَّـل إمامُ أَئمةِ العَدلِ والجودِ معاً ـ في كلامه المتقن الصريح ـ العـدلَ علىٰ الجودِ تفضـيلاً بيِّناً لا ريـب فيه، وليس تصغيراً للجود ولا إزراءً به أن يُفَضَّل عليه العَدل، كما أنه ليس تَصغيراً لنورِ القَمَـرِ ليلةَ البدرِ أَنْ يُفَضَّـلَ عليه ضِـيـاءُ الشَّمْس الساطِعَة.

إنه علىٰ الرغم من كل الصفات الايجابية الخطيرة التي يـتسم بـها الجـود، والذي مدحه المادحون بحق وصدق مدحاً كبيراً وكثيراً، وقدَّسوه مراراً وتكراراً وفي شتىٰ الميادين ومن مختلف الجهات؛ فإنه لا يمكن أن يرقىٰ الىٰ سمـاء العدل ذلك السَائِس العَامّ، وأنىٰ يضارع أو ينازع سموقَـهُ وشموخَـهُ الفَذَّ الفريد.

لقد جعل الإمام (سَلامُ اللهِ عَليه) التفضيل والتشـريف للعدل علىٰ الجود من زاويتين محددتين هما:

الزاوية الأولىٰ

كون الْعَدْل يَضَعُ الأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وأما الْجُودُ فهو يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا.

الزاويـــة الثانية

أن العدلَ سائسٌ عام، والجودَ عارضٌ خـاص. وأين يـقع النـفع الخـاص للجود والذي يستفيد من ايجابياته وآثاره الطيبة قسمٌ من الناس وإن كان قسماً كبيراً، من ذلك السائس العام الذي لا يستغني عنه أحد من الناس بما فـي ذلك القسـم الكبير المشار اليه في الاستفادة والانتفاع من الجود[1].

ذكر وبال الظلم وبحار الأنوار ٧٢ / ٣٥٠ و٧٢ / ٣٥٧.

١ ـ قال ابن أبي الحديد المعتزلي شـرحاً لكلام أمير المؤمنين (ع): هـذا كـلام شـريف جليل القدر، فضل (عليه السـلام) العدل بأمرين أحدهما: أن العدل وضع الأمور مـواضـعها ـ وهكذا العدالة في الاصـطلاح الحكمي لأنها المرتبة المتوسطة بين طرفي الإفـراط والتـفريط ـ والجود يخرج الأمر من موضعه، والمراد بالجود ها هنا هو الجود العرفي وهو بذل السـقتيات للغير، لا الجود الحقيقي، لأن الجود الحقيقي ليس يخرج الأمر من جهته نحو جود الباريٰ تعالىٰ. والوجه الثاني: أن العدل سائـس عام في جميع الأمور الدينية والدنيوية وبه نظام العالم وقـوام

ومعنىٰ كون الجُود يُخْرِج الأشياء مِنْ جِهَتِهَا ـ فيما نعتقد ـ أن الإنسان حينما يعطي غيره مما لا يجب عليه من الأموال وينفق عليه في مجالات معينة، فقد أخرج الأموال من جهتها المالكة لها ـ ملكية مشروعة ـ الىٰ جهة ثانية لم تستحقها استحقاقاً وجوبياً وقانونياً، بل إن كرم المعطي وسخاء نفسه هو الذي حمله علىٰ البذل والتكريم. وهذا الاخراج للشيء من جهته ليس عيباً ونقصاً، بل هو صفة طيبة وسامية، ولكن طيبها وسموها دون طيب وسمو مكانة العدل الذي يَضَعُ الأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، أو بعبارة أخرىٰ يَضَعُ الأُمُورَ في جهاتها المحددة لها في العقل والشريعة أو القانون، ويمكن القول أن هذا اللونَ العادلَ الذي يَضَعُ الأُمُورَ مَوَاضِعَهَا أو في جهاتها واجب، أما ذلك اللون الكريم الذي يخرج الأُمُورَ من مَوَاضِعها أو من جهاتِها فهو مستحب بشكل عام. وعلىٰ هذا الأساس فلم تكن المقارنة التي صرح بها الإمام أمير المؤمنين ما بينهما في النقطة الأولىٰ مقارنة بين حق وباطل، فيكون العدل حقاً والجود باطلاً، وإنما هي مقارنة بين واجب ومستحب، أو بين الأفضل والفاضل.

ثَمَّ عدد قد يكون غير قليل من التعابير الجميلة والمعاني الحسنة الرائقة لتفضيل العدل علىٰ الجود نشاهدها في أكثر من صورة وصورة ومن ذلك المثل الأوربي الذي ورد بالشكل التالي:

كن عادلاً قبل أن تكون كريماً Be just before you are generous .

وهٰذا حق لا ريب فيه، وفكر لا نزاع في صحة مؤداه، ولقد اتفقت علىٰ سلامة مضمونه الفلسفة الشرقية والغربية معاً.

من صفاتِ القائد

١٠ ـ وقال الإمام علي (صلوات الله عليه): وقد علمتم أنه لا ينبغي أن

الوجود، وأما الجود فأمر عارض خاص، ليس عموم نفعه كعموم نفع العدل. شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ٨٥ / ٤٤٦.

يكون الوالي علىٰ الفروج[١] والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين، البخيلُ؛ فتكون في أموالهم نهمتهُ[٢].

وَقعـــنا فيما حذرتنا

إإذن لنا أيُّها الإمام الشهيد ذو الروح العميقة القَرار التي يكمن في مطاويها سِرُّ العذاب الإلهي[٣].

إإذن لنا يا مَن لا يسعُنا إلا أن نُحِبَّه ونَتَعَشَّقَه، وكيف لا يستهوينا فتىً شريف القدر، كبير النفس، يفيض وجدانه رحمة وبِراً، ويتلظىٰ نجدةً وحماسةً، وكان أشجع من ليث، ولكنها شجاعةٌ ممزوجةٌ برقَّة ولطف ورأفة وحَنان[٤].

إإذن لنا يا أميرَ المؤمنين أَن نذكر لك أن ما كنت تحذِّرنا منه قد وقعنا فيه، بل غرقنا الىٰ الآذان؛ فإن أكثرَ الولاة والقادة في عالم الأمس وعالم اليوم هم من البخلاءِ الأَشحّاءِ علىٰ الناس، الكرماءِ الأجوادِ علىٰ أنفسهم وأهليهم والمحيطين بهم ومن لا يتعدَّون رواق ذواتهم كثيراً، علماً بأنهم يبخلون علينا بأموالنا، ويبتزون مواردنا الثريَّة حتىٰ لم يبقَ منها ما يغني أو يسعف الأرامل والأيتام

---

١ – المقصود بها ثغور البلاد.

٢ – تصنيف نهج البلاغة / لبيب بيضون / ٩٦٨. دعائم الاسلام (١٨٨٦)، وأورد العلامة المحلسي في بحار الأنوار ٧٤ / ٢٩٧ عن مناقب ابن الجوزي، الخطبة المنبرية أن علياً قال: اللهم لا ينبغي أن يكون الوالي علىٰ الدماء والفروج والمغانم والأحكام ومعالم الحلال والحرام وإمامة المسلمين وأمور المؤمنين البخيل؛ لأن تهمته في جميع الأموال، ولا الجاهل؛ فيدلهم بجهله علىٰ الضلال. وجاء في دعائم الاسلام للقاضي النعمان: عن علي (ص) أنه خطب الناس بالكوفة فقال في خطبته:... ولا ينبغي أن يكون علىٰ المسلمين الحريص؛ فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل؛ فيهلكهم بجهله، ولا البخيل؛ فيمنعهم حقوقَهم...

٣ – من كلمة للكاتب الفرنسي كارّا ديفو في تمجيد الإمام علي.

٤ – من كلمة للمفكر الانجليزي توماس كارليل مفصحاً عن رأيه وعواطفه إزاء الإمام العظيم علي بن أبي طالب.

والمساكين والمحتاجين...

وأَن نذكر يا أميرَ المؤمنين أن نهمةَ الولاة والقادة في مختلف الأزمنة لم تكن في أموالنا فحسب، بل تعدَّتها كثيراً كثيراً الىٰ حيث النهمة في أرواحنا ودمائنا وأفلاذ أكبادنا وحريّاتنا وما بقي من ثمالة عزَّتنا وكرامتنا... ولنعم ما قال سُدَيف بن ميمون رحمه الله: عاد فيئنا دولةً بعد القسمة وإمارتنا غلبةً بعد المشورة وعدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمة واشتريت الملاهي والمعازف بمال اليتيم والأرملة ورعىٰ في مال الله من لا يرعىٰ له حرمة وحكم في أبشار المؤمنين أهل الذمة وتولىٰ القيام بأمورهم فاسق كل محلة فلا ذائد يذودهم عن هلكة ولا راع ينظر إليهم بعين رحمة ولا ذو شفقة يشبع الكبد الحرىٰ من مسغبة فهم أولو ضرع وفاقة وأسراء فقر ومسكنة وحلفاء كئابة وذلة[1].

---

١ – ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥ / ١١٣ ـ ١١٤.

هذا وللمؤلف عفىٰ الله عنه وعن والديه علىٰ لسان شعب مستضعف بائس يخاطب قائده البخيل المجحف الذي قد آبتلي به، واصطلىٰ بنار بخله وشحّه ولؤمه، لا بنار قِراه:

إن كنتَ أنت نصيبي أيها العَلَمُ
فالبؤسُ داريَ واللأواءُ والسَّقمُ
زعمت أنك لم تملكْ ولو ملكتْ
يُمناك سال النَّدىٰ والخير والنِّعَمُ
زعمت أنك لم تملكْ وقد سبقت
دعواك دعوىٰ ملوكٍ بئس ما زعموا
وكم قصور عليّاتٍ تطوف بها
كأنّها السُّحُبُ الشمّاء والقممُ
وحول صرحك أكبادٌ مقطَّعةٌ
يحتزُّها الجوعُ والضرّاءُ والألمُ
إن كنت حقاً جواداً بُلَّ أكبدنا
بالمال لا الوعدِ إنَّ الوعدَ مُتَّهمُ

عذراً يا سيدنا المفدّىٰ أن نُنبأك بما يبعثُ الشجونَ والأتراحَ ويسعِّر الآلامَ والأَوصاب، فوحقِّ عينيك المُكتحلتين بالشفقة والرفق والرأفة التي لا توصف علىٰ المظلومين والمضطهدين أو المخلوقتين من كل ذاك... إننا لا نريد أن نزيدك حزناً الىٰ أحزانك العميقة، ولا جرحاً الىٰ جراح قلبك النازف، غير أن من شيمة الأبناء المُعذَّبين أن يشتكوا الىٰ الأب الشفيق الرحيم. إنَّ أُذُن الأبِ الحنونِ أُذُنٌ صاغيةٌ في زَمنٍ كثرَت فيه صُمُّ الآذان، وإنَّ عينَ الأبِ الحَنونِ عَينٌ ثاقبةُ النظَرِ فِي زَمنٍ كثرَت فيه كُمْهُ العُيون. ولله في خلقه شؤون. ولنعم ما قال القائل في هٰذا المجال:

شكـــوتُ ومـــا الشكـــوىٰ لمـــثليَ عـــادةٌ
ولكـــن تـــفيضُ الكأس عـــند أمـــتلائها

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ»[1].

تـــتيهُ بالموعدالمشـــؤوم يـــتبعه
خُـــلْفٌ ويـــمزجـــه التـــمويه يـــحتدمُ
لا يُمدَح الكِبْرُ مـن قـوم إذا عـدلوا
فكيف نرضاه مـن قـوم إذا ظـلموا
لا يصلحُ الوعـدُ والأمـــوال زاخـرةٌ
كأنـــها الأبـــحرُ الزرقـــاءُ تـــلتطمُ
أولىٰ مـــن الوعـد مكـذوباً تـطرزه
أيدي الخيانة صـمتٌ مـطبقٌ صـنمُ
ليس الجـوادُ الذي فـي لفـظه أَمَـلٌ
مثلَ الجـوادِ الذي فـي كـفِّهِ الكَـرَمُ

١ - البقرة، الآيـة / ٨٣.

من كتم الإِحْسان عوقب بالحرمان

١١ ـ يروىٰ عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): مَنْ كَتَمَ الإحسانَ، عُوقِبَ بالحِرمان[١].

قال عبقري الفلسفة والأدب والفن جبران خليل جبران (١٨٨٣ م ـ ١٩٣١ م): أما أنتم الذين يتناولون العطاء والإحسان وكلكم منهم فلا تتظاهروا بثقل معرفة الجميل لئلا تضعوا بأيديكم نِيراً ثقيلَ الحِمل علىٰ رقابِكم ورقابِ الذين أَعطوكم. بل فلتكن عطايا المُعطي أجنحةً ترتفعون بها معه. لأنكم إذا أكثرتم من الشعور بما أنتم عليه من الدين فإنكم بذلك تظهرون الشك والريبة في أَريحيَّة المحسن[٢].

الحالة الطبيعية والمألوفة للانسان ما دام مستوي الحالة الأخلاقية والنفسية أن يقابل الإِحْسان بإحسان مثله أو بأفضل منه، أو أن يشكر بحرارة وفاعلية المُسدي له لا سيما إن كان الإِحْسان كبير المقدار والأهمية. وأن يظهره وينشره ويقر بالتفضل للمتقدم به كلونٍ رفيعٍ من ألوان الشكر والثناء وعرفان الجميل.

بيد أن عدداً كبيراً من الأَفراد وفي مختلف أَصقاع الكرة الأرضيَّة، بل وربما تجاوز الأمر من الحالات الفردية الكثيرة الىٰ بعض الدول والشعوب كذلك ممن يكتمون الفضل والإِحْسان في جميع صور الكتمان، فهم بهذا يجنون كثيراً علىٰ أنفسهم وعلىٰ السموِّ الأخلاقي، ويستوجبون العقوبة بالحرمان والنبذ لهم والازدراء بهم «جَزَآءَ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ»[٣].

ونحن لا نستطيع أَن نفسر الكتمان تفسيراً واحداً، بل له عدَّة تفسيرات وأسباب، وهو يختلف من فرد لآخر ومن شعب أو دولة الىٰ شعب ودولة أخرىٰ. ومن أهمِّ وأقوىٰ التفسيرات والأَسباب:

١ـ غرر الحكم/ ٩٢٢.

٢ – حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتأريخه، ٤ / ٢٩٨.

٣ – التوبة، الآية / ٨٢.

أولاً :المحسن اليه يبخل علىٰ المحسن أن يجـازيه عن إحسانه وأن يقابل الجمـيل بالجمـيل، هٰذا مع استطاعته للجـزاء.

ثانيـاً : شكر المحسن وإظهـار تكريمه وإحسانه والسعي الىٰ جزائه قولاً وعملاً ثقافةٌ دينيةٌ وأخلاقيةٌ عُليا، ولا نعني بكونها دينية أنها إسلامية فقط، بل هي ثقافة موسوية وعيسوية ومحمدية كذلك. كما لا نعني بكونها أخلاقية أنها كذلك في مشاربها ومصادرها المعرفية لدىٰ الفلاسفة اليونانيين دون فـلاسفة العـصور الوسطىٰ والفلاسفة المعاصرين، أو المفكرين الشرقيين دون الغربيين، بـل هـي ثقافةٌ أخلاقيةٌ لدىٰ الجميع بما في ضمن ذلك مَن يكتبونها ويخططون لها ويقرون بها ولا يعملون.

وهٰذا المحسن اليه الذي كتم الإحْسان فرداً كان أو دولة لم ينتهل من نمير ثقافة الثناء علىٰ المحسن، وشكر المنعم بالقول والعمل، بل قد تكون ثقافته وثقافة أمثاله التنكر للفضل والإحْسان واشاعة فكرة جحود الانعام، وقد أَلمحت الآيـة القرآنية المباركة الآتية الىٰ ما هو شبيه أو قريب نوعاً ما من هٰذا المعنىٰ: «ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً»[1].

ثالـثاً : للمعطي درجة علىٰ الآخذ ونوع من التـفوق عـليه ولو فـي هٰـذا الجانب فحسب أو في هٰذا الظرف لا غير. وكثير من النفسيات المريضة لا تسمح لأصحابها أن تعترف لأَحَد من البشر بعلو الدرجـة أو التـفوق عـليها، بـل قـد تستغربون اذا ما ذكرت لكم أن من هؤلاء من لا يريدون الاعتراف حـتىٰ لرب السماوات والأرضين وإن أغرقهم بالنعم والاحسـان، ولكـن هٰـذا الاسـتغراب يتلاشىٰ بمجرد أن نرجع الىٰ الآيات القرآنية المباركة «إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِـن قَـوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ

---

١ - النساء، الآيـة / ٣٧.

قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ»[1].

هل هٰذا إلا منطق الجهل المُرَكَّب، والغيّ المتراكم، والغرور المتفاقم؟ أما إنه قَدْ يَبلغُ الاستعلاءُ بالمرءِ أَن لا يَنسىٰ حُجَّتَهُ وَضَميرَه، بل وَيَنسىٰ عَقلَه وتَفْكيرَه. وربَّ غرورٍ يستدعي أن لا ينسلخ المرء من السموِّ الأَخلاقي وَحْدَه، بل ينسلخُ مِن الشرَفِ الإنساني كُلِّه.

وكم يا ترىٰ من الناس في شتىٰ المجتمعات، ومن الدول في الشرق والغرب، من لا يزال منطقهم في التعامل ـ مع احسان الله تبارك وتعالىٰ وفضله أو احسان الآخرين وفضلهم ـ هو المنطق القاروني المتعنت العسوف بالذات، أو هو بشكلٍ من الأَشكال؟!

شيطانُ التقتير لا يقلُّ خبثاً عن شيطانِ التبذير

١٢ ـ قال الإمام علي (صلوات الله عليه): كُنْ سَمْحاً ولا تَكُنْ مُبَذِّرا، وكُنْ مُقدِّراً ولا تَكُنْ مُقتِّراً[2].

هٰذا هو الاعتدال في الانفاق والبذل الجانح للكرم، بل هو الكرمُ الحقيقيُّ بعينه وذاتِه وبِجَمال آفاقه وسَداد طرائِقِه. فالسماحة والجود محمودان ومن

---

١ ـ القصص، الآية / ٧٦ ـ ٧٨.

٢ ـ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٨ / ١٥٠ باب المختار مِن حكم أمير المؤمنين عليه السلام، وربيع الأبرار ٤ / ٣٦٩، وبحار الأنوار ٦٨ / ٣٤٤، ومشكاة الأنوار / الفصل الرابع في السخاوة والبخل.

الضروري أو المستجاد والمحبَّذ أن يرتفع صعيدهما الزكي الأخّـاذ ثـم يـرتفـع ويرتفع، ولكن شريطة أن لا يصل الىٰ سقف التبذير. أو كما قلنا ذات يـوم مـن الأيـام: الجودُ مَلَكٌ صبيحٌ نَضير، حتىٰ يغترَّ بشيطان التبذير.

وعلىٰ الإنسـان اذا ما أراد أَن يكون مقدِّراً أن يكون واقعياً وصـادقاً فـي تقديـره وتدبيره، ناصحاً لنفسه ولعياله ولأبناء جنسه؛ فـلا يـتخذ مـن التـقدير والتدبير وسيلةً خرقاء مزرية الىٰ البخل الدميم الذميم والانطـواءِ القبيحِ الشحيح. فما أَكثرَ الحكامَ والرؤساء والأَغنياء الذين يقتِّرون ويشحون عـلىٰ شـعوبهم أو أَصحابهم بذريعة التقدير وتدبير الأُمور المالية والمعاشية، علماً بأن معاول الواقع تفضحهم وتعريهم وتدكُّ معاقل أكاذيبهم وادعاءاتهم الجوفاء الشوهاء.

فليسمح مَن يسمح عن طيب نفس، وليقدِّر مَن يقدر عن رزانة تفكير. بيد أنه ينبغي أن ينطلق كل ذلك ويتحرك بحسب ضابطة شرعية وأخلاقية حميدة؛ فـلا تَبْذِيرَ أو تَقْتِير، ولكن جُودٌ أَوْ تَقْدِيـر. ولقد أَحسن الكاتب السـوري ماهر أَحمد الصوفي القول: ادارة المال دائماً تكون في اتجاه الخير، وهي أَقرب لمفهوم الكرم الأَخلاقيّ، وأَصحابها هم في حكمة دائمة لنوعيَّة الادارة، ويوجِّهونها بـمسـار صحيح، فالاداريُّ لماله ورزقه يكون صاحب نـظرة نـافذة وصـحيحة لحـركة استثمار المال توجيهاً وتوعية[1].

وأُحب أن أقول بصراحة ووضوح ما أرتأيه عالماً بأن الكثيرين من الناس لا يرتضون هٰذا اللون من الكلام غير المناسب لطباعهم: إنَّ شيطانَ التَّقْتِير، لا يقلُّ خُبثاً عن شيطانِ التَّبْذِيـر.

خيرُ المسلمينَ مَنْ وَصَـلَ وأَعـانَ ونَفَع

١٣ ـ قال أَبو عبد الله القرطبي صاحب التفسير المشهور في كتابه «كتاب

---

١ ـ ماهر أَحمد الصوفي، الرزق والمال بين السنة والقرآن ١ / ١٣١.

قمع الحرص بالزهد والقناعة »: قال علي بن أَبي طالب: خيرُ المسلمينَ مَنْ وَصَلَ وأَعانَ ونَفَع[١].

المعايير السليمة في التفضيل

التعبير عن أحدنا بخير الناس أو خير المسلمين أو أفضل الصالحين أو نحو ذلك من أوصاف المدح الخاص والتبجيل الفائق ليس نعتاً رسمياً تمنحه السلطة الحاكمة لمن تشاء وتتزلَّف به الىٰ من تريد، بل المفروض أن يجري وَفْقاً لمعايير أخلاقيَّةٍ وروحيَّةٍ واجتماعيَّةٍ رزينةٍ ومُحَدَّدة، فمن اتَّسم بها حقيقة الاتسام فهو الجدير بالوصف الجميل المذكور، وإلا فقد عمَّت فوضىٰ العناوين الفارغة وجلجلت طبول الألفاظ التافهة الجوفاء علىٰ حساب الدين الحنيف والقيم الإنسانيَّة. وإنما قال رسول الله « صلىٰ الله عليه وآله وسلم »: خيرُ الناسِ حمزة وجعفر وعلي[٢]. طبقاً للموازين الإلهيَّة السديدة في تقييم الناس، لا محاباةً وأَثرة أو منطلقاً من منطلقات الميل للقرابة والأرحام.

من المقاييس الموضوعية عند الإمام علي

لقد وضع أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب أُسساً قيميَّةً ومقاييسَ مَوضوعيَّةً فمن تطابق معها واستنَّ بسننها فهو الحَريُّ أن يوصف وصفاً حقيقياً بخير الناس أو خير المسلمين أو أفضل الصالحين أو ما يشبه ذلك، وإلا فليفسح المجال رحيباً ـ طائعاً أو مكرهاً ـ لمن تُؤهله مُواصفاته الايجابيَّةُ الخَلاقةُ في أن يحرز عنوانَ الشرَفِ والمجدِ ولا ينازعه فيه من لا يقرن بفضائله وشمائله الحميدة. ومن جملة

---

١ – كتاب قمع الحرص بالزهد والقناعة / ١٤٤، والعاصمي، زين الفتىٰ / ٢٣٩.

٢ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥ / ٧٣، رواه عن رسول الله « صلىٰ الله عليه وآله وسلم » الصحابي الكبير أبو سعيد الخدري.

هذه الأسس القيميَّة والمعايير الموضوعيَّة التي أنشأها ابن أبي طالب ما لا تخفىٰ معانيها ومؤشراتها وأبعادها في الكلمات التالية:

ـ خيـر النـاس: مَنْ أخرج الحـرص من قلبه، وعصىٰ هـواه فـي طـاعة ربـه[١].

ـ خيرُ النـاس: أورعهم، وشرهم أَفجرهم[٢].

ـ خيرُ النـاس: من إذا أُعطي شكـر، وإذا آبتلي صبـر، وإذا ظُلم غفـر[٣].

– خيـرُ النـاس: مَنْ تحمَّل مئونةَ الناس[٤].

– خيـرُ النـاس: من كان في عسره مؤثراً صبورا[٥].

– خيرُ النـاس: من إن أُغـضب حـلم، وإن ظُـلم غـفر، وإن أُسـيء إليـه أَحســن[٦].

– خيـرُ النـاس: من كان في يسره سخياً شكورا[٧].

لا تناقض في فلسـفة الإمام علي

قد يستعجل بعضنا في إصـدار الأحكام فيظنّ أن تناقضاً ما بين قول علي (عليه السـلام) خيرُ المسلمينَ مَنْ وَصَـلَ وأَعـانَ ونَفَع. وبين الكلمات الأخرىٰ، وبالتالي لم يخرجه ظنُّنه الىٰ معيار ثـابت حـول تـحديد مـفهوم خـير النـاس، والصحيح أن لا تناقض ما بين هذه الكلمات جميعاً. فبالنسبة الىٰ مـقارنة هـذه الكلمة بقوله (سلام الله عليه): خير الناس مَن أخرج الحرص من قلبه. فإن من لم يخرج الحرص من قلبه ليس بمستطاعه أن يكون واصـلاً ومُـعيناً ونـافعاً، إن

---

١ – غرر الحكم، الحكمة / ٤٨٧٣.
٢ – المصدر نفسه، الحكمة / ٥٨٥٢.
٣ – المصدر نفسه، الحكمة / ٦١٢٠.
٤ – المصـدر نفسه، الحكمة / ٨٤١٣.
٥ – المصدر نفســه، الحكمة / ٨٨٩٩.
٦ – المصدر نفسه، الحكمة / ٦٣٩٤.
٧ – المصدر نفسه، الحكـمة / ٨٤٧١.

اخراج الحرص من القلب مقدِّمَة لهذه الأعمال الكريمة. وبالنسبة الىٰ مقارنة هذه الكلمة بقوله (سلام الله عليه): خير الناس أورعهم. فإن وَصْل الناس وأَعانتهم ونفعهم لمن أبلغ آيات الورع وأكثرها تجسيداً عمليّاً للتقوىٰ. وبالنسبة الىٰ مقارنة هذه الكلمة بقوله (سلام الله عليه): خير الناس من إذا أُعطي شكر. فإن من المؤشرات الأساسيَّة علىٰ الشكر أن يصل الناس ويعينهم وينفعهم، وهذا هو الشكر العملي الذي هو أقوىٰ مفاداً وأجدىٰ عائدةً من الشكر القولي. كما لا تناقض بين قوليه البديعين: (خير الناس من تحمل مئونة الناس). و(خيرُ المسلمينَ مَنْ وَصَلَ وأَعانَ ونَفَع). ذلك أَن وَصْلَ الناس واعانتهم ونفعهم من المصاديق الحَيويَّة الكبرىٰ لتحمُّل مئونةِ الناس.

ثم يا ترىٰ أَيُّ تناقض ما بين (خير المسلمينَ مَنْ وَصَلَ وأَعانَ ونَفَع). وما بين (خير الناس مَن كان في عسره مؤثراً صبورا) وهل وَصْلُ الناس واعانتهم ونفعهم في أعلىٰ مدارجه ومستوياته إلا بعض المعالم الرئيسيَّة للإيثار؟ ومن كان متَّصفاً بالحلم والمغفرة والاحسان الىٰ من يسيء اليه فهو المحسن والواصل والمعين والنافع في حالتي الاحسان أو الاساءة اليه. وأخيراً فإن الوصل والاعانة والنفع للناس من علامات السخاء، فلا ريب أن لا تناقض ما بين (خيرُ المسلمينَ مَنْ وَصَلَ وأَعانَ ونَفَع.) وما بين (خير الناس من كان في يسره سخياً شكورا).

أَجْمَلُ الإحْسَان مَا اسْتَقْطَبَ الاسْتِحْسَان

سواء يعني الإمام علي (سَلامُ اللهِ عَلَيه) بالوصل المذكور مدَّ جسور العلاقات الايجابية مع الناس بعد القطع أو لئلا تقطع، أو يعني تقديم الصلة والعون والرفد مطلقاً فإن القصة التالية تجسِّد المعنىٰ وتجسمه بصورة رائعة تستجلب الاكبار وتستقطب الاجلال، وفي تصوري الضعيف والقاصر انَّ أَجْمَلَ الإحْسَان مَا اسْتَقْطَبَ الاسْتِحْسَان.

والقصــة كما يرويها الخطيب أبو بكر البغدادي: كان موسىٰ بن جعفر يدعىٰ العبد الصالح من عبادته واجتهاده... وكان سخياً كريماً، وكان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه فيبعث اليه بصرَّة فيها ألف دينار، وكان يصر الصّـرر ثـلاثمائة دينـار وأربعمائة دينار ومائتي دينار ومائة دينار ثم يقسمها بالمدينة، وكان مثل صرر موسىٰ بن جعفر إذا جاءت الانســان الصرَّة فقد استغنىٰ... قال جدي يحيىٰ بـن الحسن: وذكر لي غير واحد من أصحابنا أن رجلاً من ولد عمر بن الخطاب كان بالمدينة يؤذيه ويشتم علياً قال: وكان قد قال له بعض حاشيته: دعنا نقتله. فنهاهم عن ذلك أشدّ النهي وزجرهم أشدّ الزجر، وسأل عن العمري فذكر له أنه يـزدرع بناحية من نواحي المدينة، فركب اليه في مزرعته فوجده فيها، فدخل المزرعـة بحماره فصاح به العمري لا تطأ زرعنا، فوطئه بالحمار حتىٰ وصـل اليـه فـنزل فجلس اليه وضاحكه وقال له: كم غرمت في زرعك هـذا؟ قال له: مائة دينار. قال: فكم ترجو أن يصيب؟ قال: أنا لا أعلم الغيب. قال: إنما قلت لك كم ترجو أن يجيئك فيه؟ قال: أرجو أن يجيئني مائتا دينار. قال: فأعطاه ثلاثمائة دينار. وقال: هذا زرعك علىٰ حاله. قال: فقام العمري فقبل رأسه وانصرف. قال: فراح الىٰ المسجد فوجد العمري جالساً فلما نظـر اليه قال: «**اَللَّهُ أَعْلَمُ حَـيْثُ يَـجْعَلُ رِسَالَتَه**»[1]. قال: فوثب أصحابه فقالوا له ما قصتك؟ قد كنت تقول خلاف هذا. قال: فخاصمهم وشاتمهم، قال: وجعل يدعو لأبي الحسن مـوسىٰ كـلما دخـل وخرج. قال: فقال أبو الحسن موسىٰ لحاشيته الذين أرادوا قتل العمري: أيما كان خيراً ما أَردتم أو ما أردت أن أُصلـح أمره بهذا المقدار[2]؟

---

١ – الأنعام، الآية / ١٢٤.

٢ – الخطيب أبو بكر البغدادي، تأريخ بـغـداد أو مـدينة الســلام، ١٣ / ٢٩ ـ ٣٠. رقـم الترجمة / ٦٩٨٧.

حصيلة الرغبة الىٰ الكريم والخسيس

١٤ ـ قال أَميرُ المؤمنين عليٌّ (عليه السلام): الرغبة الىٰ الكريم تحرِّكه علىٰ البذل، والىٰ الخسيس تغريه بالمنع[١].

قد تكون الحكمة هٰذه من الحكم التي يكتنفها غموض الدليل والتعليل لا سيما في القسم الثاني منها؛ إذ من أين تكون الرغبة الىٰ الكريم محرِّكة له علىٰ البذل، ثم كيف تكون الرغبة الىٰ الخسيس مغرية له بالمنع؟

في تصوري القاصر أنه من المحتمل أن يكون الجواب صحيحاً اذا قلنا: إن الرغبة الىٰ الكريم تُحرك فيه دوافعَ الخير والاحسان، وتحثُّ نفسَه المعطاءَ علىٰ البذل والنوال، وتوقظ النورَ في مقلتيه، والحنانَ في قلبه، والإنسانيةَ في ضميره، والسلامةَ في تعاطفه، والوسامةَ في منطلقاته، والحزمَ في رغبته، والشهامةَ في ارادته، والهمةَ في شخصيته، والتصميمَ في تفكيره؛ فيندفع مانحاً، ويتقدم واهبا، ويتحرَّك مُفضلاً مُنعما، ويبسط يمينَه مُنكرما...

وما أَروع ما يقوله الفيلسوف الألماني الكبير فريدريك هيجل: عن طريق الحزم والتصميم وحده يخطو الانسان نحو الوجود بالفعل بالغاً ما بلغت مرارة القرار عنده. إن التصور الذاتي تنقصه الارادة ليتخلىٰ عن التأمل الداخلي الذي يحتفظ بكل شيء علىٰ أنه امكان، لكن الامكان لا يزال أقل من الوجود بالفعل. والارادة الواثقة من نفسها لا تفقد ذاتها في رغبة معينة[٢].

وأَما الرغبة الىٰ الخسيس فتُحرك فيه دوافعَ الرذالة والعدوان، وتحثُّ نفسَه اللئيمة علىٰ المنع والإنقباض، وتوقظ الطمعَ في مقلتيه، والتصحُّرَ في ارادته، والنهمةَ في شخصيته، واللانسانيةَ في ضميره، والوهنَ في تصميمه، والخفقانَ في قلبه، والاحتقانَ في وجهه، والتقلصَ في شفتيه، والارتعاشَ في يديه، والذواء

---

١ – ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ٢٧٤، وسجع الحمام، الحكمة / ٧٥٦، وسيد حيدر الحلي، العقد المفصل ١ / ٤٣.

٢ – ج ف هيجل، أُصول فلسفة الحق، ترجمة الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، ١ / ٣٣٤.

في بَشَرته: فيندفع راهبا، ويتراجع هاربا، ويتحرَّك راغماً مُرغما، ويبسط يمينه بالضر أو الاعتذار متجهما.

من الممكن أن نلخص التعليل الفلسفي للحكمة العلوية بصياغته طبق البيان التالي: استعطافُ الكريمِ حُسن ظنٍ به، واستعطافُ اللئيمِ اعتداءٌ عليه.

ومن أحسنتَ الظنَّ به فقد استجلبته الىٰ التفاعل الايجابي مع حياتك ومأساتك وأفراحك. ومن اعتديت عليه فقد استجلبته الىٰ حربك والاعتداء عليك أو الانزواء عنك.

إن الرغبة الىٰ الخسيس تطبع في صفحة مخيلته الدكناء رؤية وتفكيراً قاتماً أن ما يرغب الراغب اليه ويطلبه من شيء دليل علىٰ أهمية ما يرغب ويطلب ولو أهمية محدودة ولولا ذلك لما توجه اليه وأمَّل ما عنده، إنَّهُ لَمِن هذه الزاوية الشرّيرة المظلمة بالذات يتهيَّج سبب منعه ولؤمه وحرصه وأنانيته كاللهيب المستعِر الذي يتغشاه الدخان المحتدِم.

«وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَـٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ»[1].

عوِّد نفسك السماح

١٥ ـ قال أَمير المؤمنين علي (عليه السلام) في وصيته لولده الحسن السبط (سلام الله عليه): عوِّدْ نفسَك السَّماح، وتخيَّرْ لها من كل خُلُقٍ أَحسَنَه؛ فإنَّ الخَيرَ عادة[2].

لا ننكر أساساً أن السماح ملكة من الملكات الخُلُقية الراسخة في ميدان

---

١ – التوبة، الآية / ٧٥ ـ ٧٦.

٢ – الموفق بالله الحسن بن اسماعيل الجرجاني، الاعتبار وسلوة العارفين / ٥٧٢، والحراني، تحف العقول / ٨٥، والمجلسي، بحار الأنوار ٧٤ / ٢١٥ و ٧٧ / ٢٣٤.

النفس، ولكننا ننكر أن تكون هذه الملكة بل مطلق الملكات غير قابلة للتأثر والتحور والاستفحال والاضمحلال. بمعنىٰ أن المَلَكات الخُلُقيَّة نظيرةٌ للمَلَكات الخَلْقيَّة من حيث التقبل والاستعداد للعوامل التغييرية بدرجة من الدرجات والتي تكون بحجم كبير أحياناً، إلا إن الأُولىٰ أكثر تقبلاً واستعداداً من الثانية.

وفي هذه الحكمة العلوية الشماء دلالات بيِّنات علىٰ صحة قابلية الملكة الخُلُقية للتأثر والاستقبال.

الدلالة الأولىٰ: وهي قول الإمام (عليه السلام): عوِّدْ نفسَك السَّماح. فلو كانت الملكة الخُلقية تأبىٰ التأثر والانفعال والقبض والبسط في جميع الحالات، لكانت الأفعال الطيبة والخبيثة من السخاء والكرم والإحسان أو الحقارة والبخل واللؤم.. تصدر عنها صدوراً تلقائياً ولا يمكن تعويد النفس علىٰ صورة غير صورتها الفعلية الثابتة الاتجاه والمطبوعة عليها بقوةٍ متسلطةٍ جديّاً وحدِّياً.

الدلالة الثانية: وهي قول الإمام (عليه السلام): وتخيَّرْ لها من كل خُلُقٍ أَحسَنَه. فلو أن الملكة الخُلقية غير قابلة للتأثر بجميع الحالات لصدرت الأفعال السلبية والايجابية عنها بشكل قسري أو جبري، ولانتفت منها حالة الاختيار الجميل التي أوصىٰ بها الإمام (عليه السلام).

الدلالة الثالثة: وهي قول الإمام (عليه السلام): فإنَّ الخير عادة. فلو كانت الملكة الخُلقية ترفض الانفعال والتأثر في جميع الأحوال لكانت الأفعال السليمة والسقيمة منبثقة منها أبداً بشكل عفوي بلا حاجة الىٰ أن يكرِّر الإمام دور العادة في تنميتها وتغذيتها، أي إن الخير يصدر بشكله المستمر من خلال تعويد النفس عليه، أو بعبارة أُخرىٰ يصدر الخير في حالته المتأبِّدة المعطاء من خلال تعويد أو تمرين الملكة الخُلُقية وتدريبها المستمر عليه.

في خطاب الإمام علي لولده الحسن (عليه السلام): عوِّدْ نفسَك السَّماح، لم يوصه بالسماح ويدفعه الىٰ ساحة الكرم بأي صورة من الصور حتىٰ وإن كان لمرَّة واحدة أو مرات متعددة قد أوجبتها ظروف خاصة وأحوال استثنائية معينة، بل يوصيه ويوصي جميع المنتسبين الأوفياء للرسالة الانسانية

باستمرارية الجود والسمـاح، وأن يشكِّل ذلك في تركيبته النفسيه وفي تصـرفاته اليومية عادةً كريمـةً من العادات المألوفة لديه، ولدىٰ رؤيـة النـاس وتـقييمهم لشخصيته الاجتماعية والأخلاقية والنفسية.

وبينا يوصي كثير من الآباء الأثرياء وغير الأثرياء أولادهم بادخار الأموال واكتنازها ما حصلوا عليها وباعدادها لنوائب الدهر وتقلبات الأيام ولطالما ألفتوا أنظارهم الىٰ أَنَّ الدرهم الأبيض ينفع في اليوم الأسود، فإذا بإمام الأئمة يوصي ولده بالسماح وانفاق الأموال علىٰ الناس، بل يوجهه الىٰ التعوّد علىٰ السماح لا مجرد السماح، وبهٰذا ربح المـوجِّه النـاصح وأفـلح العـامل بـالتوجيه الآخـذ بالنصيحة، وفاز كلاهما فوزاً عظيماً في الدنيا والآخـرة. وقَـد صَـحَّ عِـنْدِي أَنَّ التَّصَـدُّقَ بالدرهمِ الأَبيَـضِ يَنْفَـعُ فِي اليَـوْمِ الأَسودِ «يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»[1].

«وَ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلـدَّارِ»[2].

النظر الىٰ البخيل يقسي القلب

١٦ ـ روي عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السـلام) القـول: النَّـظرُ الىٰ البخيلِ يقسي القلب[3].

لا ريب في أن للنظر البصري الىٰ الشيء خصوصاً اذا كان عن تدقيق وإمعان تأثيراً بليغاً وقوياً علىٰ الناظر ايجابياً كان أو سلبياً. ويذكر أنه قد اجتمعت قدماء الأطباء علىٰ نهي المصروع عن النظر إلىٰ الأشياء القوية اللمعان والدوران، ومـا

---

١ - غافر، الآيـة / ٣٣.　　٢ - الرعد، الآيـة / ٢٢.

٣ - تحف العقول / ٢١٤، وكتاب الدر النظيم في مـناقب الأئـمة اللـهاميم لجـمال الديـن يوسف بن حاتم الشامي / القرن السابع. نسخة خطية وبحار الأنوار ٧٥ / ٥٣.

ذلك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام. والإصابة بالعين مما اتفق عليه العقلاء.

ولهذا السبب فقد وردت في الشريعة الاسلامية الغراء أحاديث وافرة تدعونا الىٰ توجيه النظر البصري الىٰ عدد من القضايا التي تجتلب النفع والفائدة من خلال النظر اليها، كما جاءت أحاديث كثيرة تردع وتنهىٰ عن النظر الىٰ عدد من القضايا التي نتضرر ونخسر اذا ما نظرنا اليها.

النظر البصري النافع

مثل النظر الىٰ الأشياء المحددة في الأحاديث الشريفة التالية علىٰ سبيل الأمثلة والايضاحات:

ـ رُوِيَ أَنَّ النَّظَرَ إِلىٰ الْكَعْبَةِ عِبَادَةٌ.

ـ والنَّظَرَ إِلىٰ الوالِدَيْنِ عِبَادَةٌ.

ـ والنَّظَرَ في المُصْحَفِ مِنْ غَيْرِ قِرَاءَةٍ عِبَادَةٌ[١].

ـ والنَّظَرَ إِلىٰ وَجْهِ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ.

ـ وَالنَّظَرَ إِلىٰ آلِ مُحَمَّدٍ (ع) عِبَادَةٌ[٢].

ـ وقال النَّبِيُّ الخاتم «ص»: النَّظَرُ إِلىٰ عَلِيٍّ عبادَةٌ[٣]

ـ هٰذا وقد عقد الحر العاملي في وسائل الشيعة باباً خاصاً أسماه - باب استحباب إكثار النظر إلىٰ الكعبة ومما ورد فيه: وعنه (أي عن علي بن إبْراهيم بن

---

١ - لا يدعو هٰذا الحديث الىٰ عدم قراءة المصحف، وإنما يعتبر حتىٰ النَّظَرَ في المُصْحَفِ مِنْ غَيْرِ قِرَاءَةٍ عِبَادَةٌ، وأما النظر اليه مع القراءة فإنها عبادة بصورة أفضل وأكمل.

٢ - الشيخ الصدوق ـ من لا يحضره الفقيه الحديث / ٢١٤٤ والحديث / ١٧٧٠٥.

٣ - من لا يحضره الفقيه / ٢١٤٥

هاشم) عن أبيه عن حمَّاد بن عيسىٰ عن حَرِيز عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) قال: النَّظَرُ إلىٰ الكَعْبَةِ عبادةٌ والنَّظَرُ إلىٰ الوالدينِ عبادةٌ والنَّظَرُ إلىٰ الإمام عبادةٌ، وقال: مَنْ نَظَرَ إلىٰ الكعبةِ كُتِبَتْ له حسنةٌ ومُحِيَتْ عنه عشرُ سَيِّئاتٍ.

- وباسناده عن أبي عبد اللَّه (عليه السلام) عن أَمِير الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): إِذَا خَرَجْتُمْ حُجَّاجاً إِلىٰ بَيْتِ اللَّهِ فَأَكْثِرُوا النَّظَرَ إِلىٰ بَيْتِ اللَّهِ فَإِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ وعِشْرِينَ رَحْمَةً عندَ بَيْتِهِ الحرامِ ستُّونَ لِلطَّائِفِينَ وأَربعونَ لِلمُصَلِّينَ وعشرونَ لِلنَّاظِرِين.

ـ عن أبي الحسن الرِّضا (عليه السلام): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» كان يُعْجِبُهُ النَّظَرُ إِلىٰ الأُتْرُجِّ الأَخْضَرِ والتُّفَّاحِ الأَحْمَرِ[1].

ـ قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام): أكثر النظر إلىٰ من فضلت عليه؛ فإن ذلك من أبواب الشكر[2]

النظر البصري الضار

مثل النظر الىٰ الأشياء المحددة في الأحاديث الشريفة التالية علىٰ سبيل الأمثلة والايضاحات:

ـ النظر الىٰ النساء المحرمات بريبة. كما ورد التأكيد عليه في مختلف النصوص الشرعية كتاباً وسنة.

ـ في مسند أحمد، أن النبي «ص» قال: لا تطيلوا النظرَ إلىٰ المجذوم، وإذا كلمتموه فليكن بينكم وبينه قيد رمح[3].

ـ طب الأئمة عليهم السلام، عن رسول الله «ص»: لا تديموا النظر إلىٰ أهل

---

١ - وسائل الشيعة ـ ٢٥ /١٧٣/ ٩٩/- باب أكل الأترج بعد الطعام /٣١٥٦٣

٢ - غُرر الحكم، / الحديث /٦١٥٨.

٣ - بحار الأنوار- ٦٢ /٨٣/ باب ٢ - الثعلب والأرنب والذئب و..

البلاء[١] والمجذومين فإنه يحزنهم.

ـ طب الأئمة عليهم السلام عن رسول الله «ص»: أقلوا من النظر إلىٰ أهل البلاء ولا تدخلوا عليهم، وإذا مررتم بهم فأسرعوا المشي لا يصيبكم ما أصابهم[٢]..

هٰذا وإن النظر الىٰ البخيل لَواحد من هذه النظرات المنهي عنها في الشرائع الأخلاقية، وقد علل الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) النهي عن النظر الىٰ البخيل باعتبار أن النظر اليه يقسي القلب. ولا نعلم علىٰ وجه القطع واليقين كيف يكون النظر الىٰ البخيل مما يقسي القلب، ولعل ذلك يرجع الىٰ أن النظرة الىٰ الشيء الجميل، أو القبيح تكتسب مقداراً غير قليل من واقعه وماهيته، وبما أن البخيل يكون عادة قاسي القلب.. حَجَري الضمير.. قليل الحياء.. إذاً النظر اليه يعكس آثاره السلبيةوالمنحوسة علىٰ الناظر، لا سيما إنْ ركَّز النظرةَ بعد النظرة، وكرَّر اللمحةَ بعد اللمحة، فإنه يوقع الناظر في شر كثير وضرر بليغ؛ لأنَّ قسوةَ القلبِ بفداحة خطرها وضررها وجسامة شرها علىٰ النفس والمجتمع لَمما يتعوذ بالله تبارك وتعالىٰ منها الأولياءُ والصديقون والصالحون والطيبون وكل من له نزعة روحية وسلوكية طيبة[٣].

---

١ – الظاهر أن المقصود من أهل البلاء المجانين وشبههم.

٢ – بحار الأنوار ٧٢ ـ ١٥ باب ٣٢ ـ آداب معاشرة العميان والزمنىٰ.

٣ – مما روي حول قسوة القلب وأخطارها ما جاء في النصوص المباركة التالية:

قال الله تعالىٰ في القرآن الحكيم: لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ الحج الآية /٥٣.

وقال تعالىٰ: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ البقرة، الآية /٧٤.

وفي الكافي٢ / ٢٩٠ باب في أصول الكفر وأركانه /٦ قال رسول اللّه «ص»: مِنْ علاماتِ الشَّقاءِ جُمُودُ العَيْنِ وَقَسْوَةُ القَلْبِ وَشِدَّةُ الحِرصِ فِي طلبِ الدُّنْيَا وَالإصْرارُ علىٰ الذَّنْبِ.

الكافي: أن بعض أنبياء بني إسرائيل شكا إلىٰ الله عز وجل قسوة القلب وقلة الدمعة فأوحىٰ الله

إذاً فينبغي لكلِّ عاقلٍ لبيبِ التفكيرِ حَصيف الرأي أن يُكرمَ نَظَراتِ عَينيهِ مِن أَن يهينَها ويزدريها برؤيةٍ مُحَيّا البخيل، وأَن يرحـمَ قلبَه وروحَـه ويعطف عليهما من أَن يجتَلِبَ اليهما شظايا من زُبُرِ قلبِ البخيل، أو من وجهِهِ النحاسيِّ المشووم.

تبريراتٌ عشوائيةٌ يفضحُها الواقعُ السليم

١٧ ـ قال إمام المتقين والصديقين (صلوات الله عليه): السَّـخَاءُ فـطنَـةٌ، واللؤمُ تغَافل[١].

ثَم صفات دميمة للغاية في الهابطين أخلاقياً وتربوياً من طبقات مـختلف

إليه: أن كل العدس. فأكل العدس فرق قلبه وكثرت دمعته.

بحار الأنوار ٧٥ / ١٧٦ باب ٢٢ – وصايا الباقر (عليه السـلام). وقال (عليه السـلام):.. ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب.

الأمالي للطوسي المجلس الأول فيه أحاديث الشيخ عن ابن عمر، قال: قال رسول الله «ص»: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب، إن أبعد الناس من الله القلب القاسي.

وجاء في مِصْبَاح الشَّرِيعَةِ، قال الصَّادق (عليه السـلام): وليسَ شَيْءٌ أَضَرَّ لِقَلْبِ المُؤمِنِ من كَثْرَةِ الأَكْلِ وهيَ مورثةٌ لشيئين: قَسْوَةِ الْقَلْبِ وَهَيَجَانِ الشَّهْوَةِ. وقال عيسىٰ ابن مَرْيَمَ: مَا مَرِضَ قَلْبٌ بِأَشَدَّ مِنَ الْقَسْوَةِ وَفِيهِ، وَ[كَثْرَةُ] النَّوْمِ يَتَوَلَّدُ مِنْ كَثْرَةِ الشُّرْبِ وَ كَثْرَةُ الشُّرْبِ يَتَوَلَّدُ مِنْ كَثْرَةِ الشَّبَعِ وَهُمَا يُثَقِّلانِ النَّفْسَ عَنِ الطَّاعَةِ وَ يُقْسِيَانِ الْقَلْبَ عَنِ التَّفَكُّرِ وَ الْخُشُوعِ

وذكر القطب الرَّاونديُّ في لُبِّ اللُّبابِ، قال: قال عِيسىٰ ابنُ مَرْيَمَ: قَسْوَةُ الْقَلْبِ مِنْ جَفْوَةِ الْعُيُونِ، وَجَفْوَةُ الْعُيُـونِ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ، وَكَثْرَةُ الذُّنُوبِ منْ حُبِّ الدُّنيا، وَحُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَـةٍ.

١ – يوسف بن حاتم الشامي في كتابه الدرّ النظيم / فـصل فـي ذكـر بـعض حكـم أمـير المؤمنين (عليه السـلام) وخطبه ووصاياه، وابن شعبة الحـرانـي فـي تـحف العـقول / ٢١٤، والعلامة المجلسي في بحار الأنوار، ٧٥ / ٥٣ باب / ١٦ ما جمع من جوامع كلم أمير المؤمنين. و ٧٥ / ٢٢٩، وقد رواها في البحار أيضاً عن جعفر الصادق (عليه السـلام)، ٧٥ / ٢٢٩ باب / ٢٣، سيأتي لنا مقطعان من الشعر في نظم هذه الحكمة.

المجتمعات، قد اتفق فلاسفة الأخلاق والتربية ومختلف أُولي الألباب علىٰ قبحها وشناعتها، وذلك مثل الظلم والبخل والجبن والغدر واخلاف المواعيد...

ولكن هل يترك المتصفون بالصفات الدميمة الأمر علىٰ ما هو عليه من الصحة والوضوح والواقعية، من دون أن يبرِّروا مواقفهم وتصرفاتهم وأخلاقيتهم المنحطة، ويحاولوا أن يخلقوا ألف دليل ودليل علىٰ سلامة أعمالهم وسداد طرائقهم تارة بأنهم غير متلبسين بتلك النعوت الدنيئة وإنما قد أُلصقت بهم الصاقاً، أو أن بعض الناس لم يفهموها علىٰ حقيقتها أو لم يفهموهم علىٰ حقيقتهم، وتارة عن طريق تحسين تلك الصفات الدميمة وترقيع بشاعتها واضفاء شتىٰ الألوان التجميلية الناصعة البيضاء والشقراء والحمراء علىٰ وجهها الأسود القبيح.

بل ما أَشدَّ ما يصطنعه المنعوتون بالصفات الدميمة من عوامل التجوية الفيزيائية والكيميائية[1] التي تقوم بتفتيت وتكسير آراء العامة كما تعمل بقوة علىٰ تحلّلها وتحويلها عن أُسسها الصحيحة! ومن عوامل التجوية محاولات جعل تلك الصفات المذكورة أدلةً كافيةً وافيةً علىٰ واقعية النظرة والتفكير، وعلىٰ الفطنة والذكاء والسداد وبعد الغور.

إن في قول الإمام علي (السخاء فطنة) رَدّاً صريحاً وقوياً علىٰ من يذهبون الىٰ حمد صفة البخل أو يدعون ذلك ويلبسونها ثوب الفطنة والذكاء. بل السخاءُ هُوَ الذَّكَاء، وَقدْ خَاَب مَنِ افتَرىٰ.

أما كيف يكون السخاء فطنة فلنا علىٰ هٰذا السؤال جوابان يتسم أولهما بالايجاز بل الاقتضاب ويتسم الثاني بالتفصيل بل غاية التفصيل. والجواب الأول هو أن السخاء فطنة من حيث كونه من أعمال البِرِّ والخيرِ ومن أَكبر سنن الفضيلة والفضيلةِ ظباءٌ دانيةٌ تُقتَنَص، واللبيبُ الفطنُ مَن بادر الفرص.

---

١ – التجوية Weathering من اصطلاحات علم الأرض (الجيلوجيا) وقد استعملنا الاصطلاح مجازاً.

والجـواب الثانـي هو ما تتكفله صفحات هٰذا الكتاب الحالي برمَّتـه، والحمد للهِ العليِّ العظيم.

مِن أَمثلة الفطنة والتغافل

ما أَكثر قـصص وحكـايات الفـطنة الحـميدة المـجيدة والتـغافل الذمـيم الدميم في عالمي الجود واللؤم ومن بينها ما رواه الخطيب أبـو بكـر البـغدادي بالاسناد عن أبي عثمان قال: لما ولّىٰ أَبو جعفر[١] قـثم ـ يـعني رجـلاً مـن ولد العباس ـ فأتاه أَعرابي فقال:

يـــا قـــثمَ الخـــيرِ جُـــزيتَ الجـــنة
اكسُ بُـــنَياتي وأُمـــهُنَّ

أُقسمُ بالله لتفعلنَّ

فقال: واللهِ لا أفعل.

فقال الأعرابي: لكن لو أقسمت علىٰ معنٍ لأبرَّ قسمي. فبلغت الكلمة معناً[٢] فبعث اليه ألف دينار[٣].

كما روىٰ الخطيب أبو بكر البغدادي[٤] بالاسناد عن محمد بن سلام قـال: كتب رجل الىٰ معن بن زائدة ـ وهو والي اليمن ـ يستهديه خـطراً فأرسـل اليـه

---

١ – المقصود به أَبو جعفر المنصور الخليفة الثاني من الخلفاء العباسيين.

٢ – معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني من مشاهير الكرماء في العصر العباسي، وجاء في وفاء الوفا بأخبار دار المصطفىٰ للسمهودي من قصة طويلة أن جعفر الصادق كتب الىٰ معن بن زائدة وهو أمير علىٰ اليمن رسـالةً في شـأن الحسين بن زيـد بن علي بن الحسـين، فذهب اليه وسلمه اياه فقبَّل الكتاب وقرأه ثم أمر له بعشرة آلاف دينار وأردفها بمثلها (ذكرها السمهودي في موضوع عيون الحسـين). قتل معن بسجستان في سنة اثنتين وخمسين ومـائة وكان والياً عليها من قبل أبي جعفر المنصور.

٣ – تأريخ بغداد، ١٣ / ٢٣٩.

٤ – تأريـخ بغـداد، ١٣ / ٢٤٠ ـ ٢٤١.

جراب خطر وفي الجراب ألف دينار وكتب اليه أن اختضب بالخطر وانتفع بنخالته. وكان الرجل قبل أن يكتب الىٰ معن قد سأل بعض اخوانه خطراً فلم يبعث اليه فلما ورد عليه الخطر من معن أنشأ يقول:

أتانا أبو العباس ضنَّ بخطره
كتبنا الىٰ معن فأهدىٰ لنا خطرا

وأهدىٰ دنانيراً وأهدىٰ دراهماً
وأهدىٰ لنا بزّاً وأهدىٰ لنا عطرا

وما الناس إلا معدنان فمعدنٌ
قريش وشيبان التي فرعت بكرا[١]

أثارةٌ من علمٍ تُقتفىٰ

كثيراً ما يقتبس العلماء والمفكرون والأدباء والشعراء من كلمات الإمام علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه) وحكمه الرائدة؛ فيزينون بما يقتبسون علمَهم ومعارفَهم وخطبَهم وأدبَهم، ويضفون علىٰ نتاجاتهم قوة وجودة وجمالاً[٢]. وعلىٰ خطىٰ قوله (سلام الله عليه): (السخاء فطنة) قال الشريف الرضي الموسوي العالم المُعْرِق والشاعر المُفْلِق (المتوفىٰ عام / ٤٠٦ هجرية)[٣]:

---

١ – المقصود قبيلة بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصىٰ بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وأما شيبان فهو شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل.

٢ ـ انظر علىٰ سبيل المثال تعليقتنا في هٰذا الكتاب علىٰ قول الإمام (عليه السلام): الكرامة تفسد من اللئيم، بقدر ما تصلح من الكريم.

٣ ـ أحمد الهاشمي جواهر الأدب / ٥١٦ الطبعة الثالثة عشر. ولقد قال الاستاذ أحمد الهاشمي عن القصيدة التي منها البيت المذكور: وقال الشريف الرضي وقيل لعنترة العبسي.

تـــعلَّمْ فـــإنَّ الجـــودَ فـــي النـــاس فـــطنةٌ
تـــقومُ بـــها الأحـــرارُ والطـــبعُ أغـــلبُ

لا تدخلنَّ في مشورتك بخيلاً

١٨ ـ قال الإمام في عهده لمالك الأشتر (رض): لا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْـلِ وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ... فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِـزُ شَتَّىٰ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّه[1].

شرحٌ وايضـاح

قال عزُّ الدين بن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وهو يـعلق عـلىٰ هـذه الحكمة من كلام الإمـام: قوله (عليه السـلام): ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر مأخوذ من قول الله تعالىٰ: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُـمُ الْفَقْرَ ويَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ واللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وفَـضْلاً»[2]. قـال المـفسِّـرون: الفحشاء هاهنا البخل، ومعنىٰ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ: يخيِّلُ إليكم أنكم إن سمحتم بأموالكم افتقرتم فيخوفكم فتخافون فتبخلون. قوله (عليه السـلام): فإن البخل والجـبن والحرص غرائز شتىٰ يجمعها سوء الظن بالله، كـلام شـريف عـالٍ عـلىٰ كـلام الحكماء يقول إن بينها قدراً مشتركاً وإن كانت غرائز وطبائع مختلفة؛ وذلك القدر المشترك هو سوء الظن بالله؛ لأن الجبان يقول في نفسه إن أقدمت قتلت، والبخيل يقول إن سمحت وأنفقت افتقرت، والحريص يقول إن لم أجـد وأجـتهد وأدأب فاتني ما أروم. وكل هذه الأمور ترجع إلىٰ سوء الظن بـالله، ولو أحسـن الظـن الإنسان بالله وكان يقينه صادقاً لعلم أن الأجل مقدر، وأن الرزق مقدر، وأن الغنىٰ

---

١ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧ / ٣٧، والدكتور لبيب بيضون، تصنيف نهج البلاغة / ٩٦٨، والليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ١٤٢.

٢ – البقرة، الآية / ٢٦٨.

والفقر مقدران، وأنه لا يكون من ذلك إلا ما قضىٰ الله تعالىٰ كونه.

تأثير المستشار علىٰ المُستشير

لا ريب بأن للكثيرين من المستشارين تأثيراً قَلَّ أو كثر علىٰ المستشيرين من الرؤساء والأمراء والوزراء وغيرهم سواء كان التأثير المذكور في جانب اجتماعي أوسياسي أو اقتصادي أو غير ذلك من الجوانب، وسواء كان هٰذا التأثير سلبياً أو ايجابياً.

ولما كان الأَمر كذلك كما يُدرك بالعقل وبالتجربة فلذا ينبغي لقادة الشعوب من الرؤساء والأمراء والوزراء وغيرهم أن يختاروا لأنفسهم أو لغيرهم الصفوةَ من المجتمع ممن يمتازون بالكفاءة الاستشارية والأخلاق الحميدة والسموِّ النفسي؛ لئلا يوقعوا المشارَ عليه بما لا تحمد عقباه ولا يحسن أمره، ولكي يصدروا عن آراء سليمة وتفكير صحيح وعمل يُنظَر اليه نظرة اجلال واكبار، أو علىٰ الحدِّ الأدنىٰ لا يوجب لصاحبه القدح والمذمَّة، أو للناس الشرَّ والعذاب.

وقد دأب أكثر الناس بما في ذلك الدول والحكومات علىٰ اختيار المستشارين ممن يتوفرون علىٰ الخبرة والمعرفة فحسب، ولا يضعون في حسابات الاختيار ما يجدر بالمستشار أن يتصف به من المواصفات الطيبة والعالية الأخرىٰ كالأخلاق الكريمة والسمو النفسي وحسن التعامل وغير ذلك.

كما قد أخذت صناديق الانتخابات والاقتراع في كثير من الأحيان ترشِّح لمجالس البرلمانات وغيرها أناساً لا يُلتفت الىٰ كونهم ممن يتسمون بالمواصفات الجميلة ـ كالتي أشرنا اليها ـ أم لا، الأمر الذي لا يحدث نموّاً أو تطوراً في الحضارة والتمدن، وفي تقدم الأمة وتحسن حالات المسار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

وأخيراً فإن من السداد والحكمة أن لا ننسىٰ أو نتناسىٰ أبداً أن المستشارين يعكسون في غالب أحوالهم وعاداتهم ما يحتقبون ويضمرون في قلوبهم وذوات أنفسهم من خير أو شر، ومن فضيلة أو رذيلة، ومن تصاميم

محددة لنفع الناس وإرفادهم والإحْسان اليهم، أو لضرهم وقهرهم والاساءة اليهم بشتىٰ ألوان الصـور.

وكان رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قد قال محذِّراً من مغبَّة استشارة البخيل: «لا تشاورن البخيل فإنه يقصر بك عن غايتك»[١]. فكأنه «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» يرسم للإنسان النبيل غايةً فاضلةً بعيدةَ المَدىٰ، وينهاه عن الاستماع الىٰ من يعتاق الغاية ويقصر به دون بلوغها.

وفي النهي النبوي والعلوي المتعاضد عن استشارة البخيل دليل علىٰ أن آراء الإنسان وأفكاره الخاصة ليست ـ في الأعم الأغلب ـ آراءً وأفكاراً عقلية وتجريديَّة محضة بعيدة عن قنوات النفس التي بين جنبيه ولا ما جُبِلَ عليه من المواصفات الأخلاقية الكريمة أو اللئيمة.

العاقلُ من بَذَل نَداه

١٩ ـ قال الإمام عليٌّ (عليه السلام): العاقِلُ مَنْ بذلَ نَداه[٢].

ما هي العلل الظاهرية والباطنية التي تدفع بقُواها المركزية وأنوارها المستطيرة العاقلَ الىٰ الاحتفاء بالجود وبذل الندىٰ؟

لا ريب أن الدوافع الىٰ ذلك تختلف ما بين عاقل وعاقل، إلا أنه بشكل عام نعرف أن من أَقوىٰ الدوافع الىٰ ذلك هو طلب ما عند الله من الثواب الجزيل والأجر الجميل، أو العطف والحنان علىٰ من يستحقون التنعم بالجود، أو ما يكنُّه قلب العاقل الجواد من الحب العميق لهذا الفرد أو تلك الجماعة، أو طلب الذكرىٰ العاطرة والمدائح ما بين الناس، أو درْء مذمَّة الوصف بالبخل والابتعاد عن الندىٰ والجود... وقد تجتمع أكثر من علة في حَبْك عملية البذل والندىٰ في نفس الوقت،

---

١ – الشيخ الصدوق، الخصال، باب الثلاثة، الحديث / ٥٧، والصدوق أيضاً، علل الشرائع، الباب / ٥٣، الحديث / ١.

٢ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٦٧٦.

كما قد تختلف الدوافع من زمن الىٰ زمن آخر، ومن موقف كريم الىٰ موقف كريم.

أما ما هي مواصفات وشؤون وأوضاع العاقل الذي من جملة مزاياه وسجاياه بذل الندىٰ؟ فهو ما توضحه الآثار الحكمية الغزيرة المروية عن أمير الحكماء والتي نكتفي منها بالمقدار التالي فحسب[1]:

ـ ثروة العاقل في علمه وعمله.

– حدُّ العقل الانفصال عن الفاني والاتصال بالباقي.

– العاقل من أحسن صنائعه، ووضع سعيه في مواضعه.

– حق علىٰ العاقل العمل للمعاد والاستكثار من الزاد.

– ينبغي للعاقل أن يكتسبَ بماله المَحْمَدَة، ويصون نفسه عن المسألة.

– إن العاقل من نظر في يومه لغده، وسعى في فكاك نفسه، وعمل لما لا بد له منه ولا محيص له عنه.

ـ من عمر دار إقامته فهو العاقل.

– للعاقل في كل عمل إحسان.

ـ ينبغي للعاقل أن يحترس من سكر المال، وسكر القدرة، وسكر العلم، وسكر المدح، وسكر الشباب؛ فإن لكل ذلك رياحاً خبيثةً تسلب العقلَ وتستخف الوقار.

نستطيع أن نمضي الىٰ القول أن الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) قد اعتبر النهوض بمسؤولية الجود والقيام بأعباء المواساة دليلاً علىٰ وفور العقل، وتأييداً لحكمة جدِّه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) (العاقِلُ مَنْ بذلَ نَداه)، كما نفهم الأمر مما ورد عن سعيد بن الحسن: إنَّ أبا جعفر الباقر (عليه السلام) قال: أيجيء أحدكم الىٰ أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا

---

١ – نقلناها من غرر الحكم للآمدي (رض).

يدفعه؟ فقلت: ما أعرف ذلك فينا. فقال أبو جعفر: فلا شيء اذاً. قلت: فالهلاك اذاً؟ فقال: إنَّ القوم لم يعطوا أحلامهم بعد[١].

البخلُ عار

٢٠ ـ قال أَميرُ المؤمنين عليٌّ (عليه السلام): البخلُ عار[٢].

أَخذ مضمون الحكمة هٰذه الوالي الأموي المعروف بزياد بن أبيه قائلاً: كفىٰ بالبخل عاراً أن اسمه لم يقع في حمد قط، وكفىٰ بالجود مجداً أن اسمه لم يقع في ذمٍّ قط[٣].

لا ريب أن البخل عار، ويقع الوصف بالعار بصورة عامة في سياقات التقييمات الاجتماعية لفرد أو جماعة أو أمة؛ فكلما كان المجتمع ـ بحدِّ نفسه ـ أكثر جوداً وكرماً، أو كان أشدَّ حباً وتقديراً للجود والكرم؛ فإنه أكثر أو أشد ازدراءً وتَعْرية للبخل والشحِّ وللبخلاء والأشحاء.

إلا أنه يبدو لنا أن الوصف بالعار لا يقع في سياقات التقييمات الاجتماعية فحسب، بل هو أمر يقتضيه المنطق الفطري في الإنسان؛ فإنه حتىٰ المجتمعات

---

١ ـ الحر العاملي، وسائل الشيعة ٦ / ٢٩٩.

٢ ـ التذكرة الحمدونية، ٢ / ٢٦١ وسجع الحمام في حكم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الحكمة / ٤٩٧، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١ / ٩٥. ومشكاة الأنوار / ٢٣٣، وبحار الأنوار ٧٥ / ٣٩. ولقد قلنا في كلمة الإمام أمير المؤمنين: البخل عار والجبنُ مَنقصة:

البخلُ والجبنُ في جَهرٍ واسرارِ ... مزالقُ البؤس بين العارِ والنارِ
البخلُ عارٌ وثوبُ الجبنَ مَنقصةٌ ... والحرُّ في منهج عارٍ من العارِ

وقلنا أيضاً تأكيداً علىٰ هٰذا المضمون العلوي في بداعته ورائع جماله:

اَلْبُخْلُ عَارٌ وإنَّ الْجُبْنَ مَنْقَصَةٌ ... والْفَقْرُ يُخْرِسُ فاهَ العالمِ الْفَطِنِ
خذها اليك أَغاريد النجومِ إذا ... ما كنت تفقه شيئاً عن أَبي الحسنِ

٣ ـ ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد ١ / ١٨٧. والآبي، نثر الدر ٥ / ٢١.

البخيلة فإنها طالما يصدر منها الاستخفاف أو التهجين للبخلاء، ولا ينبغي أن نستغرب من هٰذا الكلام أو ننكره خصوصاً اذا التفتنا الىٰ الناحيتين التاليتين:

الناحية الأُولىٰ

أن مرضىٰ النفوس والساقطين في وهدة العيوب السلوكية والأخلاقية كثيراً ما يقدح بعضهم ببعض وينتقصه ويكيل له الذم والشتم؛ ليبرىء نفسه وثيابه وكيانه من وصمة العار أو دنس العيب والفضيحة بإلقائها علىٰ الآخرين، أو يريد أن يتسارع في الاتهام ليعيبه قبل أن يعيبه الطرف المقابل، أو لأنه يرىٰ أنه معذور في بخله لسبب من الأسباب أما الآخر فليس كذلك، أو لما أعتقده من أن كثيراً من الناس ينظرون بعين التدقيق والتحقيق والتعمق الىٰ عيوب الآخرين، ولا ينظرون الىٰ عيوبهم حتىٰ بعين السطحية وبداوة التقييم.

الناحية الثانية

كما ان للكرم والنوال درجاتٍ متفاوتةً صعوداً وهبوطاً، فكذلك للشحِّ والبخل درجاتٍ متفاوتةٍ شدةً وضعفاً. ومن هٰذا المنطلق فإنه حتىٰ المجتمعات الموسومة بالبخل والامساك فإن أفرادها متفاوتون في مسارات البخل وسُلَّم القبض والشحّ؛ فينعت صاحب البخل القليل نسبياً من هو أشد منه بخلاً بما يعيبه، ويعيب الشحيح من الدرجة القليلة الشحيحَ من الدرجة الكثيرة.. وهلم جراً أو جراً وسحباً لكل شحيح وبخيل في شتىٰ أصقاع المجتمعات المدنية والعسكرية.

لما كان البخل عاراً ويقع الوصف بالعار بصورة عامة في سياقات التقييمات الاجتماعية لفرد أو جماعة أو أمة كما عرفنا فهل يحلُّ هذا العار علىٰ ساحة شخص البخيل وتلك الجماعة والأمة البخيلة أم قد يشمل ذراريهم وأحفادهم؟ الحقيقة أن العار لما كان وصفاً اجتماعياً فهذا يعود الىٰ طبيعة المجتمع ولون أخلاقيته وتعامله في استمرارية اطلاق الشتم والنقيصة أو توقفها عند حدود زمنية معينة، وهذا ما يكون في الدنيا، وَأَما بالنسبة الىٰ يوم الدين فقد أعلمنا كتاب الله تبارك وتعالىٰ حيث يقول عن حكمة صحف رسوله الكليم موسىٰ وصحف الخليل إبراهيم بما ترتضيه حكمة القرآن المجيد: «أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۞

وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ »[١].

استجادة واستلهام

٢١ ـ قال الإمام علي (عليه السلام): الإِحْسانُ يستعبدُ الإنسان[٢].

أكَّدَ أميرُ المؤمنين علىٰ هٰذا النمط من التفكير والتنظيم مرةً أخرىٰ فقال (عليه السلام): بالإيْثار يُستَرَق الأَحرار[٣]. وقال أيضاً: بالإيثار على نفسك تملك الرقاب[٤]. وقد استجاد كبير القادة العسكريين في الدولة الأموية المهلب بن أبي صفرة الأَزدي هذه المقولة الجميلة فقال محاكياً لها: ليس للأحرار ثمن إلا الاكرام؛ فأكرم حُرّاً تملكه[٥].

كما استلهم الشاعر الكبير أَبو الفتح البستي هٰذا المفهوم قائلاً من قصيدة رائعة مشهورة له[٦]:

أَحسن الىٰ الناس تستعبد قلوبَهُمْ
فطالما استعبد الإنسان إحسانُ

قد يستشكل بعضنا علىٰ قول الإمام علي (عليه السلام): (الإِحْسان يستعبد الانسان). من حيث أن كثيراً من الناس لا يستعبدهم الإحسان ولا يشكرون المحسنين ولو تكرَّر إحسانهم عشرات المرات. والجواب أن الإمام يشير الىٰ الحالات الغالبة في الناس والىٰ الساحة الانسانية عموماً، لا الىٰ الأقلية منهم، فما قاله (سَلامُ اللهِ عَليه) إنما هو قاعدة من القواعد ولكل قاعدة شواذ.

---

١ – النجم، الآية / ٣٦ ـ ٣٨.
٢ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة /٢١٤ وغُرر الحكم، الحكمة / ٨٧٧٢.
٣ – غرر الحكم، الحكمة / ٩١٦٧. ٤ – غرر الحكم، الحكمة / ٩١٦٩.
٥ ـ بهجة المجالس لأبي عمر القرطبي المجلد الأول من القسم الأول / ٣٠٨
٦ ـ مطلع القصيدة:
زيادةُ المرءِ في دنياه نقصانُ وربحُه غيرَ محضِ الخيرِ خُسرانُ

والشاذُّ لا يُقاس عليه وإن كثر كما يقول الفقهاء. هذا من جهة ومن جهة ثانية قد يكون الإمام ناظراً الىٰ كون الجاحدين للإحسان والمتنكِّرين للإنعام أساساً لم يكونوا من جنس الإنسانية وحدودها الجميلة الناضرة، بل هم من صنف البهائم أو دون طبقتها وإن تمتَّعوا بقدودٍ كقدود البشر ووجوهٍ لا تختلف عن وجوه الناس؛ ولذا يصحُّ لنا القول: ما الإنسانُ إنساناً بفَسلجة جسمِه، بل بِقِيَمِهِ وحلمِه[١]. ومَنْ أَضاعوا الحُدود، لَم ينفَعهُم حُسنُ القدود وقد نفىٰ الإمام (عليه السلام) بكلام صريح عَدَّ المتغافلين عن شكر الإحسان من جنس الانسان (مَنْ لمْ يشكُرِ الإنعَام، فليعدَّ من الأَنعَام)[٢].

المطلُ أَحَد المنعين

٢٢ – قال الإمام علي (عليه السلام): المَطْلُ أَحَدُ المَنْعَين[٣].

الموقف السليم الناصح من المؤمَّلين للفضل والإحْسان قضاء الحاجة واصطناع المعروف، بلا تأخير ولا تأجيل، ما كان الىٰ ذلك سبيل، أو اتحافهم بصكوك الأمل الصادق والوعدِ البارِّ الكريم، كما قيل في المثل القديم الجميل: حَقِيقٌ علىٰ مَنْ أَزهَرَ بِقَوْل، أَنْ يُتمِرَ بفِعل. فلا لَيّاً في المَواعِيد، ولا مَطْلاً في التأمِيل، وذلك لأننا نعتقد بـ أنَّ مِنْ سُنَنِ الأَشراف، التسارع الىٰ الإتحاف، ومِنْ سُنَنِ البَخيل، المطل في التأمِيل، وَأَنَّ لَيَّ المَواعيد، أَشَدُّ مِن لَيِّ الجِيد.

وقد ذكر بعض الأعراب رجلاً فقال يمدحه في حالتي الاعطاء والمنع: إن خيرك لَسريح، وإن منعك لَمُريح، وإن رفدك لَربيح.

والمَطْلُ في المواعيد وإن كان أحد المنعين البغيضين في إطار فلسفة الموازين التربوية والأخلاقية، ولكنه أردء المَنْعَين وأجدرهما باللائمة والتقريع والتوبيخ. إلا أن المطل علىٰ وجهتين مختلفتين في النهاية وإن كانتا متفقتين في

---

١ – الحلم هنا بمعنىٰ العقل.
٢ – غرر الحكم، الحكمة / ٦٢٠٦.
٣ – غُرر الحكم، الحكمة /٨٦٠٦.

البداية وهما:

أوَّلاً: المطل الذي لا تستتبعه نتيجة مفرحة أو ثمار طيبة، فثَم انتظار لا يعلم الىٰ ما يؤول اليه ويُسفر عنه، وثَم ألم نفسي شديد علىٰ الموعود له في المقدمة والنتيجة كليهما، فالأمر يكون كما وصف أعرابيّ رجلاً مماطلاً فقال: أوَّله طمع، وآخره يأس، وما هو إلا كالسراب يُخلفُ من رجاه، ويغرُّ من رآه. وعن هذه الحالة وأشباهها قيل في المثل: مواعيد عرقوب، وذلك أن رجلاً يقال له عرقوب قد سأله أخ له شيئاً، فوعده أن يمنحه طلع النخلة إذا أطلع، فلما أطلعت سأله ما وعده إياه فقال: أمهلني حتىٰ تصير زهواً ـ وهو تلون البسر بالحمرة أو الصفرة ـ فلما زهت سأله ما وعده إياه فقال: أمهلني حتىٰ تصير رطباً. فلما أرطبت، سأله ما وعده إياه فقال: أمهلني حتىٰ تصير تمراً، فلما أتمرت جذَّها تحت جناح الليل البهيم وحرم منها أخاه بعد المماطلة. وقد وعد رجل أبا العيناء دابَّةً فأخرها، فكتب اليه: إن كانت الدابَّة التي وعدتني بها دابَّة الأرض فقد مضىٰ خبرها مع سليمان[1]، وإن كانت دابَّة الصفا انتظر ما خبرها مع سابق الحاجّ[2]، وإن كانت دابَّة من دوابِّ الدنيا فقد جاز عمرُ وعدِكَ عمرَ الدوابّ فهيِّىء لي غيرها، وإن كانت دابَّةً تدفعها إليَّ في الآخرة فإن الله تعالىٰ يقول: «لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.»[3].

ثانياً: مطل تستتبعه نتيجة مفرحة أو ثمار طيبة، ولئن يكن قد آذىٰ الموعود له في المقدمة وفي طريقة التعامل، إلا أنه قد أوصله الىٰ ما يريد وبلغه ما يشاء بعد اللتيا واللتي. وهٰذا اللون من المطل ينقسم الىٰ شعبتين وهما المطل لمدة قصيرة ولو نسبياً، والمطل لمدة طويلة. فهل يعني أمير المؤمنين الوجهتين معاً، أو يعني (سَلامُ اللهِ عَليه) الأولىٰ والشعبة الثانية من الوجهة الثانية؛ باعتبار أن

---

١ - يعني قوله تعالىٰ في قصة رسول الله سليمان (عليه السلام): «فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَادَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ..» سبا الآية / ١٤. مِنسَأَتَهُ: عصاه.

٢ - سابق الحاجّ: الذي يسبق حجاج بيت الله في المسيرة وقطع المسافة.

٣ - عبس، الآية / ٣٧.

الأولىٰ من الشعبتين وإن كانت مؤسفة ومكروهة جداً في اسلوبها، ولكنها قد أدت في النهاية الىٰ النتيجة المطلوبة وليس فيها من العسر والشدَّة ما في التي بعدها؟ والأرجح فيما أعتقد أن المقصود هو خصوص المطل الذي لا تستتبعه النتيجة المطلوبة إضافة الىٰ الشعبة الثانية من الوجهة الأخرىٰ، ويدل عليه ما نقله الآبي في نثر الدر عنه (عليه السلام): الرد الجميل خيرٌ من المطل الطويل[1]. ولئن يكن أمير المؤمنين قد أجمل ألقول ولم يبيِّنه في حديثه: (المطلُ أحدُ المنعين). فقد بيَّنه ولم يجمله في حديثه: (الردُّ الجَميل خيرٌ من المطلِ الطويل). وبهذا يكون الحديث الأخير أيضاً مبيِّناً لما أَجمله عليه السلام ولم يبينه في شعره المبتكر وهو هٰذان البيتان:

إذا اجتمعَ الآفاتُ فالبخلُ شرُّها
وشرٌّ من البخل المواعيدُ والمطلُ

ولا خيرَ في وَعدٍ إذا كان كاذباً
ولا خيرَ في قَولٍ إذا لَم يَكُنْ فِعْلُ

ومن المناسب أن نذكر ما كتبه أَبو النجم حبيب بن عيسىٰ الىٰ عمرو بن مسعدة أحد الوزراء في العصر العباسي حول المطل وهو يعتب عليه بل يقدح بشخصه ويهجوه قائلاً: ينبغي لمن علقته حبائلك، وشقي بصحبتك، أن يكون له صبر أيوب، وعمر نوح، وكنوز قارون، وملك هارون، فيستعين بالصبر علىٰ مماطلتك، وبالعمر علىٰ طول أيامك، وبالكنوز علىٰ مواعدك، وبالملك علىٰ ما يناله من الذلّ ببابك[2].

فمن كانت له الامكانية علىٰ الحلِّ العاجل للمشكلة والقدرة علىٰ المبادرة الكريمة؛ فليسرع في إكرامه وإنعامه وليبادر الىٰ انجاز المواعيد ما استطاع الىٰ ذلك سبيلا، إن كان ممن يروم الحمد والمجد والسؤدد في الدنيا، والأجر وحسن الثواب في الآخرة. ولقد ذكر أعرابي قوماً فقال: أولئك أَدَّبتهم الحكمة

---

١ ـ الآبي / نثر الدر، ١ / ٢٩٤.
٢ – نثر الدر ٥ / ١١٣.

وأحكمتهم التجارب، رحل عنهم التسويف الذىٰ قطع به الناس مسافة آجالهم، فمذلت (سمحت وطابت) ألسنتهم بالوعد، وانبسطت أيديهم بالانجاز، فأحسنوا المقال، وشفعوه بحسن الفعال[١].

«كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا»[٢].

المالُ لا ينفعك حتىٰ يفارقك

٢٣ - قال الإمام أَمير المؤمنين (عليه السلام): المالُ لا ينفعُكَ حتىٰ يُفارِقَك[٣].

أ ـ من الممكن تصور فراق المال للانسان علىٰ أنحاء كثيرة من جملتها: فراق المال للانسان عن طريق ضياعه وفقدانه، وهٰذا لم يقصده الإمام قطعاً؛ لأن ضياع المال لا ينفع. وكذلك فراق المال للانسان عن طريق الخسارة في البيع أو الشراء والمضاربة والايجار ونحوها من باب المعاملات، وهٰذا لم يقصده الإمام قطعاً؛ لأن خسارة المال لا تنفع الخاسر. وكذلك فراق المال للانسان عن طريق مايعطيه من قروض للآخرين، ومن غير البعيد أن الإمام يقصد هٰذا المعنىٰ ولكن باعتباره جزءً مما ينفع الإنسان ويفيده من المال المفارِق. وكذلك فراق المال للانسان عن طريق اقامة المشاريع الخيرية وصلة أولي الأرحام وحسن ضيافة الآخرين، وعن طريق الهبة ومساعدة بعض الناس... الخ. وهٰذا يقصده الإمام قطعاً؛ لأن انفاق المال في ما ينفع الناس وبالطريقة المشروعة مما تؤكد عليه الشريعة الإسلامية الغراء بشكل مُكثَّف ومتواصل.

بـ وهل من الصحة والسداد أن نفهم المقصود من هذه الحكمة العلوية من أن

---

١ - محمد بن أحمد بن اسحاق النحوي المعروف بالوشاء في كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل ٢ / ٤٥.

٢ - الفجر، الآية / ١٧ ـ ٢٠.

٣ - غُرر الحكم، الحكمة /٨٢٩٦.

معنىٰ لا ينفعك حتىٰ يفارقك بأنك لا تنتفع بالمال حتىٰ طالما تنفقه علىٰ نفسك، في قضايا تتعلق ببناء القصور والعمارات الشاهقة وبتشييد الحدائق الغناء والمنتزهات الفاتنة وبالاستكثار من طيبات المأكولات ولذائذ المشروبات، وغير ذلك من الأُمور والقضايا الكثيرة ذات الطابع الشخصي المحض ؟

والجواب : إنه وإن كان بالامكان أن يُستفاد من هذه الشؤون المختلفة عن الطريق القانوني والمشروع، إلا أن من يعرف ابن أبي طالب ومدرسته الخالدة في الزهد والتقشف، وحكمه وأفكاره في السخاء والايثار، يرجح بقوة أو يجزم بأنه (سلام الله عليه) لا يريد من نفع المال لك النفع الذاتي وإن كان جائزاً ومستساغاً، لوضوح ذلك عند الناس وبداهته، ولأنهم بالفعل عاملون به بلا حاجة الىٰ تعليم معلم وإرشاد حكيم، وإنما يريد بذلك الوجهة الاجتماعية والانسانية، وأن تبذل الأموال في سعادة الجميع، فبالتالي تنسجم هذه الحكمة تمام الانسجام مع مقولته (عليه السلام): من جمع المال ليَنْفَع به الناس أطاعوه، ومن جمعه لنفسه أضاعوه[1].

جـ إن لهذه النعمة الإلهية الكبرىٰ التي يقال لها المال لا سيما الغزير منه مقدرةً فائقةً وإمكانيةً رفيعةَ المستوىٰ علىٰ النفع وحلٍّ الكثير الكثير من المشكلات الفردية والاجتماعية والسياسية، فينبغي للراغبين في الخير والطامحين الىٰ رضوان الله سبحانه أن يجودوا به جود الفضلاء الأكرمين، وأن يشاطروا المجتمع أفراحه وأتراحه مشاطرة المحبين المخلصين، لقد سخر من نفسه مدعٍ مشاطرة المجتمع آلامه وآماله، ولم يشاطره ممتلكاتِهِ وأَموالَه. إنَّ الشحيحَ لاً يفارقُ المَال حتىٰ تفارقَه الحَيَاة.

د ـ كان الأحنف بن قيس التميمي[2] (ت ٦٧ هجرية) من الحكماء في صدر الاسلام والعصر الأموي، لا سيما في العصر الأموي حيث كبرت سنه كثيراً؛

---

١ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٨٣١٧، وغُرر الحكم، الحكمة / ٨٤١٦.

٢ – نسبنا الأحنف لقبيلة تميم من حيث أنه منهم في النسب، لا من حيث أنه سيدهم فحسب لأن الأحنف سيد أهل المشرق علىٰ حد تعبير عمر بن الخطاب.

فازدادت حنكته الاجتماعية وخبرته السياسية وتوسعت مديات عقله وتفكيره الىٰ حدٍّ بعيدٍ، بل بعيد جداً، وأصبح ضمن الطليعة المتقدمة من أولي الفكر والمعرفة، كما أصبح قليل النظير في مجال الحكمة علىٰ المستوىٰ العالمي آنذاك. وقد استفاد الأحنف كثيراً من تخرجه علىٰ يد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وصحبته المخلصة له. كما بان تأثره حكمته (عليه السلام) وخطه الفكري في عدة مواطن[١]، ومثال ذلك مما نحن بصدده أنَّه رأىٰ مع رجل درهماً فقال تحبُّه؟ قال: نعم. قال: إنه لا ينفعك حتىٰ تفارقه.[٢]

هـ ـ كما راقت كلمة الإمام علي (عليه السلام): المالُ لا ينفعك حتىٰ يفارقك، بعض الشعراء في العصور الأخيرة فقال متأثراً بها:

والمالُ مثلُ الحصىٰ ما دام في يدنا
فليس ينفعُ إلا حين ينتقلُ

و ـ وقال المؤلف غفر الله له ولوالديه مُعجباً بالحكمة العلوية الرائقة، وبالمعنىٰ الأصيل الذي ابتكره أمير المؤمنين (عليه السلام):

والمالُ ليس بنافعٍ أربابه
حتىٰ يفارقَهم فراقَ كريمِ

وذلك لأن المال في حقيقة الأمر ليس إلا علة ذرائعية Gause Instrumentale، كما في التعبير الفلسفي، أو ما يقال لها العلَّة الأداة، أي وسيلة لإحداث النتيجة.

« وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْساً إِذَا

---

١ ـ ومما نقله الأحنف من حكم الإمام علي وقد نسبه بعضهم اليه: رب ملوم لا ذنب له. وكذا قول الإمام (عليه السلام): لا راحة لحسود وقوله (عليه السلام): كثرة الضحك تذهب الهيبة.

٢ ـ منصور بن سعيد الآبي، نثر الدر ٥ / ٥٣.

جَآءَ أَجَلُهَا وَ ٱللَّهُ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ »[١].

الإيْثارُ أَفضلُ عِبَادَة

٢٤ – قال أَميرُ المؤمنين علي (عليه السلام): الإيْثارُ أفضَلُ عِبادة، وأَجَلُّ سِيادة[٢].

أ ـ إن اضفاء صفة العبادة علىٰ الإيْثار يجعله في مصافِّ المقدَّسات الحقيقية، أما حينما لا يقتصر الإمام علي بن أَبي طالب علىٰ اعتبار الإيْثار عبادة فقط كسائر العبادات بل يعتبره أفضل العبادة؛ فهذا يعني أنه قد رفعه الىٰ أعلىٰ علِّيين في المقدَّسات الدينية والمراتب الروحية. كما أن هٰذا يشير الىٰ أن المؤثرين علىٰ أنفسهم هم في أعلىٰ عِلِّيي الطبقات الانسانية، وهم الأَحرار حقاً وأفضل العابدين من الناس اذا ما صُنِّف العابدون الىٰ ثلاثة أَصناف كما ورد التصنيف المشهور عن أمير المؤمنين ورواه الكليني في الكافي عن جعفر الصادق (عليه السلام): عليُّ بن إبْراهيمَ عن أَبيهِ عن ابنِ مَحْبُوبٍ عن جميلٍ عن هارونَ بن خارجةَ عن أَبي عبدِ اللَّهِ (عليه السلام) قال: إِنَّ الْعُبَّادَ ثَلاثَةٌ قَوْمٌ عَبَدُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَوْفاً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعالىٰ طَلَبَ الثَّوَابِ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأُجَرَاءِ، وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حُبّاً لَهُ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ، وَهِيَ أَفْضَلُ العِبَادَةِ[٣]. « إِنَّ فِي هٰذا لَبَلَـٰغاً لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ »[٤].

بـ قد يستفسر بعض الناس عن وجود تعارض بين قول أمير المؤمنين: الإيْثار أفضل عبادة، وبين قول حفيده الإمام محمد الباقر (عليه السلام) فيما

---

١ – المنافقون الآية / ١١.

٢ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة /٤٣٩ وغُرر الحكم، الحكمة /٩١٦٠.

٣ ـ الكافي ٢ / ٨٤ باب العبادة.... / الحديث ٥.

٤ – الأنبياء، الآية / ١٠٦.

رواه الشيخ الكليني في الكافي: (عنه[١]. عن أبيه عن فَضَالَةَ بن أَيُّوبَ عن الحسنِ بن زيادٍ الصَّيْقَلِ عن فُضَيْلِ بن يَسَارٍ قال: قال أَبُو جعفرٍ (عليه السلام): إِنَّ أَشَدَّ الْعِبَادَةِ الْوَرَعُ)[٢]. المعنىٰ الذي يوحي بأن أفضل العبادة الورع لا الايثار.

جـ والحقيقة أن لا تعارضَ ما بين الحديثين؛ وذلك اذا ما أوسعنا من دائرة الورع وانطلقنا في مغانيها الفيحاء. فاذا كان من يتجنب الشبهات في الأموال ويحتاط من مساربها المعتمة وشُعِبها الدكناء وَرِعاً، فمن المتوقع بحسب العقل والمنطق أن يكون أورع منه ـ بشكل عام ـ من يتيقن بحليَّة الأموال التي في حوزته، ثم لا يستفيد منها كما يستفيد الآخرون ـ علىٰ حدٍّ سواء ـ بل يرجحهم علىٰ نفسه ترجيحاً بيِّناً ويؤثرهم عليها إيثاراً كريما.

الإيْثارُ أعلى الايمان

٢٥ – وقال أَميرُ المؤمنين عليٌّ (عليه السلام): الإيْثار أَعلىٰ الإيمان[٣].

لا نعلم ما المراد من الإيْثار هنا هل هو الإيْثار بالنفس أم الإيْثار بالمال، والظاهرُ أَن المقصود به ما هو الأعمّ فيشمل الأمرين معاً.

أحسب أن الكثير من الناس بمجرد الاطلاع علىٰ هٰذا الحديث الجليل يستغربون من محتواه؛ وذلك أنه اذا كان الإيْثار أعلى الايمان فلماذا لا يتسارع اليه مختلف المؤمنين والصالحين، بل قد نرىٰ أحياناً منهم من هو بعيد عن الاتصاف بأخلاقية المواساة والايثار.

في تصوراتنا أن لا ريب في صحة مضمون الحديث، وتتمّ الاجابة علىٰ

---

١ ـ عنه أي عن علي بن ابراهيم، وعن أبيه أي ابراهيم بن هاشم، وكلاهما من العلماء الورعين.

٢ ـ الكافي ٢ / ٧٧ باب الورع..../ ٥.

٣ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة /١٣٢٥ وغُرر الحكم، الحكمة /٩١٥٨

هٰذا السؤال من خلال المعرفة بالأمور الأساسية التالية :

الأمر الأول : الإيْثار بالمعنىٰ النفسي والمادي من القضايا الشديدة علىٰ القلب والصعبة المنال الىٰ حَدٍّ بعيدٍ فمن أين يستطيع بلوغها شتىٰ المؤمنين والصالحين، بل وصفوة الأَتقياء منهم، ويتضح ذلك بمثال حسي من واقعنا المعاش، حيث نرىٰ بعض قمم الجبال الشاهقة جداً التي يحاول الكثيرون الارتقاء الىٰ أَسمىٰ نقطة فيها فهل بامكان الجميع الوصول اليها ؟ ولنفترض أن الصالحين والمتقين بمنزلة الشباب من أصحاب محاولة الارتقاء الىٰ أعلىٰ القمم، فهل ذلك باستطاعة مختلف الشباب ؟

الأمر الثاني : لو قد عزلنا فكرة كون الإيْثار أَعلىٰ الايمان وأخذنا الايمان بمضامينه وتشعباته بعيداً عن الإيثار، فلماذا لا يصبح بناءً علىٰ هٰذا الفرض كل المؤمنين والمتقين علىٰ أَرفع صعيدٍ من الايمان، أي لماذا هم يتفاوتون تفاوتاً شديداً في سُلَّم الايمان ؟ أليس من الصواب أننا لو فهمنا الايمان بأية صورة من الصور فإن الصالحين والأَولياءَ وَفْقاً لهٰذه الصورةِ أو تلك يختلفون في الدرجات اختلافاً كبيراً ؟

وهٰكذا لو أدخلنا الإيْثار بالمعنىٰ النفسي والمادي في أعلىٰ مقياس للايمان فان المؤمنين لا يتساوون بالأخذ به، ويظلُّ البون بعيداً ما بين فريق منهم وفريق. وفي صفحات التأريخ الثابت المنتزع من القرآن الحكيم أمثلة لا تحصىٰ. ومن ذلك صحابة الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» المؤمنون والمخلصون له قد تفاوتوا تفاوتاً ملحوظاً بالإيْثار والمواساة بالمعنىٰ النفسي والمادي ففي مجال الإيْثار النفسي قال تبارك وتعالىٰ عن بعضهم : «إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ»[1].

كما قال تبارك وتعالىٰ عن بعضهم الآخر : «كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ * يُجَـٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا

١- الصف، الآية / ٤.

يُسَاقُونَ إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ»[١].

كما قال تعالىٰ عن القسمين المختلفين معاً: «لا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً»[٢].

وفي مجال الإيْثار المادي قال تعالىٰ عن بعضهم: «وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَيَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»[٣].

وقال عَزَّ مِنْ قائِل عن بعضهم الآخر: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلأَرْضِ وَلاَتَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِئَاخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ»[٤].

الأمر الثالث: لا ريب أن المعرفة السليمة أساسُ العملِ السليم، ولا ريب أن كثيراً من المؤمنين بالرغم من نظرتهم الايجابية للإيثار الا أنهم لم يطلعوا ولم يكن ليخطر في تفكيرهم أن الإيْثار أعلىٰ الايمان. ومِنْ هُنَا نَتَعَرَّفُ جيِّداً علىٰ الدورِ الكبيرِ للثقافةِ الدينيةِ الواسعةِ في عَمَلِيّاتِ البِنَاءِ الذاتيِّ والاجتماعي والانساني.

قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ

---

١ - الأنفال، الآية / ٥ ـ ٦.
٢- النساء، الآية / ٩٥ ـ ٩٦.
٣- الحشر، الآية / ٩.
٤ - البقرة، الآية / ٢٦٧.

يُسَاقُونَ إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ»[١].

كما قال تعالىٰ عن القسمين المختلفين معاً: «لا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً»[٢].

وفي مجال الإيْثار المادي قال تعالىٰ عن بعضهم: «وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَيَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»[٣].

وقال عَزَّ مِنْ قائِل عن بعضهم الآخر: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلأَرْضِ وَلاَتَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِئَاخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ»[٤].

الأمر الثالث: لا ريب أن المعرفة السليمة أساسُ العملِ السليم، ولا ريب أن كثيراً من المؤمنين بالرغم من نظرتهم الايجابية للإيثار الا أنهم لم يطلعوا ولم يكن ليخطر في تفكيرهم أن الإيْثار أعلىٰ الايمان. ومِنْ هُنَا نَتَعَرَّفُ جيِّداً علىٰ الدورِ الكبيرِ للثقافةِ الدينيةِ الواسعةِ في عَمَلِيّاتِ البِنَاءِ الذاتيِّ والاجتماعي والانساني.

قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ

---

١ - الأنفال، الآية / ٥ ـ ٦.
٢- النساء، الآية / ٩٥ ـ ٩٦.
٣- الحشر، الآية / ٩.
٤ - البقرة، الآية / ٢٦٧.

الازدراء والاحتقار علىٰ الجانب الفردي فحسب أي علىٰ بخل شخص معين أم أنه يشمل بخل قرية من القرىٰ أو مدينة من المدن التي يتصف أهلها أو غالبيتهم بالبخل، وهل يشمل كذلك شعباً أو أمة من الشعوب والأمم الموصوفة بالبخل؟ إن الواقع المعاش يؤكِّد أن ازدراء البخيل أمر عام شامل أو هو بحر متلاطم الأمواج قدير علىٰ اغراق فرد من الأفراد كما هو قدير علىٰ اغراق مدينة أو أمة من الأمم، فكم من أهل قرية أو مدينة تغشّاها البخل قد احتقرت حتىٰ من قبل بقية المدن في تلك الدولة التي تقع فيها. وكم من دولة يوسم أهلها بميسم البخل فتكتوي بنار الازدراء والنكاية من قبل الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها.

د ـ هٰذا هو البخل في سقمه وعاره وناره وحرائقه، فما هو طريق العلاج له ومحاولة الشفاء من دائه الدوي الوبيل؟

لقد أكَّد أكثر من عالم من علماء الأخلاق بقولهم في علاج البخل: اعلم أن البخل سببه حب المال، ولحب المال سببان:

السبب الأول: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد مدة قليلة ربما كان لا يبخل بماله؛ إذ القدر الذي يحتاج في يوم أو في شهر أو في سنة قريب. وإن كان قصير الأمل وكان له أولاد، قام الولد مقام طول الأمل؛ لأنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم؛ ولذلك قال رسول الله «ص»: الوَلَـدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَة. فإذا انضاف إلىٰ ذلك خوف الفقر، وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة.

السبب الثاني: أن يحب عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر علىٰ ما جرت عادته بنفقته ويفضل آلاف وهو شيخ لا ولد له ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض، بل صار محباً للدنانير عاشقاً لها يلتذُّ بوجودها في يده وبقدرته عليها؛ فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه. ومع هٰذا فلا يسمح لنفسه بأن يأكل منها ويتصدق فهذا مرض في القلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبر السن، وهو مرض مزمن لا يرجىٰ علاجه، وكل شيء له علاج، وعلاج كل علة بمضادة

سببها: فيعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم، ويعالج التفات القلب إلىٰ الولد بأن الذي خلقه خلق معه رزقه وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن ورث، وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلىٰ شر، وإن ولده إن كان تقيا صالحا فيكفيه الله تعالىٰ، وإن كان فاسقاً فيستعين بماله علىٰ المعصية وترجع مظلمته عليه. ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل في كثرة الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء، وما توعد الله تعالىٰ به علىٰ البخل من العقاب، فينبغي أن يعلم أن جمع المال فتنة عظيمة وآفة مهولة يسوق صاحبه إلىٰ النار، وهو مصيبة في الدنيا والآخرة؛ لما يحتاج إليه من المراعاة والحفظ والاشتمال عليه وهو قاطع عن الطريق، إلا ما يشاء الله تعالىٰ، والخروج منه من أعظم الفوائد والراحات، إلا بقدر ما يحتاج إليه مما لا بد منه للاستعفاف عن المسألة.

قيل: إن بعضهم حمل إلىٰ ملك قدحاً من فيروزج مرصعاً بالجواهر لم يُرَ له نظير، ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً وقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترىٰ هذا؟ قال: أراه مصيبةً أو فقراً. قال: كيف؟ قال: إن انكسر كانت مصيبة لا جبر لها، وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن وأمان من المصيبة والفقر. ثم اتفق أن انكسر يوما وعظمت مصيبته فيه فقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا. وهٰذا شأن صاحب المال لا يحظىٰ منه إلا بالهم والغم وتعبه به أهم من راحته.

فمن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يأخذ منه إلا قدر حاجته، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل؛ لأن ما أمسكه بقدر حاجته فليس ببخيل، وما لا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله، بل هو كالماء الجاري علىٰ شاطئ دجلة؛ إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بقدر الحاجة[1].

---

١ ـ مجموعة ورام / بيان علاج البخل ١ / ١٧٤ ـ ١٧٥.

البخل يكسب الذمّ

٢٧ – قال الإمام علي (عليه السلام): البخل يكسب الذمّ[١].

يا تُرىٰ هل نعرف جيداً أنه لأي سبب منطقي معقول يكسب البخل الذم ما بين الناس؟

ذلك لأن البخل يعبِّرُ تعبيراً واقعياً عن الأنانيةِ والانطواءِ اللئيمِ علىٰ الذات، ومن يتصف بهذه الصفة الرديئة فهو مذموم في المفاهيم الدينية، وكذلك هو مذموم طبقاً للموازين الفلسفية والاجتماعية الصحيحة. كما أن المحتاجين يحاولون التشبث بشتىٰ الوسائل لحل مشكلاتهم ومن يمتلك الثراء يمتلك القدرة العالية علىٰ انقاذ الكثيرين ممن يتكأدهم البؤس والشقاء. إذاً كيف نتوقع أن يكون نظر المحتاجين والذين يتضورون من جمر العذاب الىٰ من بيده رفع بلاياهم ومشاكلهم ولكنه لا يرفعها بل يقف منهم موقف المتفرج أو اللاهي؟

لا ريب أنه حينئذٍ سيكون في معرض الذم والقدح والانتقاص، وسوف يجودون عليه ـ كما هو المعتاد بين الناس ـ بوابل من الشتم واللعن فضلاً عن مجرد الذم، كما جاد هو عليهم بوابل من اللامبالاة والأنانية والانطواء اللئيم.

قال الإمام علي بن موسىٰ الرضا (ع): البخل يمزق العِرض[٢]. ومما يؤكد صحة معنىٰ ذم البخيل ما روي من أن سلمان (رض) دخل علىٰ أمير المؤمنين وبيده رقعة فقال: هي من الرقاع التي علقت علىٰ آذان أصحاب الكهف، وإذا فيها ثلاثة أسطر:

أولها: قضي القضاء وتم القدر وما جرىٰ به القدر فهو كائن.

والثاني: الرزق مقسوم والحريص محروم والبخيل مذموم.

---

١ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٩٥٦، وغُرر الحكم، الحكمة / ٦٥٥١، وقريب منه ما يروي عنه عليه السلام: البخل يكسب العار، ويدخل النار. غُرر الحكم، الحكمة / ٩٦٥٥.

٢ ـ أعلام الدين / ٣٠٨.

والثالث : أعن زمانك وأخف مكانك واحفظ لسانك وأقبل علىٰ شانك.

إن البخلاء بشكل عام يدركون جيداً لون تقييم شخصياتهم وأوضاعهم من قِبَلِ الكثيرين من الناس ومواقع أعراضهم من ألسنتهم ونوادرهم وفكاهاتهم، حتىٰ قال بعض البخلاء : ما نصب الناس لشيء نصبهم لنا ، هبهم يلزموننا الذمّ فيما بيننا وبينهم ، ما لهم يلزموننا التقصير فيما بيننا وبين أنفسنا ؟

وكثيراً ما وقعت مساجلةٌ أو مناظرةٌ رائعةٌ ما بين العندليبِ والبومِ أو ما بين الوَرقاءِ والغرابِ أَو بعبارةٍ أخرىٰ ما بين الكريمِ والبخيلِ حول موضوع البخل والجود ما استطاع البخيل فيها أن يحسن الاجابة أو الدفاع عن وجهة نظره وأن يتخلص منها إلا وقطراتُ الحياءِ تنصَبُّ من جبينه والانكسارُ يلوحُ علىٰ عينيه.

وأغلب الذين خلدت فيهم كلمات الذم من البخلاء هم ممن هجاهم الشعراء بالبخل ، كما يدل سيل دفّاع وهادر من السجلات التأريخية والأدبية علىٰ ذلك.. قال المفكر المسيحي الدكتور جبرائيل سليمان جبّور : وفي تأريخ العرب بوجه عام والبداة منهم بوجه خاص أن شرَّ ما يهجىٰ به المرء هو البخل فليس أقبح عنده من أن يعيَّرَ به ، وإن خير ما يمدح به هو الكرم[1].

فمن الأشعار القوية والمشهورة في القدح بالبخلاء ما قاله النجاشي الحارثي (من كبار مخضرمي صدر الاسلام والعصر الأموي ، ولقد كان يقول الشعر منذ الجاهلية) : لما هجا بني العجلان :

إذا اللـــه عـــادىٰ أهـــل لؤم وقـــلة
فـــعادىٰ بـني العـجلان رهـط ابـن مـقبلِ

ومـــا سُـــمي العـــجلان إلا لقـــولهم
خـذ القـعب فـاحلب أيـها العـبد واعـجلِ

وما قاله جرول بن أوس المعروف بالحطيئة (وهو شاعر بارع التصوير قوي

---

١ – البدو والبادية / ٢٥٠.

الشاعرية من مخضرمي الجاهلية وصدر الاسلام والعصر الأموي ت ٥٩ هـ):

دعِ المكـــارم لا تـــرحـــلْ لبـغيتها
واقـــعد فـإنك أنت الطـاعمُ الكـاسي

وما قاله بشـار بن برد (الشاعر العـباسي المـبتكر، المـجيد فـي إكـثاره، والمحسن في مطولاته ٩٦ هـ ـ ١٦٨ هـ):

خـليلي مـن كـعب أعـينا أخـاكـما
عـلىٰ دهـره إن الكـريم يـعينُ

ولا تـبخلا بـخلَ ابـن قـرعة إنـه
مـخافة أن يـرجـىٰ نـداه حـزينُ

إذا جـئته للـمعرف أغـلق بـابه
فـلم تـلقه إلا وأنت كـمينُ

فـقل لأبـي يـحيىٰ متىٰ تـدرك العـلا
وفـي كـل مـعروف عـليك يـمينُ

وما قاله الشاعر العباسي المفلق أبو الحسن علي بن العباس الرومي (٢٢١ هـ ـ ٢٨٣ هـ):

لقد أنـزلت حـاجاتي «بوادٍ غير ذي زرعِ»

وقال ابن الرومي أيضاً:

يُـقتِّرُ عـيسىٰ عـلىٰ نـفسه وليس بـباقٍ ولا خـالدِ
ولو يـستطيع لتـقتيره تـنفَّس مـن مـنخر واحـدِ

ومما قيل فأحسن القائل في ذم البخيل ونصيحته:

يـــفني البـــخيلُ بـــجمع المـــالِ مُـــدَّته
وللـــــحوادث والأيـــــامِ مَـــا يَـــدَعُ[١]

كـــــدودة القـــــزِّ مـــا تـــبنيه يـــهدمُها
وغـــــيرُها بـــــالذي تـــــبنيه يَـــنتفعُ

وغير ذلك من أشعار القدح والهجاء التي لا يسعها الكتاب.

علىٰ أن عدداً من المفكرين والأدباء قد أجاد في ذم البخلاء وأحسن في تقييمه لضآلتهم نثراً، فمن ذلك ما قاله أعرابي وقد ذكر رجلاً بخيلاً: لقد صَغَّرَ فلاناً في عيني عِظَمُ الدنيا في عينه، فكأنما يرىٰ السائل إذا رآه، ملكَ الموتِ إذا أتاه[٢]. وقد أوجز القول أعرابي في وصف بخيل فأحسن: ضيفه ضيف فقر، يقطع نهاره بالتمنّي، ويتوسَّدُ ذراعَ الهمِّ إذا أمسىٰ[٣].

ومن ذلك قول المفكر والأديب العبقري محمد بن القاسم المعروف بأبي العيناء[٤] وهو يقدح بشخصية أحد الذين اتهمهم باللؤم: لا أعلم للمعروف طريقاً أحذر ولا أوعر من طريقه اليك، ولا مستودعاً أقل زكاةً ولا أبعد ثمرةً خير من مكانه إليك؛ لأنه يحصل منك في حسب دنيء، ولسان بذيء، وسبب قصيّ، وجهل قد ملك طباعك؛ فالمعروف لديك ضائع، والشكر عندك مهجور، وإنما غايتك في المعروف أن تحرزه، وفي وليِّه أن تكفر به[٥].

---

١ - أي مَا يَدَعُ البخيل من الأموال للحوادث والأيام علىٰ الرغم من أنفه.

٢ - الوشاء في كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل، ٢ / ٤٩.

٣ـ الوشاء في كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل، ٢ / ٤٨.

٤ - مولد أبي العيناء عام / ١٩١ وانتقاله الىٰ رحمة الله في البصرة عام / ٢٨٧ هجرية، وكان قد كف بصره في الأربعين من عمره، وكان ثاقب البصيرة حاد الذكاء شجاع القلب سريع البديهية بعيد الهمة.

٥ ـ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي / صبح الأعشىٰ، ٩ / ٢١٨.

وقال أحمد بن يوسف الكاتب[١]: كأنَّ البخل والشؤم صارا معاً في سهمه، وكانا قبل ذلك في قسمه؛ فحازهما بالوراثة، واستحق ما استملك منهما بالشفعة، وأشهد علىٰ حيازتهما أهل الدين والأمانة، حتىٰ خلصا له من كل مانع، وسلما من تبعة كل منازع، فهو لا يصيب إلا مخطيا، ولا يحسن إلا ناسيا، ولا ينفق إلا كارها، ولا ينصف إلا صاغرا[٢].

في الحقيقة أن هاتين القطعتين النثريتين بالرغم من اختفائهما وراء الستائر الكثيفة لسجلات التأريخ فقد بلغتا من القوة والعمق مالم تبلغهما الأشعار البارعة التي تقدمت في ذم البخل علىٰ الرغم مما قلناه قبل قليل: (وأغلب الذين خلدت فيهم كلمات الذم من البخلاء هم ممن هجاهم الشعراء بالبخل والشح).

وبالمقارنة ما بين هاتين القطعتين النثريتين وما بين تلك الأشعار الخالدة، يتضح لنا أنه ليس من الضرورة أَن يكون الخلود للأَفضل والأَعمق، فكثيراً ما يكون الأَحسن والأبعد غوراً والأتقن غير بارزٍ ولا مُعلِمٍ حتىٰ يُستَخرجَ من مقابرِ النسيانِ والاهمالِ، ومن بين ثنايا كهوفِ التأريخِ ومغاراتِه السحيقةِ المعتمة. فيا للأسف الشديد والهمِّ القاتل، ويا لحرائق الكروب والفجائع. واللهُ تبارك وتعالىٰ وحدَه الذي يلهم الصبر، ويسلِّي القلوب الملتهبة ما يشاء وهو علىٰ كُلِّ شيءٍ قدير.

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ »[٣].

---

١ – محمد بن يوسف بن القاسم عيَّنه المأمون العباسي رئيساً لديوان الرسائل، وكان بارعاً في الرسائل متمكناً من الأدب والشعر، توفي عام / ٢١٣ هجرية.

٢ ـ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ت ١٤١٨ / صبح الأعشىٰ، ٩ / ٢١٧.

٣ – التوبة، الآية / ٣٤ ـ ٣٥.

البذل يكسب الحمد

٢٨ – قال أميرُ المؤمنين علي (صلوات الله عليه): البَذْلُ يكسبُ الحمد[١].

هل نعرف معرفة سديدة لأي العلل يكسب البذل الحمد؟

نعتقد لأنه بشكل عام يعبِّرُ البذلُ تعبيراً واقعياً وملموساً عن لون رفيعٍ من ألوان الأخلاقِ الساميةِ والتفاعلِ الايجابي البنّاءِ مع خلق الله.

كما أن البذل بشكل عام يعبِّر تعبيراً واقعياً وملموساً عن رحابة الصدر واتساع الأفق الانساني والطِّيبة Goodness لدىٰ الباذل الكريم، ومن يتسم بهذه الصفات الجميلة فهو محمود وممدوح بين الغالبية الساحقة من مختلف المجتمعات والطوائف والأحزاب، وإن استمكان محبته في القلوب ومدحه علىٰ الألسن أمر يقتضيه المنطق الفطري للإنسان، ولا يخرج عن محيطه الفسيح إلا خارج عن محيط الفطرة الانسانية، ولقد جاء في الحديث النبوي الشريف: جُبِلَتْ القلوبُ علىٰ حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها وبُغضِ من أساءَ إليها[٢].

وما لهم لا يحمدون ويمدحون عن وعي أو غيرِ وعي مَنْ مدحه اللهُ تبارك وتعالىٰ في الكتاب المُنزل علىٰ محمد «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وأثنىٰ عليه كما ذكرنا ذلك في بحث التنظير للجودِ والإنفاقِ في القرآنِ الكريم من هٰذا الكتاب، وما لهم لا يمدحون عن وعي أو غيرِ وعي مَن مدحه رسولُ الانسانيةِ مُحمد «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وأثنىٰ علىٰ صفَّته في البيانات الرشيدة

---

١ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٥٥٤، وفي الكتاب نفسه عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بلفظ: السخاء يكسب الحمد، وبهذا اللفظ ورد النص في عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ١٠٦٤.

٢ – تحف العقول / ٣٧ وبحار الأنوار ٧٤ / ١٤٢ وجاء في وسائل الشيعة للحر العاملي عن أبي عبد الله (عليه السلام): جُبِلَتْ القلوبُ علىٰ حُبِّ مَنْ نَفعَها، وبُغْضِ مَنْ أَضرَّها. وسائل الشيعة ١٦ / ١٨٥ الباب / ١٨.

الوافـرة والتي من جملتها علىٰ سبيل المثال: أنه «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال عن جود قيس بن سعد بن عبادة: إنَّ الجـود من شيمـة أهل ذلك البـيت. وأنـه «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال: خلقان يحبهما الله السخاء وحسـن الخـلق، وخلقان يبغضهما الله البخل وسوء الخلق. وقالوا: يا رسـول اللـه أي الأعـمال أفضل؟ فقال: السخـاء وحسن الخلق فـالزموهما تـفوزوا. وقـال رسـول اللـه «ص»: من أكرم الضيـف فقد أكرم سبعين نبياً[١].

وروي عن أميـر المؤمنين علي (عليه السـلام) أنـه قـال: ذو الإفـضال مشكـور السيادة، وذو المعروف محمود العادة[٢].

قَبَسٌ مِنْ حَمْد الأجواد

أمْرٌ تلقائيٌّ بين البشرية علىٰ طول خط الحَـياة أن يُحْمد الجـواد وتـمدح أفعاله الكريمة وصنائعه الجميلة، سواء دوَّنت ذلك سجلات التأريخ أم لم تُدوِّن، علىٰ أنه من اليقين عندنا أن ما لا يحفظه التأريخ من تلك المدائح والمحامد في يومياتها المتكررة أضعاف أضعاف ما قد حفظه ودوَّنه. وهذه قـبسات مـعدودة جداً من المحفوظ فليس يتسع هٰذا الكتاب إلا الىٰ الشيء القليل منها:

١ ـ من جود عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب أنه أدلىٰ اليه رجل بحرمة، فأمر له بمائة ألف درهم، فقال له: أصلحك الله ما وصلني بمثلها أحد قط، ولقـد قطعت لساني عن شكر غيرك، وما رأيت الدنيا في يد أحد أحسـن منها في يدك، ولولا أنت لم تبق لها بهجة إلا أظلمت، ولا نور إلا انطمس[٣].

٢ ـ يروىٰ أن رجلاً جاء الىٰ عبيد الله بن العباس وهو بفِناء داره فقام بين يديه فقال: يا ابن العباس إن لي اليك يَـداً وقد احتجت اليها. فصَعَّـدَ فيه بـصره

---

١ ـ ارشاد القلوب / الباب الثالث والأربعون في السـخـاء والجـود.

٢ ـ غُرر الحكم، الحكمة / ٨٨٠٣ و٨٨٠٤ وقد جمعنا ما بين الحكمتين وكنت ذات مرة قرأتهما ضمن حكمة واحدة في بعض المصادر.

٣ ـ الجواهر المجموعة الرقم / ١٩٠.

وصوَّبَه فلم يعرفه، ثم قال: ما يدك عندنا فإني لا أُثبتك؟ قال: رأَيتك واقفاً بزمزم وغلامُك يمتحُ لك من مائها والشمس قد صهرتك، فظلَّلْتك بطرف إزاري حتىٰ شربت. قال: أجل إني لأَذكر ذلك، وإنه ليتردد بين خاطري وفكري، ثم قال لقيِّمه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم. قال: ادفعها كلَّها اليه وما أراها تفي بحق يده عندنا. فقال له الرجل: واللهِ لو لم يكن لاسماعيل ولد غيرك لكان فيك ما كفاه، فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمداً «ص» ثم شفعه بك وبأبيك[1].

٣ ـ يروىٰ أن رجلاً من الأَنصار جاء الىٰ أبي العباس عبد الله بن العباس ـ المعروف بحبر الأمة ـ فقال له: يا ابن عمِّ رسول الله إنَّه وُلد لي في هذه الليلة مولود وإني سميته باسمك تبرّكاً به، وإن أُمَّه ماتت. فقال عبد الله: بارك الله لك في الصبي وأجزل لك في الصبر علىٰ المصيبة. ثم دعا بوكيله فقال: انطلق الساعة فاشترِ للمولود جاريةً تحضنه، وادفع اليه مائتي دينار للنفقة علىٰ تربيته. ثم قال للأنصاري: عدْ الينا بعد أيام فإنك جئتنا وفي العيش بؤس وفي المال قلَّة. قال الأَنصاري: جُعلتُ فداك لو سبقت حاتماً بيوم واحد ما ذكرته العرب أبداً ولكنه سبقك فصرت تالياً، وإني أشهدُ أن عَفْوَك خيرٌ من جوده، وطَلَّ كرمِك أكثرُ من وَبْلِه[2][3].

---

١ – أبو علي المحسن بن علي التنوخي المستجاد من فعلات الأجواد الرقم / ٧٩.

٢ – التنوخي ـ المستجاد من فعلات الأجواد الرقم / ١٠٧.

ولنا هذه الأرجوزة في مديح الجواد وتصرفه المجيد:

إن الجوادَ كالفراتِ الجاري ... منطلقاً في الليل والنهارِ
أكرم به من واهب زخّارِ ... يعيشُ منه الناس في جوارِ
من طارقاتِ البؤسِ والدَّمارِ ... أو جالباتِ الفقرِ والافقارِ
يجيرُ من ريب الزمان الضاري ... إن المجيرَ كعبة الأحرارِ
أصبح للأَعلام كالمَنارِ ... يشعُّ بالخيرِ وبالايثارِ
ليس بروّاغ ولا فَرّارِ ... من قاصد أو سائل أو عارِ
يكسوه من حَنانه المَوّارِ ... قبل الثياب البيض والأطمارِ

وعن تمجيد الأكرمين وامتداحهم يقول الكاتب الأردني القدير الدكتور أحمد رجب الأسمر: الشعور بأهميَّة اكرام الكريم عادة متأصِّلة في المجتمع العربي وزادها الاسلام ثباتاً ورسوخاً. إذا ذكر الكرم مثلاً سمعنا أسماءً خلَّدها التأريخ ولا زالت ترويها الأجيال من أمثال الكثيرين من أصحاب رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم» وقيس بن سعد والحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ومعن بن زائدة وعرابة الأوسي وقيس بن عاصم[٤] وغيرهم وغيرهم كثير ممن

يحلُّ منه الضيف قبل الدار ... بين شغاف القلب والأوتارِ
يُعطي بلا مَنٍّ ولا أستكبارِ ... والمنُّ طبع الجاهل الخَوّارِ

٣ – ومن جملة شعرنا في حمد الأكارم والاشادة بمجدهم والاشارة الىٰ منافعهم الانسانيَّة هذه الأبيات:

أَلا حَبَّذا نَفَحَاتُ النَّوالْ ... أريجُ وُرُودِ رياضِ الكَمالْ
أَرىٰ الكَرَمَ المحضَ والأَكرمين ... قِلالَ العُلىٰ بل قِلال القِلالْ
حَياةُ الكِرامِ شُعاعُ المُنىٰ ... وقربُ المَدىٰ وازدهارُ المنالْ
حَياةُ الكِرامِ حياةُ الشعوب ... بصدق الهوىٰ وانتعاش الوِصالْ
مَنِ الأَكرَمونَ مَنِ المُؤثِرون ... أُولئكَ سِرُّ جَمالِ الجَمالْ
مَنِ الأَكرَمونَ مَنِ المُؤثِرون ... سواحلُ مَنجاةٍ بحرِ الهُزالْ
بهم يرتقي المجدُ والأَمجدون ... وتعلو السماءُ وتسمو الجبالْ
جَلالُ المواساةِ والتضحياتِ ... برغمِ الأَسىٰ بل جَلالُ الجَلالْ
يدُ اللهِ بين ربوع الثُّكالىٰ ... فتخضرُّ منها الحصىٰ والرمالْ
وتُدركُ معنىٰ الوجود العظيم ... خبايا قلوبٍ تعيش الوبالْ
ولولا النَّدىٰ ظلَّ طعم الحياةِ ... وبيءَ المذاقِ وخيمِ المجالْ
أَرحْ صاحبَ الحاجِ مستعجلاً ... وخَلِّ اجتذاب حبالِ المطالْ
مبادرةُ الجود زين الكرام ... وخَلِّ المطال لشبه الرجالْ
عطاء الكريم كمنع البخيل ... إذا ما تغشَّاه قيلٌ وقالْ

٤ – لا ريب أن قيس بن سعد والحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وقيس بن عاصم من أكبر أصحاب رسول الله «ص»، ولعل ذكر الدكتور الأسمر لهم بعد الاشارة الىٰ أصحاب رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» في سبيل مزيد من تسليط الضوء عليهم وابراز كرمهم

وصلتنا الأشعار في تمجيدهم[١].

٤ ـ وكتب الكاهن كاري (القرن السابع عشر الميلادي): تلك هي عادات هؤلاء العرب إنهم ليخجلون أكثر أَغنيائنا في أوربا الذين غالباً ما يرفضون اعطاء قطعة خبز الىٰ سائح فقير أو الىٰ غريب معدم، تلك هي العادات وطرق العيش التي تختلف عما في أقطارنا حيث تعمُّ الأبهة والرفاهية والشوق الىٰ الغنىٰ والثروة الكثيرين منا! العرب والبدو هم الذين يمكن أن يعلمونا الدروسَ الثمينةَ في أَن نخلع عنا الطموحات الخارقة لنيل الثروة والقصور والأثاث الرائع والثياب الفخمة والعطور واللذائذ وأشباهها التي تفسد عقول أعظم الرجال في الأقطار الأوربية[٢].

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ»[٣].

الإحْسان غُنْم

٢٩ – قال أَميرُ المؤْمنين عليٌّ (عليه السلام): الإِحْسان غُنْم[٤].

تقع حكمة الإمام أَمير المؤْمنين (الإحْسان غُنْم) ضمن السياق العام لنظرياته وفلسفته العامة التي تتسم بوشائج الترابط والانسجام فيما بينها جميعاً، فلا تبعثرَ في الرؤية ولا تضادَّ في المفاهيم والأفكار، فما قاله هنا شقيقٌ حميمٌ وإلفٌ حبيبٌ لما قاله في ميادين أخرىٰ، وعلىٰ سبيل المثال ما روي عنه (سلام الله عليه): المعروف أفضل المغانم[٥]. البرُّ غنيمة الحازم[٦]. اغتنم صنائع الإحْسان

المتميِّز، لا أنهم ليسوا من الصحابة.

١ – الدكتور الأسمر، فلسفة التربية في الاسلام / ٤٦٣.

٢ – جبرائيل سليمان جبّور، البدو والبادية / ٢٥٧.

٣ – الممتحنة، الآية / ٦.

٤ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٦٧٠.

٥ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٦٧.

وارعَ ذمم الاخوان[٧]. فالبِرُّ والمعروف وصنائع الإحْسان تجـارة سنية لا تبور في شتىٰ الظروف والأحوال، والبرُّ والمعروف وصنائع الإحْسان صفقـة رابحـة في كل صقع وعلىٰ كرِّ الأيـام والأحقاب، بل حـتىٰ الإحْسـان للأعـداء والبِـر بالحاقدين والجود علىٰ الكاشحين، فَضل كبير وغنيمة وافـرة وذخـيرة وافـية. ولقد قال الإمام أمير المؤمنين قول الحكيـم الفِكِّير والمُجرِّب الخَبير: إن إحسانك الىٰ من كادك من الأضداد والحساد، لأَغيض عليهم من مواقع إسائتك اليهم، وهو داعٍ الىٰ صـلاحهم[٨].

ولقد استلهم الجواد الفياض عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي (صدر الاسلام ـ العصر الأموي تـ ٨٠ هجرية) هذه الحكمـة الرشيدة قائلاً:

يَـــدُ المـــعروفِ غُـــنْمٌ حـــيثُ كـانت
تَـــــنَاوَلَها شَكُـــــورٌ أَمْ كَـــــفُورُ

واستناناً بقانون علي بن أَبي طالب (الإحْسان غُنْم)، واتباعاً لهديه وسبيله القويـم، فَرَّق علي بن موسىٰ الرضـا بخراسان مالَـهُ كُلَّه في يوم عَرَفَة. فقال له الفضل بن سهل: ما هٰذا المَغْرم! فقال: بل هو المَغْنم، لا تعدنَّ مَغْرَما، ما ٱبتعت به أَجـراً وكَـرَما[٩].

صنائع مجانية

٣٠ – قال إمامُ الأئمة علي بن أبي طالب (عليه السـلام): البِشـرُ ابـتداءُ صنيعةٍ بغير مؤونة[١٠].

---

٦ – المصدر نفسه، الحكمة / ٩٠.

٧ – المصـدر نفسه، الحكمة /٢٠٢٢. وروي عنه (عليه السـلام): مَنْ قَدَّم الخـيرَ غَـنِم.

٨ – المصـدر نفسه، الحكمة / ٣٣٨٩. المصـدر نفسه، الحكمة / ٧٣٣٩.

٩ – محاضـرات الأدباء، ٢ / ٤٦٢.

١٠ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٤٣٩.

يقوم بناء كثير من الأعمال الطيبة والصنائع الجميلة الجليلة علىٰ أساس من التكاليف المادية، والتي يُعَدُّ بعضها تكليفاً باهظاً وثمناً غالياً؛ فيتقدم من يتقدم من الناس لذلك وهم يشترون الصالحات بالأموال، وينحسر من ينحسر عن ذلك بخلاً وشحاً، أو ربما لعدم توفره علىٰ القدرة المالية الكافية.

إلا أنه ينبغي أن يلحظ أن بناء كثير من الأعمال الطيبة والصنائع الجميلة كذلك لا يقوم علىٰ أساس من التكاليف المادية أبداً، بل ثَمَّ أعمال كريمة تعدُّ في صميم سياقات المهام الصالحة والفضائل الأخلاقية السامية، ويؤجر عليها الإنسان أجراً وافياً (يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالَمِين)، وذلك من قبيل ما يؤتىٰ علىٰ سبيل الأمثلة التالية:

أولاً: الاضمارات القلبية والنوايا الخيرة والرحمة بالناس ولكل أَحد سواء كان قريباً لصيقاً، أو نائياً سحيقاً.

ثانياً: القولة الزاكية والكلمة الطيبة مع الأصدقاء والأعداء قال تبارك وتعالىٰ: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»[1].

ثالثاً: شموليَّة بذل السلام والتحية، وسعة دائرتهما مع شتىٰ طبقات البشرية عموماً.

رابعاً: إصلاح ذات البين وتذويب السدود ما بين القلوب فقد جاء في الحديث الشريف: «إصلاح ذاتِ البينِ أفضلُ من عامَّةِ الصلاةِ والصيام». المقصود عامة الصلاة والصيام المسنونة دون الواجبة.

خامساً: الابتسامة الندِيَّة والبِشْر الحاني وطلاقة الوجه.

---

١ – ابراهيم، الآية / ٢٤ ـ ٢٥.

وأراني مُستغرباً لما أجده منتشراً بين كثير من الناس فإذا ما زهد بعضهم بالأَعمال الكريمة والصنائع الموجبةِ للبذل والانفاق، فلماذا يزهدون بالأعمال السنيَّة المَجانِيَّة ويَبتَعدون عَنها؟

«إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ * إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ»[1].

السيِّد مَن تحمَّل المؤونة

٣١ – وقال أَميرُ المؤْمنين عليٌّ (عليه السلام): السيِّدُ مَن تحمَّل المَؤونة، وجادَ بالمعونة[2].

إذا ما وجهنا السؤال الىٰ الكثرين من السياسيين الذين ارتاضوا الكسل والخمول، وآثروا الكلام علىٰ الفعال: مَن هو السيد؟ لقالوا: إنه من تُرَشِّحُهُ الدوائرُ الانتخابيةُ وإن كانت مُزَوَّرة، أو مَن تقدمه الرشاوىٰ الثمينة، أو مَن تفرضه بصورة أو بأخرىٰ بعض مراكز النفوذ والسيطرة والابتزاز في العالم.

ولكن إذا ما وجهنا السؤال الىٰ إمام السياسيين وقائد الفكر الحُرِّ المنير في العالم نعني أَمير المؤْمنين علي بن أبي طالب وقلنا: أوضح لنا يا سيدنا مَن هو السيد؟ لأَجاب إجابة كافية وافية مَلأىٰ بالشفافيَّة والوضوح والصدق وسناء العدالة: السيِّدُ مَن تحمَّلَ المَؤونة، وجادَ بالمَعونة[3].

---

١ – محمَّد، الآية ٣٦ ـ ٣٧.

٢ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٤٣٩. وفي الكتاب نفسه عنه (ع): السيد من تحمل أثقال اخوانه، وأحسن مجاورة جيرانه. وكأنه شرح أو ايضاح وتبيين لقوله السابق (ع).

٣ – رفع الواقدي إلىٰ المأمون رقعة يذكر فيها غلبة الدين عليه وكثرة العيال وقلة الصبر فوقع المأمون عليها: أنت رجل فيك خلتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك، وأما الحياء فهو الذي بلغ بك إلىٰ ما ذكرت، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم فإن كنا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك وإن كنا لم نصب إرادتك فبجنايتك علىٰ نفسك، وأنت كنت حدثتني

ويتأتّىٰ الفارق بين الجوابين من جهة أن هؤلاء يريدون السيادة والقيادة وإن لم يكن ثمَّ اخلاص وكفاءة واستعداد كامل لتحمل المسؤوليَّة الاجتماعيَّة والحضاريَّة، إنهم يريدون السيادة بما أنها تدرُّ عليهم بالأرباح الثمينة والمكاسب الباهظة، لا بما أنهم يخلعون عليها رياطاً من الجهود اللائقة والتطوير المناسب لمسيرتها وأَهدافها. أما عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فهو يرىٰ السيادة والقيادة اخلاصاً وكفاءَةً وَوَعياً للأَهداف الساميةِ وبذلاً وعطاءً وتضحيةً بالنفس والنفيس قبل الأخذ والاستفادة، إن كانت هناك حقاً مشروعيَّة ومعقوليَّة للأخذ والاستفادة، فالإمام بهٰذا المنهج التربوي الصائب يضع الأُمور في مواضعها المناسبة واللائقة والمتزنة، ويبعدها عن الارتباك والفوضىٰ وعن كل ما يمتُّ بسببٍ وصلةٍ الىٰ تشويه الحقيقة وخيانة الأُمة وتضليل الإنسانية.

«قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»[1].

المخذول من كانت له الىٰ اللئام حاجة

٣٢ – وقال أَميرُ المؤمنين عليٌّ (صلوات الله عليه): المخذول من كانت له الىٰ اللئام حاجة[2].

إذاكان لا بد لإنسان ما أن يكشف عن ضره ويبوح عما ينتابه من الحاجات لأحد من الناس فليتوجه الىٰ من يعلم أو يظن أنهم لا يخيبونه، لا من يعلم أو يظن أنهم غير ذلك، وعليه أن لا يدنو من ديار اللئام، ولا يقترب من ساحاتهم،

وأنت علىٰ قضاء الرشيد عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس بن مالك ان رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال للزبير: يا زبير إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش ينزل الله تعالىٰ للعباد أرزاقهم علىٰ قدر نفقاتهم؛ فمن كثر كثر له، ومن قلل قلل له. قال الواقدي: وكنت أنسيت هذا الحديث وكانت مذاكرته إياي به أحب من صلته.

١ – البقرة، الآية / ١١٨.

٢ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ١٢٣٤ وغُرر الحكم، الحكمة / ١٠٧٠٠.

ولا يدنس قدميه بوطأ بسطهم وفرش أرضهم إن تركوه يصل اليها؛ لأنَّ التوجه بالحاجةِ الىٰ اللئامِ عَلامةُ نَكَدِ التفكير وسوء التدبير.

في أَغلب الحالات يسفر التوجه المشؤوم والمزري بالحاجة الىٰ اللئام عن النتائج السلبية المتوقعة كالآتي:

أولاً: أَنْ لا يقضوا حاجَتَه نهائياً وعبر كلِّ الوسائل والطرائق ما سمر سمير، حتىٰ وإن ألحَّ بالمسألة راجيا، وعاود الطلب مُلتمسا، وأكثر من الخضوع والخشوع متوسلا.

ثانياً: أَنْ يقضوا حاجَتَه ويلبوا طلبه بعد إذلاله، وكسر شخصيته، وتمريغ خَدَّي عزَّته وكرامته، وسكب ما بقي من ماء وجهه، وأَذَلُّ الناسِ مَن أَصبحَ وجهه كقطعةِ الرخامِ مَصقولَةً جَرداء، لا مَاءَ فيها ولا حَياء.

ثالثاً: أَنْ يقضوا حاجَتَه ويلبوا طلبته ولكن ذلك بعد المماطلة المقلقة، والمواعيد المرهقة، والآمال المزهقة.

رابعاً: أَنْ يقضوا حاجَتَه ويلبوا طلبته التي لا يبارك الله فيها، إلا أنهم ما بعد ذلك بقليل أو كثير من الوقت يمنون عليه بقضائها ويزيدونها كدراً الىٰ كدر. ومَن أَولىٰ بالمَنِّ وأَلصقُ به من كُلِّ رَذْلٍ ساقطٍ وعبدٍ لئيم؟

«كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ * فِي جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ..»[1].

التعليلُ الوافي

٣٣ ـ قال أَميرُ المؤمنين عليٌّ (عليه السلام): إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي

---

١ ـ المُدَّثِّر، الآية / ٣٨ ـ ٤٤.

أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إلا بِما مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ واللَّهُ تَعَالىٰ جَدُّهُ سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِك[١].

نحو هذا المضمون ما جاء عن الإمام جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: إن الله فرض علىٰ أغنياء الناس في أموالهم قدر الذي يسع فقراءهم، فإن ضاع الفقراء أو أجهدوا أو أعروا، فبما يمنع أغنياؤهم فإن الله محاسبهم بذلك يوم القيامة ومعذبهم به عذاباً أليماً[٢].

نجد في هذا الحديث تعليلاً وافياً للحديث التالي (المسكينُ رسولُ اللهِ فَمَن مَنَعَهُ فَقَد مَنَعَ الله، ومَن أَعطاه فَقَد أَعطىٰ الله)[٣]. لأَن الله تبارك وتعالىٰ لما فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فكأنه جعل الفقراء رُسُلَه اليهم، ليأخذ منهم نصيبهم من الحقوق. فمنهم من أدّىٰ الرسالة بلسان المقال، ومنهم من أداها بلسان الحال، حتىٰ أولئك الذين «يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً..[٤]» حسب تعبير القرآن المجيد هُم رسل الله الىٰ الجاهل وغير الجاهل، ولكن يا للأسف الشديد أن الأول منهما لا يفقه منطقهم ولا يعي المحتوىٰ العميق لرسالتهم.

---

١ – ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٢١٠، وربيع الأبرار ٢ / ٢٨٥، وروضة الواعظين ٢ / ٤٥٤ ـ مجلس في فضل الفقر، وجامع الأخبار ٨٠ / الفصل السابع والثلاثون، ومشكاة الأنوار ١٢٧ / الفصل السادس في الغنىٰ والفقر، وبحار الأنوار ٩٣ / ٢٢، باب / ١ وجوب الزكاة وفضلها.

٢ – دعائم الإسلام، ١ / ٢٤٥.

٣ – وفي كتاب «كتاب قضاء الحقوق» للصوري عن الصادق (عليه السلام): المؤمن المحتاج رسول الله تعالىٰ إلىٰ الغني القوي، فإذا خرج الرسول بغير حاجته غفرت للرسول ذنوبه، وسلَّط الله علىٰ الغنيّ القويّ شياطين تنهشه، قال: يخلي بينه وبين أصحاب الدنيا فلا يرضون بما عنده، حتىٰ يتكلف لهم يدخل عليهم الشاعر فيسمعه فيعطيه ما شاء، فلا يؤجر عليه، فهذه الشياطين التي تنهشه.

انظر بحار الأنوار ٧٢ ـ تتمة كتاب العشرة باب / ٥٩.

٤ – البقرة، الآية / ٢٧٣.

وسواء يقصد الإمام (سـلامُ اللهِ عَلَيْه) بالمسكين من لا يمتلك قوت يومه ـ كما اشتهر بين الفقهاء رضوان الله تعالىٰ عليهم ـ أو يقصد به مطلق الفقير فـإنهم جميعاً رسل الله تعالىٰ الذي قدَّر الأَقوات ما بين الخليقة (من البشر والحيوانات وغيرهم) فامتدَّ كثير من الأَغنياء والأَقوياء أَكثر من مسـاحتهم، فـحـالوا بـين الفقراء والمحتاجين وبين ما تُفترض ملكيتهم له، وابتزوا حقوقهم واستلبوها بألف صورة وصورة وبمختلف الوسـائل وبشتىٰ الطرق والتبريرات والادعاءات.

ويذكر أنَّه قد مرَّ أحدهم علىٰ رجل يشكو وجع البطن ويعتصر أَلَماً فسأله ـ رحمةً وعطفاً عليه ـ عن حاله وسبب علته فقال: من شدة الجوع... ثـم واصـل السير في الطريق فرأىٰ رجلاً يشكو وجع البطن ويعتصر من شدة الألم فسـأله ـ رحمةً وعطفاً عليه ـ عن حالة وسبب علّته فخجل من الجواب وحاول أن يـبرِّر تبريراً غير مقنع، ثم صَرَّح بأن العلَّة من أَكل لذيذٍ شهيٍّ، تناول منه أكثر مما يحتاج البدن فسبب له ما سبب، فقال هٰذا المارُّ العاقلُ المنصفُ مقالةَ العدل والحقيقة: لَو أَعطىٰ هٰذا الآكلُ المُسرفُ ما زادَ عن حاجتِهِ الىٰ ذلكَ الفقيرِ المُدقع، لما اشتـكىٰ أَحدُهما من بطشِ الأَلمِ وصَوْلةِ الوَجَعِ المُمِضّ.

تعساً لفخر اللؤماء

٣٤ ـ قال إمام الأئمة (سلام الله عليه): الكَريمُ يَزدجِرُ عَمّا يَفتخِرُ بِهِ اللئيم[د].

١ ـ لا أَحد ينكر أن اللئيم إنسان علىٰ الرغم من كل صفاته الذميمة ولو من جهة خلقته التي هي كخلق البشر، إذاً كيف يمكن أن يتصف بالصفات التي يزدجر عنها الكريم وينأىٰ بأخلاقه وسلوكه عن الاتسام بها أَو الاقتراب منها؟

الجـواب: إذا كان مِن البشريةِ مَن هُم أَشـباهُ المـلائكة المُكَـرَّمين سَـناءً وسُمُوّاً، فإن مِن البشرية مَن هُم أَشباهُ سكان الحَضائِر المنتنه والمعاطن المُستهجنة دَناءةً ودنوّاً. ثم يا ترىٰ متىٰ اطلعنا أو سمعنا عبر كل الأعصار والأمصـار حكماً

د ـ غرر الحكم، الحكمة / ٨٦٣١.

فولاذياً صادراً باعتقال مَن يدعي البشرية أو يرفع شعارات الانسانية وليس هو منها في قبيل ولا دبير؟ وعلىٰ هذا الأساس فاليدع من يدعي وليزعم من يزعم، فإن اللئام لا يشعرون برقيب عليهم إلا ضمائرهم المُسوَدَّة التي قد نخرها السوس ثم تسلطت عليها الأَرَضة. وإذا كانَ أَصحابُ الضَمائِرِ كَالرابضات فِي الحَضائِرِ فَعَلىٰ الإدعاءاتِ السلام.

٢ ـ إلىٰ أَيِّ المستويات الرذلة وإلىٰ أَي الأُمورِ المنحطة قد تهاوىٰ اللئيم بحيث يَفتخِرُ بما يَزدجِرُ عَنها الكرَيم وينزِّه شخصيته عن غشيانها والتلبس بها!

الجواب: إنها في الواقع لأَشياء كثيرة من أَهمها علىٰ سبيل المثال:

الافتخار بكثرة الأَموال بما هي أَموال. واللئيم بهذا الافتخار في غير موضعه قد جعل قيمته الشخصية ومكانته في الدنيا والآخرة منوطة بها، فهو يرتفع بالأَموال ـ حسب تصوراته ـ ما ارتفعت وينخفض ما انخفضت ويقبل ما أَقبلت ويدبر ما أدبرت، وليس له من العقل والتفكير شيء إلا ذلك الذي تملي عليه الأموال وتحدِّد له المسار بطريق من الطرق، فهي الأمنية الحلوة لديه والغاية الغالية عنده والهدف الكبير الذي يصبو إليه والديانة العليا التي لا يعتنق غيرها ولا يروم سواها. وعن هذا النمط من الناس من حيث الفخر بكثرة الأموال يقول تبارك وتعالىٰ: «وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَراً»[1].

علماً بأن العقل والتجارب التاريخية والاجتماعية يحكمان حكماً قاطعاً لا ريب فيه أَنَّ كثرة الأَموالِ مُسْتَنْقَعُ الفِتَن ومُسْتَوْدَعُ الغُرور والكِبْرِياء، وقد أَكَّدَ العقل والشريعة أَن لا خيرَ في الأَموالِ حتىٰ تُطَهَّرَ أَعراقُها وتحلَّ مآخذُها وتُؤدّىٰ منها الحقوق الىٰ أَصحابها بنيةٍ سليمةٍ لا تشوبها الشوائب. يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): إِنَّ كَثْرَةَ الْمَالِ مَفْسَدَةٌ لِلدِّينِ مَقْسَاةٌ لِلْقَلْبِ[2].

---

١ - الكهف، الآية / ٣٤.

٢ - النوري، مستدرك الوسائل / ١٣٦٠٩.

وجاء الحديث عَنِ النَّبِيِّ «ص» أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: وَضَعْتُ خَمْسَةً فِي خَمْسَةٍ

وإنَّ هٰـذا العُبَيْد الحُقَيِّرَ الَّذِي قَلْبُهُ أَقْسَىٰ مِنَ الْحَجَرِ كما يفتخر بكثرة الأموال بلسان المقال أو بلسان الحال فإنه كذلك وعلىٰ الوتيـرة ذاتـها يـفتخـر بـالمنع والبخل إما لأنه يعتبرهما ـ ولو كبراً ومغالطةً ـ دلالة علىٰ حسن التدبير والتقدير، أو لأن الكرمَ والعطاءَ يؤثران تأثيـراً بيِّناً في كثرة الأموال التي يتبجح بها ويفتخر بأكداسها المتراكمة. ومِن أوضـح الواضـحات أن الكـريمَ يَـزدجِـرُ عَـن هـذا التصـرفِ العقيمِ الأهوجِ الذي يَفتخِـرُ بِهِ اللئيم ويعتبره ميزةً من روائع الميزات، بل إن الكريم ليخجل من أمثال هذا التفكير والعمل ولا يحب أن يُوصـف به أَحَدٌ من أصدقائه وأحبائه والمحسوبين عليه، فضلاً عن أن يوصفَ به شخصياً أو يُشارَ اليه بشيء منه.

«ٱلَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ»[1].

القاعدةُ العامةُ أَن يكونَ الشجاعُ جواداً

٣٥ – قال أَميرُ المؤمنين عليٌّ (عليه السلام): إِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّىٰ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّه[2].

هل القاعدة العامة أن يكون الشجاع جـواداً، أو أن القـاعدة أن لا يكـون الشجاع كذلك إلا في حالات استثنائية؟

وَالنَّاسُ يَطْلُبُونَهَا فِي خَمْسَةٍ فَلا يَجِدُونَهَا: وَضَعْتُ الغِنَىٰ فِي القَنَاعَةِ وَالنَّاسُ يَطْلُبُونَهُ فِـي كَـثْرَةِ الْمَالِ فَلا يَجِدُونَهُ وَوَضَعْتُ الْعِزَّ فِي خِدْمَتِي وَالنَّاسُ يَطْلُبُونَهُ فِي خِدْمَةِ السُّـلْطَانِ فَـلا يَـجِدُونَهُ وَوَضَعْتُ الْفَخْرَ فِي التَّقْوَىٰ وَالنَّاسُ يَطْلُبُونَهُ بِالأَنْسَابِ فَلا يَجِدُونَهُ وَوَضَعْتُ الرَّاحَـةَ فِـي الْـجَنَّةِ وَالنَّاسُ يَطْلُبُونَهَا فِي الدُّنْيَا فَلا يَجِدُونَها. غَوالي اللآلِي، الحديث / ١٣٨٠٩.

١ – الهُمَزَة، الآية / ٢ ـ ٥.

٢ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٧ / ٣٧. وقريب منه ما في عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ١٤٠٥.

وقبل أن نجيب علىٰ السؤال نورد ما جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبـي الحديد: إنا ما رأينا شجاعاً جواداً قط، كان عبد الله بن الزبير شجاعاً وكان أبخل الناس، وكان الزبير أبوه شجاعاً وكان شحيحاً قال له عمر: لو وليتها لظلت تلاطم الناس في البطحـاء علىٰ الصاع والمُدّ، وأراد علي (عليه السـلام) أن يحجر علىٰ عبد الله بن جعفر لتبذيره المال؛ فاحتال لنفسه فشارك الزبير في أمواله وتجاراته فقال (عليه السـلام): أما إنه قد لاذ بملاذ، ولم يحجر عليه، وكان طلحة شجاعاً وكان شحيحاً، أمسك عن الإنفاق حتىٰ خلف من الأموال ما لا يأتي عليه الحصر، وكان عبد الملك شجاعاً وكان شحيحاً يضرب به المثل في الشح، وسمي رشـح الحجر لبخله. وقد علمت حال أمير المـؤمنين (عـليه السـلام) فـي الشـجاعة والسخـاء كيف هي، وهٰذا من أعاجيبه أيضاً[1].

غير أنا نعتقد أن الأمر خلاف ما ذكره ابن أبي الحديد، وأن القاعدة العامة أن يكون الشجاع جواداً والجواد شجاعاً، والأرقام التأريخية الهائلة أفـضل دليـل وشاهد علىٰ ذلك، ولسنا نتوخىٰ ذكر الأفراد كما صنع ابن أبي الحديد فـإنهم لا يحصون كثرة. علماً بأن الأفراد لا يشكّلون الدليل المتين والكافي نفياً أو اثباتاً كما هو الملاحظ عند تدقيق النظر، بل نتوخىٰ الجماعات والقـبائل والشـعوب، كالأَوس والخزرج وهمدان ورَبِيعـة وطَيِّء ومَذحِج وتَميم وغير ذلك. بل لو دققنا في أحوال الشعوب والأمم لأتينا بـعدة أدلة عـلىٰ ذلك، فـي العـصور القـديمة والحديثة عـلىٰ حَـدٍّ سَواء، ومـا الأُردنـيون، والعـراقـيون، والسـودانـيون، واليمانيون، والباكستانيون، والحجازيون، بل الخليجيون عموماً، إلا مجرَّدَ أَمثلةٍ حيويَّةٍ علىٰ ذٰلك لا أكثر.

وأَما عبد الله بن الزبير، والزبير أبوه، وغيرهما، فهم من الأمثلة الشاذَّة، التي لا يقوم بها الدليل المنطقي الوافي، ومن الميسَّر لنا ـ لولا خشية الاطالة ـ الاتيان بمئات بل بألوف الشخصيات، الذين كانوا معاصرين لهؤلاء في صدر الاسـلام، والعصر الأموي، من الذين هم علىٰ طرفي نقيض مع هؤلاء في هٰذا المجال فتأمَّل.

---

١ – شرح نهج البلاغة، ١ / ٥٢.

وإذا كان أمير المؤمنين علي (عليه السلام) الغاية في الجود والشجاعة فهذا أمر لا ينكر، إلا أن الجمع بين الجود والشجاعة ـ وفقاً لمختلف الدرجات المتفاوتة صعوداً وهبوطاً لم يكن نادر الوجود أو ليس بمألوف، بل هو القاعدة العامة، ولكل قاعدة شواذ كما هو معروف.

أَين يقعُ سوءُ الظنِّ باللهِ من حُبِّ الله

لقد أكد الإمام أمير المؤمنين علىٰ أن السخاء والشجاعة غرائز يضعها الله فيمن أَحَبَّه وانتَخَبَه، كما قرأنا، ولكن هل تعتبر الصفات المضادَّة لهذه الصفات غرائز كذلك؟ ثم إذا كانت الأولىٰ دالة علىٰ حب الله تبارك وتعالىٰ لمن كان يتسم بها فهل الثانية دالة علىٰ خلاف ذلك ولو بنحو من الأنحاء؟ لا نريد الاطالة والتفصيل في الجواب حيث تكمن الإجابة السديدة علىٰ هٰذين السؤالين في كلمة وجيزة ومستوعبة للإمام علي (عليه السلام) وهي قوله: الجبن والحرص والبخل غرائز يجمعها سوء الظن بالله. وأين يقع سوء الظن بالله تعالىٰ وهو من أرذل الأخلاق والسلوك الروحي، من حب الله وانتخابه لمن يكرم من عباده ويتحفه بغرر الخصال ومحاسنها.

الجواد محبوب محمود

٣٦ – قال أَميرُ المؤمنين عليٌّ (عليه السلام): الجوادُ مَحبوبٌ محمودٌ وإن لم يصلْ مِن جُوده شيءٌ الىٰ مادحه، والبخيلُ ضدُّ ذلك[١].

بينَ الحبِّ والجودِ ارتباطٌ وثيقٌ فمن أَحبَّ الناس جاد عليهم وأكرمهم، وعلىٰ الحدِّ الأدنىٰ لم يبخل عليهم. إلا أن يكون حبه زيفاً وتزويراً، ومَن جاد علىٰ الناس أَحبوه وأَكبروه وأثنوا عليه وحمدوه حمداً طبيعياً لا يحتاج الىٰ تكلف وتعمل، إلا من قبل الشاذين عن استواء الطبيعة البشرية، فهؤلاء قد يقدحون بمن يكرمهم أو يعادونه، فضلاً عن فرارهم بشتىٰ الوسائل عن اكباره وحمده وحبه

١– عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ١٤٦٢ وغُرر الحكم، الحكمة / ٨٥٨٧.

وعن مقابلة الجميل بالجميل.

فلما عرفنا أن من أَحب الناس جاد عليهم وأكرمهم، وأن من جاد علىٰ الناس أحبوه وأكبروه، إذاً يقع حبُّ الناس للجواد في ميدان مقابلة الحبِّ بالحبّ والمودَّة بمثلها، هٰذا إضافة الىٰ أن الإنسان فطرياً يحب الذين يحسنون اليه من سائر البشر. وهذا ما يؤكد علىٰ معناه الحديث المروي عن رسول الله «ص»: السخي محبَّبٌ في السماوات، ومحببٌ في الأرضين، خلق من طينة عذبة، وخلق ماء عينيه من ماء الكوثر[١].

والبخيل ضدُّ ذلك فلا هو محبوب محمود من قبل الذين من المفروض أن يحسن اليهم من الأصدقاء والأقرباء والراجين له، ولا هو محبوب محمود من قبل الذين من غير المفروض أن يحسن اليهم وذلك من قبيل المستغنين عنه والبعيدين عن وشائج العلاقة معه. ومن عجائب الأيام أن الجواد محبوبٌ محمودٌ ليس من جهة المعاصرين له فحسب، بل حتىٰ من جهة المتجاوزين لعصره وزمانه عبر السنين والقرون والعصور الىٰ يوم التناد، فنحن مثلاً في هٰذا العصر نحب ونكبر أولئك الأجواد المحسنين حينما يذكرون لنا وقد مضىٰ علىٰ كثير منهم ألوف السنين أو مئات الأعوام، وكذلك من عجائب الأيام أن البخيل مكروه مذموم ليس من جهة المعاصرين له فحسب، بل حتىٰ من جهة المتجاوزين لعصره وزمانه عبر السنين والقرون والعصور الىٰ يوم التناد. ونحن في هٰذا العصر نبغض ونذم أولئك البخلاء واللؤماء حيثما تستعرض أخبارهم وقد مضىٰ علىٰ كثير منهم ألوف السنين أو مئات الأعوام، وفي ذلك عبرة وحكمة للكرام أن يزدادوا من الكرم وسخاء النفوس ما استطاعوا، كما أنه عبرة وحكمة للئام أن يكفُّوا عن البخل وشُحِّ النفوس ما كان الىٰ ذلك سبيل. «وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ»[٢].

روىٰ ابن أبي الدنيا في الرسائل، وابن عساكر في تأريخ مدينة دمشق، عن علقمة بن أبي الفغواء الخزاعي قال: بعثني النبي «ص» بمال الىٰ أبي سفيان بن حرب، يقسمه في فقراء قريش، وهم مشركون، يتألَّفهم. فلما قدمت مكة، دفعت

---

١ - جامع السعادات ٢ / ١١٦.

٢ - غافر، الآية / ١٣.

المال الىٰ أبي سفيان، فجعل أبو سفيان يقول: ما رأيت أَبَرَّ من هٰذا ولا أَوصـل ـ يعني النبي «ص» ـ إنا نجاهده ونطلب دمه، وهو يبعث الينا بالصِّـلات يبرُّنا بها!.

ومن الجديـر بالذكر أن نقتطف شذرات من الرسالة التي كتبها أبو العاص بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي (العصر العباسي) في مدح الجود ومحبة الكريم واكباره فمما جاء فيها: ولم نرَ الأمة أبغضت جواداً قط، ولا حقرته بـل أحـبته وعظمته، بل أحبت عقبه وأعظمت من أجله رهطه، حتىٰ أضافوا اليه من نـوادر الجميل ما لم يفعله، ونحلوه من غرائب الكرم ما لم يكن يبلغه، ولذلك زعموا أن الثناء في الدنيا يضاعف كما تضاعف الحسنات في الآخرة... ثم وجدنا هـؤلاء بأعيانهم للبخيل علىٰ ضد هذه الصفة، وعلىٰ خلاف هٰـذا المـذهب. وجـدناهم يبغضونه مرة، ويبغضون بفضل بغضه ولده ويحتقرون بفضل احتقارهم له رهطه، ويضيفون اليه من نوادر اللؤم ما لم يبلغه، ومن غرائب البخل ما لم يفعله، وحتىٰ ضاعفوا عليه من سوء الثناء بقدر ما ضاعفوا للجواد من حُسن الثنـاء[1].

الفضيلة بحسن الكمال ومكارم الأفعال

٣٧ – قال أَميـرُ المؤمنين عليٌّ (عليه السـلام): الفضيلة بـحسن الكـمـال ومكارم الأفعال، لا بكثرة المال وجلالة الأعمـال[2].

تقع هذه الحكمة الرشيدة في سياق الحكم والفلسفات التي لا يدرك غالبية البشر محتواها وصدق مضمونها، إلا بالتطبيق علىٰ حـالات الذيـن كـانوا فـي مستوىً رفيعٍ من غضارة العيش الرغيد والمناصب العالية، ثـم أهـلكهم الدهـر وأبادهم، أو عصفت بأموالهم وأعمالهم ومناصبهم هوج أعاصير الأيام، ولم يبقَ من أَطلال حياتهم إلا فضيلة سامية أو خلق جميـل أو أثـر طيب، إن كانوا من أهل الخير والفضيلة وإشراق الذكريات وسناء المأثور وإلا فانهم والآثار المتآكلة النقوش، الموغلة في القِدم، المرسومة علىٰ بعض الأحجـار الهشة سواء بسواء.

---

١ ـ الجاحظ، البخلاء / ٢٠٩ ـ ٢١٠. ٢ – غُرر الحكم، الحكمة /٧٣١٣.

وإنما نقول هٰذا لعلمنا بما عليه الكثير من الناس من اقبالٍ لهيفٍ علىٰ الماديات، وشغفٍ وتحرقٍ علىٰ المناصب وجلائل الأعمال، أو إكبار واعجاب وتقدير خاص لمن ينالها ويعتبرونها فلاحاً وفوزاً مبيناً، حتىٰ وإن كان التمسك بها أو امساكها بوسيلة غير مشروعة أو مقبولة في نظر أولي الألباب وأماثل المجتمع.

أُمَّهاتُ الفَضائل

أُمَّهاتُ الفَضائل Vertus Cardinaies من اصطلاحات فلسفة الأَخلاق، ويعنون بها الفضائل الأساسية أو الرئيسية وهي العفة والحكمة والعدالة والشجاعة. فالعفة فضيلة النفس الشهوية والحكمة فضيلة النفس الناطقة والشجاعة فضيلة النفس الغضبية والعدالة هي الجامعة للفضائل الثلاث.

وللعفة كما يقول العلامة الحلي اثنا عشر نوعا: الأول الحياء وهو انحصار النفس خوف إتيان القبائح والحذر من الذم والسبب الصارف.

الثاني: الدعة وهو سكون النفس عند هيجان الشهوة.

الثالثة: الصبر وهو مقاومة النفس للهوىٰ لئلا تنقاد لقبائح اللذات.

الرابع: السخاء المتوسط في الإعطاء والأخذ وهو أن ينفق الأموال فيما ينبغي بقدر ما ينبغي. وتحته أنواع.

الخامس: الحرية وهي فضيلة النفس بها تكتسب المال من وجهه، وتمتنع من اكتساب المال من غير وجهه.

السادس: القناعة وهي التساهل في المأكل والمشرب والزينة.

السابع: الديانة وهي حسن انقياد النفس لما يجمل ويشرعها إلىٰ الجميل.

الثامن: الانتظام والتدبير وهو حال للنفس يقودها إلىٰ حسن تدبير الأمور وترتيبها كما ينبغي.

التاسع: الهدىٰ وهو حُسن السمت و هي تكميل محبة النفس بالزينة الخشنة والحسنة.

العاشر: المقالة وهي مرادعة تحصيل للنفس عن تكملة الاضطرار فيها.

الحادي عشر: الوقار وهو سكون النفس وثباتها عند الحركات التي تكون في المطالب.

الثاني عشر: الورع وهو لزوم الأعمال الجميلة التـي يكـون فـيها كـمـال النفـس.

إذا عرفت هٰذا فنقول: الإمام نصب لتكميل هذه في الناس فلا بد أن يكون فيه أكمل ما يمكن دائما في كل وقت وذلك يوجب العصمة[١].

ولما كان علي بن أَبي طالب المثل الأوفىٰ لمن اجتمعت فيه أنواع العفة بعد رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» كما هو معلوم لدىٰ المحققين، إذاً هـو ورسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» المثل الأوفىٰ للاقتداء بهما والاتباع لهما والانقياد لسلوكهما.

ولقد رَكَّـزنا الحديث هنا علىٰ العفة دون سواها من أُمَّهات الفَضائل باعتبار أن السخـاء الذي هو موضوع الكتاب من أقسام العفة.

التدبيرُ نظـامٌ عقلـيٌّ مُتكامِل

٣٨ – قال أمير المؤمنين علي (عليه السـلام): القليل مع التدبير، أبقىٰ من الكثير مع التبذير[٢].

إنَّ هٰـذا لَيعني أنّ القليل أكثر من الكثير في حالة تدبير الأوّل وتبذير الثاني.

ـــ التدبير لا يعني في شأنٍ من شؤونه الشحَّ أو البخل مطلقاً.

ـــ التدبيرُ نظامٌ عقليٌّ مُتكامِل، والبخلُ حُطامٌ نفسيٌّ متآكِل.

ـــ التدبيرُ نضجٌ في التفكير تعرفه كلُّ الأنظمة الاقتصاديّة المتطوِّرة، وعلىٰ رأسها النظام الاقتصادي في الاسلام.

---

١ – الألفين / ١٥٩ السادس والثمانون... / ١٥٩.

٢– غُرر الحكم، الحكمة / ٨٠٧٩.

علىٰ هذه الشاكلة من المعنىٰ السليم الموافق للقرآن والسنَّة والسيرة العقلائيَّة، ما قد قيل في صدر الاسلام أو في بداية العصر الأموي والقائل هو الحطيئة[1]، وقيل الشماخ بن ضرار، وقيل غيرهما:

قليلُ المال تصلِحُهُ فيبقىٰ
ولا يبقىٰ الكثيرُ مع الفسادِ

كما قد نسب هٰذا البيت الىٰ المتلمس الضُّبَيْعي ولعله الأصح والمتلمس من مشاهير الشعراء المقلين المجيدين في الجاهلية، وهو خال الشاعر العظيم طرفة بن العبد.

المواقف الشاخصة إزاء الخيريَّة والبرِّ

٣٩ – وقال الإمام علي (عليه السلام): الإحْسان غريزة الأخيار، والإساءة غريزة الأشرار[2].

من المتوقع أنَّ ما علىٰ ظهر هٰذا الكوكب من البشرية، ينقسمون الىٰ ثلاثة أقسام أو شُعَب، من جهة المواقف الشاخصة والمحددة إزاء الخيريَّة، والبِرِّ، والإحسان:

أولاً – العاملون بذلك حقاً والمحسنون ظاهراً وباطناً.

ثانياً – العاملون بذلك ظاهراً لاباطناً ولا يريدون من هذه المعاني السامية إلّا مظاهرها وزخارفها، دون حقائقها وجواهرها توصلاً الىٰ غايات أخرىٰ، ليست بذات شأنٍ يذكر في المسيرة الأخلاقيَّة أو الروحيَّة.

ثالثاً – البعيدون عن المواصفات الإيجابية المذكورة ظاهراً وباطناً، فليست لهم من طيبة النفس والتربية السليمة، ما يحفزهم للعمل بها، والانضمام

---

١ ـ لأن الحطيئة قال الشعر في صدر الاسلام والعصر الأموي كذلك، والمعروف أنه من قال الشعر في الجاهلية.

٢– غُرر الحكم، الحكمة /٨٦٨١.

الىٰ سموها وكرامتها ونصوعها، وليس لهم من السياسة المتلونة، والغايات الأخرىٰ التي تدفع بهم نحوها.

والإرشادات والنصائح الجادَّة والمخلصة تزيد المنضمين الىٰ الشعبة (الأولىٰ) قوةً ورسوخاً، وسَبحاً في نهر الخير والبر ونفع الناس. كما أنها تؤثر كثيراً في عدد كبير من المنضمين الىٰ الشعبة (الثانية)، ولا تخلو من فائدة مرجوة ولو بنحو من الأنحاء بالنسبة الىٰ المنضمّين الىٰ الشعبة (الثالثة).

إنَّ الشرق بكلّ ما قيل فيه من التدهور والشرور، قابل في أكثر ما قيل فيه للإصلاح والنمو الروحي والأخلاقي. وإن الغرب بالرغم من كلّ ما قيل فيه، بل لو أنّه أشدّ وأكثر مما قال فيه العالم الفرنسي الدكتور كارليل[1] في وصفه له، قابل في

---

١ – إن دافعنا في أعمالنا هو أن ننال تقدماً شخصياً، وقبل كل شيء، الإنتفاعات المالية، وإشباع غريزة إبراز الوجود، والمراتب والعناوين وأوسمة الفخر والموقعية الاجتماعية. وقد تختفي هذه المقاصد تحت أقنعة الرياء وحبّ أبناء النوع الإنساني. وبإمكاننا أن نرىٰ التحديات الخفية والخيانات المضمرة في الدوائر العسكرية، والجامعات، والدوائر والمحاكم الحكومية، بحيث نرىٰ مفهوم الشرف محرّفاً هناك. بل إنّ الذين يجعلون أنفسهم وقفاً لهدف كبير، أو يسعون مخلصين بلا رياء، يراهم كثير من الناس مجانين حقراء، وبإمكاننا أن نرىٰ آثار النفعية في كل مكان. في إمرأة تفرّغت لأمور الخير وليست في عمق قلبها تفكر في مساعدة المضطّرين، بل تريد أن تُرشّح لإدارة مؤسسة خيرية مثلاً أو أن تحصل علىٰ وسام «لثريون دونور» أو تنتفع بعد ذلك إذ تفتح حانوتاً للبيع والتجارة. وفي طبيب معروف يوصي تلامذته ومرضاه بمصرف دواء خاص قد ناوله صاحب مصنع رشوة كبرىٰ. وفي عالم جامعي لا يستهدف في مساعيه الرقي العلمي بل يأمل في الحصول علىٰ كرسيّ خاص في أكاديمية علمية، لكي ينتفع من منافعه المادية. وفي أطباء لا يراعون جانب الأخلاق في مختبراتهم وفي رعاية وعيادة مرضاهم.
وفي طالب يُرشي كاتب الكلية ليحصل علىٰ أسئلة الإمتحانات الآتية. وفي طلاب يبيعون ما يحصلون عليه من مساعدات للدراسة في السوق السوداء.
وكثيراً ما تختفي صورة النفعية تحت قناع العلم والإنسانية والتضحية والنزاهة. نحن حريصون علىٰ المال، ذلك أن المال يُعد كلّ شيء، ويمنحنا القدرة. بالإمكان أن يُشْتَرىٰ به كل أحد تقريباً، إما بالنقود نفسها، أو بما يُعدّه أصحاب الأموال ويعرضونه عليهم، فإنَّ الأموال تشبع تمنّياتنا الحقيرة.

أغلب من فيه للإصلاح والنمو الروحي والأخلاقي، ما توفرت التعبئة التثقيفية والإرشادية والتربوية لإنتشاله، وما جدَّ بذلك المخصلون من الإصلاحيين في شتىٰ أصقاع العالم.

إنه حتىٰ لو تقافز الىٰ أذهاننا وتصوّراتنا - اعتماداً علىٰ المشاهد الطائشة والواقع المؤلم جداً، والممارسات التي توخز الضمائر - عدمُ جدوىٰ الإصلاح والإرشاد: فإن المسؤولية الإصلاحية والتوجيهية لا تسقط عن الكواهل. ومَن لا يستطع إرشادَ الكثير فينبغي له أن لا ييأسَ من إرشاد القليل.

فضل إطعام الإخوان

٤٠ ـ قال شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي في كتابه فصّ الخواتم: قال عليٌّ (كرم الله وجهه): لئن أجمع إخواني علىٰ صاعٍ من الطعام، أَحبّ إليَّ من أَن أَعتقَ رقبة[١].

وقريب منه نوعاً ما اللفظ الذي نقله الدكتور محمد روّاس قلعه جي في كتابه «موسوعة فقه علي بن أبي طالب» قائلاً: كان علي (رضي الله عنه) يعتبر الضيافة من الفضائل بل قد تفوق اعتاق الرقبة في الفضل؛ فقد قال (كرم الله وجهه): لئن أجمع أُناساً من أصحابي علىٰ صاعٍ من طعام، أَحبّ إليَّ من أَن أخرج الىٰ السوق فأشتري نسمة فأعتقها[٢].

إلا أن ابن أبي الدنيا في كتابه «الاخوان» قد أورد الحديث العلوي باسناده عن محمد بن الحنفية عن علي (رضي الله عنه) قال: لئن أجمع نفراً من أصحابي علىٰ صاعٍ أو صاعين، أَحبّ إليَّ من أَن أخرج الىٰ سوقكم فأعتق نسمة[٣].

قد يبدو هٰذا الأمر غريباً أو غريباً جدّاً، وأنىٰ يكون جمع الإخوان علىٰ صاعٍ من الطعام أو صاعين، أَحَبَّ إلىٰ الإمام أمير المؤمنين من أَن يعتقَ رقبة،

---

١ - فصّ الخواتم فيما قيل في الولائم / ٦٤.

٢ - موسوعة فقه علي بن أبي طالب / ١٦٢ ـ ١٦٣.

٣ - الاخوان / ٢٣٤.

واللهُ تبارك وتعالىٰ يقول في كتابه الحكيم: « فَلَا اَقْتَحَمَ اَلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا اَلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ »[١]. ويقول تبارك وتعالىٰ: « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَـئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَـئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْـلِهِ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اَللَّهِ وَكَانَ اَللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً »[٢].

نعم إنه غريب أو غريب جدّاً لمن عـرف الشيء الكثير من القرآن والسـنة عن فضل عتق الرقبة وما يترتَّب عليه من ثواب جزيل أو كفّارات للذنوب، ولم يعرف شيئاً كثيراً عن فضل إطعام الإخوان وما يتعقَّبه من عظيم الأجر والثـواب ومن تكفيرٍ للخطايا. إذاً فلا بُدَّ من مزيد البرهنة والاستدلال لإماطة اللثام عـن غرابة القضـية ومن أجل تثبيت الفكرة العلوية في الأذهان، ومثل هذا الأمـر لا يغني فيه الدليل والدليلان لذا تطلَّب منا الاتيان بأدلة وبـراهـين مـتعدِّدة عـلىٰ الأهمية القصوىٰ للاطعام:

- عن أبي جعفر محمد الباقر (عليه السـلام) قال: قال رسول الله «ص»: الإيمان: حسن الخلق، وإطعام الطعام، وإراقة الدماء[٣].

ـ عن أبي عبد الله عن آبائه (عليهم السـلام) قال: قال رسول الله «ص»: خَيْرُكُم من أطعم الطعام، وأفشىٰ السلام، وصلىٰ والناس نيام[٤].

- عن أبي عبد الله (عليه السـلام) قال: جمع رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» بني عبد المطلب فقال: يَا بني عبد المطلب أفشوا السـلام، وصِـلوا

---

١ - البلد، الآيـة / ١١ ـ ١٣. ٢ - النساء، الآية / ٩٢.

٣ - أبو جعفر البرقي أحـمد بن محمد بن خالد، المحاسن، كتاب المآكل، باب الإطـعام الحديث / ١٦.

٤ - المصـدر نفسه، باب الإطعام الحديث / ٢.

الأرحام، وتهجدوا والناس نيام، وأطعموا الطعام، وأطيبوا الكلام، تدخلوا الجنة بسلام[١]. – عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: كان رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» يقول: من موجبات مغفرة الربِّ إطعام الطعام[٢].

– عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إن الله يحب إراقة الدماء، وإطعام الطعام، وإغاثة اللهفان[٣].

– عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: لأكلة أطعمها أخاً لي في الله أحب إلي من أن أشبع مسكينا، ولأن أشبع أخاً لي في الله أحب إلي من أن أشبع عشرة مساكين، ولأن أعطه عشرة دراهم أحب إلي من أن أعطي مائة درهم في المساكين[٤].

ـ عن أبي جعفر (عليه السلام) كذلك قال: إن أحب الأعمال إلىٰ الله إدخال السرور علىٰ المؤمن، وشبعة مسلم، أو قضاء دينه[٥].

– عن أبي جعفر (عليه السلام) أيضاً: ثلاث خصال هنَّ من أحب الأعمال إلىٰ الله: مسلم أطعم مسلماً من جوع، وفَكَّ عنه كربه، وقضىٰ عنه دَيْنَه[٦].

– عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: من أطعم ثلاثة نفر من المسلمين أطعمه الله من ثلاث جنانٍ ملكوتِ السماءِ: الفردوس، ومن جنة عدن، ومن

---

١ – المصدر نفسه، باب الإطعام الحديث / ٣.

٢ – المصدر نفسه، باب الإطعام الحديث / ١٨.

٣ – المصدر نفسه، باب الإطعام الحديث / ١٠.

٤ – المصدر نفسه، باب الإطعام الحديث / ٣٧.

٥ – المصدر نفسه، باب الإطعام الحديث / ١١.

٦ – المصدر نفسه، باب الإطعام الحديث / ١٢.

شجرة في جنة عدن غرسها ربي بيده[١].

– عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: المنجيات إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام[٢].

– عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: من أطعم مسلماً حتىٰ يشبعه، لم يدر أحد من خلق الله ما له من الأجر في الآخرة، لا ملك مُقَرَّب، ولا نبي مرسل، إلا الله ربّ العالمين. ثم قال: من موجبات الجنة والمغفرة: إطعام الطعام السغبان. ثم تلا قول الله عز وجل: «أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا...»[٣].

– قال أَبو عبد الله الصادق (عليه السلام): مَن أطعم ثلاثة من المسلمين غفر الله له[٤].

– قال أبو عبد الله (عليه السلام): من أَطعم أخاً له في الله كان له من الأَجر مثل من أَطعم فئاماً من الناس. قلت: وما الفئام من الناس؟ قال: مائة ألف من الناس[٥].

في تفضيل إطعام الإخوان علىٰ تحرير الرقاب

علينا أن نَتَفَهَّمَ بدِقَّةٍ معنىٰ كلام أمير المؤمنين (لأَن أجمع إخواني علىٰ صاعٍ من الطعام..) فإنه (عليه السلام) في هذا الحديث لم يفضِّل مطلق الاطعام علىٰ تحرير الرقبة (وإن كان في مطلق الإطعام خير كثير وأجر كبير)، بل فضَّل خصوص اطعام الإخوان علىٰ التحرير، أي أن هنالك ميِّزات للإخوان بالذات

---

١ – المصدر نفسه، باب الإطعام الحديث / ٤٣.

٢ – المصدر نفسه، باب الإطعام الحديث / ١.

٣ – المصدر نفسه، باب الإطعام الحديث / ١٧.

٤ – المصدر نفسه، باب الإطعام، الحديث / ٥٨.

٥ – المصدر نفسه، باب الإطعام الحديث / ٣٤.

وخصائص محدَّدة يستوجبون بها التفضيل. فيا ترىٰ مَن هم الاخوان في الفكر العلوي القويم؟

ـ لا تسرنَّ بكثرة الإخوان ما لم يكونوا أخياراً، فإن الإخوان بمنزلة النار التي قليلها متاع، وكثيرها بوار[١]. فلقد نهىٰ علي (عليه السلام) عن اتخاذ غير الأخيار من الناس إخواناً، ومثل عليٍّ بن أَبي طالب لا ينهىٰ عن شيء أبداً إلا وقد سبق الىٰ الابتعاد عنه.

ـ الطعام يؤكل علىٰ ثلاثة أضرب: مع الإخوان بالسرور ومع الفقراء بالإيثار ومع أبناء الدنيا بالمروءة[٢]. فإنه (عليه السلام) في سياق تعبيره قد أخرج أبناء الدنيا عن الإخوان بالمعنىٰ الأخصِّ لهم.

ـ أخوك الصديق من وَقاك بنفسه، وآثرك علىٰ ماله وولده وعرسه[٣].

ـ ليس لك بأخ من احتجت إلىٰ مداراته[٤].

ـ ليس برفيق محمود الطريقة من أحوج صاحبه إلىٰ مماراته[٥].

ـ ليس لك بأخٍ مَن أحوجك إلىٰ حاكم بينك وبينه[٦].

ـ أخوك مواسيك في الشدة[٧].

ـ أَخوك في الله مَن هداك إلىٰ رشاد، ونهاك عن فساد، وأعانك علىٰ إصلاح

---

١ – ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ٣٢٢، الحكمة / ٦٨٥.

٢ – غرر الحكم: الحكمة / ٨٦٣٠، ومستدرك الوسائل (١٩٨٠٤).

٣ – غرر الحكم، الحكمة / ٩٤٧٩.

٤ – المصدر نفسه، الحكمة / ٩٥٥١، وعيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ...٧.

٥ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ١..٧، وغرر الحكم، الحكمة / ٩٥٥٢، وليس في الغرر كلمة (الطريقة).

٦ – غرر الحكم، الحكمة / ٩٥٥٣، وعيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٢..٧.

٧ – غرر الحكم، الحكمة / ٩٦٨٩.

معـاد[١].

ـ تبتنىٰ الأخوة في الله: علىٰ التناصح في الله، والتباذل في الله، والتعاون علىٰ طاعة الله، والتناهي عـن مـعاصي اللـه، والتـناصر فـي اللـه، وإخـلاص المحبة[٢].

نعتقـد أنه طبقاً لهذا المفهوم العلوي الرشيد لكلمة الأخ والإخوان جـاءت الأحاديث عن أئمة أهل البيت (عليهم السـلام) وهي تؤكِّد علىٰ أفضلـية اطعام الأخ أو المؤمن أو المسلم علىٰ تحـرير الرقبة وذلك من قبيل ما يلي:

– قال أبو جعفر الإمام محمد الباقر (عليه السـلام): شبع أربعةٍ من المسلمين يعدل رقبةً من ولد اسماعيل[٣].

– عن أبي جعفر (عليه السـلام) فيما رواه عنه سدير الصيرفي (رضوان الله عليه) أنه قال: يا سدير تعتق كلَّ يومٍ نسمة؟ قلت: لا. قال: كل شهر؟ قلت: لا. قال: كل سنة؟ قلت: لا. قال: سبحان الله أما تأخذ بيد واحد من شيعتنا فتدخله إلىٰ بيتك فتطعمه شبعةً! فو اللهِ لذلك أفضل من عتق رقبة من ولد إسماعيل[٤].

– سأل رجل أبا جعفر (عليه السـلام): أي عمل يعمل به يعدل عتق نسمة؟ فقال أبو جعفر (عليه السـلام): لئن أطعم ثلاثة من المسلمين أحب إلي من نسمة ونسمة ـ حتىٰ بلغ سبعا ـ وإطعام مسلم يعدل نسمة[٥].

– قال أبو عبد الله الصادق (عليه السـلام) ناصحـاً لأحد أصحابه: اجلس

---

١ – المصدر نفسه، الحكمة / ٩٦٩٧. ٢ – المصـدر نفسه، الحكمة / ٩٦٩١.

٣ – الحسين بن سعيد الأهوازي، المؤمن / باب ثواب من أطعم مؤمناً أو سقاه أو كساه أو قضىٰ دينه، الحديث (١) نسخة خطِّيَّة عند والد المؤلف.

٤ – كتاب المآكل من المحاسن، باب الإطعام الحديث / ٤٨.

٥ – المصـدر نفسه، باب الإطعام، الحديث / ٥٦.

فأَصِبْ معي من هذا الطعام؛ حتىٰ أحدِّثك بحديث سمعته من أبي. كان أبي يقول: لئن أطعم عشرة من المسلمين، أحبّ إليّ من أن أعتق عشر رقبات[١].

ـ قال أبو عبد الله (عليه السلام): ما مِن مؤمنٍ يطعم مؤمناً موسراً كان أو معسراً، إلا كان له بذلك عتق رقبة من ولد إسماعيل[٢].

ـ قال أبو عبد الله (عليه السلام) لأحد أصحابه: ما يمنعك أن تعتق كل يوم نسمة؟ فقلت: لا يحتمل ذلك مالي. فقال: لا تقدر أن تشبع كل يوم رجلاً مسلماً؟ فقلت: موسراً أو معسراً؟ فقال: إن الموسر قد يشتهي الطعام[٣].

فهذا هو مفهوم الأخ الذي أبان الإمام أمير المؤمنين وعترته من أئمة الهدىٰ عن الأهمية الكبرىٰ لاطعامه وإكرامه، إنَّهُ ذاك الأَخُ الذي لما سُئل أحد قدماء الفلاسفة عن أبعد الناس سَفَراً أجاب قائلاً: مَنْ سافرَ في طلبِ الأَخِ الصّالح.

مفهومُ التبذيرِ في القرآنِ والفكرِ العلوي

٤١ – قال أميرُ المؤْمنين علي (صلوات الله عليه): مِنْ العقلِ مُجانَبَةُ التَّبْذيرِ، وَحُسْنُ التَّدْبير[٤].

قال الله تعالىٰ: « وآتِ ذا القُربىٰ حَقَّه والمسكينَ وابنَ السَّبيلِ وَلا تبذِّرْ

---

١ – المصدر نفسه، باب الإطعام، الحديث / ٥٠.

٢ – المصدر نفسه، باب الإطعام، الحديث / ٤٧.

٣ – المصدر نفسه، باب الإطعام، الحديث / ٤٩.

٤ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٨٥٣٦.

تبذيراً * إِنَّ المُبذِّرينَ كانوا إِخْوانَ الشَّسياطينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفورا »[١].

التبذيرُ هو تفريق الأموال بالباطل، كما يفرّق البذر.

فهل معنىٰ التبذير كثرة الإنفاق، أو الإنفاق العظيم، كما يعتقد كثير من الناس، وكما يحاول أَن يصوِّره اللؤماء والبخلاء تبريـراً للشحِّ واللـؤم وتـغطيةً لسـوءة البخل الفاضح.

لقد ورد النهي عن التبذير في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ولكـنه لا يعني بالضرورة جسامة الإنفاق أو كثرته، حتىٰ وإن كان بالشكل الهائل الملفت للأنظار.

نعم قد يعدّ ذلك تبذيراً فيما اذا كان لا يمتلك غيره، على نحو الصورة التي ذكرها الإمام الصادق حينما سأله رجل قائلاً: يابن رسول الله مـا حـدُّ التـبذير والتدبير والتقتير؟

فقال: التبذير أن تتصدّق بجميع مالك، والتدبير أن تنفق بعضه، والتقتير أن لا تنفق من مالك شيئا.

فقال: زدني بياناً يابن رسول الله؟

قال: قبض رسول الله «ص» قبضة من الأرض وفرّق أصابعه، ثم فتح كَفَّه فلم يبق في يده شيء، فقال: هٰذا التبذير، ثم قبض قبضة أخرىٰ وفرّق أصابعه، فنزل البعض وبقي البعض، فقال: هٰذا التدبير، ثم قبض قبضة أخرىٰ وضـمّ كـفَّه حتىٰ لم ينزلْ منه شيء فقال: هٰذا التقتير[٢].

فالتبذير انفاق كلّ المال كما جاء في الرواية عن الصادق، اللهمَّ الا أن تكون

---

١ - الأسراء الآية: ٢٦ ـ ٢٧.

٢ - إرشاد القلوب / ١٣٨ـ ١٣٩.

هناك ضرورة ملحّة. كما أن هذه الرواية لا تتعارض مع الانفاق الجزيل جداً، فيما اذا كان المنفق يمتلك غيره.

فالتبذير اذاً: إنفاق كلّ المال إلا لضرورة ملحّة، هٰذا من جهة ومن جهة ثانية التبذير هو الانفاق في غير موضعه. أي أننا أمرنا بحكمة التصرف في الأموال، ومن هٰذا المنطق فمن أنفق مالاً جزيلاً في حق لا يعد مبذِّرا، ومن أنفق شيئاً يسيراً في غير حقٍّ يعدّ مبذِّرا. ولهذا يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): المبذِّر: الذي ينفق ماله في غير حقِّه. وجاء عن عبد الله بن عباس: المبذر: الذي ينفق ماله في غير حق. وقال المفسِّر مجاهد بن جبر المكّي: لو أنفق مدّاً في باطل كان مبذِّراً، ولو أنفق جميع ماله في الحق لم يكن مبذِّرا.

والأدلة علىٰ ذلك كثيرة ومن جملتها ما عن أبي خالد الكابلي (رض) قال: دخلت علىٰ أبي جعفر (عليه السلام)، فدعا بالغداء فأكلت منه طعاماً ما أكلت قط طعاماً أنظف منه ولا أطيب منه، فلما فرغنا من الطعام قال: يا أبا خالد كيف رأيت طعامنا؟

قلت: جعلت فداك ما رأيت أنظف منه قط ولا أطيب، ولكني ذكرت الآية التي في كتاب الله: « لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ »[1].

فقال أبو جعفر (عليه السلام): إنما تسألون عما أَنتم عليه من الحَق[2].

أي ما أَنتم عليه من الحَق والطريق المستقيم هو النعيم الذي تُسألون عنه فلا ينبغي لكم أن تفرطوا فيه وتهملوه وتَدّعو إحاطته ونصرته والقيام بواجباته، وليس معنىٰ النعيم في الآية المباركة شَهِي الطعام وطيب الشراب ونحو ذلك من

١- التكاثر الآية / ٨».

٢ - المحاسن / كتاب المآكل / باب لا سرف في الطعام / ٨٢.

اللذائذ الحسية.

وعن أبي حمزة الثمالي قال: كنا عند أبي عبد الله (عليه السلام) جماعة فدعا طعاماً مالنا عهد بمثله لذاذةً وطيباً حتىٰ تَمَلَّيْنا. وأوتينا بتمرٍ ينظر فيه الىٰ وجوهنا من صفائه وحسنه.

فقال رجل: «لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ». عن هٰذا النعيم الذي نعمتم عند ابن رسول الله «ص»؟ فقال أبو عبد الله (عليه السلام): الله أكرم وأجلُّ من أن يطعمكم طعاماً فيسوّغكموه، ثم يسألكم عنه، ولكنه أنعم عليكم بمحمد وآل محمد[1].

عن ابن بكير عن بعض أصحابه قال: كان أبو عبد الله (عليه السلام) ربما أطعمنا الفرانية والأخبصة، ثم يطعم الخبز والزيت، فقيل له: لو دبَّرت أمرك حتىٰ يعتدل؟

فقال: إنما تدبيرنا من الله، اذا أوسع الله علينا أوسعنا، وإذا قتَّر قتَّرنا[2].

ولو أن جلال الأُعطيات مما يعدّ تبذيراً بالضرورة لم يجيء في بحار الأنوار للعلامة المجلسي[3]: وروي لو عملت طعاماً بمائة ألف درهم ثم أكل منه مؤمن واحد لم يُعدّ مسرفاً.

وقد رأينا كلاماً جميلاً في التفريق بين الجواد والمسرف ينسب للفيلسوف اليوناني سقراط socrates نذكره تتويجاًللمنفعة: الرجال أربعة: جواد،وبخيل، والبخيل هو الذي لا يعطي واحداً منهما نصيبه، والمسرف الذي يجمعهما لدنياه،

---

١ - المصدر نفسه / ٨٣

٢ - المصدر نفسه / ٨٤.

٣ - البحار، ٧١ / ٣٥٥.

والمقتصد هو الذي يُعطي كلّ واحد منهما نصيبه[١].

وربما نسب هٰذا الكلام الىٰ الفيلسوف الكبير أبي الحسن العامري (ت ٣٨١ هـ) صاحب التصانيف القيمة، مثل كتاب «الأمد علىٰ الأبد» و«الاعلام بمناقب الاسلام».

وقال الراغب: المذموم (أي من الإنفاق) ضربان: إفراط وهو التبذير والإسراف، وتفريط وهو التقتير والإمساك. وكلاهما يراعىٰ فيه الكمية والكيفية بأن يضعه في غير موضعه، والاعتبار فيه بالكمية أكثر منه بالكيفية: فربَّ منفق من ألوف هو في إنفاقه مسرفٌ وببذله مفسدٌ ظالم كمن أعطىٰ فاجرةً درهماً أو إشترىٰ خمراً. وربّ منفق ألوفاً لا يملك غيرها هو فيه مقتصد وببذله محمود، وقد قيل لحكيم: متىٰ يكون بذل القليل إسرافاً والكثير اقتصاداً؟ قال: إذا كان بذل القليل في باطل والكثير في حق.

والتقتير من جهة الكمية أن ينفق دون ما يحمله حاله، ومن جهة الكيفية أن يمنع من حيث يجب، وينفق حيث لا يجب.

والتبذير عند الناس أَحمد لأنه جود لكنه أكثر مما يجب، والتقتير بخل، والجود علىٰ كل حال أَحمد من البخل؛ لأن رجوع المبذر الىٰ السخاء سهل، وارتقاء البخيل اليه صعب، ولأن المبذر قد ينفع غيره وإن أضر بنفسه، والمقتِّر لا ينفع نفسه ولا غيره. وليس الإسراف بالمال فقط، بل بكل شيء وضع في غير موضعه اللائق به[٢].

ولو كان العطاءُ الثرُّ والحِباءُ الجزلُ مما يُعَدُّ تبذيراً بالضرورة لم يُعطِ رسول

---

١ – أبو علي أحمد بن محمد مسكويه / الحكمة الخالدة / ٢٨١.

٢ – الذريعة الىٰ مكارم الشريعة / ٢١٥ ـ ٢١٦.

الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» سفّانة بنت حاتم الطائي من الأنعام ما يسـدّ ما بين جبلين؛ فإن هٰذا لشيء عظيم لم يكن بوسع حاتم مثلاً أن يأتي بنظيره. وأمير المؤمنين علي بن أَبي طالب الذي أنفق تلك الأموال الطائلة لشراء ألف مملوك من كدّ يده ـ وأعتقهم جميعاً قُرُباتٍ لوجه الله تعالىٰ، لم يكن مبذِّراً أو مسرفاً وهـو يتصرَّف برؤوس الأموال هذه، بينما يأتيه بعض من ينكَبُّ علىٰ الدنـيا انكـباباً، ليتحدث معه بما لا ينفع الناس، فيقوم الإمام الىٰ السراج ليطفأه، وما ذاك إلا لأن وقوده من بيت مال الدولة الاسلامية، فمن التبذير أن يـنفق فـي غـير مـوضعه المناسب الذي أُعدَّ له حسب القانون الإلهي.

خطب شداد بن أوس في مجلس معاوية وقد أمره الأخير أن ينتقص علياً فقال..: وإذا أَراد الله بالناس خـيراً اسـتعمل عـليهم صـلحاءَهم وقـضىٰ بـينهم فقهاؤُهم وجعل المالَ في سمحائِهم. وإذا أَراد بالعباد شراً عمل عليهم سـفهاؤهم وقضىٰ بينهم جهلاؤهم وجعل المال عند بخلائهم. وإن من إصلاح الولاة أن تصلح قرناءها. ثم التفت إلىٰ معاوية فقال: نصحك يا معاوية من أسخطك بالحق، وغشَّك من أرضاك بالباطل.

فقطع معاوية عليه كلامه وأمر بإنزاله، ثم لاطفه وأمر له بمال، فـلما قـبضه قال: ألستُ من السمحاء الذين ذكرت؟

فقال: إن كان لك مال غير مال المسلمين أصبته حلالا وأنفقته إفضالا فنعم، وإن كان مال المسلمين احتجبته دونهم أصبته اقترافا، وأنفقته إسرافا، فـإن اللـه يقول: «إِنَّ المُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِين»[1].

---

١ – قيل: دخل بهلول علىٰ المتوكل فقال له المتوكل: كيف ترىٰ قصري هذا؟

قال: حسن لولا فيه عيبان.

قال: وما هما؟

لقد كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي عُرِفَ بالجود والإيثار، معرفةً تنحسر دونها الأَبصار، كثيرَ النهي عن الإسراف والتبذير، والردعِ بشتىٰ الصور عن مغبة الوقوع في شراكهما، وله في هٰذا الإطار حكم غزيرة وإرشادات متعدِّدَة، كان يقولها ويرسلها وينشرها في مناسبات كثيرة، فمما حفظ عنه من ذلك هذه الحكم والكلمات التي نجد في قراءتها تحديداً للإسراف والتبذير، وتأكيداً علىٰ الابتعاد عن مزالقهما، بل جعلِ التبذير جهلا، ومجانبَته عقلا، كما نجد تعدداً وتلوناً بارعاً في أساليب الحذر منهما، كما يلي:

* الإسراف مذموم في كل شيء إلا في أفعال البِر[1]..

* ألا وإن إعطاء هٰذا المال في غير حقه تبذير وإسراف.

* ذَرِ السرف فإن المسرف لا يُحمد جودُه ولا يُرحم فقرُه.

* من المروءة أن تقتصد فلا تسرف، وتعد فلا تخلف.

* وَيْحَ المسرفِ ما أَبعَدَهُ عن صلاحِ نفسِهِ واستدراكِ أَمرِه.

* لا تبخلْ فتقتر، ولا تسرف فتفرط.

* الحازم من تجنَّب التبذيرَ وعاف السرف.

* عليك بترك التبذير والإسراف والتخلق بالعدل والإنصاف.

* من افتخر بالتبذير احتقر بالإفلاس.

* إذا أراد الله بعبد خيراً أَلْهَمَه الاقتصاد وحسن التدبير. وجَنَّبَهُ سوء

قال: إن أنفقت فيه من المال الحلال فأنت مسرف والله لا يحب المسرفين، وإن أنفقت من المال الحرام فأنت خائن والله لا يحب الخائنين.

١ – أخذنا هذه الحكم حول الإسراف والتبذير من غرر الحكم للآمدي التميمي ما عدا الحكم الثلاث الأخيرة فإنها من كتاب عيون الحكم والمواعظ لعلي بن محمد الليثي الواسطي «من علماء القرن السادس الهجري».

التدبير والإسراف.

* شَينُ السخـاء السرَف.

* ما فوق الكفاف إسراف.

* فدع الإسراف مقتصدا. واذكر في اليوم غدا. وأمسك من المـال بـقدر ضرورتك. وقدم الفضـل ليوم حاجتك.

يظهـر بقوة أن الحكمتين «مـا فـوق الكـفاف إسـراف، وفـدع الإسـراف مقتصدا..» تنهيان عن الإنفاق فـيما جـاوز الكـفاف ضـمن هـيكليته الفـردية وحدودها الشخصية، ويؤكد هٰذا الاستظهار ما جاء فـي ذيـل الروايـة الثـانية: «أمسكْ من المال بقدْر ضرورتك، وقدِّمْ الفضـل ليوم حاجتك».

تأثير الكرامة سلبياً وايجابياً

٤٢ – قال أميـرُ المؤمنين علي (صلوات الله عليه): الكَرامَـةُ تُـفسدُ مِـن اللئيم، بقدرِ ما تُصلحُ من الكَـريم[١].

قد أخذ أحمد بن الحسين أبو الطيب المتنبي هٰذا المعنىٰ فقال من قصيدة في مديح الأمير سيف الدولة الحمداني:

إذا أنتَ أكـــرمتَ الكـــريمَ مـــلكته
وإن أنت أكـــرمت اللـــئيمَ تـــمرَّدا[٢]

١– غُرر الحكم، الحكمة /٨٨٥٤.

٢ ـ من القصيدة التي منها البيت المشهور:

لكـلِّ امـرىءٍ مـن دهـره مـا تـعوَّدا وعادات سيف الدولة الطعنُ فـي العِدا

انظر ديوان أبي الطيب المتنبي / الدكتور عبد الوهاب عزام.

ولقد كان العبقري الحكيم والشاعر الفذ الذي لا نظير له في العصر العباسي كله أبو الطيب المتنبي، كثيراً ما ينظر في شعره الىٰ حكم الإمام علي وأقواله أو يأخذ منها، وكنت قد رأيت كتيباً جيداً فيه مائة شاهد وشاهد علىٰ تأثر المتنبي كلام أمير المؤمنين واقتباسه من آثاره، تأليف العلامة المحقق السيد عبد الزهراء الحسيني، غير أن ما ذكره (رحمه الله) لا يستقصي كل شعر المتنبي، وبقيت حالات غير قليلة لم يذكرها، ولعل السيد المؤلف أراد التنبيه والاستدلال علىٰ أصل المطلب لا أكثر من ذلك، فجزاه الله تبارك وتعالىٰ عن خدماته العلميَّة النافعة خير جزاء المحسنين، وحشره مع أجداده الطيبين الطاهرين (عليهم السلام).

الكريم من صان عِرضَه بماله

٤٣ - قال أَميرُ المؤمنين علي (صلوات الله عليه): الكَريمُ مَن صَانَ عِرْضَه بمالِهِ، واللئيمُ مَن صَان مالَهُ بِعِرْضِه[١].

١ ـ أَشار الىٰ صدر هٰذا المضمون مقتبساً منه علامة اللغة والأدب والشعر أبو بكر محمد بن دُريد الأزدي (ت ٣٢١هجرية) في مقصورته العظيمة الشأن[٢]. قائلاً:

وصونُ عِرض المرءِ أن يبذُلَ ما ضنَّ به مما حواهُ وانتضىٰ[٣]

٢ ـ كان علي بن عيسىٰ بن ماهان مبغضاً للبرامكة صريحاً في معاداتهم، فاشتروا أعراضهم منه بخمسين ألف دينار، كما يحدثنا ثمامة بن أشرس ـ من أعلام المعتزلة في العصر العباسي ـ بهذه القصة: حيث يقول: إن الرشيد نكب علي بن عيسىٰ بن ماهان، وألزمه مائة ألف دينار، أدىٰ منها خمسين ألفا، ويلح

١- غُرر الحكم، الحكمة /٨٨٤٩

٢ ـ مطلع المقصورة:

يا ظبيةً أشبهَ شيءٍ بالمها ترعىٰ الخُزامىٰ بين أشجار النقا

٣ ـ جواهر الأدب / ٦٥١.

بالباقي، فأقسم الرشيد إن لم يؤد المال في بقية هٰذا اليوم وإلا قتله. وكان علي بن عيسىٰ عدواً للبرامكة مكاشفاً، فلما علم أنه مقتول سأل أن يمكن من السعي إلىٰ الناس يستنجدهم. ففسح له في ذلك فمضىٰ ومعه وكيل الرشيد وأعوانه إلىٰ باب يحيىٰ وجعفر، فأشبلا عليه وصححا من صلب أموالهما خمسين ألف دينار في باقي نهار ذلك اليوم بديوان الرشيد باسم علي بن عيسىٰ، واستخلصاه، فنقل بعض المتنصحين لهما إليهما: أن علي بن عيسىٰ قال في آخر نهار ذلك اليوم متمثلا:

فما بُقْيأً عليَّ تركتماني ولكن خفتما صرد النبالِ

فقال يحيىٰ للناقل إليه ذلك: يا هٰذا إن المرعوب ليسبق لسانه إلىٰ ما لم يخطر بقلبه.

وقال جعفر: ومن أين لنا أنه تمثل بذلك وعنانا، ولعله أراد أمراً آخر. فكان ثمامة يقول: ما في الأرض أكبر سؤدداً من رجل يتأول كلام عدوه فيه، ويحمله علىٰ أحسن محامله.

أَمسِكْ مِن المالِ بِقَدْرِ ضَرورتك

٤٤ – يروىٰ عن أمير المؤمنين علي (صلوات الله عليه): أمسكْ من المال بقدر ضرورتك، وقَدِّم الفضل ليوم فاقتك[١].

لماذا ينصحك الإمام الرشيد الأريب أن أمسكْ من المال بقدر ضرورتك لا أكثر من ذلك، في الوقت الذي ترىٰ فيه الكثيرين من الناس قد يكون من ضمنهم الأب والأم والأخ والزوجة والصديق ينصحونك بادخار الأموال وتكديسها أو علىٰ الحَدِّ الأَقَلِّ الاحتفاظ بالمقادير الكبرىٰ منها؟ هل لأَنَّ هؤلاء أرادوك لدنياهم؟ فحينما ينصحونك بالادخار الشديد والتكديس إنما يريدون أن ينتفعوا منها بأكبر شيء ممكن؟ والإمام (سلام الله عَلَيه) لم يردك لحاجته لك،

١– ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٥ / ١٣٩ وبحار الأنوار ٣٣ ٤٩٠، ومستدرك الوسائل، ١٥ /٣٧.

وإنما أرادك لتنفَع نفسك وتصون دينك وتعظم حسناتك، وأن ترتفع كثيراً في مراقي الخير وسُلّم الفضيلة والكمال.

أم لأن هؤلاء أرادوك لدنياك وقد جهلوا أو تجاهلوا وغفلوا أو تغافلوا أمرك وشأنك يوم العَرض الأكبر علىٰ الله تبارك وتعالىٰ ويوم الفاقة الكبرىٰ للحسنات والخيرات والمثوبات؟ والإمام (سَلامُ اللهِ عَلَيه) لم يجهل أو يتجاهل أو يغفل أو يتغافل لك عن يوم كان شره مستطيراً « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ »[1][2].

قَدِّم المالَ ليومِ فَاقَتِك

لما مرض أَبو دلف[3] بالعلة التي مات أقام شهراً علىٰ ملازمة الوسادة فقال

---

١ – ق، الآية / ٣٠ ـ ٣٥.

٢ – ولقد قلنا هذه الأبيات في معنىٰ قول الإمام: أمسكْ من المال..

أمسك من المال بقدْرِ حاجتِكْ ... وقدِّمِ الفضلَ ليومِ فاقتِكْ

اللؤم عنوانُ جهولٍ غافلٍ ... والجودُ عنوانُك في إفاقتِكْ

إن الذي يبقىٰ سبيليه الرَّدىٰ ... حتىٰ كأنْ لم يكُ بين طاقتِكْ

الطاقة: القدرة علىٰ الشيء، والشعبة من العشب أو الريحان أو الشعر.

٣ – أَبو دلف: القاسم بن عيسىٰ العجلي البكري من أكابر القادة في العصر العباسي ومن مشاهير الأجواد والمحسنين، وكان معاصراً للمأمون والمعتصم وكان حصيف الرأي كثير الفضائل أديباً مرموقاً، ت / ٢٢٥ هـ

قال المأمون: ما حسدت أحداً قط إلا أبا دلف علىٰ قول الشاعر فيه:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره

فإذا ولّىٰ أبو دلف ... ولت الدنيا علىٰ أثره

يروي عبدوس بن أبي دلف عن أبيه قال لي المأمون: يا قاسم أنت الذي يقول فيك علي بن جبلة:

لخادمه بشر: كم لي علىٰ هذه الحالة؟ قال: شهر. فلما سمع ذلك بكىٰ كثيراً وقال: يمرُّ علي هذا من عمري لا أبرُّ أحداً من الناس يا بشر اخرج الىٰ الباب فلا تمنع أحداً من الدخول علينا. فخرج بشر فإذا عشرة من أولاد أبـي طـالب فـدخلوا فابتدر رجل منهم وقال: أصلحك الله نحن قوم من آل أبي طالب من أهل بـيت رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله» وقد أحاطت بـنا المـصائب، وأجـحفت بـنا النوائب. فقال لخادمه: خذ بيدي فأجلسني علىٰ ذلك الفراش ثم قال: ليأخذ كل واحد منكم ورقة وليكتب فيها بخطه أنه قبض مني مائة ألف درهم. فلما كـتبوا الرقاع وضعوها بين يديه فقال لخادمه: ائتني بالمال. فأحـضـره، فأعـطىٰ كـل واحد منهم مائـة ألف درهم، فلما تسلموا المال قال رجل منهم: واللهِ ما لنا مال ولا عقار وخطوطنا عندك ماذا تصنع بها؟ فبكىٰ وقال لهم: أتظنون أنها وثائِـقُ عليكم لا واللهِ ثم قال لخادمه: يا بشر إذا أنا متُّ فاجعل الرقاع في أكفاني ألقىٰ بها محـمداً «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» يوم القيامة. ثم قال له: أعطِ كل واحد منهم ألف دينـار لنفقة طريقه. انصرفوا بارك الله فيكم[1].

إنما الدنيا أبو دلف؟

فقلت مسرعاً: وما ينفعني ذلك يا أمير المؤمنين مع قوله في

أبـا دلف يـا أكـذب النـاس كـلهم ... سـواي فـإني فـي مـديحك أكـذب

ومع قول بكر بن النطاح في:

أبـــا دلف إن الفـــقير بـــعينه ... لمـن يرتجي جـدوىٰ يـديك ويـاملُه

أرىٰ لك بـــابا مـــغلقاً مـــتمنعاً ... إذا فـتحوه عـنك فـالبؤس داخـلُه

قال: فلما انصرفت قال المأمون لمن حوله: لله دره حفظ هجاء نفسه حتىٰ انتفع به عندي وأطفأ لهيب المنافسة.

١ - نقلنا القصة باختصار عن المختـار من نوادر الأخـبار لشمس الدين محمد المقري / ٧٢ ـ ٧٣، وسلسلة أخبار العرب لحسن مغنية / مكـارم العـرب، ١ / ١٥٧ ـ ١٥٨، والعـقد المفصل لسيد حيدر الحسيني الحلي، ١ / ١٦١.

استفسار وإجابة

٤٥ ـ قال علي بن أَبي طالب: إبدأ بالعَطِيَّةِ مَن يَسأَلُك، وابذلْ مَعروفَك، وإيّاكَ أَن تَرُدَّ السائِل[١].

مِن أين يبدأ الإنسان بالعطيَّة من يسأله مع أن السائل هو الذي ابتدأ بالسؤال؟

ولكي نجيب علىٰ هٰذا السؤال فمن الضروري أن نستفيد من مطالعة الحكمة العلوية التالية: ابدأ السائلَ بالنوال قبل السؤال فإنك إن أحوجته إلىٰ سؤالك؛ أخذت من حر وجهه أفضل مما أعطيته[٢].

أي أن من تعلم بمشكلته المادية أو يغلب علىٰ ظنك احتياجه للمال وأنت تستطيع ولو بوجه من الوجوه أن تعينه وتنقذه من أزمته وما ابتلي فيه فبادره مبادرةَ الجوادِ المُفْضِلِ الكريمِ بتذليل مشكلته وقضاء حاجته، وسابقه في الحل العملي لها قبل أن تُطرَح المشكلة علىٰ البساط النظري؛ وليس ذلك إلا رِضاً لنفسك الكريمة بالمُبَادرة الشريفة السامية، وحفظاً لماء وجه السائل والمُمْتَحَن من الترشحِّ الخَجولِ أو الانهمارِ الحَيِيِّ الصَّعْب، ولكن من ذا الذي يقوم بذلك من الناس ويتسارع اليه ثم من ذا ومن ذا؟ إنه لا يقوم به إلا كُلُّ جَوادٍ قليلِ النظيرِ في المجتمع الطيب لا في كل مجتمع في الدنيا، وكُلُّ سميحِ اليَدَين كريمِ النفسِ مطبوعٍ جِداً علىٰ النوالِ والإحسانِ واسداءِ المعروفِ وتفقدِ المحتاج.

التفكيرُ الجدّيُّ بما يقولُهُ المنظِّرُ الالهيُّ الكبير

٤٦ – قال أميرُ المؤمنين علي (صلوات الله عليه): إنّكم الىٰ إنفاق ما كَسبتم، أَحوجُ منكم الىٰ اكتساب ماتجمعون[٣].

١– عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٢٠٤٠ وغُرر الحكم، الحكمة / ٨٥١٤.

٢– غرر الحكم / ٨٥٠٥.

٣ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٥٧٢.

يا ليت أَكثـر هؤلاء الذين يقودون الدول ويدَّعون أُبوَّة الشعوب والأمـم، يفكِّرون تفكيراً جدِّيّاً وعملياً بما يقوله الإمام الناصح الأمين علي بن أَبي طالب لهم وللأغنياء الباخلين، توصيةً بالإنفاق والعطاء وإرفاد المحاويج والبائسين، لا من أموالهم الخاصَّة (فإنَّ ذلك يتعذَّر عليهم ويـمتنع بـحقّهم) بـل مـن الأمـوال المشروعة لأولئك المحرومين والمغلوب علىٰ أمرهم، والمقرَّرة لهـم فـي مـوادِّ الشريعة المقدَّسة والقانون النظري.

ولو كَلَّفوا النفوس الشحيحة بالعمل في هٰذا المسـار النظيف الذي اختطَّته لهم حكمة الإمام ويراعة قلبه المخلص الحَنون لاستردَّت القـيادة مـعناها السـليـمَ والأَصيل، ولبارك الله سبحانه للأغنياء في أموالهم وأنفسهم وأهليهم، ولاستراح القادة والأغنياء ولو أَيّاماً معدوداتٍ من عناء الجمـع والضمّ الذي لا تحدُّه حدود، ولا تحيِّده موانع أو حواجز، إلا نكبات الأَيّام، أو أَسنَّـة الحِمام.

وفي العصر الحديث عصر التنوير الفكري والانبهار العلمي والتطور القانوني لا يزال الكثيرون من رؤساء الدول وقادة الحكومات الاسلامية والعلمانية علىٰ حَـدٍّ سواءٍ في تجميع الأموال الطائلة جداً من أموال شعوبهم المغلوبة علىٰ أمرها وادخارها في المصارف والمؤسسات المالية الرئيسية في العالم للانتفاع بها في المجالات الشخصية وشبه الشـخصية عـلىٰ حسـاب جـماهير الفـقر والبـؤس والحرمان، وهي تزداد ازدياداً فاحشاً وترفد بأموال أخرىٰ عـلىٰ مـرِّ اللـيالي والأيام؛ فإذا ما كانت للرؤساء والقادة فرص مؤاتية للسرقات الكبرىٰ وانتهاب الأموال العامة فلماذا لا تزداد وتتضاعف مضاعفات كثيرة؟ وما دامت لا تُسترجع الىٰ أصحابها الشرعيين ولا يُنفق منها علىٰ الموارد الخـيرة والشـؤون الحـميدة فلماذا لا ترتفعُ وتطفَحُ وتَعْلو حتىٰ تُغْرِقَ المَخازنَ والمُسْتَوْدَعات؟ وهٰكذا إلىٰ أَن يأذنَ اللهُ سُبْحانَهُ بالقضاءِ علىٰ أَصحابِها اللاشَرعيين ويَمحقَ كَراسِيَّ حُكْـمِهِم أو يكتبَ الفناءَ عليهم، فإذا هُم يُدْرَجُون فِي أَكـفانِهِم ويُسْـتَوْدَعون مُـرغمينَ فـي مُسْتَودعاتِ وَحْشَةِ اللُّحُـود، وظُلْمَةِ القُبور، وشَقاءِ المُسْتَقَرِّ، وسُوءِ المُقام، وضَنْكِ المَضْـجَع، وتَعاسَةِ المُنْقَلَب، وانْحِطاطِ المَصـير.

«وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّـهْلُكَةِ وَأَحْسِـنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّـهَ

يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ»[١].

إشكال وحلّ

٤٧ – قال أميرُ المؤمنين علي (سلام الله عليه): إنَّما سادةُ أَهلِ الدنيا والآخرةِ الأَجواد[٢].

قد يتصوّر كثير من المتسرّعين في اصدار الأحكام بوجود التعارض مابين هٰذا الحديث والحديث الآتي: «سادةالناس في الدنيا الأسخياء، وفي الأخرة الأتقياء» باعتبار أنّ ذيل هٰذا يؤكّد علىٰ سيادة المتقين في الآخرة، وحديث الأجواد يؤكد علىٰ سيادة الأجواد في الدار الآخرة.

والجواب إنَّ الناس «أعمُّ من المتقين وغير المتقين» إذا مااختُلف في تعيين الأولىٰ منهم بالسيادة في الحياة الدنيا، تعيّن حسب حكم الإمام علي (عليه السلام) ـ وحكمه العدل والسداد ـ الأسخياء أو الأجواد للسيادة، وانّ المتقين في الآخرة إذا مااختُلف في تعيين الأَولىٰ منهم في السيادة، تعيّن الأجواد دون سواهم، وحتىٰ لو قلنا إنّ المتقين كلّهم من يجودون بأموالهم، فالسيادة فيهم للمتميّزين منهم في الجود.

أو أنَّ المراد من أهل الآخرة في الحديث الناس جميعاً من أهل الجنّة وغيرهم، وسادة هؤلاء هم المتقون دون سواهم والمتّقون أجواد؛ إذ لا يدخل الجنَّة بخيل كما تظافرت الأحايث والروايات بذلك، وحتىٰ الفقراء والمساكين منهم الذين لا يُعَدّون في الدنيا من الأجواد أو الأسخياء، فإنّهم أجواد أو أسخياء عند الله تعالىٰ إذ أنّ عالم السرّ وأخفىٰ يجازيهم بنواياهم السخيّة المعطاء، وقد عرفنا جيّداً أنّ «نيّة المؤمن خيرٌ من عمله» أي أنّهم لو تمكّنوا من الأموال لأَنفقوا وتبرّعوا كما ينفق ويتبرّع أولو البرّ والخير والإحسان. ولقد جاء في الرواية الصحيحة السند عن أبي عبد الله جعفر الصادق (عليه السلام): إنّ العبد

---

١ – البقرة، الآية / ١٩٥.

٢– غُرر الحكم، الحكمة /٨٥٤٦.

المؤمن الفقير ليقول: ياربّ ارزقني حتىٰ أفعل كذا وكذا من البرّ ووجوه الخـير، فاذا علم الله ذلك منه بصـدق نِيَّةٍ كتب الله له من الأجر مثـل ما يكتب له لو عمله.

مما يؤكد صحة مضمون الحديث العلوي الجليل (إنّما سـادة أهـل الدنـيا والآخرة الأَجواد) ويدعم محتواه الثرّ الغني: ما يرويه عبد الله بن عباس (رض) عن رسول الله «ص» قيل: يا رسول الله من السيِّد؟ قال: يوسف بن يعقوب بن إسحـاق بن إبراهيم. قالوا: فما في أُمتك سيِّـد؟ قال: بلىٰ، رجل أُعـطي مـالاً، ورُزِق سماحةً، وأدنىٰ الفقير، وقلَّت شكايته في الناس[1].

سؤالٌ وجواب

٤٨ – قال أميرُ المؤمنين (سلام الله عليه): ألا لا يعدلنَّ أحدكم عن القرابـة يرىٰ به الخَصاصَة، أن يسـدَّها بالذي لا يزيده إن أمسكه، ولا ينقصه ان أنفقه[2].

قد يقـال: إنّ المال يزيد مع الإمساك شيئاً فشيئاً وينقص مع الانفاق، وهذه مسألة متعارفة بين الناس، وهي ممـا لا يتَّفق مع كلام أمير الحكماء؟

والجـواب: إمّا أن يريد الإمام أن يعطي الإنسان قرابته ولو شيئاً قليلاً، إن لم يعط كثيراً فإن (القليل خيرٌ من الحرمان) فيكون تقدير الكلام: بالذي لا يزيده الإنفاق زيادةً مذكورةً أو ملحوظةً لو أنفق المال، كما أنّه لا ينقصه نقصاً مذكوراً أو ملحوظاً إن أمسكه.

وإمّا أن مراد الإمام غير متعلِّقٍ بكثرة إنفاق المال أو قـلته، وإنـما المـراد متعلق بالحثّ علىٰ الإنفاق والبذل علىٰ القرابه وعـدم الامسـاك عـنهم والبـخل عليهم، وان الله تعالىٰ هو الذي يبارك ويـعوِّض عـمّا أكـرم الكـرماء وأحـسـن المحسنون. كما انَّ له (عليه السـلام) في ذلك قولاً بديعاً في هٰذا المعنىٰ كذلك: إن

---

١ – عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب ٣ / ٣٦٥.

٢ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٥ / ٦٥، وعيـون الحكم والمواعـظ، الحكـمة / ٢٣٩١، وبحـار الأنوار ٧١ / ١٠٤.

تبذلوا أموالكم في جنب الله فإنَّ الله مسرع الخَلَف.

وكأن المثل الصيني جاء ليؤكِّد صحة هذا المعنىٰ: كَما يعودُ النهرُ الىٰ البحر، كذلك يعودُ العطاءُ الىٰ صاحبه.

وفي إطار هٰذا المقياس الروحي السليم نعرف أنه لا يسبب الإنفاق والبذل نقصاً في المال، كما لا يسبب الامساكُ زيادةً فيه.

وكأن الشاعر إبْراهيم بن هرمة القرشي وهو من أعلام مخضرمي شعراء الدولة الأموية والعباسية (ت ١٥٠ هـ) قد نظر الىٰ المعنىٰ الأول، أو الىٰ أَحد المعنيين قائلاً[1]:

إن سُلَيمىٰ واللهُ يكلؤُها ضَنَّت بشيءٍ ما كان يزرؤها

أشجع الناس أسخاهم

٤٩ - قال علي (صلوات الله عليه): أَشجَعُ الناسِ أَسخاهُم[2].

هل أَن من برهن عملياً وعلىٰ أرض الواقع أنه أشجع الناس في ساحَات المعارك وفي مختلف الأمور التي تتطلب الاقدام وتكون النفس فيها علىٰ ـعَمدٍ وقَصدٍ ـ في معرض الخطر والهلاك والابادة، هو أسخىٰ الناس. أي أن أَشجع الناس هو في نفس الوقت أسخىٰ الناس وأقدمهم علىٰ البذل والعطاء؟

أو أن من برهن عملياً وعلىٰ أَرض الواقع أنه أَسْخىٰ الناس في عطائه وبذله الأَموال وترحيبه بالضيوف فهو أشجع الناس، بمعنىٰ أن من كانت هذه حالته وصفته فهو أَوْلىٰ وأَخْلقُ أن يوصف بالأشجع وبالأشد بطولةً وأعظم إقداماً من ذلك الذي يخوض الحروب ويقدِّم نفسه علىٰ راحتيه في ساحات المعارك؟

---

١ ـ ضنت بمعنىٰ بخلت، ويزرؤها بمعنىٰ ينقصها.

٢- عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٢٦١٧.

كِلا التأويلين وارد ومنطقي، وليختر القارىء منهما ما يشاء، وليس ثم شك بوجود ارتباط وثيق ما بين الشجاعة والسخاء؛ فإن كلاً منهما اقتحامٌ واندفاعٌ حُـرٌّ جريءٌ وعدمُ تمعنٍ شديدٍ في العواقب. ولا زلت أتذكر من كلماتي القديمة ما يعضد هٰذا التفكير ويعزِّزه وذلك مثل قولي: ظنّوا الشجاعةَ بالجوادِ والجودَ بالشجاع؛ فإنَّ أشعتهما من شمس واحدة.

مَن حسن عيشه الناس في عيشه

٥٠ - قال أميرُ المؤمنين علي (سلام الله عليه): أَحسنُ الملوكِ حالاً مَنْ حسنَ عيشُ الناسِ في عيشِه[1].

ينقسم الرؤساء والملوك من حيث الموقف الأساسي والمستقر - ولو شبه استقرار - من الجماهير الىٰ الأقسام التالية:

١ - الرؤساء والملوك الذين يزهدون بالحياة ولا يرغبون أن يتنعموا ويرغدوا بأموال الدولة وممتلكات الأمة، كما ليس من شأنهم استغلال مواقعهم القيادية للصالح الشخصي. إلا أنهم في نفس الوقت يرغبون أن تتنعم الجماهير بما يتيحون لها من فرص ذهبية للاستثمارات المادية، والانتفاع بشتىٰ إمكانيات الدولة، ضمن المشروع والمعقول، بل يفتحون الأبواب الواسعة من أجل ذلك الاستثمار الكبير والانتفاع المديد.

٢ - الرؤساء والملوك الذين يقبلون علىٰ الدنيا ويستغلون امكانيات الدولة وأموالها للمصالح الخاصة والذاتيات الطامعة والانغماس في الملذات والترف المعيشي، إلا أن آفاقهم النفسية غير ضيقة فهم يحبون أن يتنعم الآخرون كذلك، ويتلذَّذون بإمكانيات الدولة المتاحة لهم، ويطيب عيشهم وتتحسن حالتهم، ولو بنسبة أقل بكثير مما هم عليه من الرغد والترف والانغماس الهائل في الطيبات.

٣ - الرؤساء والملوك الذين لا ينفعون الناس بإمكانيات الدولة ولا هم

١- عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٢٧٩٦.

ينتفعون؛ فقد منعهم بخلهم وحرصهم من استغلالها الوسيع لمصالحهم الذاتية، كما صدهم لؤمهم وعدم حبهم للناس عن فسح مجالات الاستثمارات الرحيبة والاستفادة الكثيرة المشروعة وغير المشروعة من الأموال. فلا هم يلتذون ولا هم يسمحون لغيرهم بالالتذاذ، ولعل ملذتهم من الملك والتسلط تتمثل في أن يروا الأَموالَ الطائلةَ كيف تَتَكَدَّس وتَتَراكم، ومركزَهُم القيادي كيف يستحكم ويستقر وتطول أيامه. ولا أريد أن أُعلق كثيراً علىٰ الموضوع ولكن هيهات أَن أدعه وشأنه حتىٰ أُعلق عليه بما يصدح به قلبي وهو مشبوب، ويهتف به لساني وهو يصعق:

هل رأيتم الأقفالَ الكبيرةَ التي لم تُصنَع لها مفاتيح؟ إنها الرؤساءُ والملوكُ الذين لا ينفعونَ الناسَ ولا ينتفعون.

كفُّ الأذىٰ وبذل الإِحْسان

٥١ – قال إمام الأئمة علي (عليه السلام): أفضل الشرف كفُّ الأذىٰ، وبذل الإحسان[1].

يمكن تقسيم الجنس البشري من حيث كف الأذىٰ وبذل الإِحْسان الىٰ الأقسام الرئيسية التالية:

١ ـ مَن شأنهم وطبيعتهم المألوفة ـ بصورة عامة ـ كفُّ الأذىٰ وبذل الإحسان.

٢ ـ من شأنهم وطبيعتهم المألوفة ـ بصورة عامة ـ كفُّ الأذىٰ دون بذل الإحسان.

٣ ـ من شأنهم وطبيعتهم المألوفة ـ بصورة عامة ـ بذل الإِحْسان دون كف الأذىٰ.

٤ ـ من شأنهم وطبيعتهم ـ بصورة عامة ـ عدم كف الأذىٰ وعدم بذل

---

١ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٢٨١٧.

الإحْسان والنفع للآخرين.

ولكن ضمن أي الأقسام المذكورة تقع الغالبية من البشرية؟ نحسب أن الغالبية من البشرية في شتىٰ العصور والأحقاب لا تتجاوز أن تقع ضمن الأقسام الثلاثة الأخيرة، وأما الأقلية فهم الذين يقفون علىٰ قمة الهرم من هٰذا التقسيم وهو القسم الأول.

وأين تقع منزلة القائل لهذه الحكمة علي بن أَبي طالب (سَلامُ اللهِ عَلَيه) وأين تقع منزلة آبائه وأجداده كابراً بعد كابر؟

من يتفحص سِجِلَّ التأَريخِ ويسبر أَغوارَ الروايات والأخبار يعلم جيداً أنهم يقعون في قمة الهرم المثالي من القسم الأَول، من الإمام علي بن أَبي طالب إلىٰ أبي طالب إلىٰ عبد المطلب الىٰ هاشم الىٰ عبد مناف الىٰ قصي الىٰ حكيم الذي قيل فيه بحق ما ينطبق انطباقاً كلياً مع مادة الحكمة التي نحن بصددها:

حكـــيمُ بـــن مـــرَّة ســـاد الورىٰ ... بـــبذل النـــوال وكـــفِّ الأذىٰ[1]

فإذا ما كان (أفضَـلُ الشرف كفُّ الأذىٰ وبذل الإحسان) فقد حازت هذه السلسة الذهبية الغراء من سادات البشر أكرم المنازل السامقة وأسنىٰ المواقع المضيئة وأفضل الشرف المائز.

الحافز الروحيّ للعمليّات السلوكيَّة

٥٢ – قال أمير المؤمنين علي (سلام الله عليه): إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك الىٰ يوم القيامة فيوافيك به غـداً حيث تحتاج إليه، فاغتنمه وحمِّله إيّاه، وأكثر من تزويده وأنت قـادر عليه، فلعلَّك أن تطلـبه فلا تجده[2].

---

١ ـ حكيمُ بن مرَّة: الجد الأعلىٰ لرسول الله «صلىٰ الله عـليه وآله وسـلم» وكـان مـولعاً بكلاب الصيد حتىٰ سمي كلاباً وغلبت هذه التسمية عليه.

٢ – عيون الحـكم والمواعظ، الحكمة / ٣١١٦، وابن أبي الحديـد، شرح نهج البلاغة ١٦ / ٨٦.

قال ابن أَبي الحديد في شرحه لما يقوله الإمام علي: أمره في هذا الفصل بإنفاق المال والصدقة والمعروف فقال: إن بين يديك طريقاً بعيد المسافة شديد المشقة، ومن سلك طريقاً فلا غنىٰ له عن أن يرتاد لنفسه ويتزود من الزاد قدر ما يبلغه الغاية، وأن يكون خفيف الظهر في سفره ذلك؛ فإياك أن تحمل من المال ما يثقلك ويكون وبالاً عليك، وإذا وجدت من الفقراء والمساكين من يحمل ذلك الثقل عنك فيوافيك به غداً وقت الحاجة فحمله إياه فلعلك تطلب مالك فلا تجده.

جاء في الحديث المرفوع: خمس من أتىٰ الله بهن أو بواحدة منهن أوجب له الجنة: من سقىٰ هامة صادية أو أطعم كبداً هافية أو كسا جلدة عارية أو حمل قدماً حافية أو أعتق رقبة عانية.

قيل لحاتم الأصم: لو قرأت لنا شيئاً من القرآن. قال: نعم. فاندفع فقرأ: «الم ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ ومِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ يكنزون. فقالوا: أيها الشيخ ما هكذا أنزل! قال: صدقتم ولكن هكذا أنتم[1].

قبل الشرح والتعليق علىٰ مقولة الإمام (عليه السلام) ينبغي لنا التثبُّت والتبيّن من صحة ما يقوله ابن أَبي الحديد في قوله: إذا وجدت من الفقراء والمساكين من يحمل ذلك الثقل عنك فيوافيك به غداً وقت الحاجة فحمله إياه فلعلك تطلب مالك فلا تجده. فإنه يظهر بقوَّة بل لا ريب عندنا أن الضمير في قول الإمام فلعلَّك أن تطلبه فلا تجده. إنما يعود الىٰ ما مرَّ في أول الكلام (إذا وجدت من أهل الفاقة) أي ليس المال، وإنما من يحمل المال فتأمَّل.

الذي يكثر من التصفّح والامعان في المنهجيَّة الأخلاقيَّة عند الإمام علي بن أبي طالب سوف تبرز أمامه معالم متعددة وواضحة فيما يخصُّ الارتباط القويَّ المتين ما بين المضامين السلوكيَّة من جهة، والأفكار الأخلاقيَّة التي يطرحها من جهة أخرىٰ، وما بين الدعوة الحثيثة للإنشداد بعالم الآخرة والتزلّف الىٰ الله تبارك وتعالىٰ من جهة ثالثة. أي أنَّ الإمام يعمد الىٰ جعل الحافز الروحيّ والايمان

---

١ - شرح نهج البلاغة، ١٦ / ٨٦.

الصادق بالغيب المرمىٰ الغائيَّ الأسمىٰ والأفضل من العمليّات السلوكيَّة والأخلاقيَّة؛ من أجل الحصول علىٰ أروع النتائج وأتقنها في الدارين معاً.

أما في الدنيا فإنَّه لا يحرِّض الإنسان شيء ويدفعه نحو التنجيزات الأخلاقيَّة مثل معرفته وإيمانه بأنَّها ستكسبه المستقبل الطيِّب والعيش الكريم يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا مَنْ أَتىٰ اللهَ بقلبٍ سليم، فيما إذا كان من المؤمنين بالله تعالىٰ حقيقة الايمان.

وأمّا في الدار الآخرة فما أبين ذلك وأوضح طريقته في كثير من الآيات القرآنيَّة، وفي سيل عارم من الأحاديث الشريفة لدىٰ الرسول الأعظم وأئمَّة أهل البيت النبوي (سلام الله عليهم).

وأضاف أبو ذر الغفاري ضيفاً فقال للضيف: إني مشغول وإن لي إبلاً فاخرج وأتني بخيرها. فذهب فجاء بناقة مهزولة فقال له أبو ذر: خنتني بهذه. فقال. وجدت خير الإبل فحلَها، فذكرت يوم حاجتكم إليه. فقال أبو ذر: إن يوم حاجتي إليه ليوم أُوضع في حفرتي مع أن الله يقول: «لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ»[1]. وقال أبو ذر: في المال ثلاثة شركاء: القَدَر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلك أو موت والوارث ينتظرك أن تضع رأسك ثم يساقها وأنت ذميم وأنت الثالث فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن إن الله يقول: «لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ». وإن هذا الجمل كان مما أحب من مالي؛ فأحببت أن أقدمه لنفسي[2].

والجود والإحْسان من مفردات المنهج العلويِّ الأصيل، فما أغزرَ الأحاديثَ والحكمَ التي نشرها في الآفاق، والتي تتجسَّد فيها الحركيَّة الروحيَّة والإيمانيَّة التي تبعث الصلحاءَ والفضلاءَ ومُسْتَوي النفسية بعثاً شديداً الىٰ الخيريَّة

---

١ - قال تبارك وتعالىٰ: لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ». آل عمران، الآية / ٩٢.

٢ - الطبرسي، مجمع البيان / في تفسير قوله تبارك وتعالىٰ «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تحِبُّونَ ...».

والبرّ والإحسان، والتي منها الحكمة الأخيرة المارة علينا، والتي منها أيضاً عدد كبير من أحاديثه وكلماته السالفة، والتي ستأتي كذلك، آملين من القرآء الكرام أن يدققوا فيها ويكثروا من مطالعتها واستلهامها من أجل مزيد من العلم والعمل.

« قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ ٱتَّبَعَنِي وَ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَ مَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »[1].

آفة الغنىٰ البخل

٥٣ ـ قال أَميـرُ المؤْمنين (سلامُ اللهِ عليه): آفَةُ الغِنىٰ البُخل[2].

كما أَن آفةَ الجـودِ الفقرُ كما سيأتي لاحقاً، فإن آفةَ الغِنىٰ البُـخل أو الفـقر أيضاً، مِن جهة أن البخيل يعيش فقر النفس وهو أَشـدُّ من فقر المـال. والفـارق الجَوهري ما بين الآفتين أن الآفة الأولىٰ غالباً ما تأتي بصورة قاهرة قـاسرة لا حيلة للإنسان فيها ولا حول ولا قوة علىٰ دفعها حـتىٰ دفـعاً مـؤقتاً فـي بـعض الحالات الخانقة.

ولهذا فإن الإنسان يُحاسب ويُعاتب علىٰ آفة البخل لأَنها في جانب عريض منها من تقصيره وسوء عمله، ولا يُحاسب أو يُعاتب علىٰ آفة الفقر ما دام الفـقر خارجاً عن حريـــة الارادة وانسيابية الاختيار.

وسواء كانت هذه الآفة أو تلك عن اختيارٍ أو غير اختيارٍ فإنهما علىٰ كـل حال مضرتان بالمجتمع ضرراً كبيراً ومنهكتان للقوىٰ انهاكاً شديداً وصـادعتان لجدار العِـزَّة والمنعة؛ فلذا يجدر القضاء عليهما بمختلف الوسائل المشـروعة أو علىٰ الحَـدِّ الأَدنىٰ القيامُ بالسعي الجادِّ للتخفيف من حِدَّتهما وآثارِهما الخطيرةِ والمدمرة.

---

١ ـ يوسف، الآية / ١٠٨.

٢ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٣٧١٠.

بقي علينا أن نلمَّ بمعرفة تحديد معنىٰ الآفة في قول الإمام (آفَةُ الغِنىٰ البُخل) هل هي آفة معنوية من حيث تأثيرها السلبي علىٰ شخصية الغني البخيل بالمنطار الإلهي أو الأخلاقي أو الاجتماعي، أو هي آفة مادية من حيث أن البخل يـضرُّ بالغني البخيل اقتصادياً إذ قد يمحق الله عزَّ وَجَلَّ الرزق الذي يصبُّه عليه ويقلل من مستوىٰ بركة الأَموال، أو أن البخل آفة معنوية ومادية معاً؟

إن كل هذه الاحتمالات واردة في المقام ولسنا نستطيع نفي أَي واحد منها نفياً قاطعاً، بيد أنا نستظهر أن الآفة المادية هي المراد من حكمة الإمام (سلام الله عليه) والتي تُحَرِّكُ بدورها الفعال أوتار أَفئـدة الأغنياء علىٰ اجتنابها والابتعاد عن مخاطرها الجسيمة، وأما الآفة المعنوية فهي من الوضوح بمكانٍ ساطعٍ فـلا تحتاج الىٰ التنبيه والتأكيد بمقدار حاجة الأُولىٰ الىٰ ذلك.

«لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَـإِنَّ ٱللَّـهَ بِـهِ عَلِيمٌ»[1].

الغنىٰ بنفسه غير ممدوح حتىٰ يستتبعه النائل

٥٤ ـ يروىٰ عن أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): آفَةُ الجودِ الفقر[2].

الغنىٰ بنفسه غير ممدوح حتىٰ يستتبعه النائل والجـــود وأداء الحـقوق الىٰ أصحابها والابتعاد عن مسألة الناس، وأَما بالنسبة الىٰ الفـقر فـمن المسـتحسن والمستحب أن يتعوذ الإنسان المؤمن بالله تبارك وتعالىٰ منه[3]. وقد ذكروا الغنىٰ

---

١ ـ آل عمـران، الآيـة / ٩٢.

٢ ـ عيـون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٣٧١٤.

٣ ـ في شرح نهج البلاغة ج : ١٩ ص : ٢٢٧ / ٣٢٥ وَقَالَ (عليه السـلام) لابنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ؛ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْهُ؛ فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدِّينِ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ، ويذكر أنه: كان الإمام الحسن بن علي (عليه السـلام) يدعو فيقول: اللهمَّ وسِّعْ عـليَّ فـإنه لا

ايجابيات كثيرة وسلبيات متعددة كما ذكروا للفقر كذلك[1]. ولكن بصورة عامة أيهما أفضل الغنىٰ أم الفقر؟

ننقل في بداية الجواب ما يقوله بعض العلماء الأخلاقيين، ثم ندلي بما عندنا من التأييد أو التفنيد أو الموافقة علىٰ بعض الكلام دون بعض: اعلم وفقك الله أن الناس قد اختلفوا في تفضيل الغني الشاكر علىٰ الفقير الصابر، ونحن نبين فضل الفقير علىٰ الغني ونذكر فصلا ذكره بعض المتكلمين رداً علىٰ بعض العلماء الأغنياء: حيث احتج بأغنياء الصحابة وشبه نفسه بهم وقد ذكر من ذلك أن عيسىٰ (عليه السلام) قال: يا علماء السوء تأمرون الناس يصومون ويصلون ويتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون وتدرسون ما لا تعلمون. فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوىٰ وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة، وبحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقىٰ فيه النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقىٰ الغل في

يسعني إلا الكثير.

١ ـ ولقد قلنا هذه الأبيات المتواضعة التي تعبر بشكل عام عن أضرار الفقر وعن الأخطار الدينية والدنيوية الناجمة عنه:

ومَنْ لا يعدّ الفقر سقماً وآفةً
فآفته التضليل في ساحة الفكرِ
وهل كسلاح الفقر ينسف حدُّه
معاقلَ آمال الشعوب ويستثري
ألم ترَ أن الفقر دِيفَ بذلةٍ
وقهرٍ وضنكُ العيش في الذل والقهرِ
وكم من فقير ساقه الفقر للهوىٰ
وللغيِّ واستحلىٰ الضلال علىٰ الفقرِ
فيا ليت أن الفقر جسماً مصوَّراً
فأطعنه النجلاءَ في ثغرة النحرِ
طِلاباً لثأر الناس شرقاً ومغرباً
وقد تَسردُّ الحقَّ معركةُ الثأرِ

صـدوركم.

يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته: بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم جعلتم الدنـيا تـحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم.

بحق أقـول لكم: لقد أفسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة فأي الناس أخسر منكم لو تعلمون. ويلكم حتىٰ مـتىٰ تـصفون الطـريق للمدلجين وتقيمون في محل المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليلوكوها لكـم مهلا مهلا.

ويلكم ما ذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظـهره وجـوفه وحش مظلم كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكـم مـنه وحشية معطلة.

يا عبيد الدنيا لاكعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام، يوشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم علىٰ وجوهكم ثم تكبكم علىٰ مناخركم ثم تأخذ خـطاياكـم بنواصيكم ثم يدفعكم المعلم من خلفكم حتىٰ يسلمكم إلىٰ الملك الديـان عـراة فرادىٰ؛ فيوقفكم علىٰ سوءاتكم ثم يجزيكم بسوء أعمـالكم.

وبعـد: فإني رأيت الهالك المؤثر للدنيا فسروره ممزوج بالتنغيص فـيتفجر عنه أنواع الهموم وفنون المعاصي وإلىٰ التلف والبوار مصيره، فرح الهالك برجائه فلم تبق له دنياه ولم يبق له دينه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. فيا لها من مصيبة ما أفظعها ورزية ما أجلها. ألا فراقبوا اللـه ولا يـغرنكم الشـيطان وأولياؤه من الإنس بالحجج الداحضة عند الله، فإنما يتكالبون علىٰ الدنـيا ثـم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج يزعمون أن أصحاب رسول الله «صلىٰ اللـه عليه وآله وسلم» كانت لهم أموال فيتزين المغرور بذكرهم؛ ليعذره الناس عـلىٰ جمع المال، ولقد دهاه الشيطان ولا يشعر. ويحك أيها المغرور، احتجاجك بمال عبد الرَّحْمٰن بن عوف مكيدة من الشيطان، ومن الذي يسـلِّم لك أن مـال عـبد الرحمٰن كان صالحاً مشكـوراً عليه. بلغني أنه لما توفي عبد الرَّحْمٰن بن عوف قال

أناس من أصحاب رسول الله «ص»: إنا لنخاف علىٰ عبد الرَّحْمٰن فيما تركه. فقال كعب: وما تخافون عليه؟ كسب طيباً، وأنفق طيباً، وترك طيباً. فبلغ ذلك أبا ذر رحمه الله، فخرج مغضباً يريد كعباً، فمر بلحيي عظم بعير فأخذه بيده، ثم انطلق يطلب كعباً، فقيل لكعب: إن أبا ذر يطلبك. فخرج هارباً حتىٰ دخل علىٰ عثمان يستغيث به وأخبره الخبر. فأقبل أبو ذر يقتص الأثر في طلب كعب، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ دار عثمان فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان، هارباً من أبي ذر (رضي الله عنه). فقال أبو ذر: هيه يا ابن اليهودية، تزعم أنه لا بأس بما ترك عبد الرحمٰن! لقد خرج رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» نحو أحد وأنا معه فقال: يا أبا ذر. فقلت: لبيك يا رسول الله. فقال: الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهٰكذا عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه، وقليل ما هم. ثم قال: يا أبا ذر. فقلت: نعم يا رسول الله صلىٰ الله عليك وسلم، بأبي أنت وأمي. قال: وما سرني أن يكون لي مثل أحد أنفقه في سبيل الله، ثم أموت يوم أموت ولا أترك منه قيراطين. ثم قال: يا أبا ذر أنت تريد الأكثر، وأنا أريد الأقل. فرسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» يريد هذا، وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرَّحْمٰن بن عوف! كذبت وكذب من قال. فلم يرد عليه حرفا حتىٰ خرج.

ومتىٰ زعمت أن أخذ المال الحلال أفضل وأعلىٰ من تركه، فقد أزريت بمحمد «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» والمرسلين، ونسبتهم إلىٰ قلة الرغبة في الزهد، ومتىٰ زعمت أن جمع المال الحلال أعلىٰ من تركه، فقد زعمت أن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» لم ينصح الأمة إذ نهاهم عن جمع المال. كذبت ورب السماء علىٰ رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» لقد كان للأمة ناصحاً، وعليهم مشفقاً، وبهم رؤوفا.

وقيل: إن جماعة من أصحاب النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» كانوا في الرخاء شاكرين وفي الضراء صابرين وفي السراء حامدين، وكانوا لله متواضعين وعن حب العلو والتكاثر ورعين، لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم ورضوا بالبلغة منها ورجوا الدنيا وصبروا علىٰ مكارهها وتجرعوا مرائرها وزهدوا في نعيمها

وزهرتها. وقد بلغنا أنه كان بعضهم إذا أقبلت الدنيا عليهم حـزنوا وقـالوا: ذنب عجلت عقوبته. وإذا رأوا الفقر مقبلاً فرحوا وقالوا: مـرحـباً بشـعار الصـالحين. وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعنـد عياله شيء، أصبح كئيباً حزيناً، وإذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحـاً مسرورا، فقيل له: إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا، وإذا كان عندهم شيء فرحوا، وأنت لسـت كذلك؟

قال: إني إذا أصبحت وعند عيالي شيء، اغتممت إذ لم يكن لي بآل محمد «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أسوة. وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخـاء حزنوا وأشفقوا وقالوا: ما لنا وللدنيا وما يراد بها. فكأنهم علىٰ جناح خوف، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا: الآن تعاهدنا ربنا. فهذه أحـوال السلف ونعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفناه، فبالله أكذلك أنت؟ وسأصف أَحوالك أيُّها المفتون، وذلك أنك تطغىٰ عند الغنىٰ، وتبطر في الرخـاء، وتـمرح عند السراء، وتغفل عند شكر ذي النعماء، وتقنط عند الضراء، وتسخط عند البلاء، نعم وتبغض الفقر وتأنف من المسكنة وذلك فـخر المـرسلين، وأنت تـأنف مـن فخرهم وتذخر المال وتجمعه خوفاً من الفقر، وذلك من سوء الظن بالله تـعالىٰ وقلة اليقين بضمانه، وكفىٰ به إثما، وعساك أن تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها.

وبلغنا أن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال: شرار أمتي الذيـن غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم. وقال بعض أهل الحكمة: ليجيئن يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وأنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيا لها حسرة ومصيبة. نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخـر والزينـة في الدنيا. وقد بلغنا أن من طلب الدنيا ليكاثر بها أو ليفاخر بها لقي الله تعالىٰ وهو عليه غضبان، وأنت غير مكترث لما حل بك من غضب الله حين أردت التكاثر والعلو. نعم وعساك المكث في الدنيا، أحب إليك من النقلة إلى جوار الله تعالىٰ وأنت تكره لقاء الله تعالىٰ، والله للقائك أكره، وأنت في غفلة وعساك أن تأسف علىٰ ما فـاتك مـن عرض الدنيا.

وقد بلغنا أن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال: من أسف علىٰ

دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة شهر، وأنت تأسف علىٰ ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله، نعم ولعلك تخرج من دينك أحيانا لتوفير دنياك وتفرح بإقبال الدنيا عليك، وترتاح لذلك سرورا، وقد بلغنا أن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قال: من أحب دنياه وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه. وعساك مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك، نعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب وعساك ترضي المخلوقين بمساخط الله كيما تكرم وتعظم. ويحك فكأن احتقار الله لك في القيامة أهون من احتقار الناس إياك وعساك تخفي من المخلوقين مساويك ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها وكان الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس، وكان العبد عندك أعلىٰ قدرا من الله.

قيل: صحب رجل عيسىٰ ابن مريم (عليه السلام) فقال: أكون معك وأصحبك فانطلقا فانتهيا إلىٰ شط نهر فجلسا يتغذيان ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين وبقي رغيف فقام عيسىٰ (عليه السلام) إلىٰ النهر فشرب ماءً ثم رجع فلم يجد الرغيف فقال للرجل: مَن أخذ الرغيف؟

قال: لا أدري.

قال: فانطلق ومعه صاحبه فرأىٰ ظبية معها خشفان لها فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فأشوىٰ منه فأكل هو وذلك الرجل ثم قال للخشف: قم بإذن الله. فقام فذهب فقال للرجل: أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟

قال: لا أدري ثم انتهيا إلىٰ وادي ماء؛ فأخذ عيسىٰ (عليه السلام) بيد الرجل فمشيا على الماء، فلما جاوزاه قال: أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟

قال: لا أدري. قال: فانتهيا إلىٰ مفازة فجلسا فجمع عيسىٰ (ص) تراباً أو كثيباً فقال: كن ذهباً بإذن الله، فصار ذهباً فقسمه ثلاثة أثلاث فقال: ثلث لي وثلث لك وثلث لمن أخذ الرغيف.

قال: فأنا أخذت الرغيف.

فقال: فكله لك.

قال: وفارقه عيسىٰ (عليه السلام) فانتهىٰ إليه رجلان في المفازة ومعه المال فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه فقال: هو بيننا أثلاث.

قال: فابعثوا أحدكم إلىٰ القرية حتىٰ يشتري طعاما: فبعثوا أحدهم فقال الذي بعث: لأي شيء أقاسم هؤلاء هٰذا المال، لكني أصنع في هٰذا الطعام سما فأقتلهما ففعل.

وقال أولئك: لأي شيء نجعل لهذا ثلث المال ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا.

قال: فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا، فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة قتلىٰ عنده. فمر بهم عيسىٰ (عليه السلام) وهم علىٰ تلك الحال فقال لأصحابه: هذه الدنيا فاحذروها.

وحكي أن ذا القرنين أتىٰ علىٰ أمة من الأمم ليس في أيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبورا فإذا أصبحوا تعهدوا لتلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعىٰ البهائم. وقد قيض الله لهم معاشا من نبات الأرض فأرسل ذو القرنين إلىٰ ملكهم فقال لهم: أجب الملك ذا القرنين.

فقال: ما لي إليه حاجة. فأقبل إليه ذو القرنين وقال: أرسلت لتأتيني فها أنا ذا قد أتيتك!

فقال له: لو كانت لي إليك حاجة لأتيتك.

فقال له ذو القرنين: ما لي أراكم علىٰ الحال التي لم أر أحدا من الأمم عليها؟

قالوا: وما ذلك؟

قال: ليس لكم دنيا ولا شيء أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بها؟

قالوا: إنما كرهناها لأن أحدا لم يعط منها شيئا إلا تاقت نفسه ودعته إلىٰ ما هو أفضل منه.

فقال: ما لكم قد احتفرتم قبورا فإذا أصبحتم تعهدتموها فكنستموها وصليتم عندها؟

قالوا: أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الأمل.

قال: وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها واستمتعتم بها؟

فقالوا: كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها، ورأينا في نبات الأرض بلاغا وإنما يكفي ابن آدم أدنىٰ العيش من الطعام إن ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعما كائنا ما كان من الطعام. ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة فقال: يا ذا القرنين أتدري من هذا؟

قال: لا ومن هو؟

قال: ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطاناً علىٰ أهل الأرض فغشم وظلم وعتا، فلما رأىٰ الله عز وجل ذلك منه حسمه بالموت فصار كالحجر الملقىٰ، قد أحصىٰ الله عليه عمله حتىٰ يجزيه به في آخرته. ثم تناول جمجمة أخرىٰ بالية فقال: يا ذا القرنين هل تدري من هذا؟ قال: لا ومن هذا؟

قال: ملك ملك بعد هٰذا وقد كان يرىٰ ما صنع الذي قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر؛ فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر بالعدل في أهل مملكته فصار كما ترىٰ، قد أحصىٰ الله عليه عمله ليجزيه في آخرته. ثم أهوىٰ إلىٰ جمجمة ذي القرنين ثم قال: وهذه الجمجمة كان قد صارت هكذا؛ فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع؟

فقال له ذو القرنين: هل لك في صحبتي فأتخذك أخاً ووزيراً وشريكاً فيما آتاني الله من هٰذا المال؟

قال: ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعا.

فقال ذو القرنين: ولِمَ؟

قال: لأجل أن الناس كلهم لك عدو ولي صديق.

قال: ولم؟

قال: يعادونك علىٰ ما في يديك من الملك والمال والدنيا، ولا أجد أحداً يعاديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشيء.

قال: فانصرف ذو القرنين متعجباً منه ومتعظاً به[١].

إعادة النقد والموازنة

أولاً ـ ما ذكره العالم المتكلم في الرد علىٰ العالم الغني مستدلاً بكلام نبي الله المسيح (عليه السلام) غير متين؛ لأن كلامه (عليه السلام) حول نقد العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، وحول طهارة القلب من دنس الذنوب والخطايا، علماً بأنَّ الغني الشاكر سواء كان عالماً أو غير عالم ليس كذلك كما هو واضح بعد التبيين والالتفات.

ثانياً ـ وأما ماذكر من أن الهالك هو المُؤثر للدنيا فسروره ممزوج بالتنغيص، فيتفجر عنه أنواع الهموم وفنون المعاصي وإلىٰ التلف والبوار مصيره فرح الهالك برجائه.. فالغني الشاكر لم يكن كذلك وإلا لا يوسم بالشكر ولا ينعت بالحمد؛ لأن المؤثر للدنيا غير شاكر ولا حامد.

ثالثاً ـ وأما موقف أبي ذر من كعب فقد نقل (رضوان الله عليه) عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قوله المبجَّل: الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه وقليل ما هم. والغني المكرم للإخوان، والمؤدي لحقوق الله عز وجل ليس كذلك، بل هو من طائفة الأقلين الذين استثناهم رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله».

رابعاً ـ وأما ما احتج به من القول: ومتىٰ زعمت أن أخذ المال الحلال أفضل وأعلىٰ من تركه فقد أزريت بمحمد «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» والمرسلين ونسبتهم إلىٰ قلة الرغبة في الزهد، ومتىٰ زعمت أن جمع المال الحلال أعلىٰ من تركه فقد زعمت أن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» لم ينصح الأمة إذ نهاهم عن جمع المال.

فالزعم ليس علىٰ أن أخذ المال الحلال أفضل وأعلىٰ من تركه بل علىٰ أن أخذ المال الحلال الذي ينفق في الموارد الاجتماعية النافعة العامة والخاصة

---

١ ـ مجموعة ورام / بيان ذم الغنىٰ ومدح الفقر.

أفضل وأعلىٰ وأسمىٰ من تركه فتأمل.

خامساً ـ وهكذا بقية الكلام فإن الغني الشاكر المنفق في سبيل الله تعالىٰ خارج منه تخصصاً، فلا نطيل الكلام وإعادة النقد والموازنة بعد رسم الخطوط العامة للإجابة[1].

---

١ – وقد ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩ / نبذ من الأقوال الحكيمة في الفقر والغنىٰ بما مختصره: هٰذا موضع قد اختلف الناس فيه كثيراً ففضل قوم الغنىٰ وفضل قوم الفقر فقال أصحاب الغنىٰ: قد وصف الله تعالىٰ المال فسماه خيراً فقال: إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي وقال: ممتناً علىٰ عباده واعداً لهم بالإنعام والإحسان وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وقال: وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُوداً. وقال النبي «ص»: المال الحسب إن أحساب أهل الدنيا هٰذا المال وقال (عليه السلام): نعم العون علىٰ تقوىٰ الله المال. قالوا: ولا ريب أن الأعمال الجليلة العظيمة الثواب لا يتهيأ حصولها إلا بالمال كالحج والوقوف و الصدقات و الزكوات و الجهاد. و قد جاء في الخبر: خير المال سكة مأبورة أو مهرة مأمورة. وقالت الحكماء: المال يرفع صاحبه وإن كان وضيع النسب، قليل الأدب، وينصره وإن كان جبانا ويبسط لسانه وإن كان عِياً. به توصل الأرحام، وتصان الأعراض، وتظهر المروءة، وتتم الرئاسة، ويعمر العالم، وتبلغ الأغراض، وتدرك المطالب، وتنال المآرب، يصلك إذا قطعك الناس، وينصرك إذا خذلوك، ويستعبد لك الأحرار. ولولا المال لما بان كرم الكريم، ولا ظهر لؤم اللئيم، ولا شكر جواد، ولا ذم بخيل، ولا صين حريم، ولا أدرك نعيم. وقال العتابي: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أرفع من السماء، وأعذب من الماء، وأحلىٰ من الشهد، وأزكى من الورد: خطؤه صواب، وسيئته حسنة، وقوله مقبول، يغشىٰ مجلسه ولا يمل حديثه، والمفلس عندهم أكذب من لمعان السراب، ومن رؤيا الكظة، ومن مرآة اللقوة، ومن سحاب تموز. لا يسأل عنه إن غاب، ولا يسلم عليه إذا قدم، إن غاب شتموه، وإن حضر طردوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة، أثقل من الأمانة، وأبغض من السائل المبرم. وقال بعض الشعراء الظرفاء وأحسن كل الإحسان مع خلاعته:

أصون دراهمي وأذب عنها ... لعلمي أنها سيفي وترسي
وأذخرها وأجمعها بجهدي ... ويأخذ وارثي منها وعرسي
فيأكلها ويشربها هنيئا ... علىٰ النغمات من نقر وجس
ويقعد فوق قبري بعد موتي ... ولا يتصدقن عني بفلس

بالصدقة تُفسح الآجال

٥٥ ـ قال أميرُ المؤمنين (سلام الله عليه): بالصدقة تفسح الآجال[١].

إن ثم بعض الأعمـال المباركة كصلة الرحم والإحْسان والصدقة من شأنها أن تفسح الأجـل وتطيل أمد الحيـاة[٢]، حتىٰ بالنسبة لمن لا يقومون بها في سبيل الله تعـالىٰ، فإن لها آثاراً وضعية ثابتة، وأما القائمون بها ابتغاء رضـوان اللـه سبحانه، فإنهم يقتطفون ثمـار تلك الآثـار في الدنيا، إضـافة الىٰ الأجر العظيم في الآخـرة.

ونحن في الوقت الذي نُذَكِّرُ فيه أنفسَنا بالأهمية القصوىٰ لطول العمر لمن يتقرب الىٰ الله سبحانه فيه ويعمل الصالحات ويتدارك ما فات منها، نذكِّرُ أيضاً اخواننا الأعزاء بضرورة الاعتناء الشديد بهذا الأمر قبل فوات الأوان، وانمحاق الفرصة، وهبوب عاصفة الحِمام، وانطفاء الشَّمعـة المـضيئة والمـتوهجة. إذ أنـه (ليس شيء أعز من الكبريتِ الأحمرِ إلا ما بقي من عمر المؤمن)[٣]. وأنه: (لا

أحب إلي مـــن قـــصدي عـــظيما ... كـــبيرا أصـــله مـــن عـــبد شـــمس
أمـــد إليـــه كـــفي مســـتميحا ... وأصـــبح عـــبد خـــدمته وأمســـي
ويـــتركني أجـــر الرجـــل مـــني ... وقـــد صـــارت كـــنفس الكـــلب نـــفسي

١ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٣٨٣٩.

٢– قال الإمام علي: زيادة الشكر، وصلة الرحم، تزيدان النعم، وتفسحان في الأجل. وقال (عليه السلام): صلة الأرحام تثمر الأموال، وتنسئ في الآجال. وقال (عليه السلام) أيضاً: عليكم بصنائع الإحسان، وحسن البر بذوي الرحم والجيران، فإنهما يزيدان في الأعمار، ويعمران الديار.

وفي الخصال للصدوق ج ١ ص ٤٨ / ٥٣ – حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد (رضي الله عنه) قال: حدثنا محمد بن الحسن الصفار عن أحمد بن أبي عبد الله عن أبيه عن صفوان بن يحيىٰ عن إسحاق بن غالب عمن حدثه عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: البر والصدقة ينفيان الفقر، ويزيدان في العمر، ويدفعان سبعين ميتة سوء.

٣– للإمام علي غرر الحكم / ٣٠١٨.

يعرف قدرَ ما بقي من عمره إلا نبي أو صديق)[١]. وأن (الأَيام صحائف آجالكم، فخلدوها أحسن أعمالكم)[٢][٣].

ومن خير الأدلة العملية علىٰ صحة الحكمة الربانية (بالصدقة تفسح الآجال)، سواء كان القائم بذلك متقرِّباً الىٰ الله سبحانه أم لا ما جاء في القصة الآتية التي رواها الكليني في كتاب «الكافي»، بإسناده عن أبي عبد الله جعفر الصادق قال: مرَّ يهودي... فقال النبي «ص»: إنَّ هٰذا اليهودي يعضّه أسود في

١- للإمام علي غرر الحكم / ٣٠٢٠. ٢- للإمام علي، غرر الحكم / ٣٠٢٦.

٣- وللإمام علي (عليه السلام) نصائح كثيرة يؤكد فيها علىٰ تسريع حركة الاستفادة من العمر، وتعجيل التزود والاستكثار من الأعمال الصالحة، والاقبال علىٰ الاستغفار والتوبة النصوح، قبل تصرم العمر العزيز واقتحام عسكر الأجل، فمن ذلك بياناته وحكمه التالية:

- إن عمرك مهر سعادتك إن أنفذته في طاعة ربك.

- قصروا الأمل، وبادروا العمل، وخافوا بغتة الأجل، فإنه لن يرجىٰ من رجعة العمر، ما يرجىٰ من رجعة الرزق، ما فات اليوم من الرزق يرجىٰ غداً زيادته، وما فات أمس من العمر لم ترج اليوم رجعته.

- فيا لها حسرة علىٰ ذي غفلة. إن يكن عمره عليه حجة. وإن تؤديه أيامه إلىٰ شقوة.

- تدارك في آخر عمرك ما أضعته في أوله تسعد بمنقلبك.

- إن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لحرية بقصر المدة.

- زد من طول أملك. في قصر أجلك. ولا تغرنك صحة جسمك. وسلامة أمسك. فإن مدة العمر قليلة وسلامة الجسم مستحيلة.

- ما أسرع الساعات في الأيام، وأسرع الأيام في الشهور، وأسرع الشهور في السنة، وأسرع السنة في العمر...

- وقال علي (عليه السلام) من جملة خطبة له: فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِئَةٌ، وَالأَقْلامُ جَارِيَةٌ، وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ عُمُراً نَاكِساً، أَوْ مَرَضاً حَابِساً، أَوْ مَوْتاً خَالِساً. فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ، زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ، قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ، وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ، فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ، وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ..

قفاه فيقتله.

فذهب اليهودي فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله، ثمَّ لم يَلبث أن انصرف. فقال له رسول الله «ص»: ضعه فوضع الحطب، فإذا أسود في جوف الحطب عاضّ علىٰ عود. فقال: يا يهودي أيّ شيءٍ عملت اليوم؟ فقال: ما عملت عملاً إلا حطبي هٰذا احتملته فجئت به، وكان معي كعكتان فأكلت واحدة. وتصدقت بواحدة علىٰ مسكين. فقال: رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» بها دفع الله عنه، وقال: إنَّ الصَّدقةَ تدفعُ ميتةَ السوءِ عن الإنسان.

وجاء في الأمالي للصدوق عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أن عيسىٰ روح الله مرَّ بقوم مجلبين فقال: ما لهؤلاء؟

قيل: يا روح الله إن فلانة بنت فلان تهدىٰ إلىٰ فلان بن فلان في ليلتها هذه. قال: يجلبون اليوم ويبكون غدا. فقال قائل منهم: ولم يا رسول الله؟ قال: لأن صاحبتهم ميتة في ليلتها هذه.

فقال القائلون بمقالته: صدق الله وصدق رسوله، وقال أهل النفاق: ما أقرب غداً.

فلما أصبحوا جاءوا فوجدوها علىٰ حالة لم يحدث بها شيء فقالوا: يا روح الله إن التي أخبرتنا أمس أنها ميتة لم تمت.

فقال عيسىٰ: يفعل الله ما يشاء فاذهبوا بنا إليها. فذهبوا يتسابقون حتىٰ قرعوا الباب فخرج زوجها فقال له عيسىٰ: استأذن لي صاحبتك. قال: فدخل عليها فأخبرها أن روح الله وكلمته بالباب مع عدَّة.

قال: فتخدَّرت فدخل عليها فقال لها: ما صنعت ليلتك هذه؟ قالت: لم أصنع شيئا إلا وقد كنت أصنعه فيما مضىٰ، إنه كان يعترينا سائل في كل ليلة جمعة، فنتيله ما يقوته إلىٰ مثلها، وإنه جاءني في ليلتي هذه وأنا مشغولة بأمري، وأهلي في مشاغيل، فهتف فلم يجبه أحد، ثم هتف فلم يجب، حتىٰ هتف مراراً، فلما سمعت مقالته قمت متنكرة حتىٰ أنلته كما كنا ننيله. فقال لها: تنحي عن مجلسك. فإذا تحت ثيابها أفعىٰ مثل جذعة عاضّ علىٰ ذنبه. فقال (عليه السلام): بما صنعت

صرف عنك هذا.

وهناك قصة جميلة ومعبِّرة تروىٰ عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) أنه قال: كان في بني إسرائيل رجل له نعمة ولم يرزق من الولد غير واحد، وكان له محباً وعليه شفيقاً، فلما بلغ مبلغ الرجال زوجه ابنة عمّ له، فلما كان من الليل أتاه آتٍ في منامه فقال: إن ابنك هذا ليلة يدخل بهذه المرأة يموت. فاغتمَّ لذلك غماً شديداً وكتمه وجعل يسوِّف بالدخول حتىٰ ألحت امرأته عليه وولده وأهل بيت المرأة. فلما لم يجد حيلة استخار الله وقال: لعل ذلك من الشيطان كان. فأدخل أهله عليه وبات ليلة دخوله قائماً يصلي ويدعو وينتظر ما يكون من ابنه، حتىٰ أصبح إذا غدا عليه فأصابه علىٰ أحسن حال، فحمد الله وأثنىٰ عليه، فلما كان من الليل نام فأتاه ذلك الذي كان أتاه في منامه فقال له: إن الله عزَّ وجلَّ دفع عن ابنك وأنسأ في أجله بما صنع بالسائل. فلما أصبح غدا علىٰ ابنه فقال: يا بني هل كان منك صنيع صنعته بسائل في ليلة ابتنائك بامرأتك؟ قال: وما أردت من ذلك؟ قال: تخبرني. فاحتشم منه فألحَّ عليه وقال: لا بدَّ أن تخبرني بالخبر علىٰ وجهه؟ قال: نعم لما فرغنا مما كنا فيه من إطعام الناس، بقيت لنا فضول كثيرة من الطعام، وأدخلت إلىٰ المرأة فلما خلوت بها ودنوت منها، وقف سائل بالباب فقال: يا أهل الدار واسونا مما رزقكم الله. فقمت إليه فأخذت بيده وأدخلته وقربته إلىٰ الطعام وقلت له: كل فأكل حتىٰ صدر. وقلت: ألك أهل؟ قال: نعم. قلت: فاحمل إليهم ما أردت. فحمل ما قدر عليه وانصرف وانصرفت أنا إلى أهلي. فحمد الله أبوه وأعلمه بالخبر[1].

الاستدلال علىٰ الكرم

٥٦ ـ يروىٰ عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: بكثرة الإفضال يُعْرَف الكريم[2].

نستطيع أن نتعرف تعرفاً جيداً وكافياً علىٰ كل المزايا الحضارية الراقية التي

---

١ – دعائم الإسلام، ١ / ٢٤٢.

٢– غُرر الحكم، الحكمة /٨٤٩٤

يتصف بها بعض الناس أو عدد من الشعوب كالحلم والتسامح والشجاعة وطيب الكلام والمداراة وحسن التفاهم... نتعرفها عن طريق الاستدلال الموضوعي التام والصحيح علىٰ وجودها فيهم، بل نستطيع أن نتعرف تعرفاً جيداً وكافياً علىٰ المستوىٰ الوجودي لها، وعلىٰ أي صعيد عملي تتمثل فيهم ويتعاطون معها.

ومزية الكرم من بين عشرات المزايا الرائعة التي لا تعرف إلا عن طريق الاستدلال الموضوعي التام والصحيح علىٰ وجودها في هٰذا الشخص أو تلك الجماعة وذلك الشعب. ولولا مَحَكُّ الاستدلال ومِسَنُّ البُرهان، لاختلطَ الحَقُّ بالباطِل والحابلُ بالنابِل.

إنَّ بازائنا عدَّة خيارات قد تُطرح بصورة من الصور المتينة أو الهشة، العلمية أو الجدلية، وتُمدُّ علىٰ بساط البحث والمنادمة لمعرفة مزية الكرم والجود ودرجة مستواها لدىٰ الآخرين:

١ ـ من قبيل أن يتفضل شخص أو جماعة أو أمة بافضال ما لا يتجاوز أن يكون قليلاً محدوداً، فيُعدُّ ذلك جوداً وكرماً. ولقد هتف القرآن الكريم هتافاً جهورياً في التنديد بمثل هٰذا اللون من الافضال، ما دام القائم به يستطيع التقدم بما هو أجدىٰ عائدةً وأكمل عطاءً وأجمل تعاملاً فقال عزَّ من قائل: «أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰٓ»[1].

٢ ـ أن لا يوجد كرم أصلاً وإنما أخذت الأجهزة الاعلامية ونحوها باختلاق الكرم ونسبته الىٰ من تشاء وتهوىٰ، أو يوجد شيء قليل من الكرم قد أضفت عليه طابعاً تفخيمياً هائلاً حتىٰ عاد وكأنه في الأنظار المخدوعة ما ترسله السماء من ماء منهمر، وحقيقة الأمر ليس كذلك أبدا، وصفحات التأريخ السياسي ملأىٰ جداً جداً بهذه الشائعات الكاذبة، وقد خاب مَن ٱفترىٰ.

٣ ـ أَن تكون هنالك وفرة في العطاء وكثرة في الافضال، بحيث يصح أن يستدل بها علىٰ وجود ملكة الافضال في هٰذا الشخص أو الجماعة أو في أمة من

---

١ ـ النجم، الآية / ٣٣ ـ ٣٤.

الأمم، حقيقة صادقة لا إفكاً ولا اعتباطاً. وعن الحالة الأخيرة من الحالات المذكورة يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): بكثرة الإفضال يُعرف الكريم.

عدمُ التعارضِ في فلسفة الإمام

٥٧ – قال إمام الأئمة علي (صلوات الله عليه): ثلاثٌ هنَّ جِماعُ الخير: إسداء النِعم، ورِعاية الذمم، وصِلة الرحم[١].

جِماعُ الخير هو الملتقىٰ الذي تجتمع فيه ألوان الخير أي أن جِماعَ الخير ما يضم شعبه وفنونه وأنواعه.

ومن هٰذا المنطلق فهل أن جِماعَ الخيرِ حسب فلسفة الإمام علي هو ما عبر عنه بقوله (عليه السلام): جماع الخير في الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والمحبة في الله، والبغض في الله[٢]؟

أو أن جِماعَ الخيرِ حسب فلسفة الإمام هو ما عبر عنه بقوله (عليه السلام): جماع الخير في العمل بما يبقىٰ والاستهانة بما يفنىٰ[٣]؟

أو أن جِماعَ الخيرِ حسب فلسفة الإمام هو ما عبر عنه بقوله (عليه السلام): جماع الخير في المشاورة والأخذ بقول النصيح[٤]؟

أو أن جِماعَ الخيرِ حسب فلسفة الإمام هو ما عبر عنه بقوله (عليه السلام): جماع الخير في أعمال البر[٥]؟

أو أن جِماعَ الخيرِ حسب فلسفة الإمام هو ما عبر عنه بقوله (عليه السلام) الذي قد ذكرناه آنفاً: ثَلاثٌ هُنَّ جِماعُ الخيرُ: إسداء النِعم، ورِعاية الذمم، وصِلة الرحم؟

١– غُرر الحكم، الحكمة / ٨٧٠٠.
٢– المصدر نفسه / ١٨٥٨.
٣– المصدر نفسه / ٢٩٨٠.
٤– المصدر نفسه / ١٠٠٥٣.
٥– المصدر نفسه / ١٠٠٥٤.

لا ريب أن الأمـر قد يبدو صعباً مُستصعباً، بل قد يبدو في حالة من عـدم التناسق الفـكري ووحدة المفهوم. غير أننا اذا التفتنا الىٰ أن مفهـوم الخير يختلف من مورد الىٰ آخر ـ ولو من زاوية خير كل شيء بحسبه ـ كما هو الحال حينما نقوم باستقراء كلمة الخير في القـرآن الحكيم بمفرداتها الكثيرة التي يشـتمل عـليها، فإنها لا تأتي بمعنىً واحدٍ مشتركٍ في جميع الآيات المباركة.

فأما قول الإمام (عليه السـلام): جـماع الخـير فـي المـوالاة فـي اللـه والمعاداة... فهو من جـهة ضـرورة تـحديـد العـلاقات والارتـباطات سـلبيـاً وايجابيـاً مع مختلف الناس بما يرضي اللهَ عَـزَّ وَجَلَّ.

وأما قول الإمام (عليه السـلام): جماع الخير في العمل بما يبقىٰ... فهو من جهة رسم دائرة الأعمال الطيبة المفيدة في الدار الآخرة، ودائرة الأعمال التي لا تفيد فيها، والأخذ الجاد بالأول منها وترك الثاني.

ومن أجل تسليط مزيد من الضوء علىٰ معنىٰ جماع الخير في خصوص هٰذا الحديث نأتي بما يناسبه من أحاديث الإمام وذلك مثل قوله (عـليه السـلام): فمنهم المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه؛ فذلك المستكمل لخصال الخير، ومـنهم المنكر بلسانه وقلبه والتارك بيده؛ فذلك المتمسك بخصلتين من خـصال الخـير ومضيع خصلة، ومنهم المنكر بقلبه والتارك بلسانه ويـده فـذلك مـضيع أشـرف الخصلتين من الثلاث ومتمسك بواحدة، ومنهم تارك لإنكار المنكر بقلبه ولسانه ويده؛ فذلك ميت الأحياء[1].

واذا ما نتعرض الىٰ تفكير متردد بين العمل وفق ما يمليه الرأي الشخصي بما فيه من استبداد واصرار علىٰ انفاذ المـزاج الخـاص والابـتعاد والتـجافي عـن مؤشرات النصيح وآرائه، وبين الاستشارة وتداول الآراء وقـبول كـلام النـصيح المتوفر علىٰ الشرائط المطلوبة فيه، فإن جِماعَ الخيـرِ في هذه الحدود وبحسب توجيه الإمـام يقع في اطار المشاورة والأخذ بقول النصيح.

١- غرر الحكم /٧٦٥١.

وحينما يسأل بعض الصالحين من ذوي النزعة القيميَّة والأهداف الرسالية عما ينبغي أن يقوموا به من انجازات أخلاقية رفيعة المستوىٰ، فإن المنهج التربوي والأخلاقي للإمام (عليه السلام) يتصدىٰ الىٰ مثل هٰذا الجواب قائلاً: جماع الخير في أعمال البر.

غير أن هؤلاء الصالحين من ذوي النزعة القيميَّة يرون أن هٰذا الجواب علىٰ الرغم من صوابه وسداد طريقته إلا أنه مختصر، مما يضطرهم الىٰ العَودة من أجل السؤال عن أهم وأفضل مصاديق أعمال البرِّ التىٰ أشار اليها، بمعنىٰ أن هٰذا الحديث الشريف مجمل وهم في حاجة نظرية وعملية ملحَّة الىٰ الحديث المُبين؟

ويأتي جواب الإمام (عليه السلام) واضحاً مبيناً كأنه فلق الصباح: ثلاثٌ هنَّ جِماعُ الخير: إسداءُ النِعم، ورِعايةُ الذمم، وصِلةُ الرحم.

ونحو هٰذا الحديث من مفهوم جماع الخير بالمعنىٰ الأخير قول الامام: إذا رأيتم الخير فسارعتم إليه، ورأيتم الشر فتباعدتم عنه، وكنتم بالطاعات عاملين، وفي المكارم متنافسين؛ كنتم محسنين فائزين. فإن في كلمتي (المكارم متنافسين) قرينة علىٰ المراد من المعنىٰ القيمي لجماع الخير هنا. هٰذا اضافة الىٰ أن الخير في نص الحديث يقابل الشر الوارد فيه (ورأيتم الشر فتباعدتم) وهو ما يؤكد علىٰ المعنىٰ القيمي كذلك.

تمجيدُ القناعة

٥٨ – قال أمير المؤمنين (عليه السلام): إنما أنت عدد أيام فكل يوم يمضي عليك يمضي ببعضك؛ فخفض في الطلب، وأجمل في المكتسب[١].

كان لبعض الملوك نديم فسكر ففاتته الصلاة فجاءت جارية له بجمرة نار

١– غرر الحكم /٣٠٢٨. وقريب من هٰذا المعنىٰ واللفظ ما روي عن علي (عليه السلام) كذلك: ذلل نفسك بالطاعة، وحَلِّها بالقناعة، وخفِّضْ في الطلب، وأجمِلْ في المُكتسب.

فوضعتها علىٰ رجله فانتبه مذعوراً فقالت: إنك لم تصبر علىٰ نار الدنيا فكيف تصبر علىٰ نار الآخرة! فترك الدنيا وانقطع إلىٰ العبادة وقعد يبيع البقل، فدخل عليه الفضيل وابن عيينة فإذا تحت رأسه لبنة وليس تحت جنبه حصير فقالا له: إنا روينا أنه لم يدع أحد شيئاً لله إلا عوضه خيراً منه فما عوضك؟

قال: القناعة والرضا بما أنا فيه.

دخل علي (عليه السلام) المسجد وقال لرجل: أمسك عليَّ بغلتي فخلع لجامها وذهب به. فخرج علي (عليه السلام) بعد ما قضىٰ صلاته وبيده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له، فوجد البغلة عطلاً فدفع إلىٰ أحد غلمانه الدرهمين ليشتري بهما لجاماً؛ فصادف الغلام اللجام المسروق في السوق قد باعه الرجل بدرهمين فأخذه بالدرهمين وعاد إلىٰ مولاه؛ فقال علي (عليه السلام): إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزاد علىٰ ما قدر له.

ومن كلام عيسىٰ (عليه السلام): اتخذوا البيوت منازل والمساجد مساكن وكلوا من بقل البرية واشربوا من الماء القراح واخرجوا من الدنيا بسلام. لعمري لقد انقطعتم إلىٰ غير الله فما ضيعكم أفتحافون الضيعة إذا انقطعتم إليه.

جاء فتح بن شخرف إلىٰ منزله بعد العشاء فلم يجد عندهم ما يتعشىٰ به ولا وجد دهنا للسراج وهم في الظلمة فجلس ليلةً يبكي من الفرح ويقول: بأي يد قد كانت مني، بأي طاعة تنعم علي، بأن أترك علىٰ مثل هذه الحال.

لقي هرم بن حيّان أُويساً القرني فقال: السلام عليك يا أويس بن عامر. فقال: وعليك السلام يا هرم بن حيان. فقال هرم: أما إني عرفتك بالصفة فكيف عرفتني قال: إن أرواح المؤمنين لتشَام، كما تشام الخيل فيعرف بعضها بعضا. قال: أوصني قال: عليك بِسِيف البحر[1]. قال: فمن أين المعاش؟ قال: أفٍّ لك خالطت الشك الموعظة، أتفر إلىٰ الله بدينك وتتهمه في رزقك!

خالد بن صفوان: كن أحسن ما تكون في الظاهر حالا، أقل ما تكون في

---

١ - سِيف البحر: ساحله.

الباطن مالا، فإن الكريم من كرمت عند الحاجة خلته، واللئيم من لؤمت عند الفاقة طعمته.

وقال سفيان الثوري: ما أكلت طعام أحد قط إلا هنت عليه[1].

تعليق واستدراك

لم يكن كلام الفقيه الصوفي سفيان الثوري من الكلام الجيد ولا فكرته من الفِكَر الصحيحة في قليل ولا كثير، وهو دعوة الىٰ نبذ لون سليم من ألوان العلاقات الاجتماعية من حيث يشعر القائل أو من حيث لا يشعر. ولقد كان رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» والخاصة من أهل بيته وأصحابه الأعزَّة الكرام يستجيبون للداعي، ويتناولون من مائدة طعامه، ويقدرون له دعوته، كما يجدون منه الإكرام والتقدير المُتبادل.

والكرمَاء بشكل عام يستحبّون أن يطعموا الاخوان والأصدقاء علىٰ مائدة الألفة والمحبة والصفاء، وهم يجلون الوافد، ويكرمون المدعو. وأما الذين يهون عليهم الآكلون فهم اللؤماء والبخلاء، فعلىٰ العقلاء أن يبتعدوا عن التناول من زادهم، وقد جاء في الحديث الشريف ما يفرق بوضوح بين طعامين أحدهما ينبغي أن يُلبّىٰ صاحبه، والآخر علىٰ العكس من ذلك: «طعام الكريم دواء وطعام البخيل داء».

اللهم إلا أن يكون خصوص الذين قد أكل عندهم سفيان ممن لا يقدرون الآكل من مائدتهم، وعليه فيكون كلامه ليس قاعدة صحيحة ينبغي أن تطبق، ولا حكمة سليمة المضمون يجب أن تُحتذىٰ، بل هو تجربة شخصية محدودة المجال، وإخبار عن أشياء خاصة ليس لها الصفة التعميميَّة المُلزِمة للآخرين، أو هو شبيه بما يُعبَّر عنها فقهياً بقولهم: قضيَّةٌ في واقِعَة.

موعظةُ القُبَّرة

في حكايات الشرقيين وقصصهم علىٰ ألسنة الحيوانات المختلفة، بل وعلىٰ

---

١ - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٣ / ١٥٧.

ألسنة الجمادات، فَيضٌ من العبرِ الناطقـة والحكمِ البالغة، والأفكارِ الموحية بشتىٰ المعـاني التي تجمعُ بين العمـق والجمال والمتعـة الروحية.

ومن جملة حكاياتهم وقصصهم فيما يخص موضوع القناعة والاجمـال في المكتسب ما حكي مِن أن رجـلاً صـاد قبرة فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟

قال: أذبحك وآكلك.

قالت: والله ما أشفي من قرم، ولا أشبع من جوع، ولكـن أعـلمك ثـلاث خصـال هن خير لك من الدنيا وأكلي: أما واحدة فأعلمك بها وأنا في يدك، وأما الثانية فإذا صرت علىٰ الشجرة، وأما الثالثة فإذا صرت علىٰ الجبل.

قال: هـاتِ الأولىٰ.

قالت: لا تلهفن علىٰ ما فات. فخلاها.

فلما صارت علىٰ الشجرة قال: هات الثانية.

قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت عـلىٰ الجـبل فقالت: يا شـقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي دُرَّتيـن وزن كلٍّ دُرَّة عشرون مثقالا.

قال: فعض علىٰ شفتيه وتلهف وقال: هات الثالثة.

قالت: أنت قد نسيت الثنتين فكيف أخبرك الثالثة، ألم أقل لك لا تلهفن علىٰ ما فاتك، ولا تصـدقن بما لا يكون: أنـا ولحـمي وريشـي لا نكـون عشـرين مثقـالا، فكيف يكون في حوصلتي درَّتان وزن كل واحدة عشرون مثقالا، ثـم طارت وذهبت.

المُسرِفُ لا يُحْمَدُ جودُه، ولا يُرحَمُ فقرُه

٥٩ ـ قال أميـرُ المؤمنين علي (سلامُ الله عليه): ذَرِ السَّرَفَ فإنَّ المُسْرِفَ لا

يُحْمَدُ جودُه، ولا يُرحَمُ فقرُه[١].

ينبغي أَنْ يُعَدَّ هٰذا النصُّ العلوي من أشدِّ النصوص الدينية والفلسفية نقداً عميقاً ونهياً جارحاً للمسرف والاسراف، وقد وجَّه شُؤبوبَ القدحِ الىٰ كلا الحالتين التي لا يخلو من أحدهما المسرف في زمن من الأزمان وهما: حالة الامكانية المادية التي تمكنه من البذل والانفاق اسرافاً، وحالة الفقر وسوء القدرة المادية بعد وفورها لديه. ففي الحالة الأولىٰ فإنَّ المُسرِفَ لا يُحْمَدُ جودُه، وفي الحالة الثانية فإنَّ المُسرِفَ لا يُرحَمُ فقرُه.

فما أبعدَ الرأي والتفكير السديد، وما أنأىٰ الخير والصلاح عن أمر لا يحمد صاحبه غنياً كان أو فقيراً، أو عَوانَاً بَيْنَ ذٰلك.

ويبقىٰ في البَيْن اشكالان قويان من الضروري الجواب عنهما:

الاشكال الأول: أَغلب الذين يستفيدون من الأموال التي ينفقها المسرف يحمدونه علىٰ اسرافه باعتباره قد سبب لهم ما ينتفعون به، وقد تكون هذه المنفعة كبيرة أو كبيرة جداً وقد جُلَت القلوبُ علىٰ حُبِّ مَن أَحسنَ إليها كما جاء في الحديث الشريف، فكيف يصف الإمام المسرف بعدم حمد جوده؟

الاشكال الثاني: كيف لا يرحم الناس المسرف الذي أوقعه الاسراف صريع الفقر، وإنما أوقعه فقيراً جودُه المتميز، والجوادُ محبوبٌ محمودٌ علىٰ حدِّ تعبير الإمام علي بن أبي طالب؟

الجواب عن الاشكال الأول: أكثرية الناس لا يحمدون جود المسرف إما بسبب نظرتهم المستقاة من المفاهيم الدينية، وإما بسبب نظرتهم العقلانية له؛ باعتبار طيش المسرف وتجاوزه للحدود المقبولة والمرضية في التصرف والتعامل، فلا يكاد يحمد جوده إلا الذين انتفعوا شخصياً بذلك وهم قليلون نسبياً. هٰذا إضافة الىٰ أنه لا يحمد جوده من قبل الناس فحسب، بل من قبل الديانة الاسلامية كذلك التي ردعت الاسراف وذمت المسرفين كقوله تبارك وتعالىٰ علىٰ

١- غُرر الحكم، الحكمة / ٨١٢٥

سبيل المثـال: « يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُـذُواْ زِينَتَكُمْ عِـندَ كُـلِّ مَسْـجِدٍ وَكُـلُواْ وَٱشْـرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ »[1].

الجواب عن الاشكال الثاني: يمكن أن نلاحظ أن أغلبية البشر يكرهون الاسراف ويقدحون به، وبالتالي فإن المسرف قد اتخذ ما يكرهه الناس طـريقةً ومنهجاً، ومن تكن صفته ومسيرته كذلك فإنَّ من المعلوم والواضح أن الناس لا يرحمون من يكرهون عمله وتصـرفه البغيض إليهم، هذا اضـافة الىٰ مـا يـقوله الناس عن حالته المادية اللاحقة بأن المسرف بالذات هو المسبب لها ولو أحسن إدارة الأَموال لما وقع فيما وقع فيه من الفقر وتردي الحالة المعاشية، وبناءً علىٰ هذا فهو الذي يتحمل في نظرهم عاقبة الخطأ وسوء التصرف بالأموال، إذاً فلماذا يشفقون عليه ويرحمونه.

« وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّـهْلُكَةِ وَأَحْسِـنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّـهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ »[2].

سُلَّمُ الشرفِ التواضعُ والسخاء

٦٠ ـ قال الإمام علي (عليه السـلام): سُلَّـمُ الشرفِ التواضعُ والسَّخاء[3].

التواضع والسخـاء من الصفات الأَخلاقية العليا التي تعرض لهـما القـرآن الكريم من أجل العمل الجادِّ والمخلص بهما، كما دعا لهما منقذ البشـرية « صلىٰ الله عليه وآله وسلم » وأَئمة أهل البيت (عليهم السلام) بقُوَّةٍ وبكُلِّ حَـثٍّ أكـيدٍ وتحريضٍ شديد. فينبغي للصالحين من الناس والألباء من مختلف المـجتمعات العمل الدؤوب والثابت بموجبهما والتحلي بهما حقيقـة التحلي.

إن الصديقين والمتقين من الناس يتواضعون وتسخو أيديهم من أجـل الله

---

١ – الأعراف، الآية / ٣١.　　٢ – البقـرة، الآية / ١٩٥.

٣ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٥١٦٩. كما توجد هذه الحكمة البالغة فـي غـرر الحكم ودرر الكلم في الفصـل التاسع والثلاثين، الرقم / ٦٨.

تبارك وتعالىٰ وطلب الفوز بمرضاته، لا من أجل اكتساب المناصب الراقية، أو طلب الشهرة بين الجماهير، وبتلك النوايا الإلهية الخالصة يؤجرون أجراً عظيماً، وينالون حسسن جوار الله عزَّ وجلَّ، إلا أن الشرف الاجتماعي العزيز سوف يغمرهم بصورة تلقائية ويشهر أمرهم ويرفع منزلتهم وشأنهم، وقد يسبب لهم الارتقاء الىٰ المناصب الكبيرة.

الحقيقة ان الشرف ملازم للمتواضعين والأَسخياء سواء أَرادوه لله سبحانه أم لغير الله، إلا أن الحكماء الأبعد نظراً والأعمق رؤيةً وتفكيراً لا يتركون الفرص الذهبية الغالية جداً والتي تقربهم من سماء المرضاة الربوبية، وترفعهم زلفىٰ لدىٰ الخلاق العليم. حيث أنه لا يقتصر الشرف الملازم للمتواضعين والأَسخياء علىٰ الدار الدنيا فحسب، بل يشمل الدار الآخرة وهو الأسمىٰ والأعظم، وللعلم أنه ما كل شرف يُعد في الدار الدنيا يستتبعه شرف في الدار الآخرة كما هو معلوم.

مثالٌ تطبيقي لسُلَّمِ الشرف

كان صاحب هذه الحكمة القدسية (سُلَّمُ الشرفِ التواضعُ والسَّخاء) بنفسه مثالاً تطبيقياً عظيم الشأن علىٰ الصعيد التاريخي العام للتواضع حقِّ التواضع وللسخاء حقِّ السخاء فهو القمة العلياء التي لا تطال بهما، فقد كان أَشد الناس تواضعاً لصغير وكبير وألينهم عريكةً وأسمحهم خلقاً وأبعدهم عن الكبر وأعرفهم بحق، وكانت حاله هذه في كلا زمانَيه زمان خلافته والزمان الذي قبله فلم تغيره الإمرة ولا أحالت خلقه الرئاسة، وكيف تحيل الرئاسة خلقه وما زال رئيساً وكيف تغير الإمرة سجيته وما برح أميراً لم يستفد بالخلافة شرفاً ولا اكتسب بها زينة، بل هو كما قال أبو عبد الله أَحمد بن حنبل ذكر ذلك الشيخ أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي في تاريخه المعروف بالمنتظم: تذاكروا عند أحمد خلافة أبي بكر وعلي وقالوا فأكثروا فرفع رأسه إليهم وقال: قد أَكثرتم إن علياً لم تزنه الخلافة ولكنه زانَها. وهٰذا الكلام دال بفحواه ومفهومه علىٰ أن غيره ازدان بالخلافة وتممت نقصه وأن علياً (ع) لم يكن فيه نقص يحتاج إلىٰ أن يتمم بالخلافة، وكانت

الخلافة ذات نقص في نفسها فتم نقصها بولايته إياها[١].

وأما السخاء والجود فحاله فيه ظاهرة وكان يصوم ويطوي ويؤثر بزاده وفيه أنزل: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً ولا شُكُوراً»[٢]. وروىٰ المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم علانية فأنزل فيه: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً»[٣][٤].

«وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَـــئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ»[٥].

ظلُّ الكرامِ رَغَدٌ هنيء

٦١ – وقال إمام المتقين والصديقين علي (عليه السلام): ظِلُّ الكرامِ رَغَدٌ هنيء[٦].

للهِ أَنتم ثم للهِ أَنتم يا كرام.

للهِ أَنتم ثم للهِ أَنتم يا رياض السماحة والإحسان.

---

١ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١ / ٥١ ـ ٥٢.

٢ – الإنسان، الآية / ٨ ـ ٩.

٣ – البقرة، الآية / ٢٧٤.

٤ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١ / ٢٢.

٥ – المائدة، الآية / ١٢.

٦ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٥٥٩٩.

للهِ أَنتم ثم للهِ أَنتم يا منابتِ الخيراتِ الحِسان.

جوُدكم رَغَدٌ هَنِيء.

وجوُدكم رَغَدٌ هَنِيء.

محضرُكم رَغَدٌ هَنِيء.

ذكراكُم رَغَدٌ هَنِيء.

ظلُّكُم رَغَدٌ هَنِيء.

فأَكرَمَكُمُ اللهُ الحَمِيدُ المَجيدُ الذي يُجازي بالإحْسان إحساناً، وأجزَلَ لَكُم المثوبة وضاعف لكم الفضلَ والانعامَ مضاعفةً وافِرةً سنيةً لا يقدر عليها إلا من بيده خزائن السموات والأَرضين وما لا نعلم من ملكه وسلطانه المبين... وأَكرمَ اللهُ أَوعيةً حملتكم، وأَرضاً أقلتكم، وألسنةً أثنت عليكم، وأكفاً ذادت عنكم اللئام والأوغاد، وَحَيا اللهُ قُلوباً أَحبتكم من صميم الصميم وأخلصت لكم من أَعماق الأعماق.

أيُّها الكرام القلوب والنفوس والأكف ماذا يضرُّ اللئام وأشباه اللئام إن لم يستطيعوا أن يكونوا أمثالكم أو لم يريدوا أن يختاروا طريقتكم في التعامل البناء وسمو الأَيدي الفياضة، أن يقتدوا بكم ويقتفوا آثاركم الجميلة الغراء، ولو اقتداءً يسيراً واقتفاءً ضئيلاً لعلَّ أناسيَّ كثيراً أو قليلاً ينتفعون بهم في الدنيا، أو لعلهم ينفعون أنفسهم في نهاية المَطاف حيثُ اليومُ الآخِرُ وأَهوالُهُ العَجيبة، وحيثُ يعلمون جيداً أَن الجَنَّة دارُ الأَسخِياء[1].

---

١ – روىٰ الطبرسي في مشكاة الأنوار / الفصل الرابع في السخاوة والبخل عن النبي الخاتم «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أنه قال: الجَنَّة دارُ الأَسخياء.

معرفةُ الأساس

٦٢ – وقال أَمير المؤمنين: عَلىٰ قَدْرِ المُرُوءَةِ تَكونُ السَّخـاوَة[١].

سؤالٌ وجواب

سـؤال : قد أَنبأنا الإمام أمير المؤمنين بشكل واضح أنَّ علىٰ قدر المروءة تكون السخاوة، فعرَّفنا علىٰ الركن الركين للسخاء، وهٰذا أَمرٌ نافعٌ جداً في معرفة أَساس قضيَّةٍ مهمَّةٍ للغاية من حيث استصلاح شأن عظيم من شؤون الدنيا والآخرة. ولكن من أجل تشخيص حالة أَكمل من حالات تشذيب الأَخلاق وتهذيب النفس، نأمَلُ أن نتعرف كذلك علىٰ قدر أيّ شيء تكون المروءة؟ وبمعنىٰ آخر نطمح الىٰ معرفة ركن الركن فهل من جواب شاف سديد؟

جـواب : من أجل أن يكون الجواب أَبعد عن الخطأ وقصور التفكير الذي يمتاز به مؤلِّف الكتاب وأَمثاله، آثرنا أَن نجيب بكلام رجلٍ عظيمٍ عرف بالعلم العظيم، كما عرف باستسلام المفكِّرين وجهابذة العلماء من الأَصدقاء والبعداء لكلماته وآرائه واشتياقهم المُتَوَهِّج لعلومه ومعارفه أَلا وهو أَمير العلم والبيان وباب مدينة علم النبيّ محمد «ص»، فلنستمع اليه وهو يجيبنا بايجاز غير مخلٍّ، وبسلاسةٍ وتشخيصٍ دقيقٍ حيث يقول (عليه السلام): عَلىٰ قَدْرِ شَرَفِ النفسِ تَكُونُ المُرُوَّة[٢].

فالنفسُ إذاً بِرَبَواتِها المُتِيفَة، وجِبالِها البَاذِخَة، هي المَصْدَرُ الأَجملُ والأَمثلُ للمروءةِ التي تعتبرُ السيلَ الزخّارَ لطيبِ التعامل، وللتفاعلِ الايجابيِّ المُثمرِ مع المجتمعِ الإنساني.

كما أَنَّها النفسُ بِوهادِها العميقة، وَوِدْيانِها السحيقة، هي المَصْدَرُ الأَسوءُ

---

١ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٥٦١٨.

٢ – الحكمة / ٥٦١٩ من كتاب عيون الحكم والمواعظ، والحكمة / ٦ من الفصل الحادي والخمسين من غرر الحكم ودرر الكلم.

والأَنكأُ للأَنانيَّةِ الجرباءِ والاحتقانِ العاطفي وبَلادةِ الشعورِ والإحساسِ إزاءَ مشاكلِ الآخرينَ ومُعضلاتِهم. وصَدَقَ اللهُ تبارك وتعالىٰ حيث يقول في الذكر الحكيم: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا »[١].

أَفتزهدون في مكارم الأخلاق

٦٣ – قال إمام الأَئمة علي (سلام الله عليه): عجبتُ لرجلٍ يأتيه أَخوه المسلم في حاجةٍ فيمتنع من قضائها، ولا يرىٰ نفسه للخير أهلاً، فهبْ أَنَّه لا ثواب يُرجىٰ، ولا عقاب يُتّقىٰ، لَكان ينبغي لنا أن نطلبَ مكارمَ الأَخلاق فإنها تدل علىٰ سبيل النجاح[٢].

كأَنَّ التنظيرَ العَلَويَّ المُبينَ في هذه الناحية مُوجَّه بالدرجة الأولىٰ الىٰ أَصحاب النزعة الوطنية والدعوة الاقليمية والقومية ممن يكثرون ـ بحق أو بباطل ـ من ترداد التمسك بالفضائل المعنوية والمكارم الأخلاقية؛ فيلزمهم الإمام العظيم بما ألزموا به أنفسهم، وتظاهروا فيه ما بين أبناء المجتمع وادعوه في خطابهم السياسي وتحركهم الاعلامي. فيحثهم أن يعينوا الفقراء والضعفاء، وأن يسهموا اسهاماً فعالاً ومؤثراً في حَلِّ عُقَد الحاجات والمشكلات. وينطلق التحريض العلوي الأَكيد علىٰ قضاء حوائج الناس من افتراض أساسين صحيحين ألا وهما:

الافتراض الأول: انتظار الأَجر الكبير والثواب الجزيل بسبب قضاء الحاجات في سبيل الله تبارك وتعالىٰ؛ فيقوم بهذا العمل البناء كل من ارتغب الثواب، أو خشي العقاب الإلهي في الآخرة اذا وصل قضاء الحاجات الىٰ حدِّ الوجوب الشرعي كما في بعض الحالات، أو العقاب الإلهي في الدنيا وإن لم يصل قضاء الحاجات الىٰ حدِّ الوجوب الشرعي كما في كثير من الحالات، وفي الروايات أشياء من التفصيل عن ذلك.

---

١ – الشمس، الآية / ٧ ـ ٨.

٢ – علي المامطيري، نزهة الأبصار ومحاسن الآثار / ١٦٥. والآمدي، غُرر الحكم، الحكمة / ١٠٢٩٨.

الافتـراض الثاني: مع صرف النظر عن مـبدأ الثـواب والعـقاب أليس فـي ميادين وساحات مبادىء مَكـارِم الأَخـلاق وحقوق البشر ما يحرك الضمائر، ويستفز القلوب ويستحثها علىٰ مساعدة الآخرين وانتشال المـحوجين وقـضاء حقـوق الإنسانية؟

ومفردات مَكـارِم الأَخـلاق في فلسفة الأخلاق العلوية تقع بشكل وجـيز بالصورة التالية:

- قال الإمام علي (عليه الســلام): مكـارم الأخــلاق عشـر خـصال: السخاء، والحياء، والصدق، وأداء الأمانة، والتـواضـع، والغـيرة، والشـجاعة، والحلم، والصبر، والشكر[١].

- وقال (عليه الســلام): ليس شيء أحسن من عقل زانه علم، ومن عـلم زانه حلم، ومن حلم زانه صدق، ومن صدق زانه رفق، ومن رفق زانه تقوىٰ. إن ملاك العقل ومكـارم الأَخـلاق: صـون العـرض، والجـزاء بـالفرض، والأخـذ بالفضل، والوفاء بالعهد، والإنجاز للوعد..[٢]

- وقال (عليه الســلام): إن من مكارم الأَخلاق أن تـصـلَ مـن قـطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك[٣].

- وقال (عليه الســلام): أَكرمُ الأخلاق السخاءُ وأَعَمُّها نفعاً العدل[٤].

- وقال (عليه الســلام): إن بذلَ التحيـةِ مِن محاسنِ الأَخلاق[٥].

الإيْثار يكشف عن جواهـر الكُرَماء

٦٤ - قال أميـرُ المؤْمنين علي (عليه الســلام): عند الإيْثار علىٰ النـفس

---

١ - الشرح الحديـدي لنهج البلاغـة الحكمة / ١٧٧، وسجع الحمام لعلي الجندي وزميليه الحكمة / ١٤٧٦.

٢ - الشرح الحديـدي لنهج البلاغـة الحكمة / ٩٩.

٣- غُرر الحكم، الحكمة /٨٨٧٩.

٤- غُرر الحكم، الحكمة / ٨٤٥٨.

٥- غُرر الحكم، الحكمة /٩٩٤٣ وقال علي (عليه الســلام) في هٰذا المعنىٰ: بذل التحية من حسن الأخلاق والسجية. غُرر الحكم، الحكمة /٩٩٤٤.

تَتَبَيَّنُ جَواهرُ الكُرَماء[١].

جَواهِرُ الكُرَماءِ طاقاتٌ كامنةٌ في العقل والروح والنفس والضمير والقلب والدم، تبقىٰ في حالةٍ من الكمون والاختفاء حتىٰ تصادف موقفاً مهماً يستدعي الإيْثار والتضحية بالمال أو النفس أو بكليهما معاً؛ فإذا بها تَتَحَوَّلُ بِلا تردٍ الىٰ طاقاتٍ بارزةٍ تتفجرُ نفعاً وعائدةً وإحساناً وكَرَماً في سبيل الطرف المقابل فرداً كان أو جماعة أو أمة من الأمم أو الانسانية جمعاء. وبذلك تتبيَّن الحَقائقُ الناصعة وتتكشفُ الجواهرُ السنيَّةُ القيِّمةُ للكرماء، ويُعرف لهم فضلُهُمُ الأَوْحَدِيُّ الفارِدُ المُبين.

لقد عاش كعب بن مامة الإيادي عمرَه كله ولم يكد يشتهر عنه الكرم والإيْثار ما بين الناس، ولم تُدرك شخصية هٰذا الجنديِّ المجهول، بل القائد الكريم المُضَاع ما بين شعاب الأهلين والوطن. حتىٰ إذا ما كان ذات مرَّةٍ مع أصحاب له، أو مع رفيق واحد، يسير في طريقٍ شائكِ الأرض، طويلِ المسافة، ممتدِّ الأبعاد، تتوهَّجُ فيه الشمسُ توهُّجا، وتَتَلَهَّبُ الرمالُ تلهّبا.. في يومٍ نحسٍ مستمرٍّ.. عَبَست فيه مَباهِجُ الحَيَاة.. وذَوَتْ الشِّفاه.. وتهاوت قِلاعُ الآمال.. وشخصَت فيه الأَبصَار.. وبَلَغَت القلوبُ الحَناجر.. وامتدَّت المحنة.. واشتدَّت البَلوىٰ.. واستعرَت الأَكْبَاد من العطش استعارا.. واحترقت القلوبُ من الظمأ احتراقا.. وتَضاءَلَت مَعالِمُ الحُبورِ والمَسرَّة.. فإذا بكعبِ بنِ مَامة تتفَجَّرُ طاقَتُه الكامِنةُ مِن الكرمِ والإيْثار فهو يُقَدِّمُ المَاءَ الذي لا يَمتَلكُ غيرَه أَبداً الىٰ صاحبه لِيَحيا ويعيشَ بخير، ويقضي هو نَحْبَهُ من الظمأِ القاتِلِ العنيد، وليهتف لسانُ حالِهِ وهو فَرِحٌ مُسْتَبشرٌ بما قَدَّم راغباً طائعا، وضَحّىٰ مُتَفضلاً مُتَكَرِّما، وبما آثَرَ عن طيبِ نفسٍ وحَنانِ قلبٍ وسجاحَةِ كَفٍّ وعذوبَةِ روحٍ وسُموِّ خُلُق: لا يعزُّ الماء، إذا لم يعزّ الفِداء.

يا عَيْنُ بَكِّي قائداً مُلهماً ... باللؤلؤ المنتظمِ الساكبِ

---

١ – غُرر الحكم، الحكمة / ٩١٧٠.

وليس يـــغني الدمـــعُ لكـــنه ... نَـــــفحةُ حَـــقٌّ لازمٍ واجبِ

بَكِّـــي رَبـيعَ الفـضلِ والمُـرتَجىٰ ... وكـــعبةَ القـــاصِدِ والراغبِ[1]

---

١ - الأبيات من قصيدتنا (يا عَيْنُ بِكّي للنَّدىٰ الغائبِ) التي نعتصر فيها الدموع الساخنة علىٰ الجود الغائب والجواد الشهيد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ونشير الىٰ إيثاره ومآثره:

يـــا عَـيْنُ بَكِّـــي للـنَّدىٰ الغـائبِ ... بـــعد اغـتيالِ ٱبـن أَبـي طـالبِ

مـــنتَجَعِ الخـــيرِ ومأوىٰ الوَرىٰ ... فـــي كُـــلِّ يـومٍ حـالِكٍ ساغبِ

غـــالَتهُ أيـــد لم تكـــن تـهتدي ... فـــي غـــير دنـيا نـوره الثـاقبِ

* * * * *

يـــا عَـــيْنُ بَكِّـــي قـائداً مُـلهماً ... بـــاللؤلؤ المـــنتظم الســـاكبِ

وليس يـــغني الدمـــعُ لكـــنه ... نـــفحةُ حَـــقٌّ لازمٍ واجبِ

بَكِّـــي إمـــام النـاس والمـرتضىٰ ... فـي كـل خـطب عـابس حـازبِ

وصـــاحبَ الحـوضِ لدىٰ مـحشرٍ ... حـــتمٍ عـــلىٰ الصـادق والكـاذبِ

يســـقي كـرامَ النـاسِ مـن كَـوثرٍ ... يـــا طـيبَ عـيشِ الواردِ الشـاربِ

بَكِّـــي ربـــيعَ الفـضل والمـرتجىٰ ... وكـــــعبةَ القـــــاصدِ والراغبِ

وواهبَ الكـــــنزِ لسُـــــوّاله ... وليس فـــوق الأرض كـــالواهبِ

وراهبَ اللـــيل، ومَـــعنىٰ التـقىٰ ... جُسِّـــــدَ بـــالذاكـــر والراهبِ

وضـــاربَ الشـــرك بأثـــباجه ... ومـــعقدُ الآمـــال بـــالضاربِ

وقـــامعَ الفـــتنة مـــا أقـــبلت ... مـــثل انـــتشار الغـــيهب الواثبِ

مَـــن كـــان جـبرائـيلُ عـوناً له ... وصـــاحباً قُـــدِّسَ مِـن صـاحبِ

فـــي غـــسله الطـهر نـبيّ الهـدىٰ ... وفـــي ٱحـــتدام الرَّهـــجِ اللاهبِ

* * * * *

يـــا عَـــيْنُ بَكِّـــي أمـــة لا يُـــرىٰ ... مـــن مـــثلها فـــي الأُفُـــقِ اللاحبِ

قـــد كـــان عِـــدلَ الجـيش لكـــنه ... مـــا خـــاب والذِّلَّـــةُ للـخائبِ

عـــزيمةُ العـــالم فـــي جـــانبٍ ... وعَـــزمُه القـــاهـرُ فـــي جـانبِ

مـــا خَـــطَّ مـــن سـيئة كـاتبٌ ... عـــليه بـــل أثـنت يـد الكـاتبِ

يَـــهتزُّ للـــجودِ ورُوّادِه ... مـــثل ٱهـــتزازِ الصـارمِ القـاضبِ

منزعُ الكَريم

٦٥ ـ قال إمام الصديقين والأَولياء علي (سلامُ اللهِ عليه) : منزعُ الكريم أَبَداً الىٰ شِيَمِ آبائِه[١].

ما قاله الإمام (عليه السلام) معروف ومذكور في علم الوراثة الحديث ، كما أنه موصوف ومشهور لدىٰ ألباء الناس في الجاهلية وما بعدها من العصور ، ولقد قال زهير بن أبي سلمىٰ الشاعر الجاهلي في هٰذا المعنىٰ:

فما كان من خير أتوه فإنما ... توارثه آباء آبائهم قبلُ

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه ... وتغرس إلا في منابتها النخلُ

وقال عُمَيْر بن عطارد التميمي في حرب صفين :

لها حديثٌ ولها قديمٌ ... إنَّ الكريمَ أصلُه كريمُ

وقيل بعد ذلك بزمن طويل :

كرموا وجاد قبيلُهُم من قبلهم ... وبنوهم من بعدهم كرماءُ

إلا أَنه في بعض الحالات الشاذة عن القاعدة[٢] لا ينزع الكريم ـ بحدِّ ذاته ـ الىٰ شيم آبائه ، بسبب كونهم غير كرام ، وفي بعض الحالات الشاذة أيضاً أَو القريبة من الشذوذ أن أُولئك الكرام لم يُوَفَّقوا لانجاب الولد الكريم الذي يمضي علىٰ ما مضوا عليه من الجود والإحسان ، ولهذا يقول أحد المعاصرين :

وليس كريم النفسِ من كان أصلُه ... كريماً اذا ما خالف الأصل واعتدىٰ

---

١ – عيون الحكم والمواعظ ، الحكمة / ٨٩٥٦.

٢ – كلام الإمام علي (سلامُ اللهِ عليه) (منزع الكريم أبداً الىٰ شيم آبائه) قاعدة حضارية عامة ولكل قاعدة شواذ لا تهدم صرح القاعدة ، فإذا ما رأينا كريماً من آباء ليسوا كراماً فهو من هذا الشذوذ.

الخير والعطاء وطيب المشاعر وتفقد المحتاجين والابتعاد عن المنِّ والأذىٰ من شيم آباء الكريم، فهو في أخلاقه وسلوكه علىٰ ما كان عليه الآباء من الأخلاق الفاضلة والسلوك العاطر والمشاعر الفياضة الدافقة بالشمم والنبل والشهامة. نعم قد يختلف الأسلوب وطريقة التعامل ما بين عصر وعصر وبقعة جغرافية وأخرىٰ ولكن روح الأخلاق وجوهر السلوك هما هما لا يغير مجاريهما تعاقب الأيـام والأعوام وتتابع الأحقاب والقرون.

تقديمُ العِرْضِ وبذلُ العَرَض

٦٦ – قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السـلام): مِنَ اللُّؤْمِ أَنْ يَصُونَ الرَّجُلُ مالَهُ وَيَبْذلَ عِرْضَهُ[١].

لا يَمُرُّ عصرٌ من العصور التاريخيةِ إلا ويوجَدُ فيه جُفَاةٌ طَغَامٌ، عَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّـمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّىٰ عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَىٰ يَدَيْه، لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْـصَارِ، وَلا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَان[٢]. إذاً فهل مِن الغرابة في شيءٍ أَن يكونَ هؤلاءِ وأَضرابُهُم مثالاً بارزاً لمن يصونونَ الأموالَ ويبذلونَ الأَعراض؟

ولا يَمُرُّ عصرٌ من العصور التاريخيةِ إلا ويرىٰ الناس فيه أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلا رِجَـالَ، حُلُوم الأَطْفَالِ، وَعُقُول رَبَّاتِ الْحِجَالِ[٣]. إذاً فهل مِن الغرابة في شيءٍ أَن يكونَ هؤلاءِ وأَضرابُهُم مثالاً بارزاً لمن يَصُونونَ الأموالَ ويبذلونَ الأَعراض؟

---

١ – غرر الحكم / ٥٦٠٨.

٢ – هـذا الوصف الجميل استقيناه من خطبة للإمام علي بن أبي طالب، انظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٣ / ٣٠٩.

٣ – هـذا الوصف الجميل استقيناه من خطبة للإمام علي بن أبي طالب، انظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢ / ٧٦.

لو استنطقنا الفلسفة الاجتماعية والأخلاقية والتربوية عن التقديم الصحيح ـ في حالة التزاحم ـ ما بَين بذل العِرض، وبين بَذل العَرَض فماذا هو المتوقع منها أن تجيب؟

لا رَيب في أنَّها ـ اذا كانت قويمة الهدف وصحيحة المبنىٰ ـ تجيب بتقديم العِرْضِ وانفاق الأموال ذَوْداً عن ساحة الشرف المقدس، وصيانةً لحريم السلوك والأخلاق والسموِّ الإنساني.

إن الدين الإسلامي الحنيف في خطه العام وتربيته البناءة طالما يؤكد تأكيداً جاداً علىٰ هٰذا المعنىٰ في نصوصه الجليلة، كما يعرف ذلك أيضاً من مذاقه العام.

وللإمام علي كلمات وحكم وافرة في هٰذا المضمار منها هذه الحكمة الأخيرة، ومنها كذلك ما جاء في كتاب «غرر الحكم» من الكلمات القصيرة، وذلك مثل قوله (صلوات الله عليه):

ـ أبخل الناس بعَرَضه، أسخاهم بعِرضه.

ـ الكريمُ مَن صان عِرضه بماله، واللئيمُ من صان ماله بعِرضه.

قد أخذ ابن أبي بكر المقري (ت ١٠٠١ للهجرة) هٰذا المضمون الرفيع فقال من قصيدة طويلة جيدة ضمَّنها الكثير من أفكار علي وحكمه (عليه السلام):

فخيرُ مالِ الفتىٰ مالٌ يصون به ... عِرضاً وينفقه في أشرفِ السبلِ[1]

من أَشْرَفِ الشَّرَفِ الكَفُّ عن السَّرَفِ

٦٧ ـ قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام): مِنْ أَشْرَفِ الشَّرَفِ، الكَفُّ عَنَ التَّبذيرِ وَالسَّرَفِ[2].

---

١ ـ أحمد الهاشمي جواهر الأدب / ٦٧٣.

٢ ـ عيون الحكم والمواعظ، / ٨٦٧٧، وغرر الحكم، الحكمة / ٨١٤٣.

يبلغ حبُّ الشرف والسموِّ الاجتماعي لدىٰ بعض الناس مبلغاً عظيماً، وتغمر أمواجه المتلاطمة رؤوسهم المتعالية، وتأخذ منهم كلَّ مأخذ؛ حتىٰ انهم لَينسون أو يتناسون من أَجل ذلك ما لهم وما عليهم، وكلَّ شيء لا يصب في هٰذا السبيل.

وما أكرمَ وأجملَ حب الشرف والسمو الاجتماعي ما لم يتعارض في مجمل حالاته وتفصيلها مع القوانين السماوية، أو يتنافىٰ مع المبادىء الأخلاقية والتربوية الراشدة.

غير أن حُبَّ الشرف عند بعض الناس ينمُّ عن الأَنانية، أو يدلُّ علىٰ التكبر والاستعلاء، أو يشير الىٰ الانكباب علىٰ طلب السمعة المصحوبة بالرياء، أو يبعث علىٰ التفاخر غير المشروع والتنافس اللامُبرَّر، أو يحمل في طياته ما سوىٰ ذلك أيضاً من المواصفات المشينة المَهينة التي لا يجدر أن يتسم بها أصحاب الحلم الرزين، والوقار المَهيب، والمنطق الراجح.

ومن جملة علامات حبِّ الشرف والتسامي الممقوت البذلُ الوافرُ والعطاءُ الفخمُ في غير المَحَلِّ المناسب، والنحر والذبح والإطعام في صور غير مُحَبَّذَة ولا مُستَملحة من البذخ الشديد، والتكلف الظاهر، والترف المبسوط، والتبذير الفاحش. مما قد لا يُحْمَدُ القائمون به في الحياة الدنيا، ولا يؤجرون في الآخرة، أو قد ينطبق عليهم قول الله تبارك وتعالىٰ: «فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ»[1].

ولنقرأ معاً هذه القصة التأريخية لنستطلع من خلالها موقفاً نظرياً وعملياً لسيد الأجواد والكرماء في عصره وعالمهم الأكبر، وما اتخذ من قرار إزاء كريم جواد لم يحسن التصرف والاكرام، قال السَّيِّدُ علي خَانٍ المدنيُّ شَارحُ الصَّحيفة في «الطَّبقاتِ الرَّفِيعَةِ»، في ترجمة الفرزدق الشَّاعر: كان أبوه غالب من أجِلَّةِ قومه وسَراتِهِمْ سَيِّد بادِيةِ تميمٍ، وله مناقب مشهورةٌ ومحامدُ مأثُورةٌ، فمن ذلك أنَّه أَصاب أَهلَ الكوفةِ مَجاعةٌ فخرج أكثر النَّاسِ إلىٰ البوادي، فكان هو رَئيسَ قومه،

١- الانفال الآية / ٣٦.

وكان سُحَيْمُ بن وَثِيلٍ رئيسَ قَومِهِ، فَاجْتَمَعُوا بمكانٍ يُقال له صَوْأَرُ في طَرَفِ السَّمَاوةِ من بلادِ كَلْبٍ علىٰ مَسِيرَةِ يَوْمٍ من الكوفة، فعقر غالبٌ[1] لأَهلِهِ ناقةً وصنعَ منها طعاماً وأَهدىٰ إِلىٰ قومِهِ من بني تميمٍ جِفاناً مِنْ ثَرِيدٍ، وَوَجَّهَ إِلىٰ سُحَيْمٍ جَفْنَةً فَكَفَّأَهَا، وضرب الَّذي أَتىٰ بها وقال: أنا مُفْتَقِرٌ إِلىٰ طعام غالبٍ! إذا نَحر ناقةً نحرتُ أُخرىٰ. فوقعت المنافرةُ، وَنَحَرَ سُحَيْمٌ لأَهْلِهِ نَاقَةً. فَلَمَّا كان من الغدِ عقر غالبٌ لأَهلِهِ نَاقتينِ؛ فعقر سُحَيْمٌ لأَهله ناقتين، فَلَمَّا كَانَ اليومُ الثَّالثُ نَحَرَ غَالِبٌ ثلاثاً؛ فَنَحَرَ سُحَيْمٌ ثَلاثاً، فلما كان اليومُ الرَّابعُ عَقَرَ غَالِبٌ مائةَ ناقةٍ، فلم يكن عند سُحَيْمٍ هٰذا القدرُ فلم يَعقرْ شيئاً. وَأَسَرَّهَا في نَفْسِهِ فَلَمَّا انْقَضَتِ المجاعة ودخلتِ النَّاسُ الكوفةَ قال بنو رِياحٍ لِسُحَيْمٍ: جَرَرْتَ عَلينا عارَ الدَّهر هَلا نَحَرَتْ مِثْلَ ما نحر وكُنَّا نُعْطيكَ مكانَ كُلِّ ناقةٍ ناقتينِ؟

فَاعتذر أَنَّ إِبله كانت غائبةً. وعَقر ثلاثمائةِ نَاقَةٍ، وقال للنَّاس: شَأْنُكُمْ وَالأَكلَ. وكان ذلك في خلافةِ أَميرِ المؤْمنين (عليه السلام)؛ فاسْتُفْتِيَ (عليه السلام) في الأكل منها فَقَضىٰ بِتَحْرِيمها وقال: هَذِهِ ذُبِحَتْ لِغَيْرِ مَأْكَلَةٍ، ولم يكن المَقْصُودُ منها إلا الْمُفَاخَرَةَ والْمُباهاةَ[2]. فَأُلْقِيتْ لُحُومُها علىٰ كُنَاسَةِ الكوفةِ؛

---

١ – تعاقَر الرجُلان: عَقَرا إِبلَهما يَتَباريَان بذلك ليُرىٰ أَيُّهما أَعْقَرُ لها؛ ولما أَنشد ابن دريد قوله:

فما كان ذَنْبُ بني مالك ... بأَنْ سُبَّ منهم غُلامٌ فَسَبّْ

بأَبْيَضَ ذِي شُطَبٍ باتِرٍ ... يَقُطُّ العِظامَ ويَبْرِي العَصَبْ

فسره فقال: يريد مُعاقرةَ غالب بن صعصعة أَبي الفرزدق وسُحَيم بن وَثِيل الرياحي لما تَعاقَرَا بِصَوْأَر، فعقر سحيم خمساً ثم بدَا له، وعَقَر غالبٌ أَبو الفرزدق مائة. لسان العرب، مادة / عقر.

٢ – في حديث ابن عباس: لا تأْكلوا من تَعاقُرِ الأَعراب فإِني لا آمَنُ أَن يكون مما أُهِلَّ به لغير الله. قال ابن الأَثير: هو عَقْرُهم الإِبل، كان الرجلان يَتَباريانِ في الجود والسخاء فيَعْقِر هذا وهذا حتىٰ يُعَجِّزَ أَحدُهما الآخر، وكانوا يفعلونه رياءً وسُمْعة وتفاخُراً ولا يقصدون به وجه الله تعالىٰ، فشبَّهه بما ذُبح لغير الله تعالىٰ.

فأكلتها الكلابُ والْعِقْبَانُ والرَّخَمُ[١].

كشف الضرِّ عن الناس صفةٌ روحيَّةٌ وقدسيَّة

٦٨ – قال الإمام علي (عليه السلام): مَا مِنْ عملٍ أَحَب إلىٰ الله تعالىٰ من ضُرٍّ يَكْشِفُهُ رَجُلٌ عن رَجُلٍ[٢].

تعليـــقات

أولاً ـ جعل الإمام أَمير المؤمنين (عليه السلام) كشف الضرِّ عن الناس وانتشالَهم وسيلةً كبرىٰ الىٰ حبِّ الله تبارك وتعالىٰ، ولقد أراد من ذلك أنْ يميط اللثام بصورة أَجلىٰ عن الحقيقة الشماء من أن عمل الخير والإحْسان الىٰ الناس مما يقرِّب الىٰ الله سبحانه ويحبِّب المحسن اليه تعالىٰ. عن أَنس بن مالك عن رسول الله «ص»: اذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالىٰ أهل الجنة صفوفاً، وأهل النار صفوفاً، فينظر الرجل من صفوف أهل النار الىٰ صفوف أهل الجنة فيقول: فلان أما تذكر يوماً اصطنعت اليك في الدنيا معروفاً؟ فيأخذ بيده فيقول: إنَّه كان[٣].

ثانياً ـ إن كون كشف الضرِّ عن الناس وسيلةً كبرىٰ الىٰ حُبِّ الله تبارك وتعالىٰ مما يُضفي علىٰ كشف الضرِّ صفةً روحيَّةً وقدسيَّةً؛ الأمر الذي يستحِثُّ الخُطىٰ الإنسانية الىٰ المزيد من رعاية الآخرين والتفاعل التنفيذي البناء معهم لمساعدتهم واستنقاذهم.

ثالثاً ـ ليست مقولة الإمام (مَا مِنْ عملٍ أَحَب إلىٰ الله تعالىٰ من ضُرٍّ يَكْشِفُهُ

١ـ رجال أبي العباس النجاشي (١٦٧) / ٤٤١ – في ترجمة ربعي بن عبد الله بن الجارود، ومستدرك الوسائل لحسين النوري ١٦ / ١٩٤٦٥. ولسان العرب، مادة / عقر.

٢ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٨٧٧٩، وغرر الحكم، الحكمة / ١٠٣٠٨.

٣ – ابن أبي الدنيا، كتاب قضاء الحوائج، الرواية / ١٩.

رَجُلٌ عن رَجُل) إلا قانوناً صحيح المؤدىٰ متين المبنىٰ بعيد النظرة، يحمل علىٰ كتفيه الشديدتين عمادَ القيمِ الإلهية والمبادىءِ الإنسانية الفاضلة، وهو سليم الانطباق علىٰ كشف الضرِّ عن الرجال غير الصالحين وغير المسلمين فضلاً عن المؤمنين والصالحين من المسلمين كما كان الإمام أَمير المؤمنين (عليه السلام) يصنع ذلك ويحسن اليهم ـ بلا أَدنىٰ شُبهة ـ ولكن لا ينبغي أن يترك القانون مَرتعاً خصيباً لمن يستغلونه ـ عن قصدٍ وعمدٍ ـ ضدَّ القيمِ الإلهية والمبادىءِ الإنسانية الفاضلة. فما هكذا كان الإمام أَمير المؤمنين (عليه السلام) لا نظريةً ولا تطبيقاً ـ بلا أَدنىٰ شُبهة ـ.

رابعاً ـ قد يقال لماذا خَصَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) كشف الضر لرَجُلٌ عن رَجُلٍ دون رجل عن مرأة وهل أن عظمة أجر الكشف مشروط بكونه عن الرجل لا المرأة؟

والجواب : إنما ذكر الإمام كشف الضر عن رجل باعتبار الحالات الغالبة من شكوىٰ الرجال الىٰ الرجال حول وجود الضر أو الفقر أو مشكلة معينة، أو اطلاع الرجل الآخر علىٰ المشكلة بصورة من الصور فيحاول إماطتها وكشف الضر عن أخيه المبتلىٰ بها، وليس في الحديث اختصاصٌ للكشف عن الرجل فحسب.

وكان أمير المؤمنين علي (عليه السلام) يوصي وصيةً بليغةً أكيدةً بالمرأة، ويحث علىٰ دعمها ومساعدتها والإحْسان اليها كما في وصيته المعروفة : اللهَ اللهَ في النساءِ وما ملكت أَيمانُكم: فإن آخرَ ما تكلم به نبيُّكم أن قال: أُوصيكم بالضعيفين النساء، وما ملكت أَيمانكم.

تعليلٌ وتعليق

٦٩ – قال أميرُ المؤمنين علي (صلوات الله عليه): مَنْعُ الْكَريمِ أَحْسَنُ مِنْ

بذْلِ اللّئيمِ[١].

هـذه الحكمة القيمة من كلمات الإمام أمير المؤمنين (عليه السـلام)، مـن جملة الحكم التي تحتاج الىٰ بيان وتعليل لما يكتنفها من غموض العلَّة، اذ كيف يكون المنع وإن كان من قِبَل الكريم، أحسنَ من البذل وإن تقدمت به يد اللئيم، فمع حصول البذل من اللئيم تنتفي أرجحية الكريم عليه؟

والجواب الصحيح فيما نعتقد ينبغي أن يكون من اعتبار انّ الإمـام (عـليه السـلام) في الوقت الذي ينظر الىٰ ضرورة قضاء حوائج الناس وأهـمية القـيام بأعبائها، ينظر كذلك الىٰ الضروريّات الأخلاقيَّة الأُخرىٰ من قبيل صيـانة مـاء الوجـه من تقطيره علىٰ أعتاب اللئام، وإكـرام النفس عن مـطالبتهم والتـعرض لاستلام بعض ما بأيديهم.

كما ان اللئيم ـ في الأَعمِّ الأغلب من حالاته وأوضاعه النفسية الرديئة ـ لا يعطي ما أعطىٰ حباً بالبذل والسخاء، وإنما يمدّ يده بالعطاء - في بعض الحالات الاستثنائـية - لأغراضٍ دنيئةٍ تنسـجم وحقارةَ الأهداف التي يصبو اليها، وصِغَرَ النفس التي ينطوي عليها، وكلّ هٰذا يضاف الىٰ قلّة مايعطي عادةً.

أما اذا أضفنا الىٰ ذلك الصفة المنحطَّة والدنيئة التي يتّصف بها اللؤماء «وهي صفة المنّ» فإنَّ العلَّة ستصبح واضـحةً جداً.

وأمّا الكريم فليس المنّ من شمائله، ولا قلَّة العطاء من سجاياه، ولا خبث الأهداف من طبائعه، ولئن منع من العطاء في بعض الحالات، فإمّا لعدم توفّر ما يعطي، وإما لتقديمه أشخاصاً آخرين علىٰ هٰـذا المـتعرِّض للـنوال، أو رأىٰ أنّ جماعة من الناس قد استغلّوا كرمه استغلالاً بشعاً، أو أقبلوا علىٰ ما في يديه اقبالاً مريباً. إنَّ من الصفـاءِ الحضـاريِّ المائـزِ أن لا نُسـيءَ الظـنَّ بـالكـرامِ، وأنْ لا نُحسنَ الظنَّ باللئام[٢].

١- غُرر الحكم، الحكمة /٥٦١٠.

٢ - في الوقت الذي لا تعني فيه هذه القاعدة التسرُّع الىٰ أعراض الناس بالشتم والقـدح،

وأودُّ أن أختم هٰذا الموضوع بأبيات رائعة لمنصور الفقيه حيث يقول ـ ونرجو أن يكون طبعه كما يذكر في شعره ـ:

الموتُ أسهلُ عندي بين القَنا والأَسِنَّة
والخيل تجري سراعاً مقطعاتِ الأَعِنَّة
من أن يكونَ لنذلٍ عَليَّ فضلٌ ومِنَّة

أُسس المعايير التقييمية

٧٠ – قال أميرُ المؤمنين علي (سلام الله عليه): يُستدلُّ علىٰ الكريمِ بحُسن بشره، وبذل بِرِّه[١].

إنَّ من الضرورات العلمية والمنهجية والأخلاقية أن تكون أسس المعايير التقييمية راسيةً علىٰ أرضيَّةٍ صلبةٍ متينةِ القرار، وأن تكون عادلة منصفة، وأن تتسم بالوضوح والجلاء لدىٰ أولي العلم والمعرفة والثقافة العالية. فلا يُحكَم لشيء أو علىٰ شيء كلياً أو جزئياً إلا بدليل صحيح وبرهان ساطع.

ومن هٰذا المنطلق فاذا ما حاول المحاولون الاستدلال علىٰ بخل البخيل ولؤم اللئيم ودناءته فلا بدَّ من (وجود الدليل الصحيح والبرهان المنير الساطع).

ومن هٰذا المنطلق كذلك فاذا ما حاول المحاولون الاستدلال علىٰ جود الجواد وكرم الكريم وسموِّه فلا بدَّ من (وجود الدليل الصحيح والبرهان المنير الساطع).

وإمام الحكمة والعلم وأمير العدل والانصاف يقدِّم دليله علىٰ كرم الكريم بحُسن البشر، وبذل البِرِّ. وهو الاستدلال المنطقي والتجريبي الذي يُقَدَّمُ الىٰ أولي

فانها تعني بالضرورة وتؤكد علىٰ أهمية اتخاذ المواقف الاحتياطية منهم وحسن الابتعاد عن مصادقتهم ومعاشرتهم خشيةً من العدوىٰ.

١– غُرر الحكم، الحكمة / ٨٥٠٣.

العلم والمعرفة والثقافة العالية، والىٰ ما دون ذلك من العقلاء، فلا يجـدون مجالاً ومندوحةً عن الأخـذ به، وعن الانضمـام الطائع الىٰ رايته المجيـدة المـرفوعة فوق الكواهـل والغوارب والرؤوس.

إنَّه لا يُكتفىٰ من الكريم أبداً ـ كقاعدةٍ تربويةٍ عامة ـ أن يكون حسنَ البِشر، دون بذلِ الإحْسان والبرّ، كما لا يُكتفىٰ منه أبداً أن يكـون بـاذلاً للـبرِّ ومـانحاً للجزيل، من دون ابتسـامةٍ شفافةٍ طَروب، ووجهٍ متهلِّلٍ بالطلاقـةِ والترحيب.

وعلىٰ مساقط ضوء مانفهمه من هٰذه الحكمـة العلوية المباركة فإن الكريم ـ بحسب لُباب الحقيقة ـ ليس ذلك الذي زَمَّر له النفاق السياسي الخادع ولا الذي طبَّل له الإعلام الكذوب والمُضلِّل حتىٰ أصبح يُعَدَّ مِن الكرماء أو مِن أعيانهم ومِن الأَجواد أو مِن أعلامهم، بل الكـريم مَن هو بالفعل وعلىٰ أرض الواقع مَن كـان حُسْنُ البِشْرِ وبذلُ البِرِّ مِن أبرز مصاديق كَرَمِهِ المُشار إليه، بلا مَيْنٍ وافـتراءٍ ولا تـــــــزويرٍ وتـــــــحبير.

وَقودُ النّارِ يَـوْمَ القِيامة

٧١ - يُروىٰ أن علياً (صلوات الله عليه) قال: وَقودُ النّارِ يَوْمَ القِيامةِ كُـلُّ غنيٍّ بَخِلَ بِمالِه علىٰ الفُقَـراءِ، وكُلُّ عالِمٍ باعَ الدِّيـنَ بالدُّنْيا[1].

مَا الذي يَهدفُ اليه الإمام الأكبـر علي بن أبي طالب (سَـلامُ اللهِ عَلَيه) من اطلاق هذه الحكمـة التغييريَّة العظيمـة؟ هل يَهـدفُ الىٰ أن يُشعلَ ثورةً عارمةً في عالم السياسة والاجتمـاع؟ هل يهـدفُ الىٰ أن يعلن صرخَـةً هـادرةً مدوِّيَـةً عـلىٰ الضـمـائر المـتعفنة والمشـاعر البليدة الخرساء؟ هل يهـدفُ الىٰ أن يفجِّـرَ مَقـراتِ الأفكارِ البـاليةِ، ومقابرَ الآراءِ الخاويةِ والمعـارفِ الجوفاء؟ ما يدرينا ما يهـدف اليه،

١- عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٩٢٢٧.

وإن كنا لنحسبه يريد هٰذه الأمورَ كلها جميعاً .

إن من الأبعاد الرئيسية والعميقة لفلسفة الإمام علي بن أبي طالب مَا تتمحض في تسخير شتىٰ القُوىٰ المادية والعلمية لصالح الإنسان في الأرض. وعلىٰ هٰذا الأساس فإن من الضروري شرعياً وعقلياً أن تنفق أموال الأغنياء ـ في الجانب الأهم والأكبر منها ـ لانتشال الفقراء والمساكين والمحرومين، ومن أجل ترميم بناء الحياة البائسة، واصلاح المستوىٰ المعيشي الهابط[1].

وعلىٰ هٰذا الأَساس أيضاً فإن من الضروري أن تُسْتَمطر سماء العلوم والمعارف من أجل أن تسقي الأرواح الظامئة والنفوس العطشىٰ، وكلَّ قفر وجديب علىٰ الصعيدين الفردي والاجتماعي والإنساني.

إلا أنه اذا بخل الأغنياء بأموالهم فمن أين يتمُّ انتشالُ الفقراء والمساكين والمحرومين، وترميم بناء الحياة البائسة، واصلاح المستوىٰ المعيشي الهابط؟

١- إذ أن المال بأيدي الأغنياء ليس مجرد نعمة اكتسبوها بأيديهم أو رزق واسع تفضل به عليهم الوهاب الكريم سبحانه، بل هو كذلك أَمانة عندهم قد توردهم الجحيم في يوم القيامة. بمعنىٰ أن **الأَموال بأيدي الأغنياء مسؤوليةٌ شاقةٌ أَضعاف ما هو خير ونعيم يستمتعون به**. وقد روي عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أنه قال: يؤتىٰ برجل يوم القيامة وقد جمع مالاً من حرام وأنفقه في حرام فيقال: اذهبوا به الىٰ النار. ويؤتىٰ برجل قد جمع مالاً من حلال وأنفقه من حرام فيقال: اذهبوا به الىٰ النار. ويؤتىٰ برجل قد جمع مالاً من حرام وأنفقه في حلال فيقال: اذهبوا به الىٰ النار. ويؤتىٰ برجل قد جمع مالاً من حلال وأنفقه في حلاله فيقال له: قف لعلك قصرت في طلب هٰذا بشيء مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها، وفرطت في شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها. فيقول: لا يارب كسبت من حلال وأنفقت في حلال، ولم أُضيع شيئاً مما فرضت. فيقال: لعلك اختلت في هٰذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به. فيقول: لا يارب لم أختل ولم أُباهِ في شيء. فيقال: لعلك منعت حق أحدٍ أمرتك أن تعطيه من ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل.
فيقول: لا يارب لم أُضع حقَّ أحد أمرتني أن أعطيه. فلا يزالُ يُسأل. انظر ابن أبي الدنيا، في كتاب قضاء الحوائج ٢ / ٤٩.

واذا باع العالم الدين بالدنيا فمن أين يتأتىٰ استمطار سماء العلوم والمعارف من أجل أن تسقي الأرواح الظامئة والنفوس العطشىٰ، وكلَّ قفر وجديب علىٰ الصعيدين الفردي والاجتماعي؟

ذلك أن (ثمرة العلم العملُ للحياة)، و (جمال العالم عمله بعلمه)[١]. واذا ما كان الأمر ـ يا لشديد الأسف ـ علىٰ العكس من ذلك، فهذا يعني بكل دقة أن خير وأفضل ما يُرجىٰ ويُبتغىٰ من وجود الأغنياء المتمثل في أموالهم وأن أحسن وأكمل ما يرجىٰ ويبتغىٰ من وجود العلماء المتمثل في علومهم قد ذهب سدىٰ وتلاشىٰ أدراج الرياح. وأن دعامتين أساسيتين لصرح سعادة الناس قد هدمتا هدماً كاملاً وأطيح بهما علىٰ يدي كُلِّ غنيٍّ بَخِلَ بِمالِه علىٰ الفُقَراءِ، ويدي كُلِّ عالِمٍ باعَ الدِّينَ بالدُّنْيا. ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم[٢].

« أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَـوْمَ يَـقُومُ ٱلنَّـاسُ لِـرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ * كِـتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَـئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ »[٣].

وَعدُ الأكارمِ أَحَـدُ العَطاءَين

٧٢ – قال الإمـام علي (عليه السلام): وَعْدُ الْكَرِيمِ نَقْدٌ وَتَعْجِيلٌ[٤].

١– الحديثان معاً من كلام الإمام علي (عليه السلام) كما في غرر الحكم / ١٦٠ ـ ١٦١.

٢ – ولقد كتبنا حكمة الإمام حول وقود النار شعراً فقلنا:

وقَـودُ النـارِ فـي يـومِ القيامة ... غـنيٌّ بـاخلٌ يـزوي حُـطامَهْ
ومـختزن العـلوم يـبيع دنـياً ... وأخـلاقاً ولم يُـمسك زمـامَهْ
تـردّىٰ فـي مـواطـنَ مُـخجِلاتٍ ... تـردّي العـنزِ فـي جُبِّ القـمامة

٣ – المطففين، الآية / ٤ ـ ١٢.

٤ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٩٢٤٢.

اذا ما توفرت للأَكارم القابلية والامكانية الفعلية علىٰ البذل والعطاء فإنهم يبادرون الىٰ ذلك ولا يقصرون في أداء المسؤولية الملقاة علىٰ عواتقهم، وأَما اذا لم تسنح الفرصة ولم تتوفر الامكانية اللازمة فإنهم يقعون ما بين خيارين: إما الوعد بانجاز المطلوب في المستقبل المنظور ولعله يكون في القريب العاجل، وإما الاعتذار وإغلاق الباب أمام الطالبين والمتضررين.

إن النفسية العالية والخاصة التي يمتلكها الأكارم لَتَمنعهم في الأعم الأغلب من الخيار الثاني، إلا أن تكون المشكلة المعروضة فوق قابلياتهم وطاقاتهم فيتعين لديهم الخيار الأول.

إنَّ اختيار الوعد بالانجاز عند الأكارم مما يؤسسه علىٰ الصدق والبعد عن الاحتيال والخديعة، ومما يرسيه علىٰ التصميم في تقديم ما هو المطلوب وحل مشكلة الطرف المقابل، فهم يحاولون جهد الامكان أن لا يخيب الراجي، ولا ييأس الطالب، ويفرحهم كثيراً أن تحل المشكلة بالفعل حلاً مناسباً وطيباً.

قال تبارك وتعالىٰ في سورة الإسراء: «وأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلا»[1]. وقال عَزَّ مِنْ قائِل في سورة مريم: «واذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صادِقَ الْوَعْدِ..»[2]. وجاء في سورة (المؤمنون): «والَّذِينَ هُمْ لأَماناتِهِمْ وعَهْدِهِمْ راعُونَ»[3].

ولقد ورد في تفسير العياشي عن الفقيه العادل عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ»؟ قال: العهود.

وقال رسول الله «ص»: عدة المؤمن أخذ باليد.

وروىٰ الشيخ الصدوق رحمة الله ورضوانه عليه في كتاب «الخصال» باسناده عن شعبة عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق عن عبد الله بن

١- الإسراء الآية / ٣٤.
٢- مريم الآية / ٥٤.
٣- المؤمنون الآية / ٩.

مسعود، عن النبي «ص» قال: أربع من كن فيه فهو منافق، وإن كانت فيه واحدة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتىٰ يدعها: من إذا حَـدَّث كذب، وإذا وَعَـدَ أخلف، وإذا عَاهَـدَ غدر، وإذا خَاصَـمَ فَجَر.

وفي المجالس للمفيد بالإسناد عن الأصمعي عن عيسىٰ بن عمر قال: سأل رجل أبا عمرو بن العلاء حاجة فوعده. ثم إن الحاجة تعذرت علىٰ أبـي عـمرو فلقيه الرجل بعد ذلك فقال له: يا أبا عمرو وعدتني وعداً فلم تنجزه!

قال: أبو عمرو فمن أولىٰ بالغم أنا أو أنت؟

فقال الرجل: أنا.

فقال أبو عمرو: لا والله بل أنا.

فقال له الرجل: وكيف ذاك؟

فقال: لأنني وعدتك وعداً فأبتَ بفرح الوعد وأبت بِهَمِّ الإنجاز، وبت فرحا مسروراً، وبت ليلتي مفكراً مغموماً، ثم عاق القدر عن بلوغ الإرادة فلقيتني مذلاً، ولقيتك محتشما.

وتأسيساً علىٰ هٰذا يصحُّ لنا القول: وَعْـدُ اللئامِ شَرُّ البُخْلين.

وأما اللئام في الأعم الأغلب فهم إما أن يقبضوا أيديهم عن العطـاء ونواياهم عن التفكير بالخير والمساهمة في ارفاد المحتاجين، وإما أن يعدوا وعوداً كأنها البرق الخُلَّب أو السراب الكَذوب. ولا نريد تفصيل الحديث عـن وعـود اللـئام فتنقبض أرواح القراء الأفاضل وتشمئز قلوبهم. إلا أن من يصممـون منهم عـلىٰ الاستطلاع حول ذلك عليهم أن يعيـدوا الكرَّة في قراءة ما كتبناه قبل قليل فـي وصف وعود الأكـارم فيقلبـونه رأساً عـلىٰ عـقب؛ ليـحصـلوا عـند ذلك عـلىٰ النتيجـة بكل وضوح.

وتأسـيساً علىٰ هٰذا يصحُّ لنا القول: وَعْـدُ اللئامِ شَرُّ البُخْلين.

من جمع المال لينفع به الناس أطاعوه

٧٣ – قال علي بن أَبي طالب «سلام الله عليه»: مَن جَمَعَ المالَ لِيَنتَفِعَ بِهِ الناسُ أَطاعُوه، ومَنْ جَمَعَهُ لِنَفْسِهِ أَضاعُوه[١].

التقييم الاجتماعي للانسان الغني ـ من زاوية الغنىٰ ـ تكريماً وإجلالاً علىٰ أساس ما يقدِّم للآخرين وينفع ويحل المشكلات ويتعاطىٰ مع الروح الانسانية، فهو بذلك يستحق السيادة والوجاهة والكلمة المسموعة، وليس التقييم الاجتماعي للانسان الغني تكريماً وإجلالاً علىٰ أساس ما يمتلك من الأموال الطائلة والعقارات الكبيرة التي لا ينتفع بها غيره، ولا يستمتع بها سواه، ولا تخدم من شيء إلا شهواته وملذاته وأهواءه الذاتية البلهاء.

نعم قال الحكيم الحضين بن المنذر الرقاشي: لوددت أن لي مثل جبل أحد مالاً لا أنتفع منه بشيء. فقيل له: ولِمَ؟ قال: لكثرة من يخدمني عليه. يعني بذلك هيبة المال ومكانته في نفوس الأكثرية من الناس، ولكن هؤلاء الذين يخدمونه انبهاراً بكثرة الأموال سوف يتفرقون عنه يميناً وشمالاً بمجرد أن يعلموا أن لا طائل تحت هذا المال، وأن لا سبيل الىٰ انتفاعهم بأكداسه المتراكمة. ويا ليتهم يتفرقون ويبتعدون بلا سَبٍّ مُقْذِع، ونقدٍ مُوجِع، وتشهيرٍ مُضْلِع.

ويتعرض القرآن الحكيم الىٰ الغني الفاجر الذي لا يلتجأ الىٰ الله ولا يلتجأ اليه عباد الله بالنقد والتجريح والانذار والوعيد الشديد قائلاً: «كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ»[٢].

كما يقول تبارك وتعالىٰ أيضاً: «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ»[٣].

وللإمام علي كلمات جميلة في مثل هٰذا السياق ونحوه، من بينها قوله (عليه

١– عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٨٣١٧، وغُرر الحكم، الحكمة / ٨٤١٦.

٢ – المعارج، الآية / ١٨.

٣– الهمزه الآية/١ ـ ٤.

الســلام): لا يجمع المال إلا الحرص ، والحريص شقي مذموم[١]. وعن هٰذا اللون المقيت من جمع الأَمـوال وادخارها وسوء التصرف بها يقول (عليه الســلام): المال يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة[٢]. ويقول أيضـاً : إذا أَراد [الله] بعبد شراً حبب إليه المـال ، وبسط منه الآمـال[٣]. وبطبيعة الحال ليس حب هٰذا الغافل المسكين للمال إلا من أجل المال ، وليست آماله إلا آمال الجاهل المغترِّ بالحياة الدنيا ، المنخدع بزخارفها الكاذبة وزينتها الذاهبة .

مقابلةُ الإِحْسان والجميل بالاساءة

٧٤ – قال أميـرُ المؤمنين علي (صلوات الله عليه): لا تنفع الصنيعة إلا في ذي وفاء وحفيظة[٤].

ليست هٰذه الحكمة في صدد النهي عـن اصـطناع الجـميل إلا لذي وفـاء وحفيظة بمعنىٰ عدم صِحَّة الاصْطِناع الىٰ غيرهم ممن يجهل حاله فـي التـمسك بالحجر الأَسود المبارك للوفاء والحفيظة ، أو من يعلم حاله فـي عـدم التـمسك بالحجر الأَسود المبارك للوفاء والحفيظة ، بل انَّ الحكمة فـي صـدد إيـضاح أن الصنيعة لا تنفع إلا في هٰذين الصنفين الغـنـيين فـي مـحتواهـما والطـيبين فـي عنصرهما . إذاً يبقىٰ الفارق الجوهري شاخصاً بـين صِـحَّـة الاصْـطِناع ، وبـين إمكانيةِ الانتفاع .

إن مَنْ لا يمتلك أَخـلاقَ الوفاءِ والحَفيظةِ لا يقابل الإِحْسان بالإحـسان ، بل قد يغض النظرات عن الفضل والإنعام وعُبَيْدُ السوءِ مَن يطبق الأَجْفان ، عَن مَراتِعِ الفَضـلِ والإحسـان ، إن لم يـصدر الأسـوء والأدهـىٰ مـنه فـيقابل الإِحْسان والجميل بالاساءة والاعتداء والتذمر . كما سلك هٰذا الخط المشين مَن لا يجهلهم التأريخ ، ولا يخفون علىٰ المجتمع . وأجـدني صـادقاً ومـحقاً اذا مـا

١– غُرر الحكم ، الحكمة / ٨٣١٠.
٢– غُرر الحكم ، الحكمة / ٨٢٩٨.
٣– غرر الحكم / ٨٣٠٤.
٤ – غرر الحكم / ٥٢٦٨.

أصحرت بالقول وهتفت من الأَعماق: إنَّ شَرَّ حالاتِ الصَّغارِ والقَماءَة، مقابلةُ الجميلِ بالإساءة.

مواقعُ الجُودِ والإيْثار

نعم إن هذه الحكمة المباركة تنسج أشعةَ الضوءِ الأَخضر الذي يشير بوقارٍ ورزانةٍ الىٰ تقديم الأوفياء وأُولي الحفيظة في إكرامهم ومعاضدتهم وحلِّ مشكلاتهم، علىٰ من لم يكونوا كذلك.

إنَّ تقديم الأوفياء وأُولي الحفيظة وكذلك الأبرار والأكارم ونحوهم في إكرامهم ومعاضدتهم وحلِّ مشكلاتهم علىٰ من لم يكونوا كذلك، منهج اختطه الفكر الاسلامي في بياناته الوافرة ونصوصه المتظافرة، بما يجد إسناداً ودعماً مركزياً من قبل العقل والمنطق والتجارب الإنسانية. ومن تلك البيانات والنصوص ما نراه في الحكم الغراء التالية:

- لا تزكو الصنيعة مع غير أصيل.
- مِنْ سعادة المرءِ أَن يكونَ إحسانُهُ عند من يَشْكُرُهُ ومعروفُهُ عندَ مَن لا يَكْفُرُهُ.
- خير البر ما وصل إلىٰ الأحرار.
- ظَفِرَ بسَنِيِّ المَغانم، واضعُ صنائِعِهِ في الأَكارم.
- مِن أفضل الإحْسان الإحْسان إلىٰ الأبرار[1].
- لا معروف أضيع من اصطناع الكفور[2].
- لا تصحب من فاته العقل، ولا تصطنع من خانه الأصل[3]؛ فإن من لا

---

١ ـ توجد هذه الحكم والنصوص مبثوثة في هٰذا الكتاب.

٢ـ غرر الحكم / ٨٨٧٢.

٣ ـ في النسخة من خافه الأصل والظاهر أنها تصحيف من خانه.

عقل له يضرك من حيث يرىٰ أنه ينفعك، ومن لا أصل له يسيء إلىٰ من يحسن إليه[١].

وقال الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: يَا علي أربع يذهبن ضياعاً: الأكل بعد الشبع، والسراج في القمر، والزرع في الأرض السبخة، والصنيعة عند غير أهلها[٢].

الاستثنـــاءاتُ الدقيقـــة

علىٰ أن هٰذا المنهج الذي اختطه الفكر الاسلامي في بياناته ونصوصه القيمة لا يتنكر للحالات الاستثنائيَّة في التعامل الاجتماعي والسياسة العامَّة من ضرورة الإحْسان والتكرم علىٰ المسيئين؛لمصلحة تعود الىٰ المحسن أو الىٰ أمته أو شعبه أو دولته كما نلاحظ فيما يلي:

ـ الإحْسان إلىٰ المسيء يستصلح العدو[٣].

– إن مقابلة الإساءة بالإحْسان، وتغمد الجرائم بالغفران، لمن أحسن الفضائل، وأفضل المحامد[٤].

– إن من مكارم الأخلاق أَن تصلَ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك[٥].

– مَن أحسن إلىٰ من أساء إليه، فقد أخذ بجوامع الفضل[٦].

– مِن أحسن الكرم الإحْسان إلىٰ المسيء[٧].

– لا يحوز الغفران، إلا من قابل الإساءة بالإحسان[٨].

– المحسن من عَـمَّ الناسَ بالإحسان[٩].

---

١ ـ غرر الحكم / ٨٨٧٠.
٢ – بحار الانوار، ٧٧ / ٥٥.
٣ ـ غرر الحكمة، الحكمة / ٨٨٧٤.
٤ ـ المصدر / ٨٨٧٧.
٥ ـ المصدر / ٨٨٧٩.
٦ ـ المصدر / ٨٨٨٠.
٧ ـ المصدر / ٨٨٨١.
٨ ـ المصدر / ٨٨٨٢.
٩ ـ المصدر / ٨٨٨٣.

إن كون الصنيعة لا تنفع إلا في ذي وفاء وحفيظة من جهة أن غيرهما لا يشكر المنعم ولا يقابل الجميل بالجميل، ولكن قد تحصل المنفعة من غير هذا المجال، مِن قبيل أن من الناس من يكبرون ويبجلون مثل هذا الصانع الكريم الذي يحسن الىٰ مختلف الناس بما فيهم من ليس له وفاء أو ليس له حفيظة، ومن قبيل ما ينتظره المحسن المنعم ويرتجيه من ثواب الله تعالىٰ وشكره وثنائه. ولنعم ما قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): لا يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لا يَشْكُرُهُ لَكَ فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ يُدْرَكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ، أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين[1].

إلا أنه ينبغي التنبيه وإلفات النظر الىٰ أن الإحْسان للمسيئين تارةً يكون من حيث العفو عن بعض جناياتهم، وتارةً من حيث الجود عليهم، كما ينبغي التنبيه وإلفات النظر الىٰ أن الألباء الواعين والفطنين، هم الذين يجيدون ـ بفهمٍ وذكاءٍ ـ اختيار مَن يحسنون اليه من المسيئين، ولكنهم مع ما أوتوا من قدرة وحسن ذوق علىٰ التمييز، فإن أخطاءهم في هٰذا المضمار ليست بالأخطاء الشاذة الوجود، كما قد أثبتت ذلك التجارب والخبرات الإنسانية الكثيرة.

البخيل ظالم أثيم

٧٥ – قال علي (عليه السلام): لا سوءَ أسوأ من البخل[2].

لقد علمنا أن المَذامَّ الأَخلاقيةَ كثيرةُ العددِ مثل الظلم والكذب والحسد وإخلاف الموعد والبخل... فكيف يكون البخل هو الأسوء من بين هٰذا المذامِّ الأَخلاقيةِ المتعددة كلِّها؟

يبدو أن الأمر محيِّر وأن هذه الحكمة مقلقة للتفكير لا سيما أن الظلم والكذب من بين الأخلاق السيئة، وهما هما ضعةً وشراً وانحطاطاً، غير أن انعام

---

١ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٢٤، الحكمة رقم / ٢٠٠. كما قال علي (عليه السلام): المحسنُ المذمومُ مرحوم.

٢ – غرر الحكم / ٦٥٣٦.

النظر في الحديثين التاليين يكتسح الحيرة والقلق فيما أعتقد، وأحد الحديثين قد مرَّ علينا: سمع عبد الله بن عمر بن الخطاب رجلاً يقول: الشحيح أعذر من الظالم. فقال ابن عمر: كذبت، سمعت رسول الله «ص» يقول: الشحيحُ لا يدخلُ الجَنَّة.

والحديث الآخر سوف يأتي عن الصادق عن آبائه (ع): أنَّ أمير المؤمنين سمع رجلاً يقول: إنَّ الشحيح أعذر من الظالم. فقال له: كذبت، إنَّ الظالم قد يتوب ويستغفر ويردّ الظلامة علىٰ أهلها، والشحيح اذا شحَّ منع الزكاة، والصدقة، وصلة الرحم، وقِرىٰ الضيف، والنفقةَ في سبيل الله، وأبوابَ البِرّ، وحرامٌ علىٰ الجنَّة أَن يدخلها شحيح.

إذاً قد اتضح من الحديثين معاً أن البخيل أدنىٰ من الظالم، واذا كان الأَمرُ كذلك فقد هان الخَطبُ كثيراً؛ لأَن الظلم أَشَدُّ ما يتراءىٰ للعينين من القبائح الأخلاقية والرذائل السلوكية.

ولكن الذي يلحُّ علىٰ التفكير بالاشكال هو في استخراج العلة من حيث كون البخل أو الشح أسوء من الظلم. الذي نفهم من الحديث الثاني أن الظلم ليس ملكةً راسخةً في نفس الظالمين بشكل عام بدليل انَّ (الظالم قد يتوب ويستغفر ويردُّ الظلامة علىٰ أهلها) أو أن مَلَكَةَ الظلم في قوتها ورسوخها دون ملكة البخل والشح الذي يعسر كثيراً الاقلاع أو الانسحاب منها؛ وعلىٰ هٰذا الأساس فالتجارب التأريخية والاجتماعية شاهدة علىٰ التائبين من الظلم أكثر من التائبين من البخل. ولعمري إنه ليزحفُ لواءُ الموتِ القهارِ فيتسارعُ الظالمون الىٰ التوبة، ويتباطأ الباخلون.

لقد تسارع كثير من الظالمين الىٰ التوبة، وتباطأ الآخرون؛ لعلم الظالمين بالوبال الوخيم الذي هم عليه من الاعتداء علىٰ الناس، ولجهل الكثيرين من البخلاء برداءة وسوء وقبح ما هم عليه من الواقع المزري المُهين، ومن الوضع الأخلاقي المَهين، وما يدريك لعل النفسية المريضة للبخيل قد بخلت عليه بالتوجه الىٰ الله تعالىٰ والتوبة من الذنوب.

ويمكن أن نضيف الىٰ ذلك أيضاً أن البخيل ظالم أثيم مَا مَنَعَ

الحُقوقَ وأجحفَ بكَرامَةِ الآخرين . وقد عرفنا مما تقدم أن البخل استعداد نفسي وملكة شديدة الرسوّ في نفوس البخلاء، في حين أن الظلم لم يكن بهذه الدرجة العاتية. ومن هٰذا المنطلق ـ لا سيما أن أمير المؤمنين علياً قد أماط اللثام عن وضع الشحيح مقارنةً بالظالم ـ نعتقد أن لا سوء أسوأ من البخل، من جهة كون شدة ملكة البخل لدىٰ البخلاء، أقسىٰ وأعتىٰ وأطغىٰ، مما هي عليه لدىٰ المتصفين بالصفات الأخلاقية القبيحة الأخرىٰ، وأن النزوع عن تلك الصفات والتوبة منها، لأَيسر علىٰ أصحابها وأَهون في مقام العمل من نزوع البخيل عن البخل وتوبته منه.

وقد اعتمدنا علىٰ سمو ثقافة القراء الأفاضل في تركنا الكلام حول التأكيد علىٰ أن الصفات الأخلاقية القبيحة الأخرىٰ، إنما هي علىٰ درجات متفاوتة، وكون البخل كذلك علىٰ درجات متفاوتة، مما يجعل المقارنة أقرب الىٰ الحالة النسبية نوعاً ما، أي ينبغي أن ينظر فيها الىٰ مقدار ما ينطوي عليه هٰذا الشخص أو ذاك من الاتصاف الشائن بملكة سيئة معينة. وتبقىٰ المحصِّلة النهائيَّة بصورة عامَّة مقررةً بحكمة وبدقة: أن لا سوءَ أسوأ من البخل.

«وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»[1].

أَفضلُ الأَموالِ أحسنُهَا أَثراً عَلَيك

٧٦ ـ قال أميرُ المؤمنين علي (صلوات الله عليه): أَفْضَلُ الأَمْوالِ أَحْسَنُها أَثَراً عَلَيْك[2].

قد يُفسر حديث الإمام (عليه السلام) بمعنىٰ أحسنها أثراً عليك من حيث جودة اللباس، ورقي وسيلة النقل، وارتفاع القصور، واتساع الحدائق، وغير

---

١ ـ الحديد الآية / ١٠.

٢ ـ غرر الحكم / ٨٢٨٨.

ذلك من المظاهر المادية التي تُستخدم عادةً للأغراض الشخصية. ولا ننكر صحة هٰذا المعنىٰ في بعض المجالات ولكن شريطة أن يكون من جملة المعاني التي يقصدها الإمام (عليه السلام) لاكلها؛ لأنَّ من يعرف الأهداف العليا لابن أبي طالب يُكبره عن أن يظن فيه قصور تفكيره وفلسفته علىٰ الاستمتاع بالشؤون المادية لا سيما في مجالاتها الشخصية دون أي شيء ما وراء ذلك.

أليس من كلام له الإمام (عليه السلام) بالبصرة وقد دخل علىٰ العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه يعوده فلما رأىٰ سعة داره قال: مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا أَمَا أَنْتَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ، وَبَلَىٰ إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ[1].

ولو كان القائل لهذه الحكمة (أَفْضَلُ الأَمْوالِ أَحْسَنُها أَثَراً عَلَيْك) مِن غير الفلاسفة الإلهيين، والعلماء الربانيين، وأعلام الاصلاح الاجتماعي والأخلاقي، لأمكن تفسيرها بما يعود الىٰ الانتفاع بالمظاهر المادية الخلابة في صعيدها الشخصي، ولكن قائلها مَن يعترف له المحققون، وخَزَنة العلوم، وأرباب المعارف، بالتقدم البارز فيهم، والرئاسة المتميزة عليهم، وأن علي بن أبي طالب هو ذٰلك المُحيطُ الأعظمُ لعلومِ ومعارفِ الدنيا والدين.

إن المصداق الأسمىٰ من مصاديق أفضل الأموال أحسنها أثراً عليك، هو ما جاد به الإنسان وأنفقه، عن طويَّةٍ خالصة، وقلبٍ سليم، ونفسٍ كريمة، بلا مَنٍّ ولا أذىٰ، حيث يُمَثِّلُ الانفاقُ الكريمُ في سبيل الله أفضلَ الأثَرِ للأموال وأنفعَهُ في الدنيا والآخرة. فاعْرِفِ المُفَكِّرَ فِي سلوكِهِ وأعمالِه، تَعرفْ مَاذا يَقصدُ مِن فَلْسَفَتِهِ وأَقْوالِه[2].

---

١ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١١ / ٣٢.

٢ – ليس المقصود من عبارتنا هذه أن بإمكاننا معرفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) حقيقةً وجوهراً، فنحن أقل من ذلك، ولكن المقصود معرفة الخطوط العريضة أو المعالم الرئيسية الصحيحة لشخصيته وسلوكه بعد كثير من الدراسة والتحقيق.

الإبقاء علىٰ الأموال أو الرجال

٧٧ ـ قال علي (سلام الله عليه): اللؤمُ إيثارُ المالِ علىٰ الرجال[١].

هذه الحكمة القدسيَّةُ المُتْقَنَة من الحكم التي أَثبتت التجارب الطويلة والمختبرات الاجتماعية والسياسية الكثيرة جداً صحتها وسداد محتواها؛ فإنَّ بَذْلَ المَال، مَكْسَبَةٌ للرِّجال، وإنَّ يَمينَ السَّخاء، مَجْلَبَةٌ للبُعَداء، كما نعتقد ذلك. بينما يقف البخلُ والشحُّ علىٰ قدمي التشنج والتوتُّر في جهة الضِّدِّ والمواجهة من ذلك. إنَّ البخلَ يخسفُ أرضيَّةَ الصداقة، وإنَّ الشُّحَّ يبترُ سواعدَ الصِّلات ويجذُّ أَيمانَ العلاقات، وإنَّ اللؤمَ يكسفُ شمسَ المَوَدَّةِ والقَرابة، كما نعتقد ذلك أيضاً.

وليس من الضرورة المنطقية أن يرجع السبب في هٰذا الأمر الىٰ أن المطامع المادية وحدها تستقطب الناس، وأن انعدامها أو ضعفها يبعدهم ويفرقهم، بل يرجع الأمر في الدرجة الأولىٰ الىٰ أن البخل والشح يدعوان الىٰ عدم حسن الضيافة وإكرام الوافدين والقاصدين، والىٰ الابتعاد كثيراً عن احترام الجَمِّ الغفيرِ من أفراد المجتمع، ومَنْ لا يُكْرِم القاصدينَ مِنَ الناسِ، فَهَيْهَاتَ أن يَفْقَهَ مَعْنىٰ الحَفَاوَةِ والاجْلال. كما أن ذلك يعني أو يشير الىٰ وهن أو تضاؤل نسبة المحبة والأنس بالمقابل. وأي حُرٍّ كريم يصبر علىٰ عدم الاحترام والحفاوة والاجلال من ناحية، وعلىٰ وهن أو تضاؤل نسبة المحبة والأنس بالمقابل من ناحية ثانية؟

إذاً سوف يخسر اللئيمُ أُولي المطامع من الرجال، كما يخسر الأحرارَ والكرام، وهل الرجال في كلِّ عصر ومكان إلا من هذين الصنفين؟ فلئن استطاعَ اللئيمُ الابقاءَ علىٰ أَمْوالِه، فإنَّه لن يستطيعَ الإبقاءَ علىٰ رجاله، فتأَمَّل.

وهٰكذا يصنع اللؤم الذي هو (مضادٌّ لسائر الفضائل وجامع لجميع الرذائل والسوآت والدنايا)[٢] بأهليه وذويه تجريداً لهم من حسن السمعة وطيب الأثر

---

١ – غرر الحكم / ٥٥٧١.

٢ – من كلمات الإمام علي، غرر الحكم، الحكمة / ٥٥٨٤.

ومن العلاقات الأخوية والارتباطات الودية، وهَلْ نَكَّسَ رايَةَ الأَشرافِ والأَثْرِياء، كالبخلِ علىٰ الأَحبابِ والأَولياء؟ والحقُّ أنه لا بقاءَ لطولِ الصُّحْبَة، وإخلاصِ المَحَبَّة، مَعَ الشُّحِّ واللؤم.

المؤثرونَ منْ رجالِ الأَعراف

٧٨ ـ قال إمام الأئمة علي (سلامُ اللهِ عليه): الموقنونَ والمخلصونَ والمؤْثِرونَ من رجالِ الأَعْراف[١].

يتجلىٰ في هٰذا الكلام العلوي الجميل ذلك التشخيصُ الدقيقُ لمنزلة المؤثرين عند الله تبارك وتعالىٰ يوم الورود عليه فإنهم من رجال الأعراف. إلا أن علينا أولاً وقبل كل شيء أن ندرك ما هي الأعراف ثم من هم رجالُها؟ قال عَزَّ مِنْ قائِل في الذكر الحكيم:

«وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَىٰ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ»[٢]. فهنالك حيث يتم ويُستَعرض الحديث عن الأعراف نشاهد ثلاثة أمور شاخصة أمام أعيننا تحتاج الىٰ تبيين وايضاح وهي:

١ ـ الأعراف.

٢ ـ ناس موقوفون في الأَعراف.

٣ ـ رِجَال علىٰ الأعراف.

أما الأعراف بحدِّ ذاتها فهي كثائب من المسك كما جاء في الرواية عن إمام العلماء جعفر الصادق[٣]. وأما الناس الموقوفون في الأعراف فهم خليط مختلف

---

١ – غرر الحكم الحكمة / ٣٣١٢، وعيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ١٥٠٥.

٢ ـ الأعراف، الآية / ٤٦.

٣ – روي عن عتيبة بياع القصب عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال:

من النساء والرجال قد استوت حسناتهم وسيآتهم، فهم بمنزلة ما بين الجنة والنار. وأما الرجال علىٰ الأعراف فهم من حيث المكانة لدىٰ الله تعالىٰ كأفضل ما يكون، ومن حيث الوظيفة العملية فمن أجل القيام بمهمة التوسط والتشفع للناس الموقوفين في الأعراف؛ حتىٰ يرتفعوا الىٰ منزلة الجنة ويُستَنقذوا من النار، ومن حيث المصاديق فهم رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وأئمة أهل البيت النبوي (سلامُ اللهِ عليهم)، كما ورد في عدة روايات.

بيد أنه يبقىٰ التعارض ـ بحسب الوجهة الظاهرة ـ قائماً ما بين هذه الروايات وما بين القول المتقدم لعلي (عليه السلام): الموقنون والمخلصون والمؤثرون من رجال الأعراف، فالروايات تشخصهم بالرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وأئمة أهل البيت النبوي (ع) وأمير المؤمنين يتحدث عن الموقنين والمخلصين والمؤثرين. وفي اعتقادي أن ليس ثَم شيء من التعارض الحقيقي في البَيْن؛ ويتضح الأمر من خلال أحد الجهتين التاليتين وهما: إما أن يقصد بالموقنين

سألته عن قوله: «وَعَلَىٰ الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ» قال: نحن أصحاب الأعراف فمن عرفناه كان منا ومن كان منا كان في الجنة، ومن أنكرناه في النار. انظر بحار الأنوار ٢٤ / ٢٥١.

وفي كتاب المقتضب لأحمد بن محمد بن عياش، باسناده عن أبان بن عمر ختن آل ميثم قال: كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فدخل عليه سفيان بن مصعب العبدي فقال: جعلني الله فداك ما تقول في قوله تعالىٰ ذكره: «وَعَلَىٰ الأَعْرَافِ رِجَالٌ..» الآية. قال: هم الأوصياء من آل محمد الاثنا عشر لا يعرف الله إلا من عرفهم وعرفوه. قال: فما الأعراف جعلت فداك؟ قال: كثائب من مسك عليها رسول الله «ص» والأوصياء يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ. فقال سفيان: أفلا أقول في ذلك شيئاً؟ فقال من قصيدة:

أيا ربعهم هل فيك لي اليوم مربعُ ... وهل للياليّ كن لي فيك مرجعُ

وفيها يقول:

وأنتم ولاة الحشر والنشر والجزا ... وأنتم ليوم المفزع الهول مفزعُ

وأنتم على الأعراف وهي كثائب ... من المسك رياها بكم يتضوعُ

انظر بحار الأنوار ٢٤ / ٢٥٢.

والمخلصين والمؤثرين النبي وأئمة أهل البيت؛ باعتبار أنهم علىٰ وجه التحديد أسمىٰ وأفضل مَن يمثِّل بدقة حالات اليقين والاخلاص والايثار. وإما أن الروايات التي تتحدث عن الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وأئمة أهل البيت (ع) تتحدث عنهم لا بلغة الانحصار أو الاختصاص بهم أي أنهم (سلامُ اللهِ عليهم) رجال الأعراف دون سواهم، بل بمعنىٰ أنهم أكمل وأفضل من يتشفعون ويتوسطون علىٰ الأعراف، ولكن لا علىٰ جهة الانحصار أو الاختصاص،

وإنما يتوسط ويشفع لبعض الناس غيرهم كذلك، وهم خيرة الخِيَر من البرية وصفوة العالَم إنهم هم الموقنون والمخلصون والمؤثريون[1].

وطبقاً لهذا التفكير يحتلُّ المؤثرون علىٰ أنفسهم من مختلف الجنس البشري الدرجاتِ المرموقةَ الساميةَ في اليوم الآخر، إبان فرح واستبشار وابتهاج الكثيرين من الناس حتىٰ بالدرجات المنخفضة الحدود والعادية نسبياً. إذاً لم يكن أصحاب الإيْثار في يوم الدين، يوم يقوم الناس لربِّ العالمين، ممن يزحزح عن النار بفجائعها وأهوالها فحسب، ولا ممن يدخل الجنة ويتمتع بخيراتها

---

١ – ان للمفسرين أقوالاً شتىٰ في تفسير الأعراف وأصحابه فأما تفسير الأعراف فلهم فيه قولان: الأول أنها سور بين الجنة والنار أو شرفها وأعاليها أو الصراط. والثاني أن المراد علىٰ معرفة أهل الجنة والنار رجال. وقد عرفت أن الأخبار تدل عليهما وربما يظهر من بعضها أنه جمع عريف كشريف وأشراف فالتقدير علىٰ طريقة الأعراف رجال أو علىٰ التجريد. ثم القائلون بالأول اختلفوا في أن الذين علىٰ الأعراف من هم فقيل إنهم الأشراف من أهل الطاعة والثواب، وقيل إنهم أقوام يكونون في الدرجة السافلة من أهل الثواب. فالقائلون بالأول منهم من قال إنهم ملائكة يعرفون أهل الجنة والنار، ومنهم من قال إنهم الأنبياء أجلسهم الله علىٰ أعالي ذلك السور تمييزاً لهم عن سائر أهل القيامة، ومنهم من قال إنهم الشهداء. والقائلون بالثاني منهم من قال إنهم أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم، ومنهم من قال إنهم قوم خرجوا إلىٰ الغزو بغير إذن إمامهم، وقيل إنهم مساكين أهل الجنة، وقيل إنهم الفساق من أهل الصلاة. أقول: قد عرفت مما مرَّ من الأخبار الجمع بين القولين، وأن الأئمة عليهم السلام يقومون علىٰ الأعراف ليميزوا شيعتهم من مخالفيهم ويشفعوا لفساق محبيهم، وأن قوماً من المذنبين أيضا يكونون فيها إلىٰ أن يشفع لهم. انظر بحار الأنوار ٢٤ / ٢٥٧.

الحسان ونعيمها الخالد فحسب، بل إنهم ممن يتشفعون الىٰ الربِّ الرحيمِ في تخليص الكثير من المذنبين والخاطئين والجاهلين فيُشفَّعون، ويتوسطون فيُبَجَّلون ويُكرَمون. إنَّ مَن طبيعَتُهُ الإحْسان حقّ الإحْسان للآخرين في الدنيا، فلسوف يُحْسِن حقَّ الإحْسان للآخرين يومَ الدين[1].

الإيثار فضيلة، الاحتكار رذيلة

٧٩ ـ قال إمام الأئِمة علي بن أبي طالب (عليه السلام): الإيثار فضيلة، الاحتكار رذيلة[2].

لا ريب أن ما بين الإيثار وبين الاحتكار انسجاماً لفظياً وايقاعاً موسيقياً متناغماً، ولكن ليس هذا كل شيء في قوة النص العلوي المتأتي من الجمع بين اللفظين، بل إنه يهدف الى ما هو أَسمى وأَسنى، ونتعرف على ذلك من خلال استحضار كرائم المعاني المتفجِّرة من جاذبية الايثار وموقعه الرفيع في سلَّم عالم الأخلاق والمثل العليا، ومن خلال الالتفات الدقيق الى رذائل ما يوحي به الاحتكار[3]. فالمقابلة ما بين اللفظين تزيد الايثار صقلاً ونصَاعةً وبريقاً وانبساطاً في أَسارير البهجة والحبور، وتزيد الاحتكار كلالةً وقبحاً وثقلاً شديداً على النفس والشعور والذوق السليم.

---

١ ـ وهل من احسان وتفضل أجلّ وأعظم وأبهىٰ من انقاذ كثير من الناس يوم القيامة من النار، وادخالهم الجنة راغدين في نعيمها ولذائذها، خالدين بين قصورها وأنهارها.

٢ – غرر الحكم، الحكمة / ٨٢٠٠ والحكمة / ٩١٥٣. وفي عيون الحكم والمواعظ تقسيمها الىٰ حكمتين: الايثار فضيلة، الحكمة / ٧٨٧، والاحتكار رذيلة، الحكمة / ٧٨٨.

٣ – ذكر الفقهاء رضوان الله عليهم أن الاحتكار يكون في ستة أشياء الحنطة والشعير والتمر والزبيب والسمن والملح. وهو حبسها من البيع ولا يجوز ذلك وبالناس حاجة ولا يوجد غيره في البلد، فإذا ضاق الطعام ولا يوجد إلا عند من احتكره كان للسلطان أن يجبره على بيعه ولم يكرهه على سعر بعينه إذا باع هو على التقريب من سعر الوقت، فإن كان سعر الغلة مثلاً عشرين منّاً بدينار فلا يمكن أن يبيع خمسة أمنان بدينار ويجبره على ما هو مقاربة للعشرين.

فالذي عدَّه الناس أو يحب أن يعدَّ نفسه من أُولئك المؤثرين علىٰ أَنفسهم لا ينبغي له أَن يركس خلقه وسلوكه في تلك البركة الآسنة للاحتكار. لأن الاحتكار يتجلبب الحرص واللؤم، كما أَنه يتضمن مفهوم اللاانسانية ويستبطن معنىٰ استلاب حقوق المجتمع أَو حسب تعبير الإمـام (سَلامُ اللهِ عَليه) انه (رذيلة)، وأين هٰـذه الخبائث الشيطانية من الأَخلاق الملائكية التي حَشَّدَت قُواهـا لتـتمَثَّل بـخصلة الإيثار علىٰ النفس التي اعتبرها الإمام (فضيـلة)؟

الاحتكارُ في أَحاديث الإمام

لما كان الاحتكار محظوراً في الشريعة الإلهـية ومـضاداً للـقيم الإنسـانية ومنبثقاً من ينابيع الظلم والاعتداء علىٰ الناس إذاً لا بدعَ أن يُشَـدِّد إمام الأئـمة النكير علىٰ الاحتكار ويقيم الدنيا ولا يقعدها علىٰ المحتكرين في ظل حكومته العادلة وفي أحاديثه وكلماته القصيرة. فمن بين ذلك ما جاء عنه (عليه السلام):

١ ـ لما دخل الإمام سوق البصرة فنظر إلىٰ الناس لا هين بـالبيع والشـراء لاهين عن الآخرة ومنشغلين بالحلف علىٰ البيع والشراء قـال: يـا عـبيدَ الدنـيا وعمال أهلها إذا كنتم بالنهار تحلفون وبالليل في فرشكم تنامون وفي خلال ذلك عن الآخرة تغفلون فمتىٰ تحرزون الزاد وتفكرون في المعاد؟ فقال له رجل: يـا أمير المؤمنين إنه لا بد لنا من المعاش فكيف نصنع؟ فقال أمير المؤمنين (عـليه السـلام): إن طلب المعاش من حله لا يشغل عن عمل الآخرة، فإن قلت لا بد لنا من الاحتكار لم تكن معذوراً[١].

٢ ـ الاحتكار داعية الحرمان[٢].

٣ ـ المحتكر محروم نعمته[٣].

٤ ـ الاحتكار شيمة الفجار[٣].

---

١ - انظر الأمالي للشيخ المفيد / ١١٨، المجلس الرابع عشر مجلس يوم السبت.

٢ - غرر الحكـم، الحكمة / ٨٢٠١. د - غرر الحكـم، الحكمة / ٨٢٠٢.

٣ - غرر الحكـم، الحكمة / ٨٢٠٣، والحكمة / ٨٢٠٤.

٥ ـ المحتكر البخيل جامع لمن لا يشكره، وقادم علىٰ من لا يعذره[١].

٦ ـ من طبائع الأغمار إتعاب النفوس في الاحتكار[٢].

٧ ـ في عهد الإمام علي لمالك الأشتر: امْنَعْ مِنَ الاحْتِكارِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ «ص» مَنَعَ مِنْهُ، ولْيَكُنِ البَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً بِمَوازِينِ عَدْلٍ وأَسْعارٍ لا تُجْحِفُ بِالفَرِيقَيْنِ مِنَ البائِعِ والمُبْتاعِ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِك إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ وعَاقِبْهُ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ[٣].

كِرامُ المُتْخَمين

٨٠ ـ من كتاب للإمام علي (عليه السلام) إلىٰ عثمان بن حنيف الأنصاري وكان عامله علىٰ البصرة، وقد بلغه أنه دعي إلىٰ وليمة قوم من أهلها فمضىٰ إليها: أَمَّا بَعْدُ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ البَصْرَةِ دَعَاكَ إِلىٰ مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْها تُسْتَطَابُ لَكَ الأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الجِفَانُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلىٰ طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلىٰ مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هذا المَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وَجْهِهِ فَنَلْ مِنْهُ. أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ، أَلا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفىٰ مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ، أَلا وَإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ ذلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدادٍ، فَوَاللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِها وَفْراً، وَلا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبي طِمْراً، وَلا حُزْتُ مِنْ أَرْضِها شِبْراً، وَلا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلا كَقُوتِ

---

١ – غرر الحكم، الحكمة / ٨٢٠٥. وعيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ١٤١٨. غير أن فيه: المحتكر والبخيل جامع لمن لا يشكره..

٢ – غرر الحكم، الحكمة / ٨٢٠٧.

٣ – الشريف الرضي، نهج البلاغة / ٤٣٩.

أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَلَهِيَ في عَيْنِي أَوْهىٰ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ[١].

يوضح العلامة الكبير ابن أبي الحديد معنىٰ الكتاب فيقول بما مختصره: من فتية البصرة: أي من فتيانها أي من شبابها أو من أسخيائها، يقال للسخي هذا فتىٰ، والجمع فتية وفتيان وفتوّ[٢]. ويروىٰ أن رجلاً من قطان البصرة أي سكانها. والمأدبة بضم الدال الطعام يدعىٰ إليه القوم، وقد جاءت بفتح الدال أيضاً، ويقال أدب فلان القوم يأدبهم بالكسر أي دعاهم إلىٰ طعامه والآدب الداعي إليه، ويقال أيضاً: آدبهم إلىٰ طعامه يؤديهم إيداباً ويروىٰ وكثرت عليك الجفان فكرعت وأكلت أكل ذئب نهم، أو ضبع قرم. وروي وما حسبتك تأكل طعام قوم. ثم ذم أهل البصرة فقال: عائلهم مجفو، وغنيهم مدعو. والعائل الفقير.

ثم أمره بأن يترك ما فيه شبهة إلىٰ ما لاشبهة فيه وسمي ذلك قضماً ومقضماً وإن كان مما لا يقضم لاحتقاره له وازدرائه إياه وأنه عنده ليس مما يستحق أن يسمىٰ بأسماء المرغوب فيه المتنافس عليه؛ وذلك لأن القضم يطلق علىٰ معنيين أحدهما علىٰ أكل الشيء اليابس، والثاني علىٰ ما يؤكل ببعض الفم وكلاهما يدلان علىٰ أن ذلك المقضم المرغوب عنه لا فيه.

ثم ذكر (عليه السلام) حال نفسه فقال: إن إمامكم قد قنع من الدنيا بطمريه والطمر الثوب الخلق البالي، وإنما جعلهما اثنين لأنهما إزار ورداء لا بد منهما أي للجسد و الرأس. قال: ومن طعمه بقرصيه أي قرصان يفطر عليهما لا ثالث لهما، وروي قد اكتفىٰ من الدنيا بطمريه وسد فورة جوعه بقرصيه لا يطعم الفلذة في حوليه إلا في يوم أضحية. ثم قال: إنكم لن تقدروا علىٰ ما أقدر عليه ولكني أسألكم أن تعينوني بالورع والاجتهاد. ثم أقسم أنه ماكنز ذهباً ولا ادخر مالاً ولا أعدَّ ثوباً بالياً سملاً لبالي ثوبيه، فضلاً عن أن يعدَّ ثوباً قشيباً، كما يفعله الناس في إعداد ثوب جديد ليلبسوه عوض الأسمال التي ينزعونها، ولا حاز من أرضها

---

١ – شرح نهج البلاغة ١٦ / ٢٠٥، الكتاب / ٤٥.

٢ – قال الشاعر الجاهلي الأفوه الأودي:

وفتوّ حَسَنٍ أوجههم ... من إياد بن نِزارِ بن معدّ

شبراً والضمير في أرضها يرجع إلىٰ دنياكم، ولا أخذ منها إلاكقوت أتان دبرة وهي التي عقر ظهرها فقلّ أكلها. ثم قال: وهي في عيني أهون من عفصة مقرة. أي مرة، مقر الشيء بالكسر أي صار مراً، وأمقره بالهمز أيضاً[١].

ويعلّق الاستاذ جورج جرداق في مؤلفه القيم «عليّ وحقوق الإنسان» علىٰ كتاب الإمام علي الىٰ عثمان بن حُنَيْف قائلاً: قد يدعىٰ أحد الولاة الىٰ وليمة فيمضي اليها، فإذا بعلي يأنبه أشدَّ تأنيب، ويوبّخه أعنف توبيخ، أفلإقامة حقٍّ يريدون أن يرشوه بالدعوة والحق يُقام بدون رشوة، أم لإنزال الباطل منزلة الحق وليس للوالي أن يفعل ذلك ولو أُعطي سلطان الأرض، ثم كيف يمضي الىٰ وليمة يدعىٰ اليها الثري ويُبعد عنها الفقير والمعوز، وفي ذلك مظهر من مظاهر التفرقة بين الناس، ثم إشعار لهم بهذه التفرقة، مما يجرح بعض الخواطر، ويجرح قلب عليّ! أما حين يستقيم المجتمع، فليُدعَ قوم وليُبعد آخرون، فما في ذلك غبن[٢].

أقول: لم يكن عثمان بن حنيف الأنصاري (رض)[٣] مواطناً عادياً، بل كان من أكابر أصحاب النبي (صلىٰ الله عليه وآله) ومن زعماء المسلمين، وقد نصبه الإمام علي (سلام الله عليه) أميراً من قِبَلِه علىٰ البصرة، وهذا يعني أن مثله لا ينبغي له أبداً أن يحسب علىٰ الطبقة الارستقراطيّة، بل أن يكون أباً لجميع الذين يحيون في ظل حاكميّته، مع الحذر الشديد من الانتماء بشكل من الأشكال الىٰ طبقة كرام المتخمين والمترفين الذين لا تَصُبُّ سحابَة كرمهم الىٰ علىٰ أرض أشباههم ونظرائهم. ومن غير البعيد عن الحياة الاجتماعية لكرام المتخمين والمترفين أن تتكرر دعواتهم فإذا ما انتهت دعوة نادىٰ أحدهم الحاضرين الىٰ اجابة مأدبته وهكذا، وهذا يعني تلقائياً أن القائد الذي استجاب للمأدبة الأولىٰ أن يستجيب لغيرها وغيرها فيصنّفه الاعلام الرسمي أو الشعبي ضمن قائمة المتخمين

---

١ - باختصار من ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

٢ ـ عليّ وحقوق الإنسان / ١٩٠.

٣ - عثمان بن حنيف بن واهب الأنصاري أخو سهل بن حنيف، عمل لعمر ثم لعلي، وولاه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق، وضرب الخراج والجزية علىٰ أهلها، وسكن عثمان الكوفة بعد وفاة علي (عليه السلام) ومات بها في زمن معاوية.

والمترفين، وهذه هي العاصفة الرملية الحمراء التي من الصعوبة جداً أن يستطيع الخلاص منها والنجاة من آثارها، وفي ذلك فتنة عاتية له واتّهام لمن ولاه ونصبه ومحنة علىٰ الفقراء والمساكين؛ إذ تنفق الأموال الطائلة علىٰ من هم أحوج اليها منه بكثير وكثير، ولم يستطيعوا حتىٰ المشاركة في نصيب من الموائد الثريَّة في قصور قومٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. وفي مثل هذا حقاً (يتبيَّغ بالفقيرِ فقرُه)[1]. ولقد جاء في كنز العمال عن الرسول «ص» أنه قال: شرُّ الطعام الوليمة يُدعىٰ اليها الشبعان، ويحبس عنها الجيعان[2].

«إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ»[3].

أَولىٰ الناس بالإحسان اليهم

٨١ ـ عن فضيل بن عِياض عن عطاء بن السَّائب عن طاووس اليماني عن ابن عبَّاس في حديث طويل ذكر فيه دخول الرجل اليمانيِّ علىٰ أَمير المُؤمنين (عليه السلام) وشكايته من عدُوِّه وتعليمه (عليه السلام) الدعاء المعروف، إلىٰ أن قال: ثُمَّ قال: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِعَشَرَةِ آلافٍ فَمَنِ المُسْتَحِقُّ لِذلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فقال أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ (عليه السلام): فَرِّقْ ذلِكَ في أَهْلِ الوَرَعِ مِنْ حَمَلَةِ القُرْآنِ فَما تَرْكُو الصَّنِيعَةُ إلا عِنْدَ أَمْثَالِهِمْ؛ فَيَتَقَوَّوْنَ بِها علىٰ عِبادَةِ رَبِّهِمْ وَتِلاوَةِ كِتَابِهِ. فانْتَهىٰ الرَّجُلُ إلىٰ مَا أَشَارَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام)[4].

١ ـ يريد الرجل اليماني الكريم أَنْ يتَصَدَّقَ بعشرة آلاف فهو يسأل عن المُسْتَحِقِّ لذلك، ويعني بالمُسْتَحِقِّ لذلك أولىٰ الناس بالصدقة وأكثرهم استحقاقاً

---

١ ـ من كلمة للامام علي، ويتبيَّغ بمعنىٰ يهلك.

٢ ـ كنز العمال، الحديث / ٤٤٦٢٧. ٣ ـ الحاقَّة، الآيَة / ٣٣ ـ ٣٧.

٤ ـ مستدرك الوسائل ٧ / ١١٤ ـ ١١٥.

لها، ولا يعني أن سوىٰ الصنف الذين يريدهم لا يستحقونها بأي وجه من الوجوه، كما أَن الإمام أمير المُؤمنين بقوله: فَرِّقْ ذَلِكَ في أَهْلِ الوَرَعِ مِنْ حَمَلَةِ القُرْآنِ. لا يعني أن سوىٰ الصنف الذين ذكرهم لا يستحقون لها في جميع الأحوال، بل قد أَشار الىٰ أهمية التقديم والترجيح لهم علىٰ غيرهم، لا اختصاص الأَمر بهم ونفي شموليته لغيرهم.

٢ ـ لقد انتهىٰ الرَّجل إلىٰ ما أَشارَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) وعمل طبقاً لنصيحته وتوجيهه مما يدلّ علىٰ أنه كان رجل القول والعمل لا رجل الكلام فحسب، قال عيسىٰ بن مريم (عليه السلام): رأيت حجراً عليه مكتوب: أقلبني. فقلبته، فإذا علىٰ باطنه مكتوب: من لا يعمل بما يعلم مشؤوم عليه طلب ما لا يعلم ومردود عليه ما علم)[1]. أما العشرة آلاف فقد تصدَّق بها اليماني، وأما وِجْهَة الانفاق الأفضل فلم يعدُ عنها، فجزاه الله خيراً عن حسن مقصده وسلامة طويته وبارك له في صفقة يمينه.

٣ ـ المقصود بـ أَهْلِ الوَرَعِ مِنْ حَمَلَةِ القُرْآنِ: الصادقون في خشية الله عزَّ وجلّ والعمل بكتابه المجيد ممن يكثرون قراءة القرآن قراءة صحيحة[2]. فأما

---

١ – الإمام الصادق، مصبَاح الشريعة / ١٥. أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود (عليه السلام): إن أهون ما أنا صانع بعالم غير عامل بعلمه أشد من سبعين عقوبة باطنة: إن أخرج من قلبه حلاوة ذكري.

٢ – يروىٰ أن الصادق (عليه السلام) قال: قارئ القرآن محتاج إلىٰ ثلاثة أشياء: قلب خاشع وبدن فارغ وموضع خال، فإذا خشع الله قلبه فرَّ منه الشيطان الرجيم قال الله تعالىٰ: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». فإذا تفرغ نفسه من الأسباب تجرد قلبه للقراءة ولا يعترضه عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده، فإذا اتخذ مجلساً خالياً واعتزل عن الخلق بعد أن أتىٰ بالخصلتين خضوع القلب وفراغ البدن استأنس روحه وسره بالله عز وجل ووجد حلاوة مخاطبات الله تعالىٰ عز وجل عبادة الصالحين، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم بفنون كراماته وبدائع إشاراته، فإن شرب كأساً من هذا المشرب لا يختار علىٰ ذلك الحال حالاً وعلىٰ ذلك الوقت وقتاً بل يؤثره علىٰ كل طاعة وعبادة لأن فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة. فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشود ولايتك وكيف تجيب أوامره وتجتنب

المؤمنون المخلصون الذين يقلّون من قراءة القرآن وكذلك المؤمنون المخلصون الذين لا يحسنون قراءة القرآن فالوصف بحَمَلَةِ القُرْآنِ لا يمكن أن ينطبق عليهم انطباقاً سليماً وصحيحاً.

٤ ـ كيف لا يكون حَمَلَةِ القُرْآنِ أَجدَرَ من غيرهم بالفضل عليهم والإحسان لهم و «ليس شيء علىٰ الشيطان أشدّ من القراءة في المصحف نظَراً، والمصحف في بيت يطرد الشيطان، ومن قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ خمسين كتب من الذاكرين، ومن قرأ مائة كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية كتب من الخاشعين، ومن قرأ ثلاثمائة كتب من الفائزين، ومن قرأ خمسمائة كتب من المجتهدين، ومن قرأ ألف آية كتب له قنطار، والقنطار خمسمائة ألف مثقال ذهباً، المثقال: أربعة وعشرون قيراطاً أصغرها مثل جبل أحد»[١].

٥ ـ ماذا يحاول إمام الأئمة من ذكره أَهْلِ الوَرَعِ في قوله (أَهْلِ الوَرَعِ مِنْ حَمَلَةِ القُرْآن)؟ كأنه (سَلامُ اللهِ عَلَيه) يشير الىٰ ما عليه فريق من القراء وأدعياء الدين من اتخاذ القرآن الكريم وسيلة خاطئة عليلة للأغراض الدنيوية فينخدع بهم الكثيرون من الناس وتنطلي عليهم أهدافهم الضالة المضلة، فهم علىٰ خلاف غيرهم من أَهْلِ الوَرَعِ مِنْ حَمَلَةِ القُرْآن العزيز، قال النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: أكثر منافقي أمتي قراؤها[٢]. كما قال «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: أيها السائلُ عن الساعة تكون عند خبث الأمراء ومداهنة القراء ونفاق العلماء[٣]... وقال «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتىٰ يكون عليكم أُمراء فجرة ووزراء خونة وعرفاء ظلمة وقراء فسدة وعباد جهال يفتح الله

نواهيه وكيف تتمثل حدوده فإنه كتاب عزيز «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ». فرتله ترتيلاً وقف عند وعده ووعيده وتفكر في أمثاله ومواعظه، واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعة حدوده.

١ – الديلمي، أعلام الدين / ٣٦٨، رواه عن أبي عبد الله جعفر الصادق (عليه السلام) يرفعه إلى النبي «ص».

٢ – الإمام الصادق (عليه السلام)، مصباح الشريعة / ٥٨.

٣ – الديلمي، إرشاد القلوب ١ / ٦٧.

عليهم فتنة غبراء مظلمة[١]. وينقل الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) ردَّة الفعل الشديدة لزيد بن ثابت من كثير من قراء زمانه حتىٰ قال لابنه: يا بني لا يرىٰ الله اسمك في ديوان القراء[٢]. ومع أن ذكر الإنسان في قائمة القرّاء شرف عظيم له في الدنيا والآخرة إن كان صادقاً في مستسرّ نواياه، غير أن عدم ذكر اسمه في قائمة القراء الذين أشار اليهم زيد بن ثابت أكرم له في الدين وأجمل وخير عند الله وأزكىٰ.

شقاء الحرص ومذلة الطلب

٨٢ – روي عن الإمام علي (عليه السلام): إنكَ مدركٌ قسمك، ومضمونٌ رزقُك، مستوفٍ ما كُتِبَ لَك؛ فأَرِحْ نفسَك من شَقاء الحِرص، وَمَذَلَّة الطلب، وَثِقْ بالله، وخَفِّضْ في المُكْتَسَب[٣].

لا ريب أن لسعي الإنسان ونشاطه في حركته الاقتصادية دوراً مهماً ورئيسياً في تطوير الحالة المالية وزيادة الانتاج المادي. بيد أن ذلك ما دام وَفْقَ المَسار الطبيعي المألوف لدىٰ الناس، ومن غير شَرَهٍ في جمع الأموال، أو انكبابٍ شديدٍ للغاية علىٰ اجتلاب الرزق، فهو مستحسن ومرغوب فيه من قِبَل سيرة المتشرعة. وأما اذا جاوز هذه الحالة الىٰ حيث الحرص علىٰ الكسب والشره في زيادة الأَموال، فهو المذموم في الشريعة، الممقوت لدىٰ الكرام، المستهجن عند الحكماء، المستقبح بين أهل القناعة والتعفف.

وبحسبنا من الأَدلة علىٰ شناعة الحريص واسترذاله من قبل الناس، وعلىٰ قبحه وبشاعته في العقل والنقل، ما مَرَّ من كلمات الإمام علي (عليه السلام) بحقِّه، وبحق اسلوبه المنحطّ والهزيل في طلب المعاش والاستكثار من الأَموال، وفي ما يأتي من أحاديث الإمام (عليه السلام) كذلك ما يروي الغليل، ويُثري التفكير، ويغني العقل والاعتبار، فمن ذلك أقواله (صلوات الله عليه):

---

١ – المصدر نفسه ١ / ٦٧.
٢ – مصباح الشريعة / ٥٨.
٣ – غُرر الحكم، الحكمة /٦٦١٩.

- عبد الحرص مخلد الشقاء[1].
- من كثر حرصه ذل قدره.
- من غلب عليه الحرص عظمت ذلته.
- من كثر حرصه كثر شقاؤه.
- مستعمل الحرص شقي مذموم.
- لا تملك نفسك بغرور الطمع ولا تجب دواعي الشره.
- الحرص ينقص قدر الرجل ولا يزيد في رزقه.
- الحرص رأس الفقر وأس الشر.
- وروىٰ الجاحظ أن علياً قال: لا اجتِنابَ مُحَرَّمٍ مَعَ حِرْص.

أَقـول: إما أن يكون الذي امتلكه الحرص ليس بتابع للدين، وغير مقبل علىٰ العمل بالقوانين الإلهية أساساً، فهو إذاً لا يهمه ويعنيه أَقذفه حرصه في بحيرة الحلال أو مستنقع الحرام أو الشبهات. وإما أن يكون ممن يُولي تـقديراً للـدين والقوانين السماوية، ويحب أن يكون ممن يخاف الله سبحانه ويتقيه في مسائل الحلال والحرام، بيد أنه يا ترىٰ أي دين؟ وأي قوانين؟ والحرصُ آخذٌ بِـرَقَبَتِهِ، مستمسِكٌ بيدَيْهِ ورجلَيْه، قـابضٌ عـلىٰ عـقليَتِهِ وتَـفْكِيره؟ فـإنه مـهما حـاول الاستمساك بالعروة الوُثقىٰ، فإن الحرصَ يسكن نَبَضَ روحِيَّتِه، ويشلُّ حـــركةَ وعيِهِ الديني، ويُكَدِّر سلامةَ قلبه، ويرميه في كل مذهبٍ وسبيلٍ شريرٍ ودنـيء، ويخلط عليه الحلالَ بالحرام، والصحيحَ بالسقيم، حتىٰ يسقط أو يعثر ـ ولو لمرات معدودة ـ فيما حـرَّم الله، ويَستولي عليه سَخَـطُ الله، وإن كان عالماً فقيهاً.

---

١ ـ أخذنا هذه الأحاديث العلوية حول الحرص من كتاب غرر الحكم، ما عـدا الحكـمة الأخيرة فقد رواها الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي في المناقب / ٣٧٥ وهي مـن الحكـم المائة التي اختارها الجاحظ لأمير المؤمنين علي، وقد أوردها جميعاً الخوارزمي في المناقب في الفصل الرابع والعشرين من الكتاب..

أكرم ضيفَك وإن كان حقيراً

٨٣ ـ قال علي (عليه السلام) : أَكرِمْ ضَيفَكَ وإن كانَ حَقيراً[١].

الأَغراض والمقاصد الداعية الىٰ الكرم وحسن الضيافة كثيرة ومختلفة ومن جملة ذلك: أن مِن الناس مَن يكرم اتباعاً للمنهج الديني الكريم المتمثل بقول الرسول « صلىٰ الله عليه وآله وسلم » : إن لكل شيء زكاة وزكاةُ الدار بيت الضيافة ، ومن الناس من يكرم حباً بالكرم وحسن الضيافة أو تبجيلاً للضيف واعتزازاً به ، ومِن الناس مَن يكرم ويحسن الضيافة لترتفع منزلته الاجتماعية أو السياسية عن طريق استضافة الأكابر والأجلاء ومَن بأيديهم الحَلُّ والعَقد ، وإلا فإن الجود وحسن الضيافة ليس مِن سجيته وشأنه . اذاً هل يُرجىٰ أو يُتَوَقَّعُ من الفريق الثاني منهم أن يكرم الصغار والحقراء ويحسن ضيافتهم !؟

إذ كان صغر شأن الضيف سبباً لعدم تبجيله واكرامه فإن عدم اكرامه لَيُشير إشارة مركزيَّة الىٰ صغر شأن المُضَيِّف وحقارة نفسه . إنَّ مِن تَهافتِ الأَخلاقِ وتَفَاهَةِ المُضَيِّفِ أَن لا يُكرِمَ صغيرٌ لِصِغَرِه .

مِن الأَمثلة التطبيقية علىٰ إكرام الضيف الحقير

١ ـ روىٰ الشيخ الطوسي مرفوعاً إلىٰ محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : أُتي أَمير المؤمنين (عليه السلام) بقومٍ لصوصٍ قد سرقوا فقطع أَيديهم من نصف الكف وترك الإبهام لم يقطعها ، وأَمرهم أن يدخلوا دار الضيافة ، وأمر بأيديهم أن تعالج وأطعمهم السمن والعسل واللحم حتىٰ برءوا ودعاهم فقال : يا هؤلاء إن أيديكم قد سبقت إلىٰ النار فإن تبتم وعلم الله منكم صدق النية تاب عليكم وجررتم أيديكم إلىٰ الجنة ، وإن لم تتوبوا ولم تقلعوا عما أنتم عليه جرتكم أيديكم إلىٰ النار[٢].

---

١ – غرر الحكم، الحكمة / ٩٩٧٠.

٢ – انظر ابن أبي جمهور الإحسائي، عوالي اللآلي ٣ / ٥٦٦.

٢ ـ وقـد ذكر عبد الكريم بن هوازن القشـيري الشـافعي فـي «الـرسالة القشيريَّة» أنه مَرَّ الحسن بن علي (رضي الله عنهما) بصبيان مـعهم كسـر خـبز فاستضافوه، فنز ل وأكل معهم، ثم حملهم الى منزله وأطعمهم وكساهم وقال: اليدُ لهم[١] لأنَّهم لم يجدوا غير ما أَطعموني ونحن نجد أكثر منه[٢].

فلم يحتقر حبيب رسول الله «ص»[٣] وسيد البشـر فـي زمـانه الصـبيانَ الضعفاءَ ولا استصغر مكانتهم الاجتماعية أن يضيِّقوه أو يضيِّقَهم في بيته، بل اعتبر ـ بحسن خلقه وعدالة حكمه ـ أن فضلهم أكبر من فضله للتعليل الذي أشـار اليه.

إنَّ التعاملَ معَ الناسِ تَعاملٌ معَ الله

لقد أدرك اليونانيون ضرورة اكرام الضـيف وإن كـان شـحاذاً فـيذكر أ. أ. جاردنر مؤلف كتاب «المجمل في فن النحت اليوناني» وكتاب «الدين والفن في اليونان القديمة» أن القانون العام لليونانيين يرتكـز علىٰ دعـامة دينـية، وكـان واجب اكرام الضيف ذا صبغة دينية أيضاً فـعندما جـاء أودسـيوس مـتخفياً الىٰ ايومايوس قال هذا له: يا ضيفي إن الاستخفاف بأحد الغرباء هو عندي أمر من أمور المنكر، حتىٰ لو جاءني رجل أدنىٰ منك؛ لأن الغرباء والشـحاذين جـميعاً يأتون من عند زيوس[٤].

إنه من السائغ جداً أن يكون منهجُـنا دائماً تشـذيبَ وتـهذيبَ أغـراضـنا

---

١ – وفي لفظ ابن أبي الحديد شارح النهج وقد ذكر القصة بعينها: الفضل لهم.

٢ – الرسالة القشيريَّة / ٧٧.

٣ – أخرج الحافظ الطبراني في المعجم الكبير باسناده عن البراء بن عازب أن رسول الله «ص» قال للحسن بن علي: اللهم إني أحببته فأحبه وأحب من يحبه. وقال عنه «ص» أيضاً فيما أخرجه الحافظ علي بن أبي بكر في مجمع الزوائد: ابني وثمرة فؤادي، فإنه من آذاه فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله.

٤ – السير جون هامرتن، تأريخ العـالم، ٢ / ١٤٣.

ومقاصدنا، وأن يكون عملُ الخيرِ مقصدَنا السليم، وحسنُ الصنائعِ غرضَنا النبيل، والإحْسان الىٰ القريب والغريب مطلبَنا الجميل، واكرامُ الصغير والكبير مَنشدَنا القويم. وأحبُّ حباً جماً أن أعلن بوضوح: إنَّ التعاملَ معَ الناسِ تَعاملٌ معَ اللهِ فَلْيَعْرِفِ الأَلبّاءُ كيفَ يَتَعامَلُون.

التعامل مع الناس بشتىٰ صوره الايجابية والسلبية والعملية واللفظية تعاملٌ مع اليوم الآخر، يَوْمَ تُبْلىٰ السَّرائِر، وتُعرف البصائر، فليبصر أولوا الألباب نواياهم وأقوالهم وأعمالهم وليستدركوا وجودهم قبل يومِ اللهفةِ والحَسرَةِ وعَضِّ الأَنامل، حيثُ الندمُ الأشدُّ الأعظم، ولاتَ حينَ مَندَم.

أَدبُ الضِّيافَة

للإنسان حوائج كثيرة جداً ومختلفة الوجوه عليه أن يؤدّيها بنفسه فهو المسؤول الأَول والأَخير عنها. أي انَّ الأصل في القيام بحوائج الذات هي الذات، وهٰذا ما يعبِّر عنه الشعار الحديث (اخدم نفسك بنفسك) وهٰذا شعار سديد ومنصف؛ فلا يكون الإنسان عالةً علىٰ الآخرين وإن كانوا من أقرب الناس اليه كالزوجة والولد والأخ الصغير لأن تكليفهم بأمر خارج ما يحدد لهم في القانون الالهي غير سائغ، والذي يكلِّفهم بأمور خارجة عما حُدِّد لهم مشمول بلعنة رسول الله «ص»: ملعون من ألقىٰ كلَّه علىٰ الناس. إذ أنَّ لفظة الناس لا تعني الغرباء فحسب، وإن استساغت بعض المجتمعات تكليف الزوجة والولد والأخ الصغير ما لم يُكلَّفوا شرعاً بيد أن ما استساغوه لا يحوِّل غير الواجب الىٰ واجب، ولا يبرِّر وقائع الاستغلال البغيض.

ولقد كثر الىٰ حدٍّ بعيد في عدد من المجتمعات استغلال وظلم الزوجة والولد والأخ الصغير وأمثالهم استغلالاً معهوداً وظلماً خفيّاً بل وغير خفي حتىٰ عاد وكأنه الأمر الطبيعي غير المستنكر ولا المستهجن أبداً.

نعم هنالك حالات استثنائية يقوم بها الآخرون بحوائج بعض الأشخاص كمساعدة المرضىٰ والضعفاء والقاصرين، أو من استأجره بعض الناس لغرض

المساعدة وإنجاز جملة من الأعمال.

ومن الاستثناءات أيضا ما يقدمه ويقوم به المضيِّفون من الأعمال والخدمات للضيوف تكرمةً لهم وأداءً لحق الضِّيافة. علماً بأنَّ حقَّ الضِّيافة حقٌّ عظيم وخدمة الضيوف واجبٌ مقدَّس.

غير أن الضيافة في الفكر الاجتماعي للاسلام من الأمور التي أوضح أسسها ومفاهيمها وآدابها وفلسفتها، ولم يترك الفكـر الاجتماعي الأمرَ للأنفس الشحِّ أن تحدِّده فتجحف بحق الضيوف بشحّها وبلؤمها، بل ولا للأنفس الكريمة أن تسيِّرَه لئلا ترتكب بعض الزلات والشطحات. فما دام الفكر الاجـتماعي للاسـلام قـد شخَّص المعالم، وأوضح الأسـس، ورسم الآداب، إذاً فلماذا يدع الحـبل عـلىٰ الغارب، أو يوكل المهمَّة الىٰ الناس أن يحدِّدوها، أليس ربُّ النـاس أعـلم بـما يصلح الناس.

من الفكر الاجتماعي في الاسلام

إن من واجبات الرساليين والمصلحين الاجتماعيين أن يحبّبوا الضيافة الىٰ الناس، وينشروا عبير الجـود والإفضال، وأن يذيعوا طِيبَ المفاهيم الصحيحة عن الضيوف والمضيِّفين.

أي ضرر أو ضرار في الجـود والافضال؟ إنكم إما أن تكرموا غنياً جـواداً فيقابل الإحْسان بالإحسان، وإما أن تكرموا فقيراً ومحتاجاً فيجزيكم عـنه ربُّ الأرباب يوم الفاقة الكبرىٰ والاحتياج المرير سواء كان ذلك فـي القـبر أو فـي عرصات القيامة.

أما في القبر فيوضحه الحديث التالي الذي ذكره عبد الله بن جعفر الحِمْيَري في «قرب الإسناد» عن هارون عن ابن صدقة عن جعفر بن محمد عـن آبـائه (عليهم السـلام): أن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» مرَّ بقبر يحفر وقد انبهر الذي يحفره، فقال له: لِمَنْ تحفر هٰذا القبر؟

فقال: لفلان بن فلان. فقال: وما للأرض تشدِّد عليك إن كان ما علمت لسهلاً

حسنَ الخُلق فلانت الأرض عليه حتىٰ كان ليحفرها بكفيه، ثم قال: لقد كان يحبُّ إقراء الضيف ولا يقري الضيف إلا مُؤمن تقي.

وعن عاصم بن ضمرة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: ما من مؤمن يحب الضيف إلا ويقومُ من قبره ووجهه كالقمر ليلة البدر؛ فينظر أهل الجمع فيقولون: ما هٰذا إلا نبي مرسل. فيقول ملك: هٰذا مؤمن يحب الضيف ويكرم الضيف، ولا سبيل له إلا أن يدخل الجنة.

وأما في عرصات القيامة فيوضحه الحديث التالي الذي ذكره الحِمْيَري كذلك في قرب الإسناد عن هارون عن ابن صدقة عن جعفر عن آبائه (ع): أن رجلاً أتىٰ النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي إني أحسن الوضوء، وأقيم الصلاة، وأوتي الزكاة في وقتها، وأقري الضيف طيب بها نفسي محتسب بذلك أرجو ما عند الله. فقال: بخٍ بخٍ بخٍ ما لجهنمَّ عليك سبيل. إن الله قد برأك من الشحِّ إن كنت كذلك.

حقاً إنَّ كرمَ النفسِ وسُمُوَّ أدب الضيافةِ يعمِّقُ التلاحمَ الاجتماعي ويشدُّ أواصرَ الأخوَّة ويغرس الحُبَّ والوداد.

«إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»[1].

لا تندم علىٰ معروف صنعت

٨٤ ـ قال إمام الأئمة علي (صلوات الله عليه): إندم علىٰ ما أسأت، ولا تندم علىٰ معروف صنعت[2].

قد يفهم بعضنا صدر الحكمة وذيلها معاً من حيث أن كل واحد منهما بناءٌ

---

١ – البقرة، الآية / ٢٧١.

٢ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٢٠١٦. وغرر الحكم، الحكمة / ٣٨٠٠.

قائمٌ بذاته، أي من دون الالتفات الىٰ الارتباط الوثيق ما بين الصـدر والذيـل. والحكمة ما بين أيدينا قد ارتبط فيها الصدر بالذيل ارتباطاً محكماً، وعليه فيكون المعنىٰ: لا تندم علىٰ معروف صنعت؛ لأن المعروف عملٌ طـيبٌ مـباركٌ جـليلٌ بنفسه، وهو حسنة عزيزة يؤجر عليها الانسان، ولا ينبغي للـعقلاء النـدم عـلىٰ الحسنة فإنها تبيض الوجه يوم تسود الوجوه، ويلقاها الإنسان ماثلةً أمامه فـي وقت الحاجة الماسَّةِ إليها، وإذا ما ندمنا فينبغي أن يكون الندم علىٰ السيئة التي يعاقب عليها الانسان، والمعـروف ليس من الإساءة في شيء حتىٰ يندم عـليه النادمون فتأمَّـل.

في الحقيقة ان البواعث علىٰ ندم كثير من النـاس عـلىٰ اسـداء المـعروف لَبواعث متعدِّدة ومن بينها: الندم علىٰ المعروف من حيث ما استبان فيما بعد أن الطرف المقابل ليس أهلاً له، وهذا لا ينبغي اطالة التفكير والندم فيه إذا كانت النيَّة في اسدائه التقرّب الىٰ الله تبارك وتعالىٰ، لأن الله قد كتب الأجر والثواب لمن قام بذلك وهما أعظم وأجزل من ثمن المعروف وقيمته في جميع الأحوال. ومن بين البواعث علىٰ الندم أيضاً أن المعروف سبَّب نقصاناً في أموال لم يكن محتاجاً اليها صاحب المعروف آنذاك وقد احتاج اليها في الظروف اللاحقة، ولسنا هـنا فـي صدد الجواب علىٰ الاشكالية المذكورة لكل أحد بل نقوم بتوجيهه الىٰ خصوص الذين مَنَّ الله سبحانه عليهم بنفاذ البصائر وأكرمهم بشـفافيَّة القـلوب والأرواح ممن أفعمت نفوسهم وضمائرهم ورؤاهم بصدق موعـود أصدق الصادقين حيث يقول سبحانه:

«قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ مَآ أَنفَقْتُم مِّـن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ»[1].

أحسن الصنايع

٨٥ ـ قال أميرُ المؤمنين علي (صلوات الله عليه): أحسـن الصـنائع مـا

---

١ ـ سبأ، الآية / ٣٩.

وافق الشرائع[١].

إن النظرية الدينية وإن كانت تدعو في كثافتها القرآنية والحديثيَّة وبقوةٍ جدِّيةٍ الىٰ حسن الصنايع وكثرة الافضال كما نشاهد آثاراً كبيرة من ذلك في الكتاب الذي بين أَيدينا، إلا أن الكرماء والمحسنين لما كانوا يصدرون عن مناهل شتىٰ، ولهم مفاهيم وتصرفات تختلف بعض الشيء بين كرام ومحسنين معينين وبين كرام ومحسنين من غيرهم، حتىٰ أن جملة من حسن الصنايع بنسبة ما في نظرهم قد تختلف عن المقررات الشرعية كالاسراف مثلاً، ومثل الاختلاف في تقديم من ينبغي تقديمهم في الإحْسان والاكرام ومنائح الجود والإحسان؛ لذلك أعلن الحديث المروي عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) والذي يرسم قاعدة عامة للفضل والإحسان عن كون أحسن الصنايع، ما وافق الشرايع[٢].

---

١ - غرر الحكم، الحكمة / ٨٦٨٨.

٢ - وهذه قصة جميلة ومؤثرة وقعت في أوائل الدولة العباسية بين ملك النوبة وكان علىٰ الشريعة المسيحية وبين عدد من أعلام الأمويين أبان فيها الملك عن جودة تفكيره وتدبيره وقد عمل بحسن الصنائع انطلاقاً من مقررات الشرائع:
سأل المنصور ليلة عن عبد الله بن مروان بن محمد فقال له الربيع: إنه في سجن أمير المؤمنين حياً فقال المنصور: قد كان بلغني كلام خاطبه به ملك النوبة لما قدم دياره وأنا أحب أن أسمعه من فيه فليؤمر بإحضاره. فأحضر فلما دخل خاطب المنصور بالخلافة فأمره المنصور بالجلوس فجلس وللقيد في رجليه خشخشة. قال: أحب أن تسمعني كلاماً قاله لك ملك النوبة حيث غشيت بلاده. قال: نعم قدمت إلىٰ بلد النوبة فأقمت أياماً فاتصل خبرنا بالملك فأرسل إلينا فرشاً وبسطاً وطعاماً كثيراً وأفرد لنا منازل واسعة ثم جاءني ومعه خمسون من أصحابه بأيديهم الحراب فقمت إليه فاستقبلته وتنحيت له عن صدر المجلس فلم يجلس فيه وقعد علىٰ الأرض فقلت له: ما منعك من القعود علىٰ الفرش؟ قال: إني ملك وحق الملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأىٰ نعمه متجددة عنده ولما رأيت تجدد نعمة الله عندي بقصدكم بلادي واستجارتكم بي بعد عزكم وملككم قابلت هذه النعمة بما ترىٰ من الخضوع والتواضع. ثم سكت وسكت، فلبثنا ما شاء الله لا يتكلم ولا أتكلم وأصحابه قيام بالحراب علىٰ رأسه، ثم قال لي: لماذا شربتم الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجتراً علىٰ ذلك عبيدنا بجهلهم. قال: فلم وطئتم الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم ودينكم؟ قلت: فعل ذلك أتباعنا وعمالنا جهلاً منهم.

فاتباع الشرائع في طرائق المكارم والصنائع، وآداب الضيافة، والأولوية في العطاء وغيرها، أولىٰ وأصح عملاً وأدق نظراً من اتباع ما تمليه أو تحبذه الأعراف الاجتماعية والأسرية، التي قد تصيب وقد تخطىء[1]، والتي كثيراً ما تختلف مفاهيمها من زمن الىٰ زمن، أو من جيل الىٰ جيل، واتباع الشرائع واقتفاء آثارها أجدر من اتباع كل التصورات والرؤىٰ التي ينبثق منها الخير والإحْسان والصنائع المختلفة.

إنَّ الشرائع الإلهية لَغَنِيَّةٌ ثَرِيَّة كُلَّ الغِنىٰ والثراء بتعاليمها وارشاداتها وقوانينها ومناهجها في شتىٰ المجالات الانسانية بما في ذلك الأمور الكثيرة التي تتعلق بقضايا الانعام والافضال وحسن الصنائع وهي تؤمن النتائج الحسنة الرائعة في الدنيا والآخرة، إذاً لا يوجد أي مبرر مستساغ لتركها جانباً والعمل وَفْقَ شرائعَ أو مذاقاتٍ تُصَوِّبُ وتُصعِد، وتُتْهِمُ وتُنْجِد، بين صوابٍ محمود، وزللٍ منكود، ونتائج غير محسومة في النجاح والأرباح.

« وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ

قال: فلم لبستم الحرير والديباج والذهب وهو محرم عليكم في كتابكم ودينكم؟ قلت: استعنا في أعمالنا بقوم من أبناء العجم كتاب دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك اتباعاً لسنة سلفهم علىٰ كره منا. فأطرق ملياً إلىٰ الأرض يقلب يده وينكت الأرض ثم قال: عبيدنا وأتباعنا وعمالنا وكتابنا ما الأمر كما ذكرت ولكنكم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وركبتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل، وإن له سبحانه فيكم لنقمة لم تبلغ غايتها بعد وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم بأرضي فينالني معكم، والضيافة ثلاث فاطلبوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن أرضي. فأخذنا منه ما تزودنا به وارتحلنا عن بلده. فعجب المنصور لذلك وأمر بإعادته إلىٰ الحبس. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧ / ١٦٤.

١ – مما تمليه أو تحبذه الأعراف الاجتماعية والأسرية من الجود والكرم، مما قد أخطأت فيه ما نطالعه فيما ذكره العلامة ابن منظور الأنصاري في كتابه «لسان العرب» قائلاً: في الحديث: لا عَقْرَ في الإسلام: قال ابن الأثير: كانوا يَعْقِرون الإبل علىٰ قبور المَوْتَىٰ أي يَنْحَرُونها ويقولون: إن صاحبَ القبر كان يَعْقِر للأضياف أيام حياته فتُكافِئُه بمثل صَنِيعه بعد وفاته.

بِهِمْ عَلِيماً »[١].

أفضلُ المُروءةِ مواساةُ الإخوان بالأموال

٨٦ ـ قال إمام المتقين والأولياء علي (عليه السلام): أفضل المُروءة مواساة الإخوان بالأموال، ومساواتهم في الأحوال[٢].

في الأَساس تطلق المواساة علىٰ المواساة بالأموال، كما تطلق علىٰ المواساة في التضحية بالنفس. أي أننا نعرف من مفهوم المواساة أنها التضحية الحقيقية بالنفس والنفيس. وكان علي بن أبي طالب في مواقفه الغراء السامقة من الدين الاسلامي الحنيف ومن الرسول الأمين محمد « صلىٰ الله عليه وآله وسلم » هو المثلُ الأَسمىٰ والقمةُ الشماءُ التي لا تُطال ولا تُنال في التضحية الحقيقية الكبرىٰ بالنفس والنفيس. ولولا هذه التضحية الحقيقية المائزة بالنفس لم يُنزل الله تبارك وتعالىٰ في حقه لما بات علىٰ فراش الرسول « صلىٰ الله عليه وآله وسلم » يفديه بكلِّ ما يقدر عليه: « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ »[٣].

ولم يُنزل تعالىٰ في جماعة مجاهدة ومستميتة كان علي بن أبي طالب المتقدم الأول بينها والمضحي الأكبر فيها: « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ »[٤].

كما أنه لولا هذه التضحية الحقيقية المائزة بالنفيس الثمين وبكل ما ملكت اليمين لم يُنزل الله تبارك وتعالىٰ في حقه وحق الصديقة فاطمة وحق سيدي شباب أهل الجنة: « وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا

---

١ – النساء، الآية / ٣٩.
٢ – غرر الحكم / ٥٥٠٤.
٣ – البقرة، الآية / ٢٠٧.
٤ – الأنفال، الآية / ٦٤.

نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوساً قَمْطَرِيراً»[١].

أو أن يكون (عليه السلام) الأسوة المثلىٰ والمصداق الحيوي الأوفىٰ لقوله سبحانه: «مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ»[٢].

وقد اشتهر في الكتب التأريخية وكتب السيرة النبوية، وكذا روي عن أبي جعفر محمد بن علي (عليه السلام) أنه لما كان يوم أحد وافترق الناس عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وثبت معه علي (صلوات الله عليه وعلىٰ الأئمة من ولده) وكان من أمر الناس ما كان فقال رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» لعلي: اذهب يا علي. فقال: كيف أذهب يا رسول الله وأدعك! بل نفسي دون نفسك ودمي دون دمك. فأثنىٰ عليه خيراً، ثم نظر رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» إلىٰ كتيبة قد أقبلت فقال: احمل عليها يا علي. فحمل عليها ففرقها وقتل هشام بن أمية المخزومي. ثم جاءت كتيبة أخرىٰ فقال: احمل عليها يا علي. فحمل عليها ففرقها وقتل عمر بن عبد الله الجمحي. ثم أقبلت كتيبة أخرىٰ قال: احمل عليها يا علي. فحمل عليها ففرقها وقتل شيبة بن مالك أخا بني عامر بن لؤي، وجبرئيل مع رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» فقال جبرئيل: يا محمد إن هذه للمواساة! فقال: يَا جبرئيل إنه مني وأنا منه. فقال جبرئيل (عليه السلام): وأنا منكما يا محمد[٣].

هذا من جهة المواساة بالنفس والدم، وأما المواساة بالأموال فهي ضرورية جداً في كثير من الحالات، وحتىٰ في القضايا التي لا يصل الأمر فيها الىٰ حدِّ الضرورة فإنها تعبر عن أخلاق كريمة ونفسيات تعيش هموم الآخرين وتستفقد شؤونهم، ولهذا أطلق رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» علىٰ شهر رمضان

---

١ – الانسان، الآية / ٨ ـ ١٠. ٢ – البقرة، الآية /٢٦١.

٣ – أبو حنيفة النعمان، دعائم الإسلام ١ / ٣٧٥.

المبارك «شهر المواساة»؛ باعتبار ما ينبغي أن يتكافل فيه المجتمع ويتبارّوا فيما بينهم لاسيما في مساعدة الفقراء ومعوناتهم[١]. وعن أبي سعيد الخدري قال: كنا مع رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم» في سفرٍ إذ جاء رجل علىٰ راحلة، فجعل يصفرها يميناً وشمالاً، فقال رسول الله «ص»: من كان عنده فضل من ظهر فليعد به علىٰ من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به علىٰ من لا زاد له، وذكر أصناف الأموال حتىٰ رأينا انه لا حق لأحد منا في فضل عنده. رواه مسلم في الصحيح عن شيبان عن أبي الأشهب[٢].

ولقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في مواساته المالية للاخوان والجيران بمنتهىٰ ما يقدر عليه وفي عطفه العجيب علىٰ الفقراء والمساكين ومشاركته الفعالة لمن تلمُّ بهم الحوائج والنوائب لَهُو المثل الأَعلىٰ والقدوة المُثْلىٰ في التأريخ الانساني العام، وإن في الأخبار والأقاصيص والحكايات الوافرة التي أشار اليها القرآن الكريم والحديث والتأريخ، مما فصَّلنا فيها الكلام ما يغني القارىء ويثري تفكيره في صحة هذه المعاني وصدق مضامينها.

تحليلٌ وتعليق

٨٧ـ قال إمام الأئمة علي (صلوات الله عليه): إن مَنْعَ المقتصد أحسنُ من عطاء المُبَذِّر[٣].

قد يقال ان المبذِّر وإن ارتكب محظوراً شرعياً بتبذيره، ولكنه في الوقت ذاته قد أكرم صاحبه أو سائله وأفاده بما بذل من المال، وهٰذا خلاف المقتصد في

---

١ – روي عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أنه خطب الناس آخر يوم من شعبان فقال: أيها الناس إنه قد أظلكم شهر عظيم شهر مبارك شهر فيه ليلة العمل فيها خير من العمل في ألف شهر، من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدىٰ فريضة فيما سواه، ومن أدىٰ فيه فريضة كان كمن أدىٰ سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة.

٢ – السنن الكبرىٰ، الحديث (٣٣٨٧).

٣ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٣٢٧٧، وغُرر الحكم، الحكمة / ٨٠٥٦.

الصورة المذكورة والذي وصفه الإمام بالمنع. وعلىٰ هٰذا الأساس فمن أين يكون منع المقتصد أحسن من عطاء المبـذر؟

ونجيب علىٰ ذلك بأن حكمة الإمام علي بن أَبي طـالب (عـليه الســلام) وكلماته وبياناته قوانين عامة في الأخلاق والسياسة والاجتماع وليست حالات خاصة، ومن هذه الرؤية فإن العطاء بـصورة عـامة وكـذا المـنع الغـالب عـلىٰ الأحاديث والحكم (فيما يظهر لنا) إنما هو العطاء غير الواجب شرعاً، بل هو مما ندبت له الشريعة وحث عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهكـذا قل بالنسبة الىٰ المنع. وأما العطاء الواجب شرعاً، وكذلك المنع المحضور شرعاً فهو أشدُ أثراً مما عداه من المندوب اليه من العطاء، ومن المنهي عنه من المنع وقبض اليد.

ومن هٰـذا المنطلق ينبغي أن نفهم جيداً أن المـقتصد وان قـد أسـاء بـمنعه المحتاج، وخالف المندوبات الشرعية، إلاّ أنه لم يرتكب محرماً حسب الصورة السالفة التي ذكرناها من المنع. كما ينبغي أن نفهم جيداً أيضاً أن المبذر وإن أعطىٰ وأكرم المحتاج إلا أنه قد وقع في غمرة الحرمة الشرعية.

هٰـذا من جهة ومن جهة ثانية فان المقتصد وإن منع في بعض الحالات، فإنه ليس من الضروري أن لا يجود في الحالات الأخرىٰ، كما قد يكون منعه لعـلة خفية معقولة ومبرَّرة شرعاً وعقلاً.

وأما المبذر أي الذي شأنه التبذير فإنه وإن كان دائم المحبَّة للإحسان، إلا أنه أيضاً دائم الإساءة بالخروج عن دائرة المشروع والمعقول. وشتان بين المصيب في جملـة حالاته، وبين المخطىء في مجمل سماتـه.

كما أن المقتصد ـ في الأعم الأغلب ـ يحتفظ بأمـواله مـما يسـاعد عـلىٰ الإنفاق ولو في عدد من الحالات، والاستمرارية في حفظ الأموال كثيراً ما تنفع المجتمع بتجدد حالات الفقر والإعواز.

وأما المبذر ـ في الأعم الأغلب ـ فانه لا يحتفظ بالأموال وإنه وان أنفقها في حالات محدودة إلا أنها سرعان ما تنفد ويغيض معينها، وبالتالي لايتمكن مـن الاستمرارية في مواصلة العطاء وخدمة المجتمع.

وثم مثل فرنسي قريب الشبه من حكمة الإمام علي حتىٰ كأنه قد ألم به أو نظر الىٰ محتواه ألا وهو: المبذر أسوء حالاً من البخيل؛ لأنه ينفق ماله ومال غيره.

ولقد أَحسن الفيلسُوف فيلر حيث يقول: البخيل يسرق نفسَه، والمبذِّرُ وارثيه.

ملاحظة: الاقتصاد يعني التدبير في المعيشة والتوازن في السياسة الماليَّة، فلا تقتير أو بخل في العطاء، ولا سرف أو تبذير في الصرف. قال الإمام علي (عليه السلام): مِنَ الإقْتصادِ سخاء بغيرِ سَرَفٍ ومُرُوَّةٌ مِنْ غَيرِ تَلَفٍ. وقال أيضاً: لا تبخَل فتُقتِر، ولا تُسرف فتُفرط. وقال كذلك: كنْ سمْحاً ولا تكن مبذِّراً، وكن مقُدِّراً ولا تكن مقُتِّراً. إذاً فما يفهمه بعض الناس أو يصطلحون عليه من مفهوم الاقتصاد (كأن يقولون فلان اقتصادي أو مقتصد) من كونه إمساك الأموال، والبخل علىٰ العيال، والتقتير في الصرف. مما لا ينسجم أو يتناغم مع المفهوم الاسلامي للاقتصاد. علماً أَنَّ الحالات الكثيرة التي ينفق فيها السمحاء والأجواد الأموال الغزيرة والجمَّة ما دامت بحقٍّ واتِّزان، لا تعتبرُ من الإسراف في شيء فتأمَّل جيداً.

السخاء ما كان ابتداءً

٨٨ ـ قال إمام الأئمة علي بن أبي طالب (عليه السلام): السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً، فَإِذَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وتَذَمُّمٌ[1].

إنَّ هذه الحكمة من القوانين العامة التي أسسها الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لطائفة الكرماء والجُوَداء وهي الابتداء بالسخاء والمبادرة الىٰ العطاء. وقد عبر عنها علي (عليه السلام) بكلمات أخرىٰ مذكورة في هذا الكتاب مثل

---

١ – ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٨ / ١٨٤ الحكمة / ٥١، والصواعق المحرقة / ١٣١، وربيع الأبرار ٤ / ٣٨٠، وسجع الحمام الحكمة / ٧٧٨، ونحوه في كنز العمال الحديث (١٦٩٧٧).

قوله (عليه السلام): من بذل النوال قبل السؤال فهو الكريم المحبوب، ومثل قوله (عليه السلام): من بدأ بالعطية من غير طلب، وأكمل المعروف من غير امتنان، فقد أكمل الإحسان.

ولقد استجاد هذه الحكمة العلوية الإمام الحسن بن علي (عليه السلام) فهو يقول لبعض جلسائه: أَما علمت أن المعروف ما كان ابتداءً من غير مسألة، فأما ما أعطيته بعد مسألة فإنما أَعطيته بعدما بَذَلَ لك من وجهه[١].

كما استجاد هٰذا المضمون الأصيلَ وأخذه من فم الإمام الجواد الكريم سعيد بن العاص الأموي أمير المدينة المنورة من قبل معاوية فقال: قبح الله المعروف إن لم يكن ابتداءً من غير مسألة[٢].

كما أخذه خالد بن يزيد حيث قال لأبيه: ما الجُود؟ قال: أن تعطي من سألك. قال ابنه: يا أبتِ هذا هو الكَدُّ، إنما الجود أن تعطي من سألك ومن لم يسألك[٣].

ولقد مضىٰ محمد بن سوقة علىٰ مساق هذه التربية العلوية كما يتضح ذلك من الخبر الذي ذكره ابن أبي الدنيا عن أبي موسىٰ المؤدب قال: سأل ابن أَخٍ لمحمد بن سوقة شيئاً، فجعل ابن سوقة يبكي، فقال له ابن أَخيه: يا عمّ لو علمت أن هٰذا يبلغ منك ما سألتك. قال: يا ابن أَخي لم أَبكِ من مسألتك إياي، إنما بكيت من تركي ابتداءك قبل أَن تسألني[٤].

غير أننا نتصور أن معاوية بن أبي سفيان قد لا يكون موفقاً الىٰ السداد حيث

---

١ – البيهقي، المحاسن والمساوىء / ٥٥.

٢ ـ ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد ١ / ١٩٣.

٣ – محاضرات الأدباء ٢ / ٣٧٩.

٤ – رسائل ابن أبي الدنيا رسالة القناعة والتعفف / ٥٢.

قال: لا تَعِدَنَّ شيئاً، حسبك جوداً أن تُعطي إذا سُئلت[١]. بل نقول له: حسبك حياءً وتذمُّماً أن لا تُعطي إلا إذا سُئلت، وأي جودٍ بعد التعرض بالسؤال وانهمار ماء الوجه؟. ولا نعدُّ كرماً وجوداً ما نكَّس الهامَ واستجلب الحياءَ وغَضَّ البَصَر.. إنَّه ليس بصاحب اليَدِ الكريمَةِ تلك التي تغضُّ الكريمتين.

ولكن من الممكن أن يقصد معاوية بكلامه (حسبك جوداً أن تُعطي إذا سُئلت). النهي عن قبض اليمين إذا ما رأيت سائلاً؛ فإن اعطاءه يُعتبر جوداً. اللهم إلا إذا علم الإنسان بحاجة المقابل ومع هٰذا فقد أحوجه الىٰ السؤال ولم يعطه إلا بعده؛ فإنه ليس من الجود في شيء.

«وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ»[٢].

جود الولاة بفيء المسلمين جور وختر

٨٩ ـ قال أميرُ المؤمنين علي (صلوات الله عليه): جودُ الولاةِ بفيءِ المسلمين جورٌ وخَتر[٣].

ها هنا بالضبط مَحَلُّ المَثَلِ القائل: وهب الأميرُ ما لا يملك. والواقع ان الأموال الطائلة بأيدي الولاة فتنة كبيرة لهم، فإن أنفقوا الكثير منها علىٰ المسترفدين والطالبين فوق مالهم من الحقوق في بيت المال وكذا إن أنفقوا من أجل استقطاب الزعماء والأكابر علىٰ حساب الآخرين وبشكل مجحف بالضعفاء وقعوا في لَهَوات المنهج السلطوي المستبد، وفي ذلك اللون من السياسة المالية الذي ما كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يسير عليه ولا يرتضيه. وإن لم يتبعوا المنهج المذكور وترسَّموا خطىٰ أمير المؤمنين (عليه السلام) ابتعد الكثيرون من

---

١ – الآبي، نثر الدر ٣ / ٤٩.
٢ – البقرة، الآية / ٢٧٠.
٣ – غُرر الحكم، الحكمة / ٧٨٥٢.

الزعماء والمقربين، وغضب أولئك المسترفدون والطالبون، وازداد المعارضون والمعاندون للحاكم [١].

ومن الوجهة العقلية والتأريخية فإن جود الولاة بفيء المسلمين ينقسم الىٰ الأقسام الأساسية التالية:

القسم الأول: جود الولاة الذي لم يكد يستفيد منه وينتفع بغزارته إلا

---

١ - كتب عمر بن الوليد بن عبد الملك إلىٰ عمر بن عبد العزيز لما أخذ بني مروان برد المظالم كتاباً أغلظ له فيه من جملته: أنك أزريت علىٰ كل من كان قبلك من الخلفاء، وعبتهم وسرت بغير سيرتهم بغضاً لهم وشنآناً لمن بعدهم من أولادهم، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل، وعمدت إلىٰ أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً، فاتقِ الله يا ابن عبد العزيز وراقبه فإنك خصصت أهل بيتك بالظلم والجور ووالذي خص محمداً «ص» بما خصه به لقد ازددت من الله بعداً بولايتك هذه التي زعمت أنها عليك بلاء، فأقصر عن بعض ما صنعت واعلم أنك بعين جبار عزيز وفي قبضته ولن يتركك علىٰ ما أنت عليه. قالوا: فكتب عمر جوابه: أما بعد فقد قرأت كتابك وسوف أجيبك بنحو منه: أما أول أمرك يا ابن الوليد فإن أمك نباتة أمة السكون كانت تطوف في أسواق حمص وتدخل حوانيتها ثم الله أعلم بها، اشتراها ذبيان بن ذبيان من فيء المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك فبئس الحامل وبئس المحمول، ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً وتزعم أني من الظالمين لأني حرمتك وأهل بيتك فيء الله الذي هو حق القرابة والمساكين والأرامل، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعملك صبياً سفيهاً علىٰ جند المسلمين تحكم فيهم برأيك ولم يكن له في ذاك نية إلا حب الوالد ولده؛ فويل لك وويل لأبيك ما أكثر خصماءكما يوم القيامة، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف علىٰ خمسي العرب يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك أعرابياً جافياً علىٰ مصر وأذن له في المعازف والخمر والشرب واللهو، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل عثمان بن حيان علىٰ الحجاز فينشد الأشعار علىٰ منبر رسول الله «ص» ومن جعل للعالية البربرية سهماً في الخمس. فرويداً يا ابن نباتة ولو التقت حلقتا البطان ورد الفيء إلىٰ أهله لتفرغتُ لك ولأهل بيتك فوضعتكم علىٰ المحجة البيضاء فطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيات الطريق، ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أعمله بيع رقبتك وقسم ثمنك بين الأرامل واليتامىٰ والمساكين؛ فإن لكل فيك حقاً والسلام علينا ولا ينال سلام الله الظالمين. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧ / ١٠١ ـ ١٠٢.

الذاتيون اللئام، وأصحاب الأطماع الكبيرة، والمتملقون للحاكم، والمزينون له ألوان الانحراف والباطل والظلم والغدر والعدوان.

القسم الثاني: جود الولاة الذي تشيع فوائده بين هؤلاء الخونة المذكورين، ولكنه يمتدُّ كذلك ليشمل حتىٰ مختلف الأكابر والأعداد الغفيرة من السائلين والمعتافين والقاصدين[1].

---

١ – روىٰ جويرية بن أسماء عن إسماعيل بن أبي حكيم قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز فلما تفرقنا نادىٰ مناديه: الصلاة جامعة فجئت المسجد فإذا عمر علىٰ المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: أما بعد فإن هؤلاء ـ يعني خلفاء بني أمية قبله ـ قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها منهم، وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها، وإني قد رأيت الآن أنه ليس عليَّ في ذلك دون الله حسيب، وقد بدأت بنفسي والأقربين من أهل بيتي، اقرأ يا مزاحم. فجعل مزاحم يقرأ كتاباً فيه الإقطاعات بالضياع والنواحي، ثم يأخذه عمر بيده فيقصه بالجلم، لم يزل كذلك حتىٰ نودي بالظهر.

كان عند فاطمة بنت عبد الملك بن مروان جوهر جليل وهبها أبوها ولم يكن لأحد مثله، وكانت تحت عمر بن عبد العزيز، فلما ولي الخلافة قال لها: اختاري إما أن تردي جوهرك وحليك إلىٰ بيت مال المسلمين، وإما أن تأذني لي في فراقك فإني أكره أن اجتمع أنا وأنت وهو في بيت واحد. فقالت: بل أختارك عليه وعلىٰ أضعافه لو كان لي، وأمرت به فحمل إلىٰ بيت المال. فلما هلك عمر واستخلف يزيد بن عبد الملك قال لفاطمة أخته: إن شئت رددته عليك. قالت: فإني لا أشاء ذلك طبت عنه نفساً في حياة عمر وأرجع فيه بعد موته لا والله أبداً. فلما رأىٰ يزيد ذلك قسمه بين ولده وأهله.

نادىٰ منادي عمر بن عبد العزيز: من كانت له مظلمة من بعيد أو قريب من أمير المؤمنين فليحضر. فقام رجل ذميّ من أهل حمص أبيض الرأس واللحية فقال: أسألك كتاب الله. قال: ما شأنك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني ضيعتي. والعباس جالس، فقال عمر: ما تقول يا عباس: قال: أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلاً. فقال عمر: ما تقول أنت أيها الذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله. فقال عمر: إيهاً لعمري إن كتاب الله لأحق أن يتبع من كتاب الوليد، اردد عليه يا عباس ضيعته. فجعل لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٧ / ٩٩ فما بعد.

القسم الثالث: جود الولاة علىٰ أصحاب النفوذ اجتماعياً وسياسياً وعسكرياً بما فيهم أتباع المطامع. والذي ينويه ويقصده الحاكم من هذه الانفاقات الكبيرة ـ فيما بينه وبين الله سبحانه وحسب ما ارتسم لنفسه ودولته من منهج ـ هو خدمة المصالح العامة للبلاد والعباد.

والقسم الأول من هذه الأقسام شرٌّ كلُّه، وخيانة كبرىٰ للاسلام والمسلمين، وجور لا يوصف، وكفر بالله العظيم. والقسم الثاني والثالث منها دون ذلك بكثير، لا سيما القسم الثالث فإنه وإن كان ليس منهجاً اسلامياً أصيلاً قد اختطته السماء للأرض، أو عمل علىٰ تطبيقه رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله»، أو جاهد لتنفيذه واقراره أميرُ المؤْمنين علي (عليه السلام)، إلا أنه أقل المناهج المذكورة ظلماً وانحرافاً وضياعاً، وأدناها نسبياً من طريق السداد والرشاد، وأقربها نوعاً ما الىٰ شواطىء العدالة والانصاف وحب الخير والبِرِّ للناس، في عالَمٍ ضائعٍ متموِّجٍ بالمآسي والأَشجان، وقد خيَّمت عليه الليالي المعتمةُ الدكناءُ من الأَثَرَةِ والشقاءِ والظلمِ المتعمدِ وغير المتعمد.

ما هو أقبح البخل

٩٠ ـ قال أميرُ المؤْمنين علي (عليه السلام): البخل باخراج ما اَفترض الله سبحانه من الأموالِ أقبحُ البخل[1].

مفهوم خاطىء جداً عن البخل والبخلاء منقوش في عقول حشودٍ كبيرةٍ من أفرادٍ وجماعاتٍ مختلف المجتمعات، خصوصاً الذين لا يستقون ثقافتهم الدينية من الدين نفسه بل من هنا وهنالك بما في ذلك الثقافات الوضعية والعلمانية الغربية والشرقية. وإنَّها لَنكسةٌ ثقافيةٌ كبرىٰ أن لا تُعرفَ الحضارةُ إلا من أَفواهِ أعدائها.

فيرىٰ هؤلاء وأمثالهم أن النعت بالبخل يقتصر علىٰ حالات من البخل علىٰ

---

١ ـ غرر الحكم / ٦٥٨١.

الآخرين من أبناء جلدتهم والتقصير في أن يغدق الإنسان لا سيما المتمكن مادياً علىٰ من يجب اكرامه.

وأما ذنب عظيم لا يُحَدُّ يقال له التقصير بحقوق الله عزَّ وجلَّ، فلا يكاد يخطر منهم علىٰ بال، ولا يمرُّ علىٰ أسماعهم أو يوجد له سطر مخطوط في ثقافتهم، علىٰ الرغم من أنه ليس بخلاً فحسب، بل أقبح البخل كما يدلُّ عليه العقل والنقل، ولقد جاء في «الترغيب والترهيب» عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم»: البخيل مَن منع حقوق الله تعالىٰ، وبخل علىٰ ربِّه[1].

وليس الهدف من التذكير بأن البخل باخراج ما افترض الله سبحانه من الأموال أقبح البخل، أن تتغير كلمات ثقافية معينة لا أكثر، بل الهدف بالدرجة الأولىٰ أن لا يبخل أحدنا بالفعل وفي جميع أحواله وشؤونه في اعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقه، خالقاً أو مخلوقاً كبيراً أو صغيراً قريباً أو بعيداً، وخصوصاً حقّ الله جَلَّ جَلالُهُ فإنه الحق الذي لا يُماثل ولا يُضارع في السماوات والأرضين، ولسوف يأتي يوم فصل ليس بالهزل، يندم فيه المضيِّعون والمقصِّرون أية ندامة، ويأسفون أي أسف، حيث يعضون الأناملَ بشدَّةٍ وتلهفٍ وبحرقة قلبٍ وضمير، وَلاتَ حين تلهف وحرقة، وحيث يبكون بكاءَ الثاكِلِ المُعْوِلِ الغَريب، وَلاتَ حين بكاء.

لا يجتمع حبُّ المال والثناء

٩١ – قال أميرُ المؤمنين علي (صلوات الله عليه): لا يجتمع حبُّ المال والثناء[2].

مَن هم أُولئك الذين لا يحبون المال سواء كانوا من الأتقياء والصلحاء ومن الصديقين والأولياء، أو كانوا من الأشقياء والمنحرفين والصادِّين عن السبيل

---

١ – عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب (٣٨٤٤).

٢ – غُرر الحكم، الحكمة / ٢٥٢٨.

القويم؟ ومَن هم أولئك الذين لا يحبون المال سواء كانوا من الكرماء والجوداء، أو من البخلاء والأشحاء؟

ومن كلام رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: أَبت الأنـفس إلا حب المال والشرف وإن حبهما لأذهب بدين أحدكم من ذئبين ضاريين باتا في زريبة غنم إلىٰ الصباح فما ذا يبقيان منها[1].

وإذا ما كان الأتقياء والصلحاء والصديقون والعرفاء لا يحبون المال فلماذا يسعون الىٰ الحصول عليه، عن طريق السعي في مناكبها والعمل في أرجائها واستثمار خيراتها؟ وإن كان حبهم للمال ـ بحسب الواقع ـ ليس نظيراً لحب الأكثرية من الناس، أو من أجل الانكباب علىٰ الدنيا والاغترار بنعيمها ولذاتها وطلب ما حرم الله تبارك وتعالىٰ وإنما في سبيل الحصول علىٰ الزاد الحلال والعيش الكريم، ومن أجل حفظ رونق عزتهم وكرامتهم من الضعف والهوان والتوجه بالسؤال الىٰ الكرام وغير الكرام، وكذلك في سبيل اكرام الناس ودعم خيمة الحقيقة، وفي رأينا القاصر أنه: أَحسَنُ حُسْنِ الأَموالِ ما ساهَمَ بقوةٍ فِي مُساعَدَةِ الخَلْق ومَسانَدَةِ الحق.

قيل للإسكندر: لم حفظت الفلاسفة المال مع حكمتها ومعرفتها بالدنيا؟ قال: لئلا تحوجهم الدنيا إلىٰ أن يقوموا مقاماً لا يستحقونه. وقال بعض الزهاد: ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد. وقال الحسن (ع): مَن زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كاذب، فإن علمت صدقه فهو عندي أحمق[2].

كل هٰذا يدل أن الإمام أمير المؤمنين لا يدعو بمقولته الشريفة (لا يجتمع حبُّ المال والثناء) الىٰ أن نبغض المال، أو أن نترك السعي والاجتهاد لطلبه والحصول عليه، وإنما يدعو الىٰ أن لا يكون المال أحبَّ الينا من الثناء، أي أن نبخل ونشحَّ بالأموال، أو أن نظلَّ جامعين للأموال حتىٰ في الحالات التي تستوجب البذل والانفاق.

---

١ - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٧ / ٢٥٢.

٢ - المصدر نفسه، ١٨ / ٨٩.

«بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا»[1].

حجب الحقوق المالية

٩٢ ـ قال علي (عليه السلام): اذا جمعت المال فأَنت فيه وكيل لغيرك يسعد به وتشقىٰ[2].

المقصود ـ فيما تعتقد ـ بجمع المال هنا الجمع بدون استخراج الحقوق المالية وأدائها الىٰ أصحابها المستحقين لها ولذلك يشقىٰ مثل هٰذا الانسان، ويحاسب حساباً شديداً، ويستتبع ذلك عذاب أليم إن لم يتداركه الله تبارك وتعالىٰ برحمته ووسيع مغفرته؛ وذلك لما اقترفه من حجب الحقوق المالية للآخرين والتشبّث بها ظالماً معتدياً.

قال الله عز وجل: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبارِ والرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ ويَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمىٰ عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوىٰ بِها جِباهُهُمْ وجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هٰذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ»[3].

إن الأمر الذي ذكرناه حول شقاء مثل ذلك الإنسان فيما اذا كان جمعه للأموال من كلِّ ما حلَّ وطاب وهو المراد من الانفاق الذي يحثُّ عليه القرآن والسنة بمثل قوله تعالىٰ: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ ومِمّا

---

١ ـ الفجر، الآية / ١٧ـ ٢٠.
٢ ـ غُرر الحكم، الحكمة / ٨٣٣١.
٣ ـ التوبة، الآية / ٣٤ ـ ٣٥.

أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ولا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُـنْفِقُونَ ولَسْـتُمْ بِآخِـذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ واعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ويَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ واللّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وفَضْـلاً واللّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ»[1].

إن الأموال التي أمر الله نبيه «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» بأخذها من الناس ـ بشكل عام ـ أموال طاهرة من حيث المنشأ والاستيلاء، ولكنها في الوضع الذي لا تؤدىٰ فيها الحقوق المتعلقة بها تبقىٰ غير طاهرة حتىٰ تؤدّىٰ: «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِها وصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَك سَكَـنٌ لَـهُمْ واللّـهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ»[2].

وقد لا يكون من المنطقي أو المقبول أبداً أن يقال انها قد أغمض في أخذها أو انها جميعاً قد اكتسبت من حرام، ثم تعطىٰ صدقاتها من أجل التطهير والتزكية.

وفي الحديث النبوي: ويؤتىٰ برجل قد جمع مالاً من حرام وأنفقه في حلال فيقال: اذهبوا به الىٰ النار[3]. ويذكر أنه لما بعث الله محمـداً «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أتت إبليس جنوده وقالوا: قد بعث نبي وجدت ملة وأمة. فقال كيف حالهم أيحبون الدنيا؟ قالوا: نعم. قال: إن كانوا يحبونها فلا أُبالي ألا يعبدوا الأَصـنام؛ فإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث: أخذ المال مِن غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه، والشر كله لهذه الثلاث تَبَع.

نعم كانت حالات معينة من هٰذا القبيل وقد جاء القرآن الكريم رادعاً ومنكراً لها فقد ورد عن الراوية الثقة الجليل زرارة بن أَعْيَن عن أبي جعفر محمد البـاقر (عليه السـلام) في قول الله «ولا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ» قال: كانت بقايا في أموال الناس أصابوها من الربا ومن [المكاسب] الخبيثة قبل ذلك، فكـان أحـدهم يتممها فينفقها ويتصدق بها فنهاهم الله عن ذلك[4]. وعن أبي الصباح عن

---

١ – البقـرة، الآية / ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
٢ – التوبة، الآية / ١٠٣.
٣ – النراقي، جامع السعادات ٢ / ١١٦.
٤ – تفسير العياشي / ٤٩١.

أبي جعفر (عليه السلام) قال: سألته عن قول الله: « ولا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ» قال: كان الناس حين أسلموا عندهم مكاسب من الربا، ومن أموال خبيثة، فكان الرجل يتعمدها من بين ماله فيتصدق بها، فنهاهم الله عن ذلك، وإن الصدقة لا تصلح إلا من كسب طيب[١].

وأما بالنسبة الىٰ جمع الأموال وادخارها من بعد استخراج الحقوق المالية وأدائها الىٰ أصحابها المستحقين لها فهو خارج الإنذار القراني الشديد اللهجة، وخارج عما يقوله الإمام علي بن أبي طالب في الرواية المتقدمة عنه.

نعم إنَّ مثل هٰذا الجمع غير محمود في الأحاديث والروايات وليس هو الحالة المُثلىٰ للعالم الرباني والعارف الزاهد البصير بالحياة الدنيا وزخارفها وتحولاتها، والخبير بما أعدَّ الله تعالىٰ للمحسنين والمفضلين، وإن كان الأمر المذكور غير محظور عقلاً ولا منهياً عنه نهياً تحريميّاً في الشريعة الاسلامية الغراء. ولقد قلنا ما نعتقد أنه المقياس الصائب والسديد: خيرُ الأموالِ مالا تضرُّ قلَّتُها بدنياكمْ ولا كثرتُها بأُخراكم. كما نعتقد أن أجود الكرم البذل الكثير ما لم يكن إسراف أو تبذير.

إن لتغير النعمِ وزوالِ اليسارِ عللاً وأسباباً

٩٣ – وقال الإمام علي: سَبَبُ زَوالِ اليَسارِ مَنْعُ المُحْتاج[٢].

إذاكانت لليسار والثراء علل وأَسباب محددة ترسي وجودهما أو تزيد من كميتهما وكيفيتهما، فإن لتغير النعم وزوال اليسار عللاً وأسباباً محددة كذلك. وإذا كانت للانسان نوايا وحركات تسبب ألواناً من الرزق والنعم، فانَّ له نوايا وحركات أيضاً تسبب ألواناً من الحرمان أو التقليص، والله تبارك وتعالىٰ هو الناظر لنوايا العباد وأعمالهم وحركاتهم، والذي يكتب لهم الرزق مبسوطاً

---

١ – المصدر نفسه / ٤٩٢.

٢ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٤١٤.

لقوم، وغير مبسوط لقوم آخرين «كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّـهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ»[١].

وقال تعالىٰ: «قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلَـٰلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ»[٢].

وقال تعالىٰ:«ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ»[٣].

واذا كان سبب زوال اليسار منع المحتاج ـ علىٰ حَدِّ قول الإمام (عليه السلام) ـ فإنه سبب رئيس من أسباب الزوال، وليس نعني أنه السبب الوحيد أو الأول والأخير، لأن من الواضحات في الرؤية العقيدية والمنطقية وجود علل أخرىٰ، فالتاجر علىٰ سبيل المثال إذا ما أوكل عنه في التجارة انساناً بسيطاً أو غير خبير وعارف والذي من السهولة أن يغرر به ويخدع، فإن ذلك سبباً من الأسباب العقلية لزوال اليسار، وهكذا الأمر في حالة اعتماد غير الأمين، أو ايكال الأمور التجارية والاقتصادية الىٰ المضياع والمفرط.

ومن العلل الأخرىٰ ما تبينه الآيات المباركة التالية: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَـٰزِيَ إِلَّا ٱلْكَفُورَ»[٤].

ومما يؤكد القول السالف (من الواضحات في الرؤية العقيدية والمنطقية وجود علل أخرىٰ) ما جاء عن ابن عباس أنه قيل له: إن قوماً من هذه الأمة

---

١ ـ البقرة، الآية / ٦٠.
٢ ـ يونس الآية / ٥٩.
٣ ـ الرعد الآية / ٢٦.
٤ ـ سبأ، الآية / ١٥ ـ ١٧.

يزعمون أن العبد قد يذنب فيحرم به الرزق.

فقال ابن عباس: فوالذي لا إله غيره لهذا أنور في كتاب الله من الشمس الضاحية، ذكره الله في سورة ن والقلم... كما سيأتي.

ومما يؤكد صحة مفهوم سبب زوال اليسار منع المحتاج ما تبينه الآيات المباركة التالية: «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ * أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ * فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ * كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ»[1].

وتفسير هذه الآيات علىٰ ماروي عن حبر الأمة عبد الله بن عباس: انه كان شيخ كانت له جنة، وكان لا يدخل بيته ثمرة منها ولا إلىٰ منزله حتىٰ يعطي كل ذي حق حقه، فلما قبض الشيخ وورثه بنوه وكان له خمسة من البنين، فحملت جنتهم في تلك السنة التي هلك فيها أبوهم حملا لم يكن حملته قبل ذلك فراحوا الفتية إلىٰ جنتهم بعد صلاة العصر، فأشرفوا علىٰ ثمرة ورزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم فلما نظروا إلىٰ الفضل طغوا وبغوا، وقال بعضهم لبعض: إن أبانا كان شيخاً كبيراً قد ذهب عقله وخرف؛ فهلموا نتعاهد ونتعاقد فيما بيننا أن لا نعطي

١- القلم، الآية / ١٧- ٣٣.

أحداً من فقراء المسلمين[1] في عامنا هٰذا شيئاً حتىٰ نستغني وتكثر أموالنا، ثم نستأنف الصنعة فيما يستقبل من السنين المقبلة، فرضي بذلك منهم أربعة وسخط الخامس وهو الذي قال الله تعالىٰ: «قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَولا تُسَبِّحُونَ».

فقال الرجل: يا ابن عباس كان أوسطهم في السن؟

فقال: لا بل كان أصغر القوم سناً وكان أكبرهم عقلاً وأوسط القوم خير القوم، والدليل عليه في القرآن إنكم يا أمة محمد أصغر الأمم وخير الأمم قال الله: «وكَذٰلِك جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً».

فقال لهم أوسطهم: اتقوا الله وكونوا علىٰ منهاج أَبيكم تسلموا وتغنموا، فبطشوا به فضربوه ضرباً مبرحاً، فلما أيقن الأخ أنهم يريدون قتله، دخل معهم في مشورتهم كارهاً لأمرهم غير طائع، فراحوا إلى منازلهم ثم حلفوا بالله أن يصرموه إذا أصبحوا ولم يقولوا إن شاء الله، فابتلاهم الله بذلك الذنب وحال بينهم وبين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه؛ فأخبر عنهم في الكتاب فقال: إِنَّا بَلَوْنٰاهُمْ إلىٰ قوله: فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ. فقال الرجل: يا ابن عباس ما الصريم؟ قال: الليل المظلم. ثم قال: لا ضوء له ولا نور. فلما أصبح القوم فَتَنٰادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰارِمِينَ قال فَانْطَلَقُوا وهُمْ يَتَخٰافَتُونَ.

قال الرجل: وما التخافت يا ابن عباس؟

---

١ - يقصد بالمسلمين أحياناً المؤمنون بالله سبحانه من أي دين كانوا أي حتىٰ وإن كانوا قبل الاسلام، قال الصديق يوسف (عليه السلام): رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ. يوسف الآية / ١٠١. وقال تعالىٰ: «مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ». آل عمران، الآية / ٦٧. ومن ذلك قول ابليس لنبي الله يحيىٰ (عليه السلام) في قصة جرت له معه: أعاهد الله أن لا أنصح مسلماً أبداً حتىٰ ألقاه.

قال: يتسارون بعضهم بعضاً لكي لا يسمع أحد غيرهم فقالوا: لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وغَدَوْا عَلىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ وفي أنفسهم أن يصرموها ولا يعلمون ما قد حل بهم من سطوات الله ونقمته فَلَمَّا رَأَوْهَا وعاينوا ما قد حل بهم قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ فحرمهم الله ذلك الرزق بذنب كان منهم ولم يظلمهم شيئا فقَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَولا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ قال: يلومون أنفسهم فيما عزموا عليه. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ. فقال الله: كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لو كانوا يَعْلَمُونَ[1].

عِلمٌ لا يُصلِحُك ضَلال، ومالٌ لا ينفَعُك وَبال

٩٤ – روي عن الإمام علي (عليه السلام) القول: عِلمٌ لا يُصلحك ضلال، ومالٌ لا ينفعك وبال[2].

قد يكون من النافع لنا ونحن نشرح كلام الإمام ونعلق عليه أن نضع هنا مصطلحين من أَجل الايضاح وتركيز المعنىٰ ألا وهما: الطاقة الآلية، والطاقة الهدفية. ومقصدنا من الأُولىٰ الامكانية التي يصح أن تكون وسيلة لما هو أهم وأجدر، ومقصدنا من الثانية الامكانية التي يصح أن تكون في ذاتها هدفاً يُراد ويقصد. ومثال الأولىٰ: القوة والشجاعة والبلاغة والبيان والمعرفة والعلم والمال،

---

١ – تفسير القمي / قوله «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ..». ومستند المؤلف (رض): حدثني أبي عن إسحاق بن الهيثم عن علي بن الحسين العبدي عن سليمان الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

٢– غُرر الحكم، الحكمة / ١٩٣.

ومثال الثانية: حسن السمعة وطيب الأثر وتعزيز الحق وإقامة العدالة وإرساء الفضيلة والاستقامة والرشاد والهداية.

ومن هٰذا المنطلق فإن قول الإمام: عِلمٌ لا يُصلحك ضلال، ومالٌ لا ينفعك وبال. ينطبق تمام الانطباق علىٰ ما نصطلح عليه؛ فالعلم والمال معاً مثالان للطاقة الآلية التي هي في خدمة الطاقة الهدفية أو هي أساس من أسسها لا أكثر.

أما أن يُتخذ العلم طاقة هدفية عند كثير من الناس وفي شتىٰ العصور بما في ذلك عصرنا الحالي فهو بطالة فكرية وضياع ثقافي والتباس وخلط وتخبط في المنطق والتفكير، كما أنه تغرير شديد بالنفس وبالآخرين.

وكذلك حينما آتخذ ويُتخذ المال طاقة هدفية عند كثير من الناس وفي شتىٰ العصور بما في ذلك العصر الحاضر فإنه جهل واغترار، وانكفاء روحي شنيع، وسطحية في التمدن والحضارة.

وكون العِلم الذي لا يُصلحك ضلال، من جهة قدرة العلم إذا لم يطامن جماحَه التواضعُ والخلقُ الكريم أن يستَلَّ من الإنسان الدين والانصاف والخلق السجيح والعدالة في اصدار الأحكام علىٰ الشعوب والجماعات والأفراد، أو علىٰ الأفكار والمعارف، أو علىٰ السموِّ التربوي والقيم الانسانية النبيلة. كما أنه لا يَسْلِبُ مِن الناس وحدَتَهم وتلاحمَ صفوفِهِم مثلُ العلمِ الذي سُلِبَ منه الدينُ والأَخلاق.

وأما كون المال الذي لا ينفعك وبال. فوباله من جهة أن إدارة المال، مسؤولية في رقاب الرجال. وليس من براعة الادارة وحسنها تكديس الأموال ومنعها من البذل والانفاق بما لا ينفع الإنسان أهليه أو نفسه أو إخوانه أو جيرانه أو غيرهم. وليس أمام صاحب الأموال إلا خياران لا ثالث لهما: إما أن ينفع

الناس بأمواله فينتفع ما شاء الله في الدنيا والآخرة، وإما أن يبخل بها فيخسر ما شاء الشيطان في الدنيا والآخرة «ذٰلكَ هُوَ الخُسرانُ المُبين»[١].

الشُّحُّ في اللغةِ العربيةِ والعرفان

٩٥ ـ قال علي بن أَبي طالب (عليه السلام): في الشُّحُّ المَسَبَّة[٢].

في كتاب «العين» لأحمد بن خليل الفراهيدي مادة شح بما موجزه: يقال: زند شحاح: أي لا يوري. والشحشح: المواظب علىٰ الشيء الماضي فيه. ويقال: شحشح البعير في الهدر وهو الذي ليس بالخالص من الهدر، قال: فردد الهدر وما إن شحشحا، ويقال للخطيب الماهر في خطبته الماضي فيها: شحشح.

والشح: البخل وهو الحرص. وهما يتشاحان علىٰ الأمر: لا يريد كل واحد منهما أن يفوته. والنعت شحيح وشحاح والعدد لُشحة. وقد شح يشح شحا.

وفي لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأنصاري مادة شحح بما مختصره: الشُّحُّ والشَّحُّ: البُخْلُ، والضم أَعلىٰ: وقيل: هو البخل مع حِرْصٍ: وفي الحديث: إِياكم والشُّحَّ الشُّحُّ أَشدُّ البخل، وهو أَبلغ في المنع من البخل: وقيل: البخل في أَفراد الأُمور وآحادها والشح عام: وقيل: البخل بالمال، والشح بالمال والمعروف.

وقوله تعالىٰ: «سَلَقُوكم بألسِنَةٍ حِدادٍ لَشِحَّةً علىٰ الخَير». أَي خاطبوكم أَشدَّ مخاطبةٍ وهم لَشِحَّةٌ علىٰ المال والغنيمة.

---

١ – الحج، الآية / ١١.

٢ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٦٠٢٢، وغُرر الحكم، الحكمة / ٦٥٧١.

وفي مجمع البحرين مادة (شحح) قوله تعالىٰ: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جُناحَ عليهما أن يصلحا بينهما والصلحُ خيرٌ وأحضرت الأَنفسُ الشُّحّ» قال الشيخ أبو علي في قوله: والصلح خير: وهذه الجملة اعتراض، وكذا قوله: وأحضرتِ الأَنفس الشح أي جعل الشح حاضراً لها لا يغيب عنها، إذ هي مطبوعة عليه. والغرض أن المرأة لا تسمح بقسمتها والرجل لا يسمح أن يمكنها إذا أحب غيرها ولم يحبها.

والشح: البخل مع حرص، فهو أشد من البخل لأن البخل في المال وهو في مال ومعروف، تقول شح يشح من باب قتل، والشح في الحديث أن ترىٰ القليل سرفاً وما أنفقت تلفاً.

وفيه أيضاً: البخيل يبخل بما في يده، والشحيح يشح بما في أيدي الناس، وعلىٰ ما في يده، حتىٰ لا يرىٰ في أيدي الناس شيئا إلا تمنىٰ أن يكون له بالحل والحرام، ولا يقنع بما رزقه الله تعالىٰ

وفيه: لا يجتمع الشحُّ والإيمان في قلب عبد أبدا.

وتوجيهه: أن الشُّحَّ حالةٌ غريزيةٌ جُبِلَ عليها الإنسان، فهو كالوصف اللازم له ومركزها النفس، فإذا انتهىٰ سلطانه إلىٰ القلب واستولىٰ عليه، عري القلب عن الإيمان، لأنه يشح بالطاعة فلا يسمح بها ولا يبذل الانقياد لأمر الله.

قال بعض العارفين: الشُّحُّ في نفس الإنسان ليس بمذموم لأنه طبيعة خلقها الله في النفوس، كالشهوة والحرص، للابتلاء ولمصلحة عمارة العالم، وإنما المذموم أن يستولي سلطانه علىٰ القلب فيطاع.

قال المؤلف: ما قاله بعض العارفين من أن الشُّحَّ طبيعة خلقها الله في النفوس، غير جيد ولا صحيح وذلك أنه لو كان طبيعة خلقها الله في النفوس لكان

كل البشر أشحاء إلا من حاربها واستولىٰ عليها، هذا بعد علمنا أن أكثرية البشر لم يجاهدوا النفوس حتىٰ يتطهروا من أدران الشحّ، والشحُّ ليس وصفاً للأكثرية من الناس وإنما الأقلية هي الشحيحة. كما أن تشبيهه للشحّ بالشهوة غير صحيح أيضاً بعد أن عرفنا أن الشح ليس طبيعة عامة، والشهوة طبيعة عامة في البشر كما هو معلوم. وإن صح ما نذهب اليه فهو كذلك نقض وردٌّ علىٰ من قال: ان الشحّ حالة غريزية جبل عليها الإنسان، فهو كالوصف اللازم له. أَنىٰ يكون هذا والله تعالىٰ يقول في محكم كتابه المجيد: «وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»[1].

في الشُّحُّ المَسَبَّة

قريب من قول الإمام أَمير المؤمنين (في الشُّحُّ المَسَبَّة) قوله (عليه السلام) لولده في وصيته له بحاضرين: الشُّحُّ يجلبُ المَلامَة، وهو تأكيد بوجهٍ من الوجوه علىٰ المعنىٰ الأول[2]. وذلك لما نميل إليه من أن المَلامَة والعِتَاب رَجَوانِ السببُ والقَدْح.

لقد أكثر القرآن من ذَمِّ البخل والبخيل في العديد من الآيات المباركة، وسار علىٰ منهاجه العظيم النبي وأئمة أهل البيت «سلام الله عليهم جميعاً»، وهكذا صنع أولوا الأَلباب من مختلف الناس في شتىٰ الأزمان والأصقاع في الطعن الشديد بالبخل والبخيل، لقد أَصبح البخل مسبَّة في الجاهلية والاسلام، إذاً ما هو موقف القرآن الكريم والنبي وأئمة أهل البيت «سلام الله عليهم جميعاً» ومختلف الناس من الشح الذي هو أشد من البخل وأبعد عن الانسانية والمُروءة وأنأىٰ عن الأخلاق النبيلة الفاضلة.

فحسبنا من القرآن الكريم أنه قد ذكر الآية المباركة «وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ

---

١ – الحشر، الآية / ٩، والتغابن، الآية / ١٦.

٢ – تحف العقول / ٨٤.

فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»[١]. مرتين معنىً ولفظاً، في تبجيله الكبير والمتكرر لدرجة الوقاية من الشحِّ والتحصن من الوقوع في شباكه مسبقةً وتعرُّضاً حادّاً للشحِّ والأَشحاء بصورة غير مباشرة.

وحسبنا من كلمات النبي «ص» وأهل بيته الطاهرين (ع) هذا النزر اليسير الذي يعبر تعبيراً قوياً عن مسبة الشحِّ والأشحاء:

قال الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: إن صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخرتها بالشح والأمل[٢].

وقال «ص»: ما محق الإسلام شيء محق الشحِّ إن لهذا الشح دبيباً كدبيب النمل وشعباً كشعب الشرك[٣].

وقال «ص»: خلقان لا يجتمعان في مؤمنٍ الشح وسوء الخلق[٤].

وقال أَمير المؤمنين علي بن أبي طالب: علىٰ الشك وقلة الثقة بالله مبنىٰ الحرص والشح[٥].

وقال «سلام الله عليه»: إياك والشح فإنه جلباب المسكنة وزمام يقاد به إلىٰ كل دناءة[٦].

وقال «سلام الله عليه»: احذروا الشحَّ فإنه يكسب المقت ويشين المحاسن ويشيع العيوب[٧].

وقال الإمام الصادق (سلام الله عليه): لا يؤمن رجلٌ فيه الشح والحسد

---

١ – الحشر، الآية / ٩، والتغابن، الآية / ١٦.

٢ – مشكاة الأنوار / ٨٧، وأعلام الدين / ١٣٢.

٣ – عوالي اللآلي، ١ / ٣٧٨.

٤ – بحار الأنوار ٧٤ / ١٧٦.

٥ – غرر الحكم، الحكمة / ١٠٧٠.

٦ – المصدر نفسه، الحكمة / ٦٥٦٣.

٧ – المصدر نفسه، الحكمة / ٦٥٧٦.

والجبن، ولا يكون المؤمن جباناً ولا حريصاً ولا شحيحاً[١].

كثرة التعلُّل آية البخل

٩٦ ـ يُروىٰ عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) القول: كثرةُ التعلّل آيةُ البخل[٢].

من الضروري أو شبه الضروري أن يكون الاكثار من التعلل والاعتذار من عدم البذل والعطاء والترحيب الكامل بالضيوف آيةً للبخل وعلامة شاخصة علىٰ اللؤم؛ باعتبار أن الانسان وهو يُسأل أو يُستضاف أو تمر به مختلف الحالات التي تستدعي منه الكرم والإحْسان قد يكون معذوراً في بعض القضايا، ولكن مع هٰذا الاكثار من التعلل والاعتذار فأي حقيقة ملموسة لما يقول ويدعي ويتخبط وهو يدافع يمينه بشماله، ويقاوم حكمة الجود بوسوسة البخل. إن هذه الأوضاع المتعددة التي وقف بها مواقف لا يمكن أن تتسم بصورة من الصور بالجود والتعاطف المالي مع الآخرين بل ولا بمقدار مناسب شيئاً ما، لَتَدل علىٰ أن هٰذا الانسان كاذب في تعلله واعتذاراته المتكررة، فقد برهنت الظروف المتباينة وملابسات الأوضاع والأمور المتعاقبة علىٰ بخله ولؤم نفسه، في الوقت الذي لم يبرهن شيء خطير كبير أو أشياء يُعتدُّ بها علىٰ خلاف ذلك.

قد عرفنا أنه من الضروري أو شبه الضروري أن يكون الاكثار من التعلل آية علىٰ البخل، ولكن هل من الضروري أو شبه الضروري أن يكون الاقلال من التعلل آية علىٰ البخل؟ والجواب الصحيح ـ فيما أعتقد ـ: كلا؛ وذلك لأن الإنسان وإن كان من أكابر الأغنياء وأكابر الأجواد والمُفضلين في الوقت نفسه بيد أنه قد تمر به ظروف معينة لا يتمكن معها من التصدي أو شبه التصدي للكرم والإحْسان

---

١ ـ مشكاة الأنوار / ٣١١.
٢ ـ غُرر الحكم، الحكمة /٦٥٣٨

أو لاستقبال الضيوف، سواء من حيث تردي القدرة المالية، أو من حيث ضيق الوقت وتراكم الأعمال، أو من حيث انشغال البال والتفكير بالمعوّقات الفعلية والمشاكل الآنية، أو لغير ذلك من الأسباب التي تخطر علىٰ البال أو لا تخطر، فمثل هٰذا الإنسان الكريم صادق في تعلله واعتذاره، إذاً فمن سوء الظن والتسرع الىٰ الباطل أن يُتهم الإنسان بالبخل لمجرد أن يُرىٰ في بعض الحالات والأوضاع في مَعزِل عن الاكرام والافضال وخدمة الزائرين بشكل ملحوظ. إلا أن صاحب الحاجة أعمىٰ لا يرىٰ إلا قضاءها كما قيل، فهو لا يقبل العذر ولا يحسن الظن بالطرف المقابل، إلا من عصم الله تبارك وتعالىٰ من أصحاب الحاجات فإنهم غير متشبثين باطلاق التهم، ولا متسرعين الىٰ رشق سهام الذم والقدح والغيبة، وقَليلٌ ما هُم، والعذرُ عند كرام الناس مقبولٌ، كما هو معروف، إلا أن الحديث عن الأكثرية من الناس هل هم كرام في الحكم علىٰ من لا ينتفعون به آنياً وبأسرع وقت ممكن؟ وهل هم يعذرون من لا ذنب له ولا غبار عليه إلا ذلك الغبار المعتم الكثيف الظلوم الذي أثاروه بأقدام التسرع الشيطاني الىٰ النقد الهجين وإلصاق التهم والأَباطيل المجانية؟

لا تخلفن وراءك شيئاً من الدنيا

٩٧ ـ روىٰ الشريف الرضي جامع (نهج البلاغة) الكلام التالي عن أمير المؤمنين: وقال (عليه السلام) لابنه الحسن (عليه السلام): يَا بُنَيَّ لا تُخَلِّفَنَّ وَرَاءَكَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ تَخَلِّفُهُ لأَحَدِ رَجُلَيْنِ إِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ وَإِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَشَقِيَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ فَكُنْتَ عَوْناً لَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَلَيْسَ أَحَدُ هَذَيْنِ حَقِيقاً أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ

ثم قال الرضي: ويروىٰ هٰذا الكلام علىٰ وجه آخر، وهو: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الَّذِي فِي يَدَيْك مِنَ الدُّنْيَا قَدْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ قَبْلَك وهُو صَائِرٌ إِلَىٰ أَهْلٍ بَعْدَك وإِنَّمَا أَنْتَ جَامِعٌ لأَحَدِ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، أَو رَجُلٍ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَشَقِيَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ، ولَيْسَ أَحَدُ هَذَيْنِ أَهْلاً أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَىٰ نَفْسِك أَو تَحْمِلَ لَهُ عَلَىٰ ظَهْرِك؛ فَارْجُ لِمَنْ مَضَىٰ رَحْمَةَ اللَّهِ ولِمَنْ بَقِيَ رِزْقَ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

ولسنا نرىٰ إصابته رحمه الله تعالىٰ فيما قال، وإنما الكلام الأول من كلام الإمام يخاطب به ولده الإمام الحسن (عليه السلام) والثاني من كلام الإمام أيضاً من رسالة أرسلها الىٰ مولىٰ له كان قد طلب منه أن يوسِّع عليه من بيت مال المسلمين بما لا يحق له فلم يستجب له، فالتحق بمعاوية وأصاب مالاً، فكتب الىٰ الإمام بذلك، فأرسل الإمام اليه رسالته التي ذكرناها ثانياً. فالكلام الثاني ليس وجهاً آخر عن الكلام الأول، وإنما هو كلام آخر، وإن اقترب من الكلام الذي يخاطب به ابنه (عليه السلام) في عدة ألفاظ.

ومما يؤيد ما نذهب اليه من أن الكلام الأول مغاير للثاني قول الإمام (عليه السلام) (بُنَيَّ لا تخلفن وراءَك شيئاً مِن الدنيا) فإنما يصح في العقول توجيه مثل هذه الوصية الشاقة وإلقاء مثل هذه المسؤولية الكبرىٰ علىٰ عاتق إمام من أئمة الدين كالإمام الحسن السبط (عليه السلام) أو من هو قريب من هذه المنزلة العليا، لكي يتقبل العمل بهذا التوجيه الصعب جداً علىٰ النفوس الموافقة عليه والأخذ بمفاده، فمن يستطيع أن لا يخلف وراءَه شيئاً مِن الدنيا من عامة الزاهدين فضلاً عن غيرهم؟ وهل أن ذلك المولىٰ الهارب من وجه العدالة يتصدىٰ للعمل بموجبه! إن غاية ما يُرجىٰ منه أن لا يكتنز الأموال بلا أن ينفق جانباً كبيراً منها وأن لا يدخرها مُكَدَّسةً للوارثين.

هٰذا ولقد روىٰ ابن عساكر في كتابه « تأريخ مدينة دمشق » الكلام الأول عن الإمام أمير المؤمنين وذلك باسناده عن الحسن بن علي عن أبيه يخاطبه به[١].

الحريصُ والشَّرِهُ والبخيـلُ جهلاء

٩٨ – قال علي (عليه السـلام) : الحرص والشره والبخل نتيجة الجهل[٢].

من المستساغ أن نقوم بمحاولة ـ ولو بنحوٍ متواضع ـ لفقه الحديث العلوي الذي يصبُّ علىٰ رمي البخيل بالجهل (إضافة الىٰ رمي كلٍّ من الحريص والشره بالمرض ذاته) فلماذا يصف الإمام أَمير المؤمنين (عليه السـلام) كُلَّ واحد من هـؤلاء بالجهل ؟ أَحسـب أن الجواب سـوف يُـعرف مـن خـلال امـعان النـظر والالتفات إلىٰ النقاط الرئيسية التالية :

١ ـ يعدُّ المجتمع البخل والحرص والشَّرَه عيباً وهُوَّة ضـعفٍ وهـوانٍ فـي شخصية من يتصفون بها ، بل أعتقد أن البخلَ والشَّره والحرص نُكتةٌ سوداء داكنة بارزة في وجه البخيل والشَّرِه والحريص ، ويقول الإمام علي (عليه السـلام) في كلامه المعروف : البخلُ عار . وتأسيساً علىٰ هٰذا فإن البخيل وصاحبيه قد رضوا لشخصيتـهم سمة الضـعف والهـوان ، ولوجـوههم العـتمةَ والسـواد ، ولمكـانتهم الاجتماعية العارَ والشَّنار . إذاً البخلُ والحرصُ والشَّرَهُ جَهلٌ حَقُّ الجهلِ فيما أَعلم ويَعلمُ العالمون .

٢ ـ لأن (البخيـل يبخل علىٰ نفسه باليسير مـن دنـياه ، ويسـمح لوراثـه

---

١ – تأريخ مدينة دمشـق ، ٤٢ / ٥٠٨ .

٢ – غُرر الحكم ، الحكمة /٦٥١٣

بكلها)[١]، علىٰ حدِّ تعبير الإمام علي في حكمته االقدسية. إذاً البخل والحرص والشَّره جهل حق الجهل فيما أعلم ويَعلمُ العالمون.

٣ ـ لأن (البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار)، كما تقدم الحديث عن رسول الله « ص ». وقد روىٰ أَبو بكر البيهقي باسناده عن كدير الضبي قال: أتىٰ أَعرابي النبي « صلىٰ الله عليه وسلم » فقال: نبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار؟ قال: تقول العدل وتعطي الفضل. قال: هٰذا شديد لا أستطيع أن أقول العدل كل ساعة، ولا أن أعطي فضل مالي. قال: فأَطعم الطعام وافشِ السلام. قال: هٰذا شديد والله. قال: هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: انظر بعيراً من إبلك وسقاءاً فاسقِ أهل بيت لا يشربون إلّا غِبّاً؛ فعلَّك أن لا يهلك بعيرك، ولا ينخرق سقاؤك، حتىٰ تجبُ لك الجنة. قال: فانطلق يكبِّر، ثم انه بعدُ استُشهد[٢]. إذاً البخل والحرص والشَّره جهلٌ حَقُّ الجهلِ فيما أَعلمُ ويَعلمُ العالمون.

٤ ـ لأن (الباخل في الدنيا مذموم، وفي الآخرة معذب ملوم)[٣]، علىٰ حدِّ تعبير الإمام علي (عليه السلام) في حكمته المعروفة. إذاً البخل والحرص والشَّرَه جهلٌ حَقُّ الجهلِ فيما أعلم ويَعلمُ العالمون.

٥ ـ لأن (البخيل يمقته الغريب، وينفر منه القريب)[٤]، علىٰ حدِّ تعبير الإمام علي (عليه السلام). إذاً البخلُ جهلٌ حَقُّ الجهلِ فيما أعلم ويَعلمُ العالمون. سواء شعر البخيل ـ ومن هم يعملون علىٰ شاكلته ـ بذلك أم لم يشعر.

ويؤكد الأستاذ الأزهري الدكتور عبد الفتاح عاشور علىٰ هذا المعنىٰ في

---

١ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ١٤٤٦.

٢ – شعب الإيمان، ٣ / ٢٢٠ ـ ٢٢١، الحديث (٣٣٧٤).

٣ – غرر الحكم، الحكمة / ٦٥٥٦. ٤ – غرر الحكم، الحكمة / ٦٥٧٧.

كلمته الرائعة حيث يقول: حرصك علىٰ ما في يديك وشحُّك بالعطاء حُـبّاً لهـذا المال جهل لا يتناسب مع الواقع، فنظرة الىٰ الدّابة الضعيفة وكيف يسوق الله اليها رزقها كفيلة أن تدلك الىٰ الصواب لو اعتبرت قال تـعالىٰ: «وَكَأَيِّـن مِّـن دَآبَّـةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ»[1][2].

وسوف يأتي بحث آخر بعنوان ـ البخلُ في ميزانِ العقل ـ تـحليلاً وتـعليقاً علىٰ قول الإمام علي (ما عقل من بخل بإحسانـه). بما يتناسـقُ ومفادَ الموضوعِ الحالي، ويُعَزِّزُ وِجْهَتَهُ وفكْرَتَهُ، إن شاء الله تعالىٰ.

الكريم يلين إذا استُعطف

٩٩ ـ قال إمام الأَئمة علي (عليه السـلام): الكَـريمُ يَـلينُ إذا اسـتُعْطِف، واللئيمُ يقسو إذا أُلطِف[3].

هل نعلم لأَي سبب فلسفي أو منطقي أن الكريم يلين إذااستعطف، وأن اللئيم يقسو إذا أُلطف؟

الذي أعتقده أن صاحب كل نزعة أَخلاقية ونفسية معينة، سواء كانت ايجابية أو سلبية، يستجيـب للآخرين بيسر وبساطة حينما يدعونه الىٰ ما يوافق نـزعته الطبيعية ويصادف وجهته ومسارَه، ولو بعد شيء مُعين أو غير مُعين من التحريك لسجيته والبعث لمشاعره وأحاسيسه، اللهُمَّ إلا أن يكون ثَم سبب عارض في البيْن يقلقه أو يمانعه ويضادُّه.

---

١ – العنكبوت الآية / ٦٠. ٢ – منهج القرآن في التربية / ٢٥٥.

٣ – ابن أَبي الحـديد، شرح نهج البلاغة، الحكمـة / ٣٩٠ وفيه: واللئيم يقسو إذا لوطـف بدل ألطف، وشمس الدين محمد بن عبد الرَّحْمٰن السخاوي، الجواهر المجموعة، الرقم / ١٠٩. وغرر الحكم، الحكمة / ١٤٤، وسجع الحمام، الحكمة / ١٠٥٣.

وعلىٰ العكس من ذلك فإن الإنسان إذا ما دُعي الىٰ ما يخالف نزعته الأخلاقية والنفسية التي طبع عليها سواء كانت سليمة أو سقيمة، فإنه يأبىٰ الانصياع والاستجابة، اللهُمَّ إلا أن يكون ثَم سبب عارض في البيْن يقلقه أو يمانعه ويضادُّه.

وتأسيساً علىٰ ما بيناه فإن الكريمَ حينما يُستَلان أو يدعىٰ الىٰ عمل من أعمال النبل والخير والإحسان، فإنه يُستَلان أو يدعىٰ الىٰ ما يوافق سجيته الطيبة ويتناغم وطبيعته الفاضلة المعطاء؛ فيلين للطالب.. ويستجيب للداعي.. ويلبي حاجة المحتاج وإن كلفته ما كلفته من العناء والمشقة، أو من كثرة البذل والانفاق نسبياً.

وتأسيساً علىٰ ما بيناه أيضاً فإن اللئيم حينما يُلطف فإنه يدعىٰ الىٰ ما يضاد نزعته وجِبِلَّته، إذاً فمن الصعوبة بمكان أن يرتضي مقترحَ الطالب، وأن يتقبل ما يُدعىٰ اليه. وهٰذا أمر طبيعي بالنسبة لما جُبِل عليه، وان كان بغيضاً في نظر الكرام والأماثل.

هٰذا فيما اذا كان المعنىٰ لكلمة أُلطف هو المعنىٰ الذي مَرَّ علينا، والذي لا يتجاوز كثيراً عن معنىٰ استُعطف، أما اذا كان معناه أنه مُنِحَ اللَّطَف والهدية، فنتصور قسوته من جهتين الأولىٰ منهما ترتبط بالموضوع وهي: أنه ألطف ومنح هدية وكرامة من أجل أن يستجيب لما يُرغب اليه ويُستمنح منه؛ فيقسو ويغلظ لأنه ليس من طبيعته الاستجابة السمحاء وتلبية طلبة الطالبين. والثانية أنه ألطف لا لحاجة اليه وإنما لسبب من الأَسباب الداعية الىٰ ذلك، فهو يقسو لأَن مقدار شخصيته ومنزلته النفسية أدنىٰ من محل اللطف والكرامة وأقل من رتبة التبجيل والتقدير.

وأخيراً فإن لين الكريم إذا استعطف، مما تؤكده وتركِّز علىٰ أهميته التربية الأَخلاقية والفلسفة التربوية، ولقد قال أَمير المؤمنين كما سيأتي: من الكرم لين

الكلام. كما قال: رفق المرء وسخاؤه، يحببه الىٰ أعدائه. وروي عنه (سَـلامُ اللهِ عَلَيه) أيضاً: لبعض إمساكك عن أخيك مع لطف، خير من بذل مع جنف.

البخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب

١٠٠ ـ قال أَمير المؤمنين علي بن أبي طالب: عجبتُ للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنىٰ الذي إياه طلب؛ فيعيش في الدنيا عيش الفـقراء، ويحاسب فىٰ الآخرة حساب الأغنياء[١].

يقول الدكتور سليمان بن قاسم العيد: الإنسان مطالب بإنفاق شيء من ماله إما علىٰ سبيل الوجوب كالزكاة، أو علىٰ سبيل الاستحباب كالصدقة، ولكن هٰذا الانفاق قد يعوقه أُمور منها البخل بالمال والشح في إنفاقه، لذا فإن من مهامِّ الدعاة تخليص المدعوين من هٰذا العائق بالتحذير منه والبعد عنه. وأَمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أَدرك هٰذا الأَمر فسلك سبيل الترهيب من البخل وعدم الإنفاق، بكلمات جميلة وعبارات لطيفة منها: بشِّرْ مالَ البخيلِ بحادثٍ أو وارث، وقوله: البخيلُ مستعجلُ الفقر، يعيش في الدنيا عيشَ الفقراء، ويـحاسب في الآخرة حسابَ الأغنياء[٢]. انتهىٰ كلامه.

ولقد أَجاد الكاتب السوري ماهر أَحمد الصوفي حيث يقول: إني لأعجب لهؤلاء والىٰ مخالفتهم الطبيعة البشريَّة المُحسنة والخيِّرة عموماً، فما فائدة جـمع

---

١ – شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / الحكمة ١٢١، وجواهـر المـطالب فـي مـناقب الإمام علي بن أَبي طالب للباعوني الباب / ٦٦ الحكمة / ٢٨، وسجع الحمام لعـلي الجـندي وزميليه الحكمة / ٨٦٧.

٢ – الدكتور سليمان قاسـم العيد، منهج علي بن أبي طالب في الدعوة الىٰ اللـه / ١٨٢ ـ ١٨٣.

المال وتكديسه والبخل فيه؟ فالبخيل لا يكون بخيلاً اليوم وكريماً غداً، فالمعادلة التي يعيشها: أن بخله الدائم = فقره الدائم، والقاسم المشترك بينهما الحرمان، فَلِمَ يحكم الفقير علىٰ نفسه بالحرمان والفقر؟ ولمن يجمع المال إذا كان لا ينفعه لا حاضراً ولا مستقبلاً، ولا يكون للتمتُّع بالطيّبات حَظٌّ عنده[1]؟!

علي بن أبي طالب يستثير مكامن العقول

طالما يستثير أَمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب مكامنَ عقولِ البشر، ويحرّك أنماط رؤيتهم وتفكيرهم، وهو يَتَحَدَّث إليهم عن الشؤون العريضة الطويلة للحياة الدنيا بسرّائها وضرّائها، وعن الشؤون الغزيرة الكبيرة للحياة الآخرة بنعيمها وجحيمها.

ففي ما يخص البخيل مثلاً نراه (عليه السلام) كيف يعالج القضية العسيرة المعقدة، فيدخل دخولاً مباشراً حتىٰ في زاويتها السوداوية الدكناء الأثيمة، التي ترجع الىٰ البخيل بالذات بما يكدر عليه مسيرة عيشه، وبما يضره أفدح الأضرار وأشدها ارهاقاً وتدميراً لدينه ودنياه.

وابتدأ الإمام في معالجته للحالة المأساوية التي يجنيها البخيل علىٰ نفسه باظهار التعجب والاستغراب قائلاً: عجبت للبخيل. وهٰذا التعجب الصادر من الإمام أمرٌ طبيعي جداً. ومَرَدُّ طبيعيته الىٰ أن علي بن أبي طالب سيد المفكرين وإمام الفلاسفة فهو بعقله المنير الجبار يرىٰ من الأُمور ما يخفىٰ علىٰ كبار الحكماء والمفكرين، فكيف بهذا الأمر الذي نحن بصدده والذي لا يخفىٰ علىٰ كثير من أولي الألباب لا سيما بعد أن يستدعوا الىٰ التبصر في البخل والتفكير بجدية في أبعاده وأنحائه. ومَرَدُّ طبيعيته من جهة ثانية الىٰ أن من كان علىٰ صفة معينة من

---

١ – ماهر أَحمد الصوفي، الرزق والمال بين السنة والقرآن ١ / ١٥٠.

حيث كونها ملكة راسخة فيه، أو من حيث الالتزام بها والعمل طبقاً لها فإنه يعجب لمن كان علىٰ صفة أخرىٰ علىٰ الضدِّ منها؛ فالبطل المقدام يـعجب لمـن اتـصف بالجبن و تمسك به، والعَفُوُّ الحَليمُ يعجب لمن تحكمت فيه صفة التسرع الىٰ الغضب والبطش، وهكذا بالنسبة الىٰ الجواد الكريم فإنه يعجب لمن صفته البخل أو الشحّ. ولقد كان علي بن أبي طالب (سلام الله عليه) غاية الكرماء وقمة الأَجـواد، إذاً فمن أين لا يعجب غايـةَ العجب وقمـةَ العجب ممن يكون علىٰ الطرف المضـادِّ كل التضاد لصفته!؟ ومن هٰـذا المنطلق بالتحديد فليس من العـجب أن يـعجب الإمام بل العجب لو لم يعجب.

ويثنّي الإمام في معالجته للحالة المأساوية التي يجنيها البخيل علىٰ نفسه بأن يطلب منه التدقيق في أمره تدقيقاً جيداً فإنه وبكل تأكيد يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنىٰ الذي إيـاه طلب. وهٰذا الشيء غريب حقاً فكيف يوقع اللبيب نفسه عن قصدٍ ووعيٍّ في قضية قد تعمد الهروب منها! فالمفروض أن هٰذا الإنسان قد بخل بماله وملكيته علىٰ الآخرين في سبيل أن يتمتع هو بها ويستلذ بخيراتها وأن يتنعم بالثروة والغنىٰ، أَما أن يبخل بها علىٰ نـفسه ويـحرمها مـن الانـتفاع والالتذاذ فهو ليس من العقل والتفكير السليم في شيء، كما أنـه تـضييع وهـدر للهدف من الجمع والبخل الذي اختاره البخيل وارتضاه منهاجاً لنفسه.

وكذلك يثلِّث الإمام في معالجته للحالة المأساوية التي يجنيها البخيل علىٰ نفسه بأن يطلب منه أن يدقق في أمره جيداً من جهة أخرىٰ تتعلق بـيوم الجـزاء الأوفىٰ والحساب الأَكبر، فكم وكم من فقيرٍ محتاجٍ منعه البخيلُ من ماله، وكـم وكم من أرملة قد صدَّها عن ذات يده، وكم وكم من لهيفِ القلبِ بائـسِ العيشِ قد لوىٰ عنقه عن عطائه، وكم وكم من.. الخ. وطبـقاً لما اقترفه البخيل واجترحه من السيئآت والموبقات بحق أقرب نفس اليه وبـحق الآخـرين كـذلك، أَليس مـن الجدير وفقاً للعدالة الإلهية أن يُعاقب هٰذا العبد اللـئيم الأهـوج مـعاقبة عسـراء

شديدةً حُطَمَة؛ فَيَوَدُّ حينئذٍ لو تعود له أَموالُهُ وأَمثالُها بل أَمثال أَمثالها؛ ليفتدي بها كلها جميعاً وينقذ بدنه وروحه ـ ولو لسويعاتٍ محدودةٍ ـ من تَعاسةِ المُنْقَلَب.. وسوءِ المَصير.. وشِدَّةِ الحِساب.. وأَليمَ العَذاب.. وهَوْلِ المُطَّلَع.. وكَآبةِ المَوقِف.. وعَظَمَةِ الحَرَج.. وخَطَرِ المَزْلَق.. ولاتَ حِينَ افتداء.

«وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ»[1].

القائدُ المِثاليُّ أَوْلىٰ مَنْ أَسعَف وأَسْعَد

١٠١ ـ يُعْتَبَرُ العهدُ العلوي الكبير لمالك بن الحارث الأشتر من النصوص الثابتة الصحة لدىٰ الباحثين المحققين في نسبتها لأَمير العلم والمعرفة وإمام البيان والبلاغة علي بن أبي طالب.

يقول الإمام (سلام الله عليه) وهو يُوصي الأمير علىٰ البلاد المصرية من قبله (مالك بن الحارث الأشتر): ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ والْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ ومَعُونَتُهُمْ وفِي اللَّهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ ولِكُلٍّ عَلَىٰ الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ، ولَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنْ ذَلِك إِلا بِالاهْتِمَامِ والاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ وتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَىٰ لُزُومِ الْحَقِّ والصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَو ثَقُلَ[2].

---

١ – هود، الآية / ٩٩.

٢ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٧ / ٤٩. وبحار الأنوار، ٧٧ / ٢٤٩.

ـــ يوصي الإمامُ (عليه السلام) الأميرَ علىٰ البلاد المصرية بل ويوصي كلَّ قائدٍ مسؤولٍ علىٰ وجه الأرض أن يلتزم العناية الخاصة والرعاية الكبيرة بالطَّبَقَةِ السُّفلىٰ من أهل الحاجة والمسكنة الذين حق رفدهم، فلا يتركهم عرضة لرشقات سهام الفقر والهوان، بل عليه أن لا يقصر بمدِّهم واسعافهم واسعادهم بما يزيح عنهم كابوس الحالة المادية المزرية. والقائِدُ المِثاليُّ أَوْلىٰ مَنْ أَسعَف، وأَجْدَرُ مَنْ أَسْعَد.

ـــ ولكنَّ عبارة الإمام (عليه السلام) دقيقة في تحديدها لنوعية الذين يوصي بامدادهم والصرف المالي عليهم؛ إذ أن من الطَّبَقَةِ السُّفلىٰ ومن أهل الحاجة والمسكنة بالذات الكثيرين ممن لا تجب اعانتهم لأن السبب في هوانهم الاقتصادي ليس قصورهم عن الأعمال التي تدرُّ عليهم بالأرباح أو بما يقوتهم وإنما هو حبهم للخمول والتقاعد عن كلِّ نشاط وعمل وجنوحهم اللاهف الىٰ استقبال المساعدات والمعونات الشرعية والانسانية الأمر الذي يعني رغبتهم في الاستجداء، فإعانتهم تعني بشكل تلقائي تشجيعهم وتشجيع غيرهم من أشباههم علىٰ التواكل والكسل، وكأنَّ الإمام (سَلامُ اللهِ عَلَيه) قد أشار اشارة خفية ولكنها معبرةٌ وقويةٌ الايحاء الىٰ هٰذا الجانب قائلاً: ثم الطَّبَقَةِ السُّفلىٰ من أهل الحاجة والمسكنة الذين حق رفدهم، أي أن هنالك من الطَّبَقَةِ السُّفْلىٰ مَن لا يحق رفدهم. وإن كان لا مانع من ارفاد ومساعدة مثل هؤلاء بشكل مؤقت، مع الأخذ بنظر الاعتبار أَهمية الفات نظرهم وتنبيههم بشكل من الأشكال الىٰ ضرورة الكسب وأهمية التوجه نحو العمل والكدح المثمر.

حَدَّث موسىٰ بن بكر قال: قال لي أَبو الحسن (ع): مَن طلب الرزق من حله ليعود به علىٰ عياله ونفسه كان كالمجاهد في سبيل الله، فإن غلب عليه فليستدنْ علىٰ الله وعلىٰ رسوله ما يقوت به عياله، فإن مات ولم يقضه كان علىٰ الإمام

قضاؤه، فإن لم يقضه كان عليه وزره، إن الله تعالىٰ يقول: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ»[١]. فهو فقير مسكين مغرم[٢].

اعطِ ما أعطيت هنيئاً

١٠٢ ـ وجاء كذلك في العَهد الأشتري العظيم: فاعطِ ما أعطيت هنيئاً، وامنعْ في إجمالٍ وإعذار، وتواضعْ هناك فإنَّ الله يحبُّ المتواضعين[٣].

شرح وتعليق

الكَثِيرونَ مِنَ الناسِ يَهَبون، والقليلونَ مِنْهُمْ يُهْنِئون. هٰذا ما نقوله واثقين من صحة القول وسلامة الفكرة، والوثائق التأريخية تؤكده، كما أن التجارب الاجتماعية الغنية تعضد محتواه وتؤيد مضمونه.

إنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يُنْعِمُ بالعطيَّةِ ويَهَبُ المَالَ بعد التعرض بالاسترفاد والسؤال وبذل ماء الوجه.

وإنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يُنعمُ بالعطيَّةِ ويَهَبُ المَالَ بعد ايذاء الطالب والراجي بالمواعيد الطويلة.

وإنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يُنعمُ بالعطيَّةِ ويَهَبُ المَالَ مانّاً بما أعطىٰ مما ينغص علىٰ الآخذ والمستفيد سعادة الهبة والمنحة.

---

١ – التوبة، الآية / ٦٠.

٢ – القطب الراوندي، فقه القرآن ١ / ٣٨١.

٣ – بحار الأنوار، ٧٧ / ٢٦٠ ـ ٢٦١.

وإنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يُنعِـمُ بالعطيَّـةِ ويَهَبُ المَـالَ مصرحاً بما يعطي ومشـيراً له بين جماعة قلَّت أو كثرت غير آبهٍ بستر حال الآخذ أو حـافظ لمـاء وجـهه ونضـارة محيّـاه..

وغير ذلك من الحالات التي قرأنا عنها كثيراً ،وسمعنا بها مراراً ، في أكثر من مجتمـع ، وأكثر من بلد وشعـب وأُمة .

هٰـذا ويعتبر الإمام أَمير المؤمنين تعجيل العطية مَدعاةً الىٰ هناء الآخذ كما يتضح من قوله « عليه السلام » : لا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إلا بِثَلاثٍ بِاسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ ، وبِاسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ ، وبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ .[1].

كما يعتبر الإمام جزالة العطية مدعاةً الىٰ هناء الآخذ كما يتضح مـن قـوله « عليه السلام » : من هَنيء النعم سعة الأرزاق [2].

ويتعرض (سَلامُ اللهِ عَليه) الىٰ المنّ علىٰ الآخذ معتبراً اياه من أَسباب عدم هناء ورغد المستفيد قائلاً : ما أهنأ العطاء مَنْ منَّ به[3].

معنىٰ الإجْـمال

يظهر أنَّ معنىٰ الإجمال في قول الإمام (عليه السلام) : (امنعْ فـي إجـمالٍ وإعذار) أنك اذا منعت أحداً أو جهةً من العطاء لسبب من الأَسـباب كعدم القدرة علىٰ ذلك مثلاً ، فليكن منعك بلطفٍ وشـفافيةٍ أخـلاقيةٍ وجـمالِ أسـلوب ، دون أسلوب الغلظة والجفاء وكلِّ ما يعبِّر بصورة من الصور عن الفظاظة والعنف وبلادة

---

١ – شرح نهج البـلاغة لابن أَبي الحـديد ، ١٨ / ٢٥٨ ، الحكـمة / ٩٧ ، وغُـرر الحكـم ، الحكمة / ٨٩٧٢.

٢ – غُرر الحكم ، الحكمة / ٨٣٦١.

٣ – المصدر نفسه ، الحكمة / ٩٨٢٢.

الأحاسيس والجمود في العلاقات، من أجل أن لا يجمع المانع من المِنَح والأُعطيات بين المنع وعدم المساعدة والتعاون من جهة، وبين شقاء التعامل وهزاله وانحطاطه من جهة ثانية.

وأُرجح أن يكون الإجمال بهذا المعنىٰ هو المقصود بالحديث النبوي الشريف: «اتقوا اللهَ رَبَّكُم وأَجمِلوا فِي طَلَبِ الرزق»[١]. كما أنه ذاته المقصود من الكلمات والحكم العلوية المباركة: (خَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَىٰ حَرَبٍ، وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ)[٢]. (خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَتَاك، وتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّىٰ عَنْك، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ)[٣]. (ذو العقلِ لا ينكشِفُ إلا عن احتمال وإجمال وإفضال)[٤]. (أَجملوا في الخطاب، تسمعوا جميلَ الجواب)[٥].

إنَّ كلَّ ما مَرَّ وغيره مما لم نذكر يشير الىٰ أن كلمة الإجمال الذي تكرر ذكرها مراراً، مأخوذة من كلمة الجَمَال والدعوة اليه في أسلوب التعامل والتعايش والخطاب السياسي والاجتماعي.

معنىٰ الإعْذار

ما هو معنىٰ الإعذار الوارد في قول الإمام أَمير المؤمنين (عليه السلام): (امنعْ في إجمالٍ وإعذار)؟

الإعذار هو أنه في حالة منعك للطرف المقابل من العطاء أن تعتمد الأسلوبَ الذكيَّ في حسن التخلصِ من مغبة المنع، وفي تقديم الاعتذار المناسب من منعك

---

١ – شرح نهج البلاغة ١٤ / ٢٣٣.
٢ – المصدر نفسه، ١٦ / ٩٣.
٣ – شرح نهج البلاغة ١٩ / ٣٥٨، ٤٠١.
٤ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٧٠٥.
٥ – المصدر نفسه، / ٩٩٧٩.

إياه، في محاولة بريئة وهادئة لارضائه واقناعه وتطييب خاطره بما يجري ما كان الىٰ ذلك سبيل.

وأحسب أنه في حالة التنقيب والتفحص في مضامين النصوص العلوية التالية سوف يتضح معنىٰ الاعذار ويستقيم ما ذكرناه:

(الشيب إعذار الموت)[1].

(وإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِك حَيْفاً، فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِك، واعْدِلْ عَنْك ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِك، فَإِنَّ في ذلِك إِعْذاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَك مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَىٰ الْحَقِّ)[2].

ومن كتاب له (عليه السلام) إلىٰ معاوية من المدينة في أول ما بويع له بالخلافة... (أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ، وإِعْرَاضِي عَنْكُمْ)[3].

(ثم اعمل فيهم بالاعذار الىٰ الله يوم تلقاه، فإن هؤلاء أَحوج الىٰ الإنصاف من غيرهم. وكلٌ فأعذر الىٰ الله في تأدية حقه اليه)[4].

---

١ - شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ٣١٧، ٦٥٥.

٢ - المصدر، ١٨ / ٦٨، ٧٥.

٣ - المصدر، ١٨ / ٦٨ ـ ٧٥.

٤ - بحار الأنوار، ٧٧ / ٢٥٩ ـ ٢٦٠. ومن النصوص العلوية في الاعذار ما ورد في كتاب الخصال للصدوق عن علي (عليه السلام) وهو يخاطب أحد المتناظرين من اليهود: فقال (ع): وأما الخامسة يا أخا اليهود فإن المتابعين لي لما لم يطمعوا في تلك مني وثبوا بالمرأة علي وأنا ولي أمرها والوصي عليها فحملوها علىٰ الجمل وشدوها علىٰ الرحال وأقبلوا بها تخبط الفيافي وتقطع البراري وتنبح عليها كلاب الحوأب وتظهر لهم علامات الندم في كل ساعة وعند كل حال في عصبة قد بايعوني ثانية بعد بيعتهم الأولىٰ في حياة النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» حتىٰ أتت أهل بلدة قصيرة أيديهم طويلة لحاهم قليلة عقولهم عازبة آراؤهم وهم جيران بدو ووراد بحر فأخرجتهم يخبطون بسيوفهم من غير علم، ويرمون بسهامهم بغير فهم؛ فوقفت من أمرهم علىٰ اثنتين كلتاهما في محله المكروه ممن إن كففت لم يرجع ولم يعقل وإن أقمت كنت قد صرت إلىٰ التي كرهت؛ فقدمت الحجة بالإعذار والإنذار، ودعوت المرأة إلىٰ الرجوع إلىٰ بيتها.

وهٰكذا يظهر لنا أن معنىٰ الإعذار هو تقديم الاعتذار المرضي والمقبول لدىٰ العقلاء، فلا تقع اللائمة والعتاب بسبب المنع.

في تواضُعِ الواهبين تتجسَّدُ المنفعةُ للمعطينَ والآخذين

بعدما قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): فاعطِ ما أعطيت هنيئاً.. أَضاف قائلاً: وتواضعْ هناك فإنَّ الله يُحِبُّ المُتَواضِعين. فهل من المتوقع التكبر علىٰ الآخذ والمسترفد حتىٰ يأمر الإمام بالتواضع؟

نعم التكبر متوقع من بعض أَفراد باذلي الأَموال لأَنَّ «يَد المُعطي فوق يدِ المُعطىٰ». كما في الحديث النبوي[1]، ومن كانت لهم الفوقية والعلوُّ فمن المتوقع من بعضهم ولو في بعض الأَحايين علىٰ الحَدِّ الأَدنىٰ الاستعلاء والتكبر، ولقد قال تبارك وتعالىٰ مبيِّناً طغيان الإنسان في غناء حاله: «كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ»[2].

علىٰ أننا لو حققنا أَكثر في كلام الإمام (عليه السلام)، لوجدناه لا يتضمَّن الردع والنهي عن التكبر والاستعلاء حال الإعطاء فحسب، الأَمر الذي قد يعني الحالة الوسطىٰ القائمة بين التكبر والتواضع، لأَن مُجَرَّدَ نفي التكبر لا يعني

والقوم الذين حملوها علىٰ الوفاء ببيعتهم لي، والترك لنقضهم عهد الله عز وجل فيَّ، وأعطيتهم من نفسي كل الذي قدرت عليه وناظرت بعضهم فرجع. الخصال، ٢ / ٣٧٧.

وفي دعاء الإمام زين العابدين (ع):.. وتَلَقَّيْتَ مَنْ عَصَاك بِالْحِلْمِ، وأَمْهَلْتَ مَنْ قَصَدَ لِنَفْسِهِ بِالظُّلْمِ، تَسْتَنْظِرُهُمْ بِأَنَاتِك إِلَىٰ الانَابَةِ، وتَتْرُك مُعَاجَلَتَهُمْ إِلَىٰ التَّوْبَةِ لِكَيْلا يَهْلِك عَلَيْك هَالِكُهُمْ، ولا يَشْقَىٰ بِنِعْمَتِك شَقِيُّهُمْ إِلا عَنْ طُولِ الاعْذَارِ إِلَيْهِ، وبَعْدَ تَرَادُفِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ. الصحيفة السجادية الدعاء / ٤٥ (وكَانَ مِنْ دُعَائِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ فِي وَدَاعِ شَهْرِ رَمَضَانَ).

١ – أَبو بكر عبد الله بن محمد القرشي البغدادي المعروف بابن أبي الدنيا، ت ٢٨١ هـ / كتاب القناعة والتعفف، الرواية / ٨.

٢ – العلق الآية /٧.

بالضرورة التواضع، بل يُصَـرِّحُ بأهمية التواضع هناك. وفي التواضـع تَـتَجَسَّـدُ المنفعةُ لا للآخذ فقط وهو لا يشعر بالمذلة والانكسار، بل حتىٰ للمُعطي أَيـضاً، وذلك من جهة الدلالة القـوية عـليه بـحسن المـعاملة وسـمو الروحـية والتألق الأَخلاقي، وما يستتبع ذلك من كيل المديح والثناء عليه بين الناس، ومن جهة ما يترتب علىٰ التواضع من اقتناص الأَجـر العظيم والثواب الكبير ورفع الدرجة عند الله تبارك وتعالىٰ وهو الأهم بكثير والأولىٰ بالاعتناء والرعاية.

وإنك لتستطيعُ أَيُّها الواهِـبُ الجَليلُ أَن تُبدي التواضعَ وأنت تمنح وتـعطي وتُجَسِّم محتواه الجمـيلَ والأَصـيلَ عن طريق لين الكلمات وعـذوبة المـنطق، وبشاشة الوجه وانبساط الأسارير، ودفء التعامل وحرارة اللقاء، وعن طـريق إشارة اليد، ورفق النظـرات، وخلجـات الجفنين، وعن طريق سـائـر حـركات البدن.

ولو علمت أيُّها الواهِبُ الجَلـيلُ صدقَ ما أقول لك: قلما يُؤجَرُ الآخِذُ علىٰ الأخذِ والاستـرفاد، وطالما يُؤجَرُ الواهبُ علىٰ البذلِ والعَـطاء، إذاً لكان لك في علمك هٰذا ما يحرضـك علىٰ مزيـد الإِحْسان والبذل، ويـحثُّك عـلىٰ التسـابق والتسـارع الىٰ شرف اللين والتواضع.

ولو علمت أيُّها الواهِـبُ الجَليلُ حقيقةَ نصيحتي لك: إنَّ تواضعَ الواهِـبـينَ مِن أَفضل شُكـرِ الشاكرين. إذاً لكان لك في علمك هٰذا ما يحرِّضُـك علىٰ مزيد الإِحْسان والبذل، ويحثُّـك علىٰ التسابق والتسـارع الىٰ شرف اللين والتواضع.

ولو علمت أيُّها الواهِـبُ الجليلُ سـدادَ الصـراحـةِ حـيث أَقـول لك: إن تواضعَ الواهبـين خَيرٌ مِن شُكـرِ الآخِذين. إذاً لكـان لك فـي عـلمك هٰـذا مـا يحرضك علىٰ مزيد الإِحْسان والامتنان، ويحثك علىٰ التسـابق والتسـارع الىٰ

شرف اللين والتواضع.

جِماعٌ من الكرم وشُعَبٌ من العُرْف

١٠٣ ـ وقال الإمام (عليه السلام) في الوصية الأشترية المذكورة: ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي المُرُوءَاتِ والأَحْسَابِ وأَهْلِ البُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ والسَّوَابِقِ الحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ والشَّجَاعَةِ والسَّخَاءِ والسَّمَاحَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الكَرَمِ وشُعَبٌ مِن العُرْفِ.

ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ ما يَتَفَقَّدُ الوالِدانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، ولا يَتَفَاقَمَنَّ في نَفْسِك شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، ولا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وإِنْ قَلَّ فإِنَّهُ داعِيَةٌ لَهُمْ إِلىٰ بَذْلِ النَّصِيحَةِ لك وحُسْنِ الظَّنِّ بك، ولا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالاً علىٰ جسِيمِها فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِك مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ ولِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ[١].

١ ــ ينصح الإمام علي (عليه السلام) الأَمير مِن قِبَله، بل وكلَّ رئيس وأَمير يرغب في أن يستَنَّ بسنن الخير والفضيلة ويعمل طبقاً لقانون العدالة والانصاف أن يُقَرِّبَ من حكمه وسلطانه ومنه شخصياً ذَوِي المُرُوءَاتِ والأَحْسَابِ وأَهْلَ البُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ والسَّوَابِقِ الحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلَ النَّجْدَةِ والشَّجَاعَةِ والسَّخَاءِ والسَّمَاحَةِ، ولم تكن النصيحة بهٰذا التقريب والتبجيل لهم اعتباطاً واعتسافاً، أو محاباة لهم، أو من جهة الرغبة في مفاكهتهم ومنادمتهم، وإنما الأمر ما فوق ذلك بكثير وكثير، إن هؤلاء بكلمةٍ عميقةٍ يُوجزها الإمام (سلام الله عليه) بقوله الشريف: جِمَاعٌ مِنَ الكَرَمِ وشُعَبٌ مِن العُرْفِ[٢].

---

١ – المصدر ذاته.

٢ – قال ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة في شرح هٰذا العهد: العرف المعروف. وكذلك من في قوله وشعب من العرف أي شعب العرف أي هي أقسامه وأجزاؤه. ويجوز أن تكون من

٢ ــ يدل هٰذا النص الجزيل القيمة السياسية والاجتماعية علىٰ أن الإمـام علياً (عليه السـلام) في مخططاته الروحية والسياسية يهدف الىٰ أن يجعل مـن الدولة الإلهية المباركة دولةَ الكَـرَمِ وشُعَـب العُـرْفِ. لا دولةَ اللئام وأَهل البخل والشحِّ والجفاء. فاذا كان الإمام أمير المؤمنين (عليه السـلام) يشترط للمناصب القيادية العليا سخاء المنتمين اليها وجودهم[1] (إضافة الىٰ الشرائط الأخرىٰ) فإنه يدعوها بقوةٍ دعاءَ الحكـيمِ الإلهـي والنـاصحِ الرسـالي الىٰ الالتـصاق بِـذوي المروءاتِ والأَحسابِ وأَهلِ البيوتاتِ الصَّالحةِ والسَّوابقِ الحسنةِ، ثمَّ أَهلِ النَّجدةِ والشَّجاعةِ والسَّخاءِ والسَّماحةِ. أي الالتصاق بأهـل الكَـرَمِ وشُـعَـب العُـرْفِ وتقريبهم واستنصاحهم، واتخاذهم أو اتخاذ الكـثيرين مـنهم مسـتشارين فـي ارسـاء دعائم الدولة، وتثبيت أَهـدافِ حكمِ الواحدِ الأَحدِ تبارك وتعالىٰ.

٣ ــ تختلف الشرائح الاجتماعية اختلافاً بيِّنا وكبيراً في ما بينها من زاوية الكرامة والإباء والحياء فمنهم مـن يسـارع الىٰ طـلب الأَمـوال مـن الآخـرين واسـترفاد الأَغـنياء والمسـؤولين الحكـوميين وتـذكيرهم بـالإحْسان اليـهم ومساعدتهم، ومـنهم مـن ليسـوا كـذلك أبـداً ولا سـيما أصـحاب المـروءاتِ

علىٰ حقيقتها للتبعيض، أي هذه الخلال جملة من الكرم وأقسام المعروف وذلك لأن غيرها أيضا من الكرم والمعروف نحو العدل والعفة.

١ – كما يلاحظ ذلك في كثير من النصوص العلوية ومن بينها ما جاء في هٰذا الكتاب مثل قول الإمام (عليه السـلام):

ـ الإيْثار أفضلُ عبادة، وأجلُّ سيادة.

ـ المعروف أشرف سـيادة.

– إنَّما سادةُ أهل الدنيا والآخرة الأجواد.

ـ بالجـود تكون السيادة.

ـ فعل المعروف، واغاثة الملهوف، وإقراء الضيوف، آلة الرئاسة.

والأَحسابِ وأَهْلِ البُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ والسَّوَابِقِ الحَسَنَةِ بشكل عام، وهكذا بالنسبة الىٰ الأغلبية من أَهْلِ النَّجْدَةِ والشَّجَاعَةِ والسَّخَاءِ والسَّمَاحَةِ فإنهم ليسوا كذلك أيضاً.

وعلىٰ هٰذا الأساس فإن هٰذين الفريقين فريق أصحاب المروءاتِ والأَحسابِ وأَهْلِ البُيُوتَاتِ، وفريق أَهْلِ النَّجْدَةِ والشَّجَاعَةِ والسَّخَاءِ بحاجةٍ كبيرةٍ الىٰ من يُمَوِّنُهُم ويذكرهم بالعطاء والتحفة والهدية. والولي والرئيس أحق مَن يقوم بهذا الدور لأَنهم لا يأنفون من أعطياته وهِباته، ولأَن ذلك أَنفع له وأجلب لوداده ومحبته، وأَدعىٰ الىٰ طاعته والانقياد لأوامره وتعاليمه. وقد أَكَّدَ الإمام علي تأكيداً شديداً علىٰ رعاية هؤلاء رعاية خاصة قائلاً بلهجة الفَطِنِ الدقيقِ النظرِ في الأُمور السياسية والاجتماعية والنفسية: (ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ ما يَتَفَقَّدُ الوالِدانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، ولا يَتَفَاقَمَنَّ في نَفْسِك شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، ولا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وإِنْ قَلَّ؛ فإِنَّهُ داعِيَةٌ لَهُمْ إِلىٰ بَذْلِ النَّصِيحَةِ لك وحُسْنِ الظَّنِّ بك).

الله في الطَبَقَةِ السُّفلىٰ مِن الذين لا حيلةَ لهم

١٠٤ ـ وقال الإمام (عليه السلام) في هذه الوصية الأشترية أيضاً: ثُمَّ اللَّهَ اللَّهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَىٰ مِنَ الَّذِينَ لا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ والْمُحْتَاجِينَ وأَهْلِ الْبُؤْسَىٰ والزَّمْنَىٰ فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً ومُعْتَرّاً، واحْفَظْ اللَّهَ مَا اسْتَحْفَظَك مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، واجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِك، وقِسْماً مِنْ غَلاتِ صَوَافِي الاسْلامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلاقْصَىٰ مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلادْنَىٰ، وكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ. ولا يَشْغَلَنَّك عَنْهُمْ بَطَرٌ فَإِنَّك لا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهِ لإِحْكَامِك الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ؛ فَلا تُشْخِصْ هَمَّك

عَنْهُمْ ولا تُصَعِّـرْ خَدَّك لَهُمْ، وتَفَقَّـدْ أُمُورَ مَنْ لا يَصِلُ إِلَيْك مِـنْهُمْ مِـمَّنْ تَـقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ وتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ؛ فَفَرِّغْ لأُولَئِك ثِقَتَك مِنْ أَهْـلِ الْخَشْيَةِ والتَّوَاضُعِ فَـلْيَرْفَعْ إِلَيْك أُمُـورَهُمْ، ثُمَّ اعْمَـلْ فِيهِمْ بِالاعْـذَارِ إِلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَـوْمَ تَلْقَاهُ فَإِنَّ هَؤُلاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الانْصَـافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَىٰ اللَّهِ فِي تَـأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ[1].

لقد دعا الإمام (عليه السـلام) الىٰ تفقد أحوال الطَبَقَةِ السُّفلىٰ ورعـايتهم، وأن يجعل المتولي علىٰ أمورهم لهم قسماً من غَلات صوافي الإسلام في كل بلد؛ ليجبـر ما كسره الفقر من أحوالهم المادية والمعنوية ولينعش الأرواح والأبدان، والمقصود بهؤلاء من الطَبَقَةِ السُّفلىٰ هم من الذين لا حيلةَ لهم مـن المسـاكـين والمحتاجين وذوي البؤس والزَّمْنىٰ، أي أصحاب الأمراض والأوجاع المزمنة.

ففي هٰذا العهد الشريف تأكيد علىٰ تخفيف أعباء كاهل الطَبَقَةِ السُّفلىٰ وتنمية أوضاعهم المعيشية، وتأكيد علىٰ حسن مداراتهم وتوخي اعانتهم جميعاً القريبين منهم مكانياً والبعيدين، كما يأمـر الإمـام (عـليه السـلام) بـالتوجه الحـقيقي والصادق لهم، وعدم اتباع السياسة الفوقية والاستعلائية المعهودة من الكـثيرين من الرؤساء والأُمراء وكبار المسؤولين من غض النظر عنهم، وادعاء الانشـغال بالأمور الرئيسـية أو الرئاسـية عن مساعدتهم والاهتمام بهم كثيراً وانقاذهم من صروف الدهر الخؤون، ومن سيول الفقر الجارف. (فلا يشغلنَّك عنهم نظرٌ فإنَّك لا تُعْذَر بتضييع التافه لإحكامك الكبير المهم).

ثم يأمر الإمام (عليه السـلام) المسؤولَ عن الطَـبَقَةِ السُّـفلىٰ قـائلاً: فـلا تشخصْ همَّك عنهم، ولا تصعِّر خدَّك لهم، وتواضع لله يـرفعك اللـه، واخـفض

---

١ - شرح نهج البـلاغة لابن أبي الحديد، ١٧ / ٨٦، وبحار الأنوار، ٧٧ / ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

جناحك للضعفاء. ففي الوقت الذي يجب علىٰ المسؤول المخلص الزكي أن لا يشخص همَّه عنهم وأن يذر تزمته باشتغاله أو تشاغله بقضايا أخرىٰ يدعي فيها الأولوية لها كذباً وتمويهاً لا واقعاً وحقيقة، عليه الاهتمام المناسب والكافي بهم ورعاية شؤونهم وبذل الجهود الكبيرة بشكل مباشر وغير مباشر لارفادهم بما يحتاجون اليه، وانتشالهم من جفاء الدهر وجفاف العيش. فإنه لاحَياةَ ولا نَجاةَ للبائسِ والمَحروم، ما بَينَ الجَفاءِ والجَفاف.

المقياس في أفضلية بعض القادة والأمراء

١٠٥ ـ وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في عهده المعروف لمالك الأَشتر: لْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْك[1].

سؤال: لماذا يعتبر أمير المؤمنين المقياس في أفضلية بعض القادة والأمراء العسكريين علىٰ بعض عن طريق مواساة الجنود في معونته، والإفضال عليهم في البذل، ممن يسعهم ويسع من وراءهم من الخلوف، ولم ينصَّ علىٰ كون الكفاءة العسكرية هي المقياس في التفاضل والتقدم مع أهميها البالغة ومسيس الحاجة اليها؟

والجواب: إنَّ الكفاءة العسكرية أمرٌ مفروغٌ منه في هٰذا الاطار الذي نحن

---

١ - شرح نهج البلاغة، ١٧ / ٥١.

بصدده فلولاها لما استطاع هٰذا الإنسـان أو ذلك ـ فـي الحكـومـات العـادلـة والسليمة البناء ـ أن يرتقي الىٰ المـناصب القـيادية مـن دون الكـفاءة اللازمـة والمعتبرة.

ينبغي أن نشـير إشارة واضحة الىٰ أن كـرم القـادة والأمـراء العسكـريين ومواساتهم لقواتهم المسلحة بالبذل والعطاء، لم يكن له جانب تربوي وأخلاقي طيِّب فحسب، بل له تأثير عسكري مهم ونافع كذلك، وقد بـينه الإمـام (عـليه السـلام) بقوله: حتىٰ يكون همهم همّاً واحداً في جهاد العدو.

كما ينبغي أن نشير الىٰ أن القائـد اذا آثر بعض رؤوس الجند ورفع شأنه في صفوف القوات المسلحة، فإنه بتصرفه هٰذا يكون محركاً الىٰ السؤال والاستفسار عن سبب إيثاره له وتقديمه علىٰ غيره، فإذا عُلِمَ أن السبب يعود الىٰ كون هـذا الآمر العسكري قد واسىٰ الجند في معونته، وأفضل عليهم في بـذله، فـإن ذلك سوف يصبح مدعـاةً الىٰ أن يقتفي بعض الأمراء الآخـرين آثـاره الجـميلة وأن يقتصوا أفعاله وصنائعه، بما يكون وسيلةً فعّالةً مِن وسائل نشـر القيم والفضائل الأخلاقية، وفي بَثِّ تعاليـمِ الإحْسانِ والإيْثارِ ما بين أفراد القوات المسلحة.

قضاء حوائـــج الناس

١٠٦ - يروىٰ عن إمام الأئمة علي بن أبي طالب (عليه السـلام) القول: مَن كثرت نعمُ الله عليه كثرت حوائجُ الناسِ إليه، فإن قام فيها بما أوجب اللهُ سبحانه عليه؛ فقد عَرَّضَها للـدوام، وإن منع ما أوجب اللهُ سـبحانه فـيها؛ فـقد عَـرَّضَها

للزوال[١].

بحثٌ في الحَوافِز

إذا تحدثنا عن قضاء حوائج الناس فإنما نتحدث عن الحُبِّ العميقِ الذي ينطوي عليه قلبُ الإنسان الطيبِ الشمائل، الكريمِ الطبع، الذي يتحرَّقُ شجناً وحزناً لآلام الناس وما تَنْتَابُهُم من محنة ومأساة، وما يصيبهم من عَوادي الزمن الخؤون وصواعق الظروف القاسية أو تحلُّ قريباً من دارهم. وكذا كلّ ما يعرقل مسيرتَهُم أو يعتاقُ شؤونَهُم الاجتماعيةَ والإداريةَ والإقتصادية. هٰذا فيما اذا لم يكن طلب الحوائج ذريعةً الىٰ مطالب رخيصة أو أَهداف أخرىٰ.

وسواء كان السعي في الحوائج طلباً لوجه الله تعالىٰ ـ وهو الأَهم والأَجدر ـ أو لمجرد حُبِّ الخير والإحسان وإسداء المعروف والنوال، فإنَّه عمل إيجابي مطلوب ومرغوب فيه، وإنه لخُلُق عظيم. بيْد أنَّ السعي في هٰذا السبيل الموصل الى الباريء تبارك وتعالىٰ له ما ليس لغيره من الرفعة والجمالية والخلود، علماً أَنَّ الإنسان وإن كان يريد وجه الله في أعماله فإنه لا يقدم باستمراريَّةٍ علىٰ قضاء الحوائج، ما لم تكن قد غرست فيه طبيعة حُبِّ الخير غرساً، وإلاّ فما أسرع أن يتَحَّول عن مثل هذه الصفة الحميدة وينتقل عنها؛ إذ ما دامت الطرق في التقرب الىٰ الله كثيرة جداً، أوكما يقول بعض المتصوفة والعرفانيين ـ كعدد أنفاس الخلائق ـ فمن لم يكن الإحْسان Beneficence للآخرين خلقاً لديه راسخاً في الأَعماق فإنَّه ينصرف عنه الىٰ خلق آخر، أو عمل آخر من الأخلاق والأعمال المحمودة، والتي هي أقرب الىٰ تركيبته النفسية أو طبيعته الأَخلاقية. غير أَن الذي يفتقدُ

---

١ – أخذناه من الكتاب القيم «غرر الحكم» لعبد الواحد التميمي الآمدي (رض)، الحكمة /٨٤١٨، ومن «عيون الحكم والمواعظ» الحكمة / ٧٥٨٦.

خلقية قضاءِ الحوائجِ يفتقدُ درباً لاحِباً مَهْيَعاً يدنيهِ كثيراً من سرادقِ عرشِ الرَّبِّ عَزّ وَجَلَّ، فالتشمير عن ساعد الجدّ في قضاء الحوائج لم يحبَّب الىٰ كلِّ الناس تحبيباً شديداً، بل ولا الىٰ كل الصالحين، وإنما الىٰ الخاصة منهم «إن الله جعل للمعروف وجوهاً من خلقه، حبَّب إليهم المعروف وحبَّب إليهم أَفعاله ووجَّهَ طُلاّبَ المعروفِ اليهم ويسَّر عليهم إعطاءَه، كما يَسَّـرَ الغيثَ الىٰ الأرض الجدبة ليحييها ويحيي بها أهلَها، وإن الله تعالىٰ جعل للمعروف أعداءً من خلقه، وبغَّضَ اليهم أَفعاله، وحظرَ عليهم اعطاءَه، كما يحظر الغيث علىٰ الأَرض الجدبة، ليهلِكَها ويهلكَ به أهلَها، وما يعفو أَكثـر»[1]. «إن الله خلق عبيداً من خلقه لحـوائـجِ النـاس، يـرغبون فـي المعروف، ويعدّون الجودَ مجداً، واللهُ يُحبُّ مكارمَ الأخلاق»[2].

ومن الأمثلة التأريخيَّة والأَقاصيص الجميلة والبديعة التي تدلُّ عـلىٰ هٰـذا المعنىٰ من أن الله جعل للمعروف وجوهاً من خلقه، يسَّر عليهم إعطاءه... قصة محمد بن جعفر بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطَّلب مع المـنصور العـباسي، وكان المنصور معجباً بمحادثته، وكان الناس لعظم قدره عند المنصور يفزعون إليه في الشفاعات وقضاء الحاجات؛ فثقل ذلك علىٰ المنصور فحجبه مدة، ثم تتبعته نفسه فحادث الربيع فيه وقال: إنه لا صبر لي عنه لكني قد ذكرت شفاعاته.

فقال الربيع: أنا أشترط ألا يعود.

فكلمه الربيع فقال: نعم.

فمكث أياما لا يشفع، ثم وقف له قـوم من قريش وغيرهم برقاع وهو يريد دار المنصـور فسألوه أن يأخـذ رقاعهم.. فَقَصَّ عـليهم القـصـة فـضرعوا إليـه وسألوه فقال: أما إذ أبيتم قبول العـذر فـإني لا أقـبضها مـنكم، ولكـن هـلموا

---

١ - تحف العقول / ٤٣، وقد رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» كما في موسوعة رسائل ابن أَبي الدنيا البغدادي، ٢ / ١٤.

٢ - بحار الأنوار ٧٢ / ٢٣ ـ ٢٤. و٧٧ / ١١٤.

فاجعلوها في كُمِّي.

فقذفوها في كمِّه، ودخل علىٰ المنصور وهو في الخضراء يشرف علىٰ مدينة السلام وما حولها بين البساتين والضياع فقال له: أما ترىٰ إلىٰ حسنها!؟

قال: بلى: يا أمير المؤمنين فبارك الله لك فيما آتاك وهنأك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك: فما بنت العرب في دولة الإسلام، ولا العجم في سالف الأيام، أحصن ولا أحسن من مدينتك، ولكن سمجتها في عيني خصلة.

قال: ما هي؟

قال: ليس لي فيها ضيعة فضحك، وقال: نحسنها في عينك ثلاث ضياع قد أقطعتكها.

فقال: أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر؛ فجعل الله باقي عمرك أكثر من ماضيه. وجعلت الرقاع تبدر من كَمَّيْه في أثناء كلامه وخطابه للمنصور وهو يلتفت إليها ويقول: ارجعن خاسئات، ثم يعود إلىٰ حديثه.

فقال المنصور: ما هذه بحقي عليك إلا أعلمتني خبرها. فأعلمه، فضحك فقال: أبيت يا ابن معلم الخير إلا كرماً، ثم تمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

لسنا وإن أحسابنا كملتْ ... يوماً علىٰ الأحساب نتكلُ

نبني كما كانت أوائلُنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ثم أخذها وتصفحها ووقع فيها كلها بما طلب أصحابها. قال محمد بن جعفر: فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت.

القناعةُ بالقليل والجود بالجزيل

١٠٧ - قال الإمام علي (عليه السلام): مَا أحْسَنَ بالانسان أن يَقنَعَ

بالقليل، ويجودَ بالجَزِيل[١].

لا نعتزم الآن الحديث عن القناعة وأَهميتها فإنَّ الحـديث عنها موكول الىٰ موضوعٍ سيأتي إن شاء الله تعالىٰ. ولكن الحديث الآن عن سؤال وجواب يخصُّ حكمة الإمام (عليه السلام) والسؤال يفترض مسبقاً أن يكون الإنســان بـحالة مادية في مستوىً جيدٍ علىٰ الحدِّ الأدنىٰ. إذاً من أين للفقير المال الذي يجود به؟

ويبدو أن هٰذا السؤال منطقي ومُستجاد، بيد أنَّه لا يخفىٰ أن للعطاء والجـود والسخـاء درجات متفاوتة صعوداً وهبوطاً، ومن هٰذا المنطلق يستطيع الفقير أن يكرم ويعطي بحسب حاله لا سيما للذين هم في مثل وضعه المادي أو أقل مـن ذلك، خصوصاً وأن الجـود والكرم لا يقتصر علىٰ كمية العطاء فحسب، بل يشمل كذلك الترحيب والاستقبال بحفاوة والبشاشة وطلاقة المُحَيّا... فبهذا يمكن للفقير أن يكون جواداً كريماً.

ولولا هٰذا الامكان الواقعي لم ينطق الكتاب الحكيم بهذه الآيـة المـباركة: «وَ يُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»[٢]. وكذا لم يقل الإمام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسـلام) كما هو في الكتاب الذي بين أيدينا: جود الفقير يجلُّه، وبخل الغني يذلُّه. ولم يقل علي (عليه السـلام) كذلك: جود الفقير أَفضـل الجود.

ولكن إذا كان من الممكن للإنسان أن يقنع بالقليل، ومن الممكن للفقير أن يكون جواداً كريماً وفق مناسيب معينة وأوضاع خاصة، ولكن من أين للإنسان الذي تُحَبَّذ له القناعة بالقليل، أن يجود بالجزيل؟

والجـواب ان القناعة لا تعني بالضرورة أن يكون المتَّسم بها محدود المالية

---

١ - غُرر الحكم، الحكمة / ٨٤٨٣. ٢- الحشر، الآية / ٩.

والرزق، بل قد يكون من الأَثرياء إلا أنه في نفس الوقت ليس شَرِها ولا منعوتاً بالحرص والطمع، ولا مقبلاً علىٰ الدنيا اقبال من خلد اليها وتشبَّث تشبّثاً حديدياً بزخارفها ومفاتنها. لقد بلغت الامكانيات المادية الشخصية للإمام علي حداً رفيعاً جداً وما زالت أراضيه الزراعية تدرُّ عليه بالأرباح الكبرىٰ حتىٰ بلغت مقادير غلاتها في العقد الأخير من عمره المبارك الىٰ أربعين ألف دينار ثم تصاعدت الىٰ مائة ألف دينار، إلا أن صاحبها المفدىٰ ما طفق يرتع في رياضٍ مُؤنقَةٍ من قناعةٍ مطلقةٍ تأسر الألباب الواعية وتدهش الأصدقاء والأعداء. وما طفق الحاضر والبادي يرتع في رياض مؤنقة من جوده الفياض وسعة فضله ونواله.

وإذا كانت القناعة لا تعني بالضرورة أن يكون المُتَّسم بها محدود المالية والرزق كما عرفنا فما أحرىٰ بمن هٰذه حاله أن يجود بالجزيل، ويكثر من الأُعطيات والإنفاق، ويهب هبة من لا يخاف صولة الإملاق. كما أن الجود بالجزيل قضيةٌ نسبيةٌ ما بين الناس، فاذا يمنح الفقير أو معتدل الحال عشر ما يهب مَن يعدُّ من كبار الأثرياء أو الرؤساء والملوك، بل عشر العشر فانه يعدُّ واهباً للجزيل بلا أدنىٰ شبهة.

علىٰ أنه كذلك ليس من الضروري أن يكون الذي يقنع بالقليل، أن لا يرزق إلا هٰذا القليل، ونعني بذلك أنه كم من إنسان قد أتاه الرزق أكثر مما يأمل أو يطلب، أو يُمنَح أضعاف ما يريد. وكذلك ليس من الضروري أن يكون الذي يقنع بالقليل الذي يحصل عليه من وجهة معينة، أن لا يكون له مصدرٌ ماليٌّ آخر أو مصادر غنية متعدِّدة تموِّنه وترفع وضعه الماديَّ الىٰ حَدٍّ بعيدٍ يحسده عليه طلاب الدنيا وكل شره وحريص[1].

١- ومما قاله علي (عليه السلام) حول القناعة: خرج العز والغنىٰ يجولان فلقيا القناعة فاستقرا. نهج البلاغة الحكمة / ٤٢٨. فقلنا في نضد هذه الحكمة العلوية شعرا:

خرج العِزُّ والغنىٰ ذاتَ يومٍ يُكثران التَّجوالَ بحراً وبرّا

وهٰكذا بالنسبة الىٰ منح الجزيل فليس من الضروري لمن يهبون العطاء الفخم أن يهبوه هكذا دائماً وفي جميع الحالات ولمختلف الأشخاص حتىٰ وإن طرأت عليهم ظروف مادية صعبة فإن مثل هذا الأمر قد لا يطيقه حتىٰ فريق من كبراء الرؤساء والملوك الذين يستبيحون لأنفسهم اعطاء الأموال الوافرة من خزانة الدولة لمن يريدون من الناس، وإنما المقصود من الحكمة العلوية أن يكون العطاء الجزل الوافر ـ نسبياً ـ هو الغالب المسيطر علىٰ طبع الإنسان الكريم والمهيمن العام علىٰ تصرفاته المالية ما قدر علىٰ ذلك واستطاع اليه سبيلاً.

البخل بما لا نملك مبالغة في الرذيلة

١٠٨ - قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام): مَنْ بخل بما لا يملكه فقد بالغ في الرذيلة[1].

يقع الكلام شرحاً لهذا الحكمة العلوية من وجهتين:

الوجهة الأولىٰ: اذا قلنا ان شخصاً ما يبخل بما يملك فهو معنىً واضح للجميع ولا يحتاج الىٰ تفسير، ولكن الذي قد يكون بحاجة الىٰ تفسير هو اذا قلنا بأن شخصاً يبخل بما لا يملك. ويمكن أن نتصور هٰذا المعنىٰ في عدة موارد من أهمها:

١ ـ من المحتمل أن المقصود من عبارة (مَنْ بَخِلَ بما لا يملكُهُ) هو كلُّ بخيل وحريص أو شبه بخيل وحريص علىٰ وجه الأرض؛ وذلك لأن الملكيَّة الحقيقيَّة لله الواحد القهار، وأما بالنسبة الىٰ ملكيَّة الإنسان فهي ملكيَّة اعتباريَّة، فاذا بخل إنسان ما فإنما يبخل علىٰ نفسه أو غيره بما خوَّله الله تبارك وتعالىٰ ووهبه، ولهذا

لم يُصيبا القرارَ في الأرضِ حتىٰ حظيا في قناعةٍ فاستقرّا

١- غُرر الحكم، الحكمة / ٦٥٢٣.

ورد في القرآن الكريم: «ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ»[1]. فالله سبحانه المالك والإنسان مُستَخْلَف علىٰ الملك قلَّ أم كثر، ومن الخيانة والعصيان والتمرّد أن لا يعملَ المُسْتَخْلَفُ بما يريد المُسْتَخْلِف، يأمره بالإحسان والانفاق وايصال الحقوق الىٰ مستحقيها ولا يعمل بما يأمره، ويتصرَّف بالأموال وكأنه المالك الحقيقيّ لها وأنه كلُّ شيء. وإذا صَحَّ الاحتمال المذكور أي أنه المراد بالذات من الحكمة العلويَّة فهذا يعني أن كلَّ بخيل في الوجود قد بالغَ في الرَّذيلة.

٢ ـ ومِن المحتمل أن المقصود من عبارة (مَنْ بَخِلَ بما لا يملكُهُ) هم فريق من الرؤساء والملوك ونحوهم من الذين تسلَّطوا علىٰ أموال الناس وممتلكاتهم بشكل من الأَشكال وأَصبحوا الأمناء عليها فيما يقولون، ثم أَقفلوا عليها الأبواب وضمّوها في الخزائن، كما يضمُّ الإنسان ما حصل عليه من تراث أَبيه وأُمِّه، فلا ينفقون منها علىٰ شعوبهم أو المالكين الشرعيين لها إلا بالمقادير التي تحقِّق لهم رغباتهم ومطامحهم، وكأَنَّ تلك الأموال عائدة اليهم لا الىٰ أَحد من الناس. فما أَشبههم بما قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): إن البخيل مَن كسب مالاً من غير حله وأنفقه في غير حقه[2]. ورؤساء الدول وقادتها وإن كانوا لا يملكون ما في خزائن دولهم من الأموال ولكنهم يستطيعون بالفعل وبحكم عملهم من منح الكثير منها، وإكرام أناسي لا يكادون يقعون تحت الحصر، وإغناء أعداد كبيرة من الفقراء والمساكين، والقيام بمشاريع وافرة جداً تسر القانع والمعتر. غير أن أكثرهم يبخلون بما لا يملكون. وإذا صَحَّ الاحتمال المذكور أي أنه المراد من الحكمة العلويَّة فهذا يعني أن كلَّ بخيل في الوجود من الرؤساء والملوك ونحوهم قد بالغَ في الرَّذيلة.

---

١ – الحديد، الآية / ٧.

٢ – بحار الأنوار ٧٥ / ٢٥٧.

٣ ـ ومن المحتمل أن المقصود من عبارة (مَنْ بَخِلَ بما لا يملكُهُ) هو ذلك العـدد الكبير من الذين يستلمون كـميات كـبيرة أو هـائلة مـن الأمـوال بـاسم المساعدات الإنسانية والمشاريع الخيرية وغير ذلك ثم لا ينفقونها طبقاً لمواردها المقررة ويكدسون قسطاً كبيراً منها، فإنهم وإن كانوا لا يملكون ما في الخزائن من الأموال، ولكنهم يستطيعون بالفعل وبحكم وظيفتهم القانونية أو غير القانونية، من إرفاد عدد أكبر من أولئك الذين يمنحونهم مالاً معيناً، كما يستطيعون زيادة كمية ما يمنحون لبعض الأفراد أو الجماعات. وإذا صَحَّ الاحـتمال المـذكور أي أنـه المراد من الحكمة العلويَّة فهذا يعني أن كلَّ بخيل في الوجود من الذين يستلمون كميات كبيرة أو هائلة من الأموال باسم المساعدات الإنسانية والمشاريع الخيرية ونحوهم قد بالغَ في الرَّذيلة.

٤ ـ ومن المحتمل أن المقصود من عبارة (مَنْ بَخِلَ بما لا يملكُهُ) هو الذي يمنع غيره من أصحاب الأموال عن الإحسـان والتفضّل ويدعوه الىٰ ترك معونة من طلب المعونة والابتعاد عن الخير والكرم بحجج واهية تعبِّر عن نفسيَّة مريضة وتفكير عقيم. وإن الكثيرين من الذين يُستشارون في دفع مبالغ معينة الىٰ بعض مستحقيها يعطفون زمام الهمم الخيِّرة عنها، ولا يشجعون عليها، بل ومن الناس من يتبرع بالاقتراح والرأي ـ بلا استشارة من مستشير ـ في ردع كل خير ونفع للمستحقين؛ لؤماً قد طبعوا عليه طبعاً، وشُحَّ نفسٍ ظَلومٍ مَـنوع لا تـحب الخـير والإحْسان لأَحد، ولا تستطيع أن تذوب في التآلف الإنسـاني، إلا بـمقدار مـا تتمكن من استغلاله والالتفاف عليه. وإذا صَحَّ الاحتمال المذكور أي أنه المـراد من الحكمة العلويَّة فهذا يعني أن كلَّ مانع للخير وكلَّ صادٍّ عن دروب المعونة وكلَّ حاجب عن الفضل والإحسان ونحوهم قد بالغَ في الرَّذيلة.

فيكون البخيل طبق الاحتمال الأَخير هو من اقترف أشدَّ أنواع البخل وهو الشحُّ كما قال فضيل بن عياض قال لي أبو عبد الله (عليه السـلام): أتدري من

الشحيح ؟ قلت : هو البخيل . فقال (عليه السلام) : الشحُّ أشدُّ من البخل إن البخيل يبخل بما في يده ، والشحيح يشحُّ علىٰ ما في أيدي الناس وعلىٰ ما في يده ، حتىٰ لا يرىٰ في أيدي الناس شيئاً إلا تمنىٰ أن يكون له بالحِلِّ والحرام ، لا يشبع ولا يتنفع بما رزقه الله[١] . وإذا صَحَّ الاحتمال المذكور أي أنه المراد من الحكمة العلويَّة فهذا يعني أن كلَّ بخيل بهذا المعنىٰ ممن يمنع غيره من أصحاب الأموال عن الإحسان والتفضّل قد بالغَ في الرَّذيلة[٢] .

الوجهة الثانية : كيف يصف أمير الحكماء (عليه الصلاة والسلام) من بخل بما لا يملكه بهذا الوصف الشديد العنيف المخجل المزري وأنَّه قد بالغ في الرذيلة ؟

والجواب : أننا اذا عرفنا أن للرذيلة مستويات متعددة ومختلفة الوجوه والألوان من اللؤم والشؤم .. والحقارة والدعارة .. والوضاعة والضراعة .. وأن البخل بما تملك اليد لا سيما بخل الرؤساء والأغنياء يقع في سياق المستويات الأكثر هبوطاً وانحطاطاً ، فإن البخل بما تملك يدُ الآخرين ، والخوفَ علىٰ ممتلكات أولئك وأموالهم أن ينتفع بشيء منها بعض البائسين وسيئي الحال ، لَهُوَ أشدُّ وأكثر هبوطاً وانحطاطاً ، ولَهُوَ المبالغة في الرذيلة حق المبالغة والارتماس طويلاً في حياض أمواهها الكدرة الآسنة .

وإذا ما كان للبخيل بأمواله شيء من العذر المُوَشّىٰ أو قُل تكلف العذر شبه

---

١ – بحار الأنوار ٧٥ / ٢٥٧ .

٢ – قلت في معنىٰ الاحتمالات التي ذكرناها في تحليل الحكمة العلويَّة :

أَلا يا راكبَ السبلِ البخيلة ... لقد بالغت ويلك في الرَّذيلة
أَمِنْ ثَمَرِ العقولِ تَدَّعُّ بِرّاً ... وتصدفُ عن مَنارات جميلة
ومِنْ ثَمَرِ العقولِ بخلت فيما ... لغيرك من تراثٍ أن تُنيله
ومِنْ ثَمَرِ العقولِ منعتَ خيراً ... سواك أَراده في كلِّ حيلة
أَلا إن البخيلَ سبيلُ شرٍّ ... وشرُّ الشرِّ أن تقفو سبيله

المرضِي والمَقبول ولو في بعض الأحوال، فإنـه لا عذر اطلاقـاً ولا شبه عـذر، لمن بخل علىٰ الآخرين بمال غيره وخيراته، ومنع منه السائـل والمحـروم.

«أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ»[1].

وَجْـهُ الحِكْمَـة

١٠٩ - قال الإمام علي (عليه السـلام): أبخل الناس من بخل علىٰ نفسه بماله وخلفه لورّاثه[2].

ما هو وجه الحكمة في كلام أمير الحكمة والبيان: أبخل الناس من بخل علىٰ نفسه بماله وخلفه لوراثه؟ ألم يكن بخل الإنسان علىٰ نفسه بماله وتركه لورّاثـه دلـيلاً علىٰ محبته الوثقىٰ لهم، وإيثاره للآخرين من آله وذويه وتـقديمهم عـلىٰ حسـاب راحته وأُنسه ومتعته وملذته وعلىٰ حساب مصلحته الشخصية؟

والجواب الذي نرجو أن يكون صحيحاً ومنطقياً يتمُّ عبر تفهم النقاط التالية:

أولاً: أن كلام الإمام يفترض أساساً أن عدم الانفاق عـلىٰ النـفس بسـبب البخل، لا لأيِّ سبب آخر كالإحْسان للورثة وتقديم مصلحتهم ومـنفعتهم عـلىٰ مصلحته الشخصية ومنفعته.

ثانياً: لو كان هٰذا البخيل محباً حقيقياً للورثة وحريصاً عـلىٰ نـفعهم لجـاد عليهم بالمال إبان حياته وسنيِّ عمره المشؤوم، ونظرة واحـدة دقـيقة الىٰ ذيـل الكلام (وخلفه لورّاثه) لتدل علىٰ ذلك.

---

١ - ق، الآية / ٢٤ ـ ٢٥.

٢ - غُرر الحكم، الحكمة /٦٥٨٥

ثالثاً: إن حوادث الأيام والقبضة الفولاذية لوقائع الدهور هي التي حوَّلت المال بالقسر والغلبة الىٰ الورّاث، وليس ثَمَّ في البيْن ما يدل علىٰ حبه الخير لهم وطواعية نفسه بإكرامهم والإحْسان اليهم.

رابعاً: من غير البعيد أن يهدف الإمام في نفس الوقت الىٰ أمر آخر يتعلق بمنع الحقوق الشرعية المفترضة عليه وأنه لم يؤدِّها في حياته حتىٰ نقلت كرهاً الىٰ الورثة؛ فشقي بها وأُتعس جَدُّه وسعدوا بامتلاكها سعادة الدارين أو واحدة منهما.

«ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً»[1].

يا للداهية الدهياء!

١١٠ – روي عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): يسير الحرص يحمل علىٰ كثير الطمع[2].

يا ربّاه يا ربّاه إذا ما كان يسير الحرص يحمل علىٰ كثير الطمع، إذاً فما حال كثير الحرص وموقعه الشديد في تفجير مكامن الطمع وإيقاد سعيره المتلهِّب؟!

كثيراً ما يرىٰ الإنسان في تجاربه الحياتية نفثات يسير الحرص تتنشقها نفوس الكثيرين من الجيدين من الناس فضلاً عن غيرهم، من دون مقاومة لهذا المُحْتَلِّ الغازي الذي ينفذ في كوىٰ القلوب بسهولة وسيولة وبمختلف الأساليب المنظورة وغير المنظورة. ولم ينفذ هٰذا المحتَلُّ الغازي إلا لأن أصحاب تلك القلوب لم ينظروا الىٰ يسير الحرص نظرة الاستغراب والاستنكار بل إن كونه

---

١ – الكهف، الآية / ٤٦.

٢ – غُرر الحكم، الحكمة / ٦٦٤٩.

يســيراً مما جعل التسامح معه أمراً مقبولاً عندهم وفي غير حاجة الىٰ مـقارعته والتصدي له بقوة وجدية وحزم. بيد أن علىٰ اللَّبيـبِ الحَصيـفِ أنْ لا يعتبرَ يسيرَ النارِ يسيراً، ولا قليلَ الشرِّ قليـلاً.

وقد نبَّه أمير الحكمة والبيان (سَلامُ اللهِ عَلَيه) بدقة الىٰ مؤشر الخطر الكبير، والىٰ شفا حفيرة الضرر المحدق. ونعتقد أن تنبيهه الصاعق يتأتّىٰ من زاويتين في غاية الأهمية والاعتبار ألا وهما:

الزاويـة الأولـىٰ:

وهي ما أشرنا اليها في بداية الحديث (إذا ما كان يسير الحرص يحمل علىٰ كثير الطمع، إذاً فما حال كثير الحرص وموقعه الشديد في تفجير مكامن الطـمع وإيقاد سعيره)؟!

إذْ أن كثيراً من الأشياء التي توصف بالقلة والصِّغر والمحدوديَّة قد تؤدي الىٰ نتائج وخيمة وسلبية الىٰ حدٍّ بعيد أو الىٰ أبعد الحدود وأقصاها.

الزاويـة الثانيـة:

ان يسير الحرص بِحَدِّ ذاتِهِ وبصرف النظرِ عن النتائج الأليمة التي تتمخض عنه أمرٌ بغيضٌ وعملٌ مستهجنٌ وخلَّةٌ ذميمة ودمـيمة فـي السـلوك والأخـلاق والتعامل الاجتماعي، مثلها مثل النفاق النزر، أو الظلم القليل، أو الرياء اليسـير الذي نعته الحديث الشريف قائلاً «يسير الرياء شـرك». إنـه يـنبغي للـعقلاء أن يراقبوا أنفسهم مراقبة مستمرَّة في جميع أحوالهم وأوضاعهم وأن لا يكتفوا بحسن ظنِّ الآخرين أو بثقتهم بهم، فان مداخـل السـوء ومسـارب الضـعف والهـوان السلوكي والأخلاقي متفتحة أمام كيان الإنسـان وشـخصيته وسـيرته. كـما أن المراقبة وحدها لا تجدي حتىٰ يسـتتبعها تشـذيب للـتحرك وتـهذيب للـمسار

وتصحيح للعمل بصورة دائمية تتسم بالحزم وقوة الارادة.

قد يجد بعضنا لوناً من المبالغة في نعت الحرص والتأكيد علىٰ أضراره كقولنا عنه: مؤشر الخطر الكبير، وشفا حفيرة الضرر المحدق، وكتعبيرنا عنه بالمحتَلّ الغازي الذي ينفذ في كوىٰ القلوب بسهولة وسيولة واستمرارية وبمختلف الأساليب المنظورة وغير المنظورة.

وللاجابة علىٰ الاعتراض المزبور نكتفي بمراجعة عدد من كلمات أمير الحكمة والبيان (عليه السلام) كتلك التي سلفت في هٰذا الكتاب تحت عنوان شقاء الحرص ومذلة الطلب، لكي نستطلع من ثناياها علىٰ آرائه في الحرص الذي يعني الخُسْر والتبار في الدنيا والآخرة، كما يعني محاربة الأخلاق الفاضلة، والقضاءَ علىٰ الجود والإيْثار ورفد المجتمع ومحبة الناس.

«وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ»[1].

الحريص فقير ولو ملك الدنيا بحذافيرها

١١١ ـ قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام): الحريصُ فقيرٌ ولو ملك الدنيا بحذافيرها[2].

تعليل هٰذا الأمر حسب ما أعتقد أن الحريص يبحث دائماً ـ بشغفٍ وتلهفٍ

---

١ ـ الليل، الآية / ٨ ـ ١١.

٢ ـ عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ١٦١، وغُرر الحكم، الحكمة / ٦٦٣٠. والحذافير جمع حِذْفار وحُذْفَر بمعنىٰ أعلىٰ الشيء وناحيته وجاء في الخبر: الخير بحذافيره من الجنة. أي بأسره، وخذه بحذافيره أي بأسره.

مُلِحٍّ ـ عن المزيد من الأموال والأملاك والعقارات، ولا يقنعه ما يملك ولا يرضيه ما تحت تصرفه وإن كان جماً غفيراً، ومن كان كذلك فهو فقير؛ لأَن هذه المواصفات والطبائع المشينة تعبر عن منتهىٰ الحاجة، ومن المعلوم أن الحاجة الىٰ الشيء تعبر عن الفقر الىٰ ذلك الشيء لا الغنىٰ عنه، إذاً فكيف بمنتهىٰ الحاجة!

وليست الأموال التي يمتلكها الحريص ـ وإن كانت من الكثرة والوفرة بمكان ـ إلا عبارة عن الماء المِلْح كلما ازداد الظامىء له شرباً ازداد به ظمأ. ولقد أحسن كثيراً الشاعر العباسي محمود الوراق[1] وهو يجسِّد المعنىٰ الذي ذكره الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) تجسيداً حياً فيقول فيما نحن بصدده:

أَراك يزيدك الإثراء حرصاً ... علىٰ الدنيا كأنك لا تموتُ

فهل لك غاية إن صرت يوماً ... إليها قلت حسبي قد غنيتُ

تظل علىٰ الغنىٰ أبداً فقيراً ... تخاف فوات شيء لا يفوتُ

هذا بالإضافة الىٰ ما تحدَّثنا عنه في موضوع (البخل فقر) في قول الإمام

---

١ – الشاعر الحكيم محمود الوراق من أعلام شعراء الدولة العباسية في الزهد والحكمة والآداب، يذكر أنه كان نخاساً يبيع الرقيق، مات الوراق (رحمه الله) في أيام المعتصم العباسي. وللتفصيل عنه يراجع: حماسة ابن الشجري / ١٤١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ١٧ / ٩٣، ١٨ / ٣٧٨، ١٩ / ٣٦٠، وفوات الوفيات للصفدي، ٢ / ٢٨٥، والمنتظم لابن الجوزي، ١١ / ٦٩، وديوان شعره. ومحمود الوراق هو القائل:

إني شكرت لظالمي ظلمي ... وغفرت ذاك له علىٰ علمِ

ورأيته أهدىٰ إلي يداً ... لما أبان بجهله حلمي

رجعت إساءته عليه وإحساني ... فعاد مضاعفَ الجرمِ

وغدوت ذا أجر ومحمدة ... وغدا بكسب الظلم والإثمِ

فكأنما الإحسان كان له ... وأنا المسيء إليه في الحكمِ

ما زال يظلمني وأرحمه ... حتىٰ بكيت له من الظلمِ

أَمير المؤْمنين (عليه السلام): البخل فقر. وما كنا قد ذكرنا من التعليلات لكون البخيل فقيراً؛ فإنَّ الحَريصَ تَوأمُ البَخيل. بل الحَريص يَجْمَعُ بينَ طَريقَي النارِ البخلِ والحِرص، علىٰ حَدٍّ ما نعتقد.

وثَمَّ تحديدات للغني ـ بالمعنىٰ المادي له ـ أحدها عرفي اجتماعي، والآخر فقهي تشريعي، والثالث فكري أو فلسفي:

الغني بالتحديد العرفي: هو أن يمتلك الإنسان أموالاً طائلة وبكميات كبيرة نسبياً.

الغني بالتحديد الفقهي: هو أن يمتلك الانسان قوته وقوت من يعيلهم لمدة سنة علىٰ الحدِّ الأدنىٰ، ملكيةً بالقوة أو بالفعل.

الغني بالتحديد الفكري أو الفلسفي: هو أن يمتلك الانسان من الأموال ما يقتنع بكفايته له ولمن يقعون في كفالته. وتختلف القناعة من شخص الىٰ آخر، ويكون الاختلاف في كثير من الأحيان اختلافاً كبيراً، بل كبيراً جداً. فبعض الناس يقتنع بمائة دولار في الشهر أو ما يعادلها، وبعضهم يقتنع بألف دولار ونحوها، وبعضهم لو جعلت تحت تصرفه وفي حيازته «مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ»[1]، لطلب الاضافة وألَحَّ أيَّ الحاحٍ في الطلب، والتفت يميناً وشمالاً وقداماً ووراءً ومن فوقه ومن تحت قدميه منادياً بشهوة الجائع.. وتلهفِ الظامِيء.. ولَهْجَةِ العُريان.. واستغاثَةِ الغَريق.. واستجارَةِ المَكروب: «هَلْ مِن

---

١ – القصص، الآية / ٧٦.

مَّزِيدٍ»[١].

كل ذلك لأنه يتحسس من أعماق الوجدان بالفقر والمسكنة.. ويستشعرُ الجوعَ والظمأ.. ويَتَوَشَّحُ الضعفَ والحاجة.. ويَتَسَربَل الضعةَ والهوان.. ويَتَزمَّلُ النقصَ والذلَّ والضَّراعة... لقد كان هشام بن عبد الملك بن مروان مالكاً لأرض المسلمين ورقابهم، مسرفاً علىٰ نفسه في المآكل والمشارب والمتع الحسية، ويأخذ لنفسه من بيوت الأموال الأشياء العظيمة، غير أنه يبخل علىٰ غيره، ويضنُّ بما يبيحه لذاته، حتىٰ أنه قام اليه أعرابي جريء القلب فصيح اللسان متفقه في الدين قائلاً له: يا أَمير المؤمنين أتت علىٰ الناس سنون، فأَمّا الأولىٰ فطحنت اللحم، وأمّا الثانية فأكلت الشحم، وأمّا الثالثة فهاضت العظم[٢]، وعندكم فضول أَموال، فإن كانت لله فاقسموها بينهم، وإن كانت لهم ففيم تُحْظَر عليهم، وإن كانت لكم فتَصَدَّقوا، فإن الله يجْزي المتصدِّقين[٣].

ولقد كان أبو جعفر المنصور حاكماً عظيم المملكة والسلطان، حتىٰ ليكاد أن يملك شرق العالم بحذافيره، وعلىٰ الرغم من كلِّ هٰذا فإنه كان بخيلاً وشحيحاً، مع أنه لا يخشىٰ الله تبارك وتعالىٰ حتىٰ يمتنع من الانفاق والبذل الفائق من بيوت أموال الدولة كيف يشاء وأنىٰ يشتهي، وفي كتاب «محاضرات الأدباء» أنه قيل لجعفر بن محمد الصادق: إن منصوراً لا يلبس منذ صارت الخلافة اليه إلا الخشن ولا يأكل إلا الجشب! فقال: وَيحه مع ما مُكِّنَ له من السلطان وجبي له من الأَموال؟ قالوا: إنما يفعل ذلك بُخلاً. فرفع يده الىٰ السماء وقال: الحمد لله الذي

---

١ – مقتبس من قوله تبارك وتعالىٰ: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ». ق، الآية / ٣٠.

٢ – هاضت العظم: كسرته.

٣ – قال تعالىٰ: فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ». يوسف، الآية / ٨٨.

حرمه من دُنياه ما ترك من أجله دينه[١].

---

١ - محاضرات الأدباء ٢ / ٤٨٢ - ٤٨٣ وربيع الأبرار ٤ / ٣٩٧.

وبينما كان المنصور يطوف ليلاً بالبيت سمع قائلاً يقول: اللهم إليك أشكو ظهور البغي والفساد وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد وأرسل إلىٰ الرجل يدعوه فصلىٰ ركعتين واستلم الركن وأقبل علىٰ المنصور فسلم عليه بالخلافة فقال المنصور: ما الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن أمنتني علىٰ نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها وإلا احتجزت منك واقتصرت علىٰ نفسي فلي فيها شاغل. قال: أنت آمن علىٰ نفسك فقل. فقال: إن الذي دخله الطمع حتىٰ حال بينه وبين إصلاح ما ظهر من البغي والفساد لأنت. قال: ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي! قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك إن الله عز وجل استرعاك المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجبا من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها منهم وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها فقويتهم بالسلاح والرجال والكراع وأمرت بألا يدخل عليك إلا فلان وفلان نفر سميتهم ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والفقير ولا الضعيف والعاري ولا أحد ممن له في هذا المال حق. فما زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت ألا يحجبوا عنك يجبون الأموال ويجمعونها ويحجبونها وقالوا هذا رجل قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخرنا فائتمروا علىٰ ألا يصل إليك من أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا بغضوه عندك وبغوه الغوائل حتىٰ تسقط منزلته ويصغر قدره. فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها علىٰ ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطنتك وأنت غافل فإن جاء متظلم حيل بينه وبين دخول دارك وإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك وجدك وقد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم فإن جاء المستظلم إليه أرسلوا إلىٰ صاحب المظالم ألا يرفع إليك قصته ولا يكشف لك حاله فيجيبهم خوفا منك فلا يزال المظلوم يختلف نحوه ويلوذ به ويستغيث إليه وهو يدفعه ويعتل عليه وإذا أجهد وأحرج وظهرت أنت لبعض شأنك صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر ولا تنكر فما بقاء الإسلام علىٰ هذا.

وللمنصور في البخل والشح قصص عجيبة في ذلك لا مجال لذكرها؛ ولقد سُمِّي علىٰ هٰذا الأساس بالمنصور الدوانيقي كما هو المشهور بين المؤرخين، نسبة الىٰ الدوانِيق وهي جمع دانق، وما هو إلا سُدُس الدرهم.

وكان مروان بن أبي حفصة الشاعر المعروف من أكثر الناس استجلاباً للصِّلات والأَموال الطائلة، ومع هٰذا فقد نزل عليه قوم باليمامة، فأطعمهم تمراً،

ولقد كنت أيام شبيبتي أسافر إلىٰ الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه فبكىٰ بكاء شديدا فحداه جلساؤه على الصبر فقال: أما إني لست أبكي للبلية النازلة ولكن أبكي للمظلوم بالباب يصرخ فلا أسمع صوته. ثم قال: أما إذ ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب نادوا في الناس ألا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم. ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ينظر هل يرىٰ مظلوماً. فهذا مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين علىٰ شح نفسه وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين علىٰ شح نفسك فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك الله تعالىٰ عبراً في الطفل يسقط من بطن أمه ما له علىٰ الأرض مال وما من مال يومئذ إلا ودونه يد شحيحة تحويه فلا يزال الله يلطف بذلك الطفل حتىٰ تعظم رغبة الناس إليه ولست بالذي تعطي ولكن الله يعطي من يشاء ما يشاء، وإن قلت إنما أجمع المال لتشييد السلطان فقد أراك الله عبراً في بني أمية ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد، وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه انظر هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ قال: لا. قال: فإن الملك الذي خولك ما خولك لا يعاقب من عصاه بالقتل بالخلود في العذاب الأليم وقد رأىٰ ما قد عقدت عليه قلبك وعملته جوارحك ونظر إليه بصرك واجترحته يداك ومشت إليه رجلاك وانظر هل يغني عنك ما شححت عليه من أمر الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب علىٰ ما منحك.

فبكىٰ المنصور وقال: ليتني لم أخلق ويحك فكيف أحتال لنفسي؟ قال: إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم ويرضون بقولهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك وشاورهم في أمرك يسددوك. قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني. قال: نعم خافوا أن تحملهم علىٰ طريقك ولكن افتح بابك وسهل حجابك وانظر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل علىٰ أهله وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك علىٰ صلاح الأمة.

وأرسل غلامه بفَلْس وسُكرجة[١] يشتري به زيتاً . فلما جاء بالزيت قال : خنتني. قال : من فلس ؟ كيف أَخونك ؟ قال : أَخذت الفلس لنفسك واستوهبت زيتاً[٢].

ومن هٰذا المنطلق فلو دققنا في كلام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وحكمته الغراء (الحريص فقير ولو ملك الدنيا بحذافيرها) لرأيناه ينطبق الىٰ حدٍّ بعيدٍ أو انطباقاً تاماً علىٰ كل جِبْسٍ لئيم ، وعبدٍ آبقٍ فرّارٍ من سموِّ الحَضَارة ومن جَمَال الصلاحِ والخيرِ والانسانية .

« هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم »[٣].

لا مُرُوَّةَ مع شُحّ

١١٢ – قال علي بن أَبي طالب (عليه السلام) : لا مُرُوَّةَ مع شُحّ[٤]

لا يقال للرجل شحيحاً إلا اذا كان مع شدة بخله حريصاً ، كما رواه أبو منصور الثعالبي في كتاب « فقه اللغة » عن الأصمعي . وروي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ما يؤكد هٰذا المعنىٰ قال (عليه السلام) : الشحيحُ أَشدُّ من البخيل إن البخيل يبخل بما في يديه وإن الشحيحَ يشحُّ بما في أَيدي الناس وعلىٰ مَا في يدَيه ، حتىٰ لا يرىٰ في أيدي الناس شيئاً إلا تمنىٰ أن يكونَ له بالحل والحرام ،

---

١ – بمعنىٰ إناء صغير يوضع فيه الطعام القليل.

٢ – السخاوي الجواهر المجموعة الرقم / ٢٤٠.

٣ – محمد، الآية / ٣٨.

٤ – غُرر الحكم، الحكمة / ٦٦٤٦.

ولا يشبع ولا يقنع بما رزقه الله تعالىٰ.

والمُرُوَّة تنطبق علىٰ مفردات ومصاديق أخلاقية طـيبة كـثيرة مـثل حـفظ الجوار، والسلام علىٰ مَن تلقىٰ، والكرم، والتواضع للـناس، والوفـاء بـالعهود، وصدق الحديث، وغير ذلك، بيد أنه يظهر من كلام أمير المؤمنين عـلي (عـليه السـلام) أن من كان شحيحاً، فقد أَخَلَّ بالميزان العام للـمروءة، وهـدم الركـن الرئيس منها، فهو بالتالي ليس بصاحبها عـلىٰ الحـقيقة، وإن افـترضنا اجـتماع المواصفات الأخرىٰ في شخصيته أَمثال تلك التي ذكرنا.

وأَحسب أَننا أَقصر باعاً من ادراك سِـرِّ الحكمة العلوية (لا مُرُوَّةَ مع شُحّ) التي تَذودُ المروءةَ بألوانها الكثيرة وأَصنافها المتعددة عن الشحيح، غير أَننا نقول علىٰ سبيل الاحتمال والتخمين أنه من الممكن اكتشاف السرِّ بالنظر الىٰ الحديث الشريف الذي ورد في صـحيح مسـلم بـن الحـجاج القشـيري[1]، والتـرغيب والترهيب لعبد العظيم بن عبد القَويِّ المنذري[2]، عن جابر بن عبـد الله الأنصاري (رضي الله عنهما) أن رسول الله «صلىٰ الله عليه وسلم» قال: اتقوا الظلم، فـإن الظلمَ ظلماتٍ يومَ القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإن الشُّحَّ أهلكَ مَن كان قَبلَكُم، حَمَلَهُم علىٰ أن سَفَكوا دماءَهم، واستحلُّوا مَحـارِمَهُم. فالنظر في الحـديث يهدينا الىٰ أن صفة الشحِّ بتغلغلها المشؤوم في النفس وتفاعلها مع الروح والدم تحمل صاحبها علىٰ القيام بأوزار كبرىٰ وأخطاء جسيمة تقشَعِرُّ منها الجلود والأبدان وهل أخطر وأظلم من كونها تحمل علىٰ سفك الدماء البريئة واستحلال ما حرمه الله سبحانه علىٰ البشرية؟ وعلىٰ هذا الأَساس فإذا التزم الشحيح بالقيم والمبادىء الإنسانية الفاضلة كالوفاء والتواضع والصـدق وحسن الجوار وغـير ذلك فـليس التـزاماً مكيناً ركيناً راسخاً في النفس وإنما هو عرضة لبركان الشحِّ فإذا ما تفجر عليه في

---

١ - صحيح مسلم (٢٥٧٨).
٢ - الترغيب والترهيب (٣٢٧٩).

أي ساعة من ساعات الليل والنهار فسوف لا يبقي منه ولا يذر، بل لو أصابته مقادير يسيرة منه لعاد الوفاءُ خيانةً وغدرا، والتواضعُ خيلاءً وكِبرا، والصدقُ ميناً وكذبا، وحسنُ الجوار إساءةً وحربا. فإذا كان الشحُّ ملكةً راسخةً في أعماق النفس والمبادىء القيميَّة «كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ»[١]. فلمن يتحقق الثبات والبقاء ولمن يتأكَّد الزوال والفناء في حكم العقل والمنطق؟

«فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»[٢].

ثيابُكَ علىٰ غيرِكَ أبقىٰ لكَ منها عَليك

١١٣ – يروىٰ عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) أنه قال: ثِيَابُكَ علىٰ غَيْرِكَ أَبقىٰ لكَ مِنها عَلَيْك[٣].

أ ـ قد ألَمَّ الفقيه الكبير عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ت (٦٨ هـ) بالحكمة هذه فقال (رضوان الله عليه) مرشداً وموجِّهاً لابن أخيه: لئن ترَ ثوبَك علىٰ صاحبك أَحسن من أن ترىٰ عليك، ولئن ترَ دابتك تحت صاحبك أَحسن من أن ترىٰ تحتك[٤].

بـ وكان القائد العسكري الأموي المهلب بن أبي صفرة الأزدي كثير الاعجاب والاستحسان لهذه الحكمة العلوية الغراء، ويبدو أنه قد ردَّدها في أَكثر

---

١ – ابراهيم، الآية / ٢٦.
٢ – التغابن، الآية / ١٦.
٣ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٥٧٦، وعيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٤٢٨١.
٤– الجواهر المجموعة الرقم / ٧٨٢.

من موطن حتىٰ نسبها بعض الناس اليه. واعجاب المهلَّب واستحسانه لها في محلِّه؛ فإنَّ في بلاغتها وسحر بيانها ما يدعو بجدارة الىٰ الاعجاب، كما أَن في عمق محتواها وطرافة معناها ما يستقطب الاستحسان والاكبار، وبالتالي فهي من أَروع وأجمل ما قيل أو يقال في قديم الأيام وحديثها حول الجود والبذل والإيثار، والعناية الإنسانية الخاصة بالآخرين.

جـ ـ روىٰ ابن أبي الدنيا في رسائله /رسالة مكارم الأخلاق، وابن أبي حاتم في تفسيره أن امرأة أرسلت ابنها الىٰ النبي «ص» قالت ايته، فأقره السلام، وقل له: إن أمي تقول لك اكسني، فإن قال لك: حتىٰ يأتينا شيء. فقل له: اكسني قميصك. فأتاه فقال له: إنها تقول لك: اكسني قميصك. فنزع قميصه، فدفعه إليه.

ومن علماء التفسير من يروون أن هذه القصة كانت سبب النزول لقوله تبارك وتعالىٰ: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً»[1].

غير أن ما رووه من سبب النزول بعيد.

د ـ وروىٰ ابن أَبي الدنيا في رسائله: أن عبد الله بن جعفر كان في سفر له، فمرَّ بفتيان يوقدون تحت قدر لهم، فقام اليه أحدهم فقال:

أقـــول له حـــين ألفـــيته ... عـــليك الســـلام أبـــا جـــعفرْ

فوقف وقال: السلام عليك ورحمة الله. وقال:

وهٰـــذي ثـــيابيَ قـــد أخـــلقت ... وقـــد عـــضني زمـــن مـــنكرْ

قال: فهٰذي ثيابي مكانها ـ وعليه جبة خزّ وعمامة خزّ ومطرف خزّ ـ ونعينك

١- الإسراء / الآية ٢٩.

علىٰ زمنك المنكر[١]..

هـ ـ ويمكن تصور البقاء في حكمة الإمام أمير المؤمنين أي في قوله (عليه السلام) (أَبقىٰ عليك) علىٰ وجهين مختلفين ولكن لا مانع من الجمع ما بينهما وحصولهما معاً، الىٰ جانب الباذل وفي نفعه وصالحه وهما:

أولاً: بقاءٌ عندَ الله تبارك وتعالىٰ حيث أن بذل الثياب لبعض الناس خصوصاً مع الحاجة اليها حسنة كبيرة أو عبارة عن حسنات كثيرة تبقىٰ مزبورة في صحيفة الباذل الكريم، وسوف يجزيه عنها أكرَمُ من يجزي أَحداً عن أَحد، فهٰذا البقاء شبيه بما جاء في ذيل الحديثِ الشريف المرويِّ عن رسول الله «ص»: هل لك إلا ما أَكلتَ فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصَّدقت فأبقيت[٢].

ثانياً: بقاءٌ عندَ الموهوب له وعند الناس حيثُ يذكره الذاكرون الطيبون الأوفياء للقيم الانسانية بالخير والإحْسان والايثار، ويشكرونه علىٰ فضلِهِ وحُسْنِ صنيعِه حياً كان أو ميتاً، وخلود الذكر الحسن الكريم بين الناس أمنيةٌ سنيَّةٌ شمّاء من كبريات أُمنيات الكرام والأَحرار، ومن الممكن في حالات كثيرة الجمع ما بينها وما بين البذل والعطاء بل والإيْثار ابتغاءً خالصاً للأجر والثواب وطلباً زاكياً لما عند الله سبحانه وتعالىٰ، «ومَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ للأَبْرار»[٣].

ونظراً للأهمية المركزية الخاصة للوجه الثاني نذكر شيئاً من النصوص الدينية المؤكدة علىٰ صحة مبناه واستقامته: فمن ذلك ما ذكره الكليني في

١- رسائل ابن أبي الدنيا / رسالة مكارم الأخلاق / ٤٢٤.

٢ - المصدر: ٧١ / ٣٥٦.

٣ - آل عمران، الآية / ١٩٨.

الكافي[١]: محمد بن يحيىٰ عن أحمد بن محمد بن عيسىٰ عن عمر بن عبد العزيز عن جميل بن دَرَّاج عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: مَنْ كَسا أَخاهُ كِسْوَةَ شِتَاءٍ أَوْ صَيْفٍ كان حَقّاً علىٰ اللّهِ أَنْ يكْسُوَهُ مِنْ ثيابِ الجَنَّةِ وأَنْ يُهَوِّنَ عليهِ سَكَرَاتِ الموتِ وأَنْ يُوَسِّعَ عليهِ في قبرِهِ وأَنْ يَلْقىٰ الملائكةَ إِذَا خرجَ مِنْ قبرِهِ بِالْبُشْرىٰ، وهو قَوْلُ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ في كتابه: «وَتَتَلَقّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هٰذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ».

ومن ذلك ما ذكره الكليني في الكافي أيضاً[٢]: محمد بن يحيىٰ عن محمد بن الحسين عن محمد بن إسماعيل عن صالح بن عقبة عن المفضل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَتْحِفُ أَخَاهُ التُّحْفَةَ. قلت: وأَيُّ شَيْءٍ التُّحْفَةُ؟

قال: مِنْ مَجْلِسٍ ومُتَّكَإٍ وطَعَامٍ وَكِسْوَةٍ وسَلامٍ فَتَطَاوَلُ الجَنَّةُ مُكَافَأَةً لَهُ، ويُوحِي اللّهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَيْهَا أَنِّي قَدْ حَرَّمْتُ طَعامَكِ علىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا إلا علىٰ نَبِيٍّ أَوْ وَصِيِّ نَبِيٍّ. فَإِذَا كانَ يومُ القِيَامَةِ أَوْحىٰ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِليها: أَنْ كَافِئِي أَوْلِيَائِي بِتُحَفِهِمْ. فَيَخْرُجُ منها وُصَفَاءُ ووصائِفُ مَعَهُمْ أَطْبَاقٌ مُغَطَّاةٌ بِمَنَادِيلَ مِنْ لُؤْلُؤٍ، فَإِذَا نَظَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ وهَوْلِها، وإِلىٰ الجنَّةِ وما فِيها طارَتْ عُقُولُهُمْ وامْتَنَعُوا أَنْ يَأْكُلُوا فَيُنَادي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ: أَنَّ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ قد حَرَّمَ جَهَنَّمَ علىٰ مَنْ أَكَلَ مِنْ طَعامِ جَنَّتِهِ. فَيَمُدُّ الْقَوْمُ أَيْدِيَهُمْ فَيَأْكُلُونَ.

---

١ – الكافي، ٢ / ٢٠٤ باب من كسا مؤمناً...

٢ – الكافي، ٢ /٢٠٧ باب في إلطاف المؤمن وإكرامه / ٧.

أَمثلَةٌ تَطبيقيَّة

ثَمَّ عد غير قليل من الأمثلة الكريمة الطيبة والالتقاطات التأريخية الحيوية لبذل الثياب وكسوة المحتاجين بما يدل علىٰ الحب العميق للفضل والإحْسان، وعلىٰ الاهتمام البالغ بشؤون الآخرين لا سيما من المحتاجين وأهل الفقر والضعف المالي. ولقد قال الدكتور محمد حبيب التحكاني في كتابه «الإحْسان الإلزامي في الاسلام وتطبيقاته في المغرب» فأحسن القول: لقد اعتاد الفكر الشعبي أن يستدلَّ علىٰ صلاح الأفراد وولايتهم لله تعالىٰ بكسوتهم للمحتاجين وبالعناية بهم[1].

ومن بين ثنايا هذه الأمثلة الجميلة والمؤثرة نلتقط شيئاً يسيراً:

أ ـ جاء كعب بن زهير بن أَبي سُلمىٰ المُزَني الىٰ رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» معتذراً مما قيل عنه ومادحاً إياه في المسجد النبوي الشريف بقصيدته المعروفة بقصيدة بانت سعاد[2]، فوهب له الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» مائة ناقة ومنحه بردة راقية، بقيت عنده الىٰ وفاته رضوان الله عليه عام (٢٤) هجرية حيث ورثها أهله، وظلت عندهم حتىٰ اشتراها معاوية بن أبي سفيان بمبلغ طائل، وما زالت البردة تتنقل ما بين الخلفاء الأمويين والعباسيين ويحافظون عليها ويلبسونها في الجمع والأعياد دهراً طويلاً. ولا توجد في التأريخ كله بردة أشهر من البردة التي منحها رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» لكعب بن زهير.

---

١ ـ الإحْسان الإلزامي في الاسلام وتطبيقاته في المغرب / ٥٥١ ـ ٥٥٢.

٢ ـ مطلع القصيدة:

بانتْ سُعادُ فقلبي اليومَ متبولُ مُتيَّم إثْرَها لم يُفدَ مَكْبولُ

بـ عن الأَصْبَغِ وأبي مَسْعَدَةَ والباقِرِ (عليه السلام)[١]: أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) أَتىٰ البَزَّازِينَ فقال لرجلٍ: بِعْنِي ثَوْبَيْنِ.

فقال الرَّجلُ: يا أَمِيرَ المُؤْمِنِين عندي حاجتُك. فلمَّا عَرَفَهُ مَضىٰ عنه فوقف علىٰ غُلامٍ فَأَخَذَ ثَوْبَيْنِ أَحَدُهُمَا بِثَلاثَةِ دَرَاهِمَ وَالآخَرُ بِدِرْهَمَيْنِ، فقال: يا قَنْبَرُ خُذِ الَّذِي بِثَلاثَةٍ.

فقال: أَنْتَ أَوْلىٰ بِهِ تَصْعَدُ الْمِنْبَرَ وتَخْطُبُ النَّاسَ.

فقال: وأَنْتَ شَابٌّ وَلَكَ شَرَهُ الشَّبَابِ، وَأَنَا أَسْتَحِي مِنْ رَبِّي أَنْ أَتَفَضَّلَ عليكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» يَقُولُ: أَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ وأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ.

فلَمَّا لَبِسَ القَمِيصَ مُدَّ كُمُّ الْقَمِيصِ فَأَمَرَ بِقَطْعِهِ وَاتِّخَاذِهِ قَلانِسَ لِلْفُقَرَاءِ. فقال الغلامُ: هَلُمَّ أَكُفَّهُ.

قَال: دَعْهُ كَمَا هُوَ فَإِنَّ الأَمْرَ أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ.

جـ قد رُوِي عن أَبي الطفيل قال: اشترىٰ علي (عليه السلام) ثوباً فأعجبه فتصدَّقَ به وقال: سمعت رسول الله (صلىٰ الله عليه وآله وسلّم) يقول: مَنْ آثَرَ علىٰ نفسه آثَرَهُ اللهُ يومَ القيامةِ بالجنة، ومَن أَحَبَّ شيئاً فجَعَلَهُ للهِ قال اللهُ تعالىٰ يومَ القِيامة: قد كانَ العبادُ يكافِئُون فيما بينهم بالمعروفِ وأَنا أُكافيك اليومَ بالجَنة[٢].

١- الميرزا حسين النوري الطبرسي مستدرك الوسائل ٣ /٢٥٦ /١٦- باب استحباب التواضع في الملابس ٣٥٢٥ - ٤

٢ - أبو علي الطبرسي، مجمع البيان / في تفسير قوله تعالىٰ «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تحِبُّونَ ...».

د ـ عن الفضل بن الرَّبيع قال: لمَّا اصْطَبَحَ الرَّشِيدُ يوماً استدعىٰ حاجبه فقال له: امْضِ إلىٰ عليٍّ بن مُوسىٰ العَلَوِيِّ وأَخْرِجْهُ من الحبْسِ وَأَلقهِ فِي بِرْكَةِ السِّبَاعِ. إلىٰ أَنْ ذكرَ أَمره بإِخْراجِهِ وإِدْخَالِهِ عليه فلمَّا حضرَ بين يدي الرَّشيد عـانَقه ثُـمَّ حَمَلَهُ إلىٰ مجلسه ورفعهُ فوق سريره وقال: يا ابنَ العمِّ إِنْ أَرَدْتَ المُقامَ عندنا ففي الرُّحْبِ وَالسَّعَةِ وقد أَمَرْنا لك ولأهلك بمالٍ وثيابٍ. فقال: لا حاجةَ في المالِ ولا الثِّيَابِ، ولكن في قريش نَفَرٌ يُفَرَّقُ ذلك عليهم. وذكر له قوماً؛ فَأَمَرَ لَـهُمْ بِـصِلَةٍ وَكِسْوَةٍ[1].

هـ ـ كان محمد بن جعفر الصادق (عليه السلام) شجاعاً سخياً وروي عن زوجته خديجة بنت عبد الله بن الحسين أنها قالت: ما خرج من عندنا محمد يوماً قط في ثوب فرجع حتىٰ يكسوه، وكان يذبح في كل يوم كبشاً لأضيافه[2].

من معالم الفوارق ما بين الكرام واللئام

١١٤ – قال إمام الأئمة أمير المؤمنين علي (عليه السلام): لَذَّةُ الكرامِ في الإطعام، ولَـذَّةُ اللئامِ في الطَّعام[3].

بهٰـذا الأسلوب الجميل الأخاذ.. والتعبير البليغ الرائع.. وبهٰـذا الكلام السهل الممتنع.. يعلنُ أميرُ الحكماءِ وسيدُ المتكلمين عن رأيه السديد في إيضاح مَعْلَم مُهِمٍّ جداً من معالم الفوارق الأساسية ما بـين الكـرام واللـئام: لذةُ الكـرام فـي

---

١ – حسين النوري، مستدرك الوسائل ١٣ /١٧٧ ٤٤ – باب أن جوائز الظـالم وطـعامه حلال / ١٥٠٢٩.

٢ – انظر الشيخ محمد المفيد، الإرشـاد ٢ / ٢١٢.

٣ – غُرر الحكم، الحكمـة / ٨٤٩٩.

الإطعام، ولذةُ اللئامِ في الطعام.

لقد أثنىٰ القرآن الكريم ثناءً عظيماً علىٰ أولئك الذين يؤثرون المحتاجين علىٰ أنفسهم «وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً»[1]. فلم يعبأوا بلذَّة الطعام بالرغم من مسيس الحاجة اليه وحبِّهم له بسبب طول الجوع، ولم يثنِ أبداً علىٰ من يتصفون بقوة الرغبة وجنوح النفوس الىٰ استلذاذ ما تضمَّ المآدب واستهواء ما علىٰ الموائد. كما يقول تبارك وتعالىٰ: كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ»[2]. فنرىٰ كيف يقع التأنيب علىٰ الذين لا يحضون علىٰ طعام المسكين في الوقت الذي لا نجد في القرآن المجيد ولا في آية واحدة تأنيباً أو تقريعاً للذين من شأنهم استلذاذ الاطعام لا الطعام.

فلماذا تلفَّع كُلٌّ من الكرام واللئام بالالتذاذ والتنعم؟ هٰذا ما نعتقد أنه يعود الىٰ أن الإنسان يبتهج وتغمره الفرحة والنشوة اذا رأىٰ أن مستوىٰ قدْره ومنزلته المعينة قد بلغا المُنىٰ وأدركا ما يستحقان ولو من بعض الجهات والأهداف.

وتأسيساً علىٰ هٰذا التعليل فإن كلاً من الكرام واللئام قد بلغا المُنىٰ وأدركا ما يستهدفان أو يستحقان حسب نظرهما. وهل من ريب أو شبهة في أن الاطعام والإكرام قدْر يرتضيه الكرام ويسعون الىٰ تحقيقه علىٰ صعيد العمل والتطبيق؟ وهل كذلك من ريب أو شبهة في أن الطعام لا سيما ذلك المبذول مجاناً قدْر يرتضيه اللئام ويسعون الىٰ تحقيقه علىٰ صعيد العمل والتطبيق؟

بالطبع ان قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (لذَّةُ الكرامِ في الإطعام) لا يعني أبداً أن لا تلذذ للكرام بالطعام في جميع الأحوال، إذ ما أكثر الأيام التي يلتذون فيها بالطعام الشهي الطيب سواء قد صنعوه بأنفسهم أم قد دعاهم اليه بعض

---

١ - الانسان، الآية / ٨.
٢ - الفجر، الآية / ١٧ ـ ١٨.

الأصدقاء والمحبين، ولكنه (سَلامُ اللهِ عَلَيه) يعني أن لذة الكرام بإطعام الناس وإكرام الضيوف أو انالته المحتاجين والمعوزين أشدّ وأقوىٰ من لذتهم بتناوله، أي أن دافع الإنالة أَركز من دافع التناول.

وبالطبع ان قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (لَذَّةُ اللئامِ في الطعام) لا يعني أبداً أن تلذذ اللئام في الطعام شاملاً لجميع الأحوال والظروف، إذ ما أكثر الحالات التي لا يتلذَّذ اللئام فيها بالطعام لسبب من الأسباب كأن يكون اللئيم قد غُبن قرشاً أو درهماً في تحضير الطعام وإعداده، أو قد خطر بباله أن من المحتمل أن ضيفاً يحلُّ عليه أو يمر علىٰ مسافة قريبة منه أثناء تناوله للطعام، أو أن مرضاً قد أصابه مثلاً فلا يستَلِذُّالمأكولات ولهذا يقول المثل السائر لبعض البدو الرحَّل: طيب الطعام بالعافية. ولكن الإمام (سَلامُ اللهِ عَلَيه) يعني أن سرور اللئام ولذَّتهم بالاستفادة الشخصية أو ما هو قريب من الشخصية من الطعام لا بإفادة الآخرين واكرامهم، أي أن دافع التناول أَركز من دافع الانالة فيما إذا حصلت أحياناً.

لا يتكبَّرُ علىٰ المُنعَمِ عليهِ غَيْرُ المُتبطِّر بالنعمة

١١٥ – قال علي (عليه السلام): الإيمانُ شجرةٌ أصلُها اليَقين، وفرْعُها التُّقىٰ، ونَوْرُها الحَياءُ، وثمرُها السَّخاء[١].

في هٰذا الأسلوبِ البلاغيِّ الجميلِ يرسمُ إمامُ البلغاء والحكماء عليُّ بن أَبي طالبٍ بريشتِهِ الدقيقَةِ البارعَةِ صورةً فاتنةً وسيمةَ الملامحِ والتقاسيمِ للإيمان العميقِ والأَصيل، الإيمانِ الذي يفقهه هو بنفسه باعتباره مدينة علم الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» لا الذي يحاول أن يفقهه ويصوره بريشةٍ هجينةٍ

---

١ – غُرر الحكم، الحكمة /١٤٤١.

ومتآكلةٍ الجاهلون والمرتابون وأَصحـاب الأهواء وطلاب المصالح الشـخصية وأَرباب المطامح الذاتية ممن هبَّ ودبَّ في شرق الأرض وغربها. ولسنا نبتغي الحديث الآن عن الإيمان وأصله وفرعه، وإنما نبتغي أن نلقي الضـوء الهـادىء علىٰ شيء من بحث الكتاب وهو موضوع السخاء، وأَن نسلِّط حزمةً من الأَشعَـةِ البنفسجيةِ علىٰ العلاقة الأكيـدة والوطيدة القائمـة في فلسفة الإِمام علي ما بين السخاء والحياء.

لقد اعتبر الإِمام (عليه السـلام) أن السخاء ثمـرة لشجرة الايمان، وهٰـذا يعني بالضرورة أن الإيمان ليس نظرياتٍ وأَفكاراً تجريديةً بـعيدةً عـن صـلب الحيـاة ومـجريات المـعاملات الاجـتماعية. بـل الإيـمان الحـقيقي نـظريات وتطبيقات، إنه أفكار ومعاملات طيبة كريمة. واذا كانت الأَشجار فـي طـبيعتها وتركيبها علىٰ قسمين فمنها ما يثمر ومنها مالا يثمر، فإن الحالة الطبيعية لشجرة الإيمان أن تثمر وأن تؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذن رَبِّها. فمن لا تسخو أَنفسهم ممن انتسبوا الىٰ الايمان فهذا يشيـر الىٰ أن شجرتهم ليست من تلك الأَشجار التي يرنو اليها الصدِّيقون والصالحون بعين الاكبار والتبجيل، فهم إما قـد كـذبوا ونـافقوا بادعاء الايمان، وإما أنهم لم يفهموا الايمـان فهما صحيحاً وسـليماً وظـنّوا أَنـه مجـرَّد شعارات وطقوس شكلية لا تمتُّ الىٰ الأَخـلاق العـملية بـصلة، ولا الىٰ الروح الإنسانيـة بارتباط.

والآن لنقُل بصراحة وتجرد أَيُّهما أَمقت للنفس وأولىٰ بـالتهجين والازدراء شجرة يُنْظَرُ اليها علىٰ أن من طبيعتها أن تُثْمِـرَ وهي بالفعل كذلك، أَم شجرة تُعَدُّ خطأً من الأَشجار المثمرة وهي ليست كذلك، ومهما انتظرها الآملون والمترقِّبون فإنها لا تجود بشيء من الثمار، أو تدلي بشيء من القُطُـوف، مهما طالت مواعيد الترقب والانتظـار، وامتَدَّ زمان الرجـاء، وتلهَّفت قلوب الآمـال؟

إنَّ أَوْلىٰ الشَّجرتَيْنِ بالمَقْتِ والإزدِراءِ مَا تُعَدُّ مِنَ المُثْمِراتِ وَهِي لا تُثْمِرُ سَجيسَ اللَّيالي .

ولنعد الىٰ ما يقوله الإمام عن الإيمان وموقع السخاء منه ممثِّلاً إيّاه بشجرةٍ أصلُها اليَقين، وفرْعُها التُّقىٰ، ونَوْرُها الحياءُ، وثمرُها السَّخاء، ففي حياتنا الفكريَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة لا يهمُّنا ماذا يُقال عن هذه الشجرة أو تلك من أوصافها الجميلة أو القبيحة ولا من فروعها وأفنانها الطويلة أو القصيرة، إنما الذي يهمُّنا ويستقطب عنايتنا ـ بالدرجة الأولىٰ ـ هل أنَّها تُثمر أم لا، وما نوعيَّة الأثمار، فأكبرُ مقياسٍ لمعرفةِ قيمةِ الشجرة يكمنُ في قيمةِ الثمرة، فإذا عرفنا أن السخاء هو ثمرة شجرة الايمان عرفنا عظمة مكانة السخاء في أُصول الفكر العلوي، إن السخاء ثمرة الايمان، وبالطبع أن جذور الأشجار لا تحمل الثمار، وإنما تحصل الثمار عبر الجذور والفروع السليمة من الآفات. وهذا المعنىٰ يؤدّي تلقائيّاً الىٰ القول أن من ليس له سخاء حقيقيّ ليس له ايمان حقيقيّ، إنه فاقدٌ لأَهَمِّ الخصائص العمليَّة للايمان وهو السخاء، نعم قد يُستَفاد من هذا الشخص اجتماعيّاً ودينيّاً كما يُستَفاد من جذوع وفروع الأشجار غير المثمرة. وفي كتاب « منهج التربية في القرآن » يشير مؤلفه الدكتور عبد الفتاح عاشور (استاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بجامعة الأزهر والجامعة الاسلامية في المدينة المنوَّرة) الىٰ الارتباط الوثيق بين السخاء واليقين والايمان قائلاً: هذا خلق السخاء ينبع من داخل النفس حين فجَّرَ القُرآن ينابيع اليقين والثقة في فضل الله وحرَّر الإنسان من ربقة المال.. ولذا جادت بالعطاء سرّاً وجهراً لا تخاف إلا الله وحده: « وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً »[1]. « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُوراً »[2]. انظر لتربية القرآن وهو يربّي النفس

---

١ – الانسان، الآية / ٨.

٢ – الانسان الآية / ٩.

علىٰ هذا الخُلُق ويضعها بين الخوف والرجاء، فيصوِّر الانفاق الخالص لوجه الله بهذه الصورة النامية: «مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ»[1][2].

وكثيراً ما يعقد الإمام أمير المؤمنين في الأَحاديث المرويَّة عنه وشائجَ الاتصالِ وأَواصرَ الالتقاءِ ما بين صفتي السخاء والحياء في مثل هذه الكلمة: العقل شجرةٌ ثمرُها الحياء والسخاء[3]. ومثل قوله: نعم قرينُ السخاء الحياء[4]. ومثل قوله كذلك: مَن لم يكن له سخاءٌ ولا حياء [حِباء] فالموت خيرٌ له من الحَـــياة[5].

وهكـذا نرىٰ بالنسبة الىٰ كلمة المتن الذي علقنا عليه[6]؛ وغيرها من كلمات الإمام فإنها جميعاً تصبُّ في اتجاهٍ واحدٍ من التأكيد علىٰ الانعقاد الوشائجي ما بين الصفتين. ولَعَلَّ مَرَدَّ ذلك الانعقاد الوثيق بينهما الىٰ أن من كان حيياً في أَخلاقه وسلوكه لا يكدِّر صفوَ الجود والسخاء بالمنِّ والأذىٰ، ولا يتعامل مع من يكرمهم ويجود عليهم بشيءٍ مِن التكبر والترفع، ولا يشوب سَلْسال النَّـدىٰ والإحْسـان

---

١ - البقرة، الآيـة / ٢٦١.

٢ - منهج القرآن في تربية المجتمع / ٢٥١.

٣- غُرر الحكم، الحكمة /٥٤٣٦

٤- غُرر الحكم، الحكمة /٥٤٤٧.

٥- غُرر الحكم، الحكمة /٥٤٦٧.

٦- وقريب مما يتحد مع مسـار هذه الأحاديث العلوية المباركة ويصـب في ذات الاتجاه ما قاله الإمام (عليه السـلام): لا ترضين قول أحد حتىٰ ترضىٰ فعله ولا ترض فعله حـتىٰ ترضـىٰ عقله ولا ترض عقله حتىٰ ترضىٰ حيـاءه؛ فإن الإنسان مطبوع علىٰ كـرم ولؤم، فـإن قوي الحياء عنده قوي الكرم، وإن ضعف الحـياء قوي اللؤم. شـرح نـهج البـلاغة لابـن أَبـي الحديد الحكمة / ٥٥٤.

بالرياء وطلب السمعة، فإنَّهُ قدْ لاحَ في أُفُقي: أَنَّه لا يمنُّ بالعطاءِ إلا مَنْ كان دونَ قيمَتِه، وَلا يتكبَّرُ علىٰ المُنعَمِ عليهِ غَيْرُ المُتبطِّرِ بالنعمة.

«.. وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ»[1].

لا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيل

١١٦ - قَالَ أمير المؤمنين علي (سلام الله عليه): لا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ؛ فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ[2].

إنَّ الحياءَ بحدوده المعقولة المُحَبَّذَة لَظاهِرَةٌ طبيعيَّةٌ في كل انسان سويّ الطبائع والخلائق، والحياءُ طاقةٌ عاليةٌ تَدفعُ الانسان الىٰ سبيل الرشدِ والىٰ كثيرٍ من أعمال الخيرِ والصلاح، كما أن الحياء قوةٌ رادِعةٌ مَكِينةٌ في النهي عما لا ينبغي والصدِّ عما لا يجدر. ولقد حفلت الأحاديث الشريفة بمدحه والثناء علىٰ المتصفين به «الحياءُ شعبةٌ من الإيمان» «الإيمانُ عريان ولباسه التقوىٰ وزينته الحياء» وفي الحديث الشهير الذي رواه عبد الله بن مسعود أن النبي «ص» قال لأصحابه: استحيوا من الله حق الحياء. قالوا: إنا لنستحيي ونحمد الله. قال: ليس كذلك، مَن استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، وليذكر الموت وطول البلىٰ، وليترك زينة الحياة الدنيا، فمن يعمل ذلك، فقد استحيا من الله حق الحياء.

١- البقرة، الآية / ١٩٧.

٢ - ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، بابُ المختارِ من حكم أمير المؤمنين (عليه السلام) الحكمة / ٦٧، والزمخشري، ربيع الأبرار، ٤ / ٣٦٩.

ومن أجل مزيد من التأكيد علىٰ ضرورة الحياء وتسليط الضوء عليه اكتساءً واكتساباً فقد تحدث بعض علماء الأخلاق والعرفان عنه قائلين[١]: فـأما كـيف يكتسب الحياء فمن حق الإنسان إذا هم بقبيح أن يتصور أجل من نفسه أنه يراه فإن الإنسان يستحيي ممن يكبر في نفسه أن يطلع علىٰ عيبه؛ ولذلك لا يستحيي من الحيوان غير الناطق ولا من الأطفال الذين لا يميزون ويستحيي من العالم أكثر مما يستحيي من الجاهل ومن الجماعة أكثر مما يستحيي من الواحـد، والذيـن يستحيي الانسان منهم ثلاثة: البشر، ونفسه، والله تعالىٰ. أما البشر فهم أكثر من يستحيي منه الانسان في غالب الناس ثم نفسه ثم خالقه وذلك لقلة توفيقه وسوء اختياره. واعلم أن من استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه فنفسه عنده أخس من غيره ومن استحيا منهما ولم يستحي من الله تعالىٰ فليس عارفاً لأنه لو كان عارفاً بالله لما استحيا من المخلوق دون الخالق، ألا ترىٰ أن الانسان لا بـد أن يستحيي من الذي يعظمه ويعلم أنه يراه أو يستمع بخبره فيبكته ومن لا يعرف الله تعالىٰ كيف يستعظمه وكيف يعلم أنه يطلع عليه. وفي قول رسـول اللـه «ص»: استحيوا من الله حق الحياء» أمر في ضمن كلامه هذا بمعرفته سبحانه وحث عليها وقال سبحانه: «أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرىٰ»[٢] تنبيهاً علىٰ أن العبد إذا علم أن ربه يراه استحيا من ارتكاب الذنب. انتهىٰ.

إلا أن الممدوح من الحياء كما أشرنا ما كان بحدوده المعقولة والمحبَّذة، فأما بعض أصناف الحياء التي تعتري قسماً كبيراً من الناس وتمنعهم من بعض الأعمال الجديرة بالعمل، فليس من الحياء المرغوب فيه والمؤكد عليه في لسان الشرع، من قبيل الحياء من قول الحق لا سيما أمام مجموعة كبيرة مـن النـاس أو أمـام الصديق والقريب، ومن قبيل الحياء من ردع المستغل البشع في استغلاله للطرف

---

١ - انظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٤٧.

٢ - العلق، الآيـة / ١٤.

الآخر، أو الحياء من مساعدة العيال في عدد من أعمال المنزل، أو شراء بعض الحاجات المنزلية من الأسواق، وفي حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» كان يعلف البعير، ويقم البيت، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن معها إذا أعيت، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلىٰ منزل أهله.

ومن أَصناف الحياء التي تعتري قسماً كبيراً من الناس، وتمنعهم من بعض الأعمال الجديرة بالعمل: الحياء من إعطاء القليل، التي نهىٰ عنها الحديث المروي عن الإمام علي نهياً ارشادياً، وحثَّ أمير الكرام والأجواد (عليه السلام) علىٰ المنحه والإعطاء حتىٰ وإن كان قليلاً، معلِّلاً ذلك تعليلاً منطقياً بأنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ. وما قبل ذلك قال النبي «ص»: لا يمنعكم من معروفٍ صغر[1].

لقد كان الإمام أمير المؤمنين يحث علىٰ المنحة الجزيلة والعطاء الفخم، وكان يقول: من بَسَطَ يَدَه بالإنعام، حصَّن نعمته من الانصرام[2]، ويقول: شكرُ من دونك بِسَيْبِ العطاء[3]. وكان (عليه السلام) بنفسه ممن يجري عملياً وفق هٰذا التنظير، ويتألم أو يتضور ممن يشير عليه بغيره أو يطلب منه الاكتفاء بالحدِّ الأدنىٰ من العطاء، وقد يجبهه بشدَّة كما نرىٰ علىٰ سبيل المثال فيما يأتي من أنه (عليه السلام) بعث الىٰ رجل بخمسة أَوساق، فقال له رجل: واللهِ ما سألك فلان، ولقد كان يجزيه من الخمسة أوساق وَسق واحد! فقال: لا أكثر الله في المؤمنين ضَرْبَك، أعطي أنا وتبخل أنت.

وأما دعوته (عليه السلام) الىٰ عدم الاستحياء مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ، فذلك في الحالات التي لا يجد الغني الكريم ما ينفقه بالفعل إنفاقاً كبيراً، وكذلك بالنسبة

---

١ – محاضرات الأدباء، ٢ / ٣٩٠.
٢– غُرر الحكم، الحكمة / ٨٥٨١.
٣– غُرر الحكم، الحكمة / ٦١٦١.

الىٰ الفقير الجواد حيث لا يستطيع أن يهب كما يحب ويرتضي، أو كما قال هرمس الحكيم: يدلُّ علىٰ غريزة الجود: السماحة في العسرة[١]. فهما بالتالي (الغني الكريم والفقير الجواد) إما أن يمنحا القليل واليسير، وإما أن يمسكا ويقبضا أيديهما، وقد أرشدهما الإمام (عليه السلام) الىٰ الانفاق ولو كان قليلاً وأن لا يستحييا من قلته، أي الىٰ الأخذ بالخيار الثاني.

وأعتقد أن أساس الخطاب العلوي (لا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ..) موجَّه الىٰ خصوص الكرماء من الأَغنياء والفقراء لا الىٰ البخلاء واللؤماء، لأن ما عدا الكرماء من البشر لا يستحون في الأصل من إعطاء القليل، حتىٰ يرشدوا الىٰ نبذ الحياء في مثل هذه الحالات، باعتبار أن من شأنهم وأخلاقيتهم إما الاكتفاء بإعطاء القليل، وإما عدم الإعطاء بتاتاً.

وأما قوله سبحانه «أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰٓ»[٢]. فهو لا يتنافىٰ مع القاعدة العلوية لأن الانسان يعاتَب أو يُذَم ويُقدَح في شخصيته وتصرفاته في ما إذا كان من طبيعته أن يمنح القليل مع قدرته المالية العالية التي تستوجب منح الكثير، وأما في الأوضاع المالية غير القديرة والمكينة، والتي ليس فيها للكريم الجواد (سواء كان فقيراً أو غنياً له ظرفه الاستثنائي) إلا خيار إعطاء القليل، أو الكف والامساك عنه، فإن العقل والشرع يتفقان علىٰ الأول بلا ريب، ولقد سأل معاوية عمر بن العاص ما السخاء يا أبا عبد الله عند العرب؟ فقال: جهد المُقِل. قال السيد حيدر الحلي: ينظر فيه الىٰ قول رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: جهد المُقِلِّ أكثرُ من عَفو المُكثر[٣].

---

١ - أبو سليمان المنطقي، صوان الحكمة / ١٨٦.

٢- النجم الآية ٢٣ ـ ٣٤.

٣ - سيد حيدر الحسيني الحلي، العقد المفصل، ١ / ٤٤.

شَرُّ الإِخْوَانِ مَنْ تَكَلَّفُ لَهُ

١١٧ ـ قَالَ أَمير المؤمنين (عليه السلام): شَرُّ الإِخْوَانِ مَنْ تَكَلَّفُ لَهُ[١].

الضِّيَافة ضِيافَتَان

ينقسم عَالم الضيافة في الأَعراف الاسلامية الىٰ قسمين أَساسيين :

أَوَّلاً : ضيافة من أتىٰ من دون وعد سابق ولا دعوة من قبل رب البيت ، فهذا لا يجب أخلاقياً التكلف له والعناية الخاصة بتقديم أفضل ما يمكن له حتىٰ وإن اقتضىٰ الأمر الخروج الىٰ السوق وشراء الكثير مما طاب وعذب ، بل يكرم ويحترم ويعطىٰ مما في البيت أو من خارجه ولكن بصورة ميسَّرة ، وبطبيعة الحال توجد هناك قضايا استثنائية توجبها ظروف اجتماعية مختلفة .

ثانياً : ضيافة من أتىٰ مع الوعد السابق أو الدعوة من قبل رب البيت ، ولهذا يكون الامتياز في الضيافة من حيث التكريم والتقديم حتىٰ وإن اقتضىٰ الأمر الخروج الىٰ السوق وشراء الكثير مما طاب وعذب وراق للناظرين ، ولا مانع من التكلف له أو تحمل المشقة ، إذ لا تقصد الحكمة العلوية من التكلف إلا القسم الأول منه فحسب .

مَنْ صَحِبَ الثَّقِيل فَقَدْ صَحِبَهُ الشَّرُّ الوَبِيل

إن من يوجب التكلف والعناء والمشقة من الاخوان والأصدقاء فهو ثقيل علىٰ الروح عسير في ميدان التعامل ، ومن صحب الثقيل ، فقد صحبه الشرُّ الوبيل ، وكان سليمان الأعمش إذا رأىٰ ثقيلاً من الناس قرأ الآية المباركة : « رَّبَّنَا ٱكْشِفْ

---

١ – ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٢٠ / ٢٤٩ ، الحكمة / ٤٨٧ .

عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ»[1].

تعليل ابن أبي الحديد

يعلل ابن أبي الحديد المعتزلي الحكمة العلوية قائـلاً: إنما كان كـذلك لأن الإخاء الصادق بينهما يوجب الانبساط وترك التكلف فإذا احتيج إلىٰ التكلف له فقد دل ذلك علىٰ أن ليس هناك إخـاء صادق ومن ليس بأخ صادق فهو من شر الإخوان.

وروىٰ ابن ناقيا في كتاب «ملح الممالحة» قال: دخل الحسن بن سهل علىٰ المأمون فقال له: كيف علمك بالمروءة؟ قال: ما أعلم ما يـريد أمـير المـؤمنين فأجيبه. قال: عليك بعمرو بن مسعدة. قال: فوافيت عمراً وفي داره صناع وهو جالس علىٰ آجرة ينظر إليهم فقلت: إن أمير المؤمنين يأمرك أن تعلمني المروءة. فدعا بآجرة فأجلسني عليها وتحدثنا ملياً وقد امتلأت غيظاً من تقصيره بي ثم قال: يا غلام عندك شيء يؤكل؟ فقال: نعم، فقدم طبقاً لطيفاً عليه رغيفان وثلاث سكرجات في إحداهن خل وفي الأخرىٰ مريء وفي الأخرىٰ ملح فأكلنا وجاء الفراش فوضأنا ثم قال: إذا شئت، فنهضت متحفظاً ولم أودعه فقال لي: إن رأيت أن تعود إلي في يوم مثله. فلم أذكر للمأمون شيئاً مما جرىٰ، فلما كان في اليوم الذي وعدني فيه لقياه سرت إليه فاستؤذن لي عليه فتلقاني علىٰ باب الدار فعانقني وقبل بين عيني وقدمني أمامه ومشىٰ خلفي حتىٰ أقعدني في الدست وجلس بين يدي وقد فرشت الدار وزينت بأنواع الزينة وأقبل يحدثني ويتنادر معي إلىٰ أن حضرت وقت الطعام فأمر فقدمت أطباق الفاكهة فأصبنا منها ونصبت الموائد فقدم عليها أنواع الأطعمة من حارها وباردها وحلوها وحامضها ثم قال: أي الشراب أعجب إليك؟ فاقترحت عليه وحضر الوصائف للخدمة فـلما أردت الانـصراف

---

١ - الدخـان، الآية / ١٢.

حمل معي جميع ما أحضر من ذهب وفضة وفرش وكسوة وقدم إلىٰ البساط فرس بمركب ثقيل فركبته وأمر من بحضرته من الغلمان الروم والوصائف حتىٰ سعوا بين يدي وقال: عليك بهم فهم لك ثم قال: إذا زارك أخوك فلا تتكلف له واقتصر علىٰ ما يحضرك، وإذا دعوته فاحتفل به واحتشد ولا تدعن ممكناً كفعلنا إياك عند زيارتك إيانا وفعلنا يوم دعوناك[١].

المَالُ حياةٌ للأَسخيَاءِ وموتٌ للبُخلاء

١١٨ – قال الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): الأَسخياء يشمتون بالبخلاء عند الموت، والبخلاء يشمتون بالأَسخياء عند الفقر[٢].

أَلوان من الشماتة

١ ـ مما قد يصح أن يكون لوناً من ألوان شماتة الأسخياء بالبخلاء عند الموت ما قاله الإمام علي (عليه السلام) وإن كان له غاية أخرىٰ تكمن في حث الناس علىٰ التفكر والاعتبار: مَعَاشِرَ النَّاسِ اتَّقُوا اللَّهَ فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ مَا لا يَبْلُغُهُ وبَانٍ مَا لا يَسْكُنُهُ، وجَامِعٍ مَا سَوْفَ يَتْرُكُهُ، ولَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ، ومِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ، أَصَابَهُ حَرَاماً، واحْتَمَلَ بِهِ آثَاماً، فَبَاءَ بِوِزْرِهِ، وقَدِمَ عَلَىٰ رَبِّهِ، آسِفاً لاهِفاً قَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا والأَخِرَةَ ذَلِك هُو الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ[٣].

---

١ – شرح نهج البلاغة ٢٠ / ٢٥٠.

٢ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الحكمة / ٧٩٦.

٣ – المصدر نفسه، ١٩ / ٢٥٩.

٢ ـ وفد الوليد بن عقبة وكان جواداً إلىٰ معاوية فقيل له: هذا الوليد بن عقبة بالباب. فقال: والله ليرجعن مغيظاً غير معطىٰ فإنه الآن قد أتانا يقول عليَّ ديْن وعليَّ كذا ائذن له. فأذن له فسأله وتحدث معه ثم قال له معاوية: أما والله إن كنا لنحب إتيان مالك بالوادي ولقد كان يعجب أمير المؤمنين فإن رأيت أن تهبه ليزيد فافعل. قال: هو ليزيد. ثم خرج وجعل يختلف إلىٰ معاوية فقال له يوماً: انظر يا أمير المؤمنين في شأني فإن عليَّ مئونة وقد أرهقني دين. فقال له: ألا تستحيي لنفسك وحسبك تأخذ ما تأخذه فتبذره ثم لا تنفك تشكو ديناً؟ فقال الوليد: أفعل. ثم انطلق من مكانه فسار إلىٰ الجزيرة وقال يخاطب معاوية:

فـــإذا ســـئلت تـــقول لا ... وإذا ســـألت تـــقول هـــاتِ

تـــأبىٰ فـــعال الخـــير لا ... تـــروي وأنت عـــلىٰ الفـــراتِ

أفـــلا تـــميل إلىٰ نـــعم ... أو تـــرك لا حـــتىٰ المـــماتِ[1]

وبلغ معاوية شخوصه إلىٰ الجزيرة فخافه وكتب إليه: أقبل. فكتب:

أعـــفُّ وأســـتعفي كـــما قـــد أمـــرتني ... فأعـــطِ ســـواي مـــا بـــدا لك وابـــخلِ

ســـأحدو ركـــابي عـــنك إن عـــزيمتي ... إذا نـــابني أمـــر كشَـــلَّةِ مـــنصلِ

وإنـــي امـــرؤ للـــنأي مـــني تـــطرُّبٌ ... وليس شـــبا قـــفل عـــلي بـــمقفلِ

ثم رحل إلىٰ الحجاز فبعث إليه معاوية بجائزة.

أَقـول: علىٰ الرغم من أن معاوية قد شمت بالوليد وعاب جوده إلا أن الوليد قد حصل علىٰ الجائزة وإن كره قلب الشامت وتمعَّر وجه العائب، ولا أدري كيف

---

١ ـ المصدر نفسه، ١٧ / ٢٤٤.

يشمت معاوية بما آل اليه جود الوليد ويعيب جوده عليه بعد أن كان بنفسه سبباً أساسياً من أسباب ضعف حالته المادية واحتياجه اليه باستيهابه منه ملكه الجليل بالوادي.

٣ ـ عاد الحسن البصري عبد الله بن الأهتم في مرضه الذي مات فيه فأقبل عبد الله يصرف بصره إلىٰ صندوق في جانب البيت ثم قال للحسن: يا أبا سعيد فيه مائة ألف لم يؤد منها زكاة ولم توصل بها رحم. قال الحسن: ثكلتك أمك فلم أعددتها! قال: لروعة الزمان ومكاثرة الإخوان وجفوة السلطان. ثم مات. فحضر الحسن جنازته فلما دفن صفق بإحدىٰ راحتيه الأخرىٰ وقال: إن هذا تاه شيطانه فحذره روعة زمانه وجفوة سلطانه ومكاثرة إخوانه فيما استودعه الله إياه فادخره ثم خرج منه كئيباً حزيناً لم يؤدِّ زكاة ولم يصل رحماً. ثم التفت فقال: أيها الوارث كل هنيئاً فقد أتاك هذا المال حلالاً فلا يكن عليك وبالاً أتاك ممن كان له جَموعاً مَنوعاً يركب فيه لجج البحار ومفاوز القفار من باطل جمعه ومن حق منعه لم ينتفع به في حياته وضره بعد وفاته جمعه فأوعاه وشده فأوكاه إلىٰ يوم القيامة يوم ذي حسرات. وإن أعظم الحسرات أن ترى مالك في ميزان غيرك بخلت بمال أوتيته من رزق الله أن تنفقه في طاعة الله فخزنته لغيرك فأنفقه في مرضاة ربه، يا لها حسرة لا تقال ورحمة لا تنال إنا لله وإنا إليه راجعون[1].

٣ ـ وقال أحد المعاصرين:

إنا طربنا والبِشرُ في الطَرَبِ
من بعد طولِ الآهاتِ والوَصَبِ

مَرْحَاً بموت البخيلِ أفرحَنا
لما تَولّىٰ هِرَّاً ذَنَبِ

---

١ – المصدر نفسه، ١٩ / ١٠.

سألتُ عِـــزْريلَ وهـــو يـــقبِضُه
هـــل تـاب حـقاً فـي سـاعة الكُـرَبِ

إذْ قـــد بَـدا لي والعـينُ شـاخصةٌ
والدمـــعُ مـــنها يَـنهَلُّ كـالقرَبِ

فـــقال كـــلا مـا كـان يُـدْمعها
غـــير ادِّكـــار الأمـوالِ والذَّهبِ

فـــقلتُ إنـــي ســـمعتُ صـيحتَه
كـــمستغيثٍ مـــن قـاهرِ النُّـوَبِ

هـــل كـان فـيها يـروم فُـرصته
يـــحنُّ فـيها للـواهـنِ السَّـغِبِ

فـــقال يـــوماً قـد كـان أَطـعمه
قُـــرْصَ شـــعيرٍ كـــغابرِ التُّـــرَبِ

فـــرام وَقْـــتاً كـــي يســتردَّ بـه
قُـرْصَ شـعيرٍ فـي سـالف الحـقَبِ

أَقـــرَّ عَـــيني إذْ رحتُ أُهْـــلِكُهُ
بِكِـــلِّ خَـنْقٍ أقســىٰ مـن اللَّـهَبِ

فـــقلتُ عـــاشت يَـداكَ وانـتصَرَت
قَـــضَيتَ عَـــنا أُمـــثولَةَ الإربِ

ذاكُـــم جـــوادٌ مَـن كـان مـنتفضاً
كـالصقر يـفري اللـئام عـن كَـثَبِ

انتظار المصير برهنة علىٰ مدىٰ صحة تقييم المسير

يتضارب الأسخياء والبخلاء في آرائهم حول السخاء والبخل، فبين مادحين للسخاء عاملين به وهم القسم الأول، وبين ذامين له عاملين بخلافه أو عاملين بخلافه فقط من غير ذم له وهم البخلاء. ويستمر الصراع الخفي أو الخفي والظاهر بين الفريقين وكل ينتظر مصيراً مفجعاً مؤلماً للآخر في سبيل البرهنة العملية علىٰ صحة مساره وخطأ مسار الطرف الثاني؛ فالأسخياء ينتظرون سيف الموت وهو يحصد رقاب البخلاء، وهنالك تتحقق الشماتة بهم فلمن تركوا الأموال من بعد جمعها وادِّخارها ما أمكن وما النفع من هذا الكدّ والسعي الطويل بلا عزٍّ يُطلب ولا مجد يُدرك ولا خير يُصاب ولا دنيا تُنال ولا آخرة تُرجىٰ؟ « وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ »[1]. والبخلاء ينتظرون معول الفقر وهو يدكّ أيدي الأسخياء تلك الأيدي التي سببت للأسخياء والبخلاء الحرج الاجتماعي الشديد وزادت من انتقاصهم والقدح بهم ما بين الصادر والوارد، وهنالك تتحقق الشماتة بهم والفرحة بنضوب أموالهم وقلة المؤملين لفضلهم وعطائهم ما بعد فقرهم.

في الحقيقة ان كلاً من الفريقين المتصارعين قد انتهىٰ الىٰ المصير المأساوي والنتيجة الأليمة المحزنة، غير أن أكثر من فارق جوهري ينضم الىٰ جانب الأسخياء وصالحهم فما أنفقوه من الأموال قد سبب لهم تأريخاً مجيداً وحمداً كثيراً وما خسرت صفقة بيعهم ولا انكسرت تجارتهم وقد علموا صحة ما قيل في

---

١ – التوبة، الآية / ٣٤ ـ ٣٥.

صدر الاسلام: (لا يذهب العرف بين الله والناس). وكم لهم مـن أَمَـلٍ طَـرُوبٍ ورجاءٍ نشوان أن يعـود الفقر غنىً وثراءً والضنكُ سَعَـةً وفَرَجاً ورَحمةً وفَـضـلاً كَبيرا. علماً أنه لا حـياةَ للبخلاء بعد موتهم ولا عيشَ بـعد حـتفهم إلا حـياة لا يرتضيها الأحرار، وعيشاً ليس له من قـرار.

«وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»[1].

تحريك حافز التنافس على الخير والإحسان

١١٩ ـ قال الإمام علي بن أَبي طالب (سَـلام الله عليه): إِنَّ لِلْخَيْرِ ولِلشَّرِّ أَهْـلاً فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ[2].

شرح ابن أبي الحديد:

يقول (عليه السـلام): إنْ عَنَّ لك باب من أبواب الخـير وتـركته فسـوف يكفيكه بعض الناس ممن جعله الله تعالىٰ أهلاً للخير وإسداء المعروف إلىٰ الناس، وإن عَنَّ لك باب من أبواب الشر فتركته فسوف يكفيكه بعض الناس ممن جعلتهم أَنفسهم وسوء اختيارهم أهلاً للشر وأذىٰ الناس؛ فاختر لنفسك أيما أحب إليك أن

---

١ – آل عمـران، الآية / ١٨٠.

٢ – ابن أَبي الحديـد، شرح نهج البلاغة ٢٠ / ٦٧، الحكمة / ٤٣١.

تحظىٰ بالمحمدة والثواب وتفعل ما إن تركته فعله غيرك وحظي بحمده وثوابه أو أن تتركه، وأيما أحب إليك أن تشقىٰ بالذم عاجلاً والعقاب آجلاً وتفعل ما إن تركته كفاكه غيرك وبلغت غرضك منه علىٰ يد غيرك أو أن تفعله؟ ولا ريب أن العاقل يختار فعل الخير وترك الشر إذا أفكر حق الفكر فيما قد أوضحناه.

تحريضٌ وتفعيل لا مُجَرَّدَ إخبارٍ وتَحليل

لقد كان الإمام علي بن أَبي طالب رمزاً عالياً للدعوة المتوهجة الىٰ الخير والحضِّ الشديد علىٰ المعروف والإحسان، وتأسيساً علىٰ هذا البيان فلا ينبغي أن يتبادر الىٰ الأذهان ويتسارع الىٰ الأفهام أن قوله (عليه السلام): إِنَّ لِلْخَيْرِ ولِلشَّرِّ أَهْلاً فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ. مجرد اطلاع الناس وإخبارهم عن وجود مثل هذه الحالات من تمثّل أهلٍ للخير وأهلٍ للشر وأن لا فراغَ في عالم الخير والشر من الناس العاملين بواحد منهما. وإنما هو دعوة مهذبة الىٰ أعمال الخير بل تحريض ذكيٌّ حصيفٌ علىٰ المبادرة الىٰ الخير والفضل، والابتعاد عن الشرِّ واللؤم والرذيلة، مع التحريك الجِدّي الفعّال باتجاه حافز المنافسة والمسابقة الىٰ القيام بالأول والانتهاء عن الثاني، علماً أن للمنافسة الشريفة علىٰ مواطن الخير دوراً اجتماعياً كبيراً في التقدم نحوها والاكثار منها وبذل الجهود في سبيلها، فمَن لم يبعثه الخَيرُ بما هو خَيرٌ فلتبعثه منافسةُ الأَقران، ومسابَقَةُ الإخوان.

فَلا ينبغي لفريق الأثرياء والأقوياء والمتمكنين في الأرض أن يظنوا أو يتوقعوا أن إسداء الخير والصنائع وقفٌ عليهم فإن أنجزوه فهو وإن لم ينجزوه لم

يُنجز شيء وتجمَّد كلُّ شيء، فإن من الضروري لهم أن يعلموا علماً يقيناً: إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً يَخْتَصُّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ فَيُقِرُّهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَىٰ غَيْرِهِمْ[1].

لا يغرُّنا طِيبُ الطعامِ معَ خُبث المُطعِم

١٢٠ ـ قال إمام الأئمة (عليه السلام): مَنْ أَطعمَ طَعاماً رياءً وسمعةً أَطعمه اللهُ من صَديدِ جهنَّمَ وجعلَ ذٰلك الطعامَ نَاراً في بطنِهِ حتىٰ يقضي اللهُ بينَ الناسِ يومَ القِيَامة[2].

أَيُّـها المُطْعِمُ رئاءَ الناسِ أَكرمْ وأطعمْ وأكثرْ من الزادِ مَا ٱستطعت فليس يَغُرُّنا طِيبُ الطعامِ معَ خُبثِ المُطعِم.

أَيُّـها المُطْعِمُ رئاءَ الناسِ أَخذتَ القليلَ من مدحِ المادحين وتركتَ الجزيلَ من مدحِ رَبِّ العالمين.

أَيُّـها المُطْعِمُ رئاءَ الناسِ تعرَّفتَ للخلق الضعيف وتنكَّرتَ للخالق العظيـم العظيم.

---

١ – من حكم الإمام علي في شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ٤٧٠، الحكمة / ٤٣.

٢ – المسند لأبي سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، الحديث / ٢٠١. وروىٰ الديلمي في كتابه «أعلام الدين» / ٤١٨ عن عبد الله بن عباس رحمة الله عليه عن رسول الله «ص»: من أطعم طعاماً رياءً وسمعةً أطعمه الله مثله من صديد جهنم وجعل ذلك الطعام ناراً في بطنه حتىٰ يقضي بين الناس.

أَيُّها المُطْعِمُ رئاءَ الناسِ ذهبَ الطعامُ وماتَ الناس.

أَيُّها المُطْعِمُ رئاءَ الناسِ أَطعمتَ الضيوفَ من صَديدِ نوايـاك وسوف يطعمُكَ اللهُ من صَديد جَهنَّم.

أَيُّها المُطْعِمُ رئاءَ الناسِ أَوقدت ناراً وطبخت طعاماً وسوف يجعلُ اللهُ ذٰلك الطعَام نَاراً في بَطنِك حتىٰ يقضي بينَ النَاسِ يومَ القِيَامة.

أَيُّها المُطْعِمُ رئاءَ الناسِ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ❊ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ»[1]. فهل رضيت بما نقول لك ونبشِّرك به أم تحبُّ المزيد فلدينا مَزيدٌ لا يَبيد؟

الرياء في المفاهيم الإسلامية

قد جاء في القرآن الكريم: «وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُ قَرِيناً فَسَآءَ قَرِيناً ❊ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً»[2].

عن جراح المدائني عن أَبي عبد الله جعفر الصادق (عليه السلام) في قوله تعالىٰ: « ولا يُشْرِك بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»[3]. قال: هو العبد يعمل شيئاً من الطاعات لا

---

١ – القيامة، الآية / ٣٤ ـ ٣٥.
٢ – النساء، الآية / ٣٨ ـ ٣٩.
٣ – الكهف، الآية / ١١٠.

يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية الناس يشتهي أن يسمع به فهٰذا الذي أشرك بعبادة ربِّه[١].

سُئِل رسول الله «ص» فيما النجاة غداً؟ قال: إنما النجاة ألا تخادعوا الله فيخدعكم فإنه من يخادع الله فيخدعه ويخلع منه الإيمان، ونفسه يخدع لو يشعر. فقيل له: وكيف يخادع الله؟ قال: يعمل بما أمره ويريد به غيره فاتقوا الله والرياء فإنه شرك بالله، إن المرائي يدعىٰ يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر حبط عملك وبطل أجرك ولا خَلاقَ لك اليوم[٢].

وقال «ص»: لا تعمل شيئاً من الخير رياءً ولا تدعه حياءً[٣].

وقد جاء في الخبر المرفوع: أخوف ما أخاف علىٰ أمتي الرياء والشهوة الخفية. قال المفسرون: والرياء من الشهوة الخفية لأنه شهوة الصيت والجاه بين الناس بأنه متين الدين مواظب على نوافل العبادات وهذه هي الشهوة الخفية أي ليست كشهوة الطعام والنكاح وغيرهما من الملاذ الحسية[٤].

وقال الإمام علي (عليه السلام): إذا تشبه صاحب الرياء بالمخلصين في الهيئة كان مثل الوارم الذي يوهم الناس أنه سمين فيظن الناس ذلك فيه وهو يستر ما يلقىٰ من الألم التابع للورم[٥].

قال الصادق (عليه السلام): لا ترائي بعملك من لا يحيي ويميت ولا يغني عنك شيئاً والرياء شجرة لا تثمر إلا الشرك الخفي وأصلها النفاق يقال للمرائي عند الميزان خذ ثواباً تعد ثواب عملك ممن أشركته معي. فانظر من تعبد وتدعو ومن

---

١ - الحسين بن سعيد الأهوازي، الزهد، الحديث / ١٧٧.

٢ - روضة الواعظين، ٢ / ٣٦١.

٣ - بحار الأنوار، ٧٤ / ١٦٣.

٤ - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٩ / ١٦٨.

٥ - المصدر نفسه، الحكمة / ١٦٨.

ترجو ومن تخاف واعلم أنك لا تقدر علىٰ إخفاء شيء من باطنك عليه تعالىٰ وتصير مخدوعاً بنفسك قال الله تعالىٰ: «يُخَادِعُونَ اللّٰهَ والَّذِينَ آمَنُوا ومٰا يَخْدَعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ ومٰا يَشْعُرُونَ». وأكثر ما يقع الرياء في البصر والكلام والأكل والشرب والمجيء والمجالسة واللباس والضحك والصلاة والحج والجهاد وقراءة القرآن وسائر العبادات الظاهرة فمن أخلص باطنه لله تعالىٰ وخشع له بقلبه ورأىٰ نفسه مقصراً بعد بذل كل مجهود وجد الشكر عليه حاصلاً ويكون من يرجو له الخلاص من الرياء والنفاق إذا استقام علىٰ ذلك في كل حال[1].

وقال بعض الحكماء: الكاذب في نهاية البعد من الفضل والمرائي أسوأ حالاً من الكاذب؛ لأنه يكذب فعلاً وذاك يكذب قولاً والفعل آكد من القول[2].

لقد أطلنا شيئاً ما في ذكر المفاهيم الاسلامية عن الرياء وطلب السمعة، ولا غرابة في ذلك فإن الغرض من تأليف الكتاب أن يمدَّ ذراعيه لنشر مفاهيم الكرم والبذل والإحسان ما بين الأنام، وبما أن الرياء يَبترُ أذرعَ الكَرمِ ويجذُّ أَيمانَ العطاء، إذاً تقع شدَّة التحذير من مغبَّته والتنبيه الواعي الىٰ مخاطره الجسيمة في محلِّها المناسب.

---

١ - الإمام الصادق، مصباح الشريعة / ٣٣.

٢ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ١٨ / ٣٩.

وقال بعض الشعراء عن الرياء وطلب الصيت:

وما لي لا أنوح علىٰ خطائي ... وقد بارزت جبار السماءِ

وكيف تخلصي إن قال ربي ... إلىٰ النيران سوقوا ذا المرائي

فهذا كان يعصيني جهاراً ... ويزعم أنه من أوليائي

ويصنع للعباد ولم يردني ... وكان يريد بالمعنىٰ سوائي

روضة الواعظين، ٢ / ٤١٦.

يحبُّ الله كلَّ سمْـحِ اليَدينِ حَريزَ الدين

١٢١ – قال الإمـام علي (سلام الله عليه): إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ يُحِبُّ كلَّ سمْـحِ اليَدينِ حَريـزِ الدين[١].

في الواقع أَننا لا ندري علىٰ وجه القطع واليقين ما هي الصـيغة الأَصـيلة الأُولىٰ التي تلفَّظ بها الإمام علي الكلمة الأخيرة من الحديث هـل هـي الدِّيـن بالشدَّة المكسورة أَم الدَّيْن بالشدَّة المفتوحة الملائمة فـي سـجعتها ومـوسيقاها لنهاية الفقرة الأولىٰ، وإن كانت كلمة الدِّين بالشدَّة المكسورة أَرجح وأَولىٰ فـي المعنىٰ. وعلىٰ كلِّ حال فسوف يكون الحديث وانسجـام معناه علىٰ كلا الفرضين إن شـاء الله تعالىٰ.

أَما بالنسبة للفرض الأول (الدِّين بالشدَّة المكسورة) فإن التلازم بين الدِّيـن وبين سماحة اليدين تلازماً شديداً ومحكماً فلئن كان الله تبارك وتـعالىٰ يـحب الدين باعتباره المنزِّل له والمشرع لأَحكامه، فإنه تعالىٰ يحب السماحة لأَنها ركن ركين من أَخَلاق الدين ومناهجه السليمة والراقية في الحيـاة، ولأَن من يسـمح ويجود فإنما يسمح ويجود علىٰ خلق الله والله سبحانه يحب خلقه. وقد اشتهر ما بين الرواة والمحدثين عن خاتم المرسلين «صلىٰ الله عليه وآله وسـلم» قـوله الإنسـاني الكريم «الخلقُ كلُّهم عيـالُ الله وأَحبُّهم إليه أَنفعُـهم لعياله». كما قال «ص» أَيضاً بما يؤكد تأكيداً واضحاً وجدِّياً العلاقة الوثقىٰ مـا بـين ديـن اللـه وسماحة اليدين: قال الله: هٰذا دين أَرتضيه لنـفسي، ولن يـصلحه إلّا السـخـاءُ وحسنُ الخلق، فأكرمـوه بهما ما صَحِبتموه[٢]. وجاء في الرواية عن الإمام علي

١– غُرر الحكم، الحكمة /٨٤٦٤.

٢ – ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول / ٣٧، وابن حمدون، التذكرة الحمدونية ٢ / ٢٥٩، وأبو نعيم الاصفهاني، حلية الأولياء ٢ / ١٦٠.

(عليه السلام): وفورُ الدِّينِ والعِرض بابتذالِ الأموال[١].

وأَما بالنسبة للفرض الثاني فإن حَريزَ الدَّيْنِ ـ بشكل عام ـ وهو الذي يهمه كثيراً أن يؤدي ما عليه ويفي للجهة المستقرض منها حبيبٌ الىٰ الله؛ باعتباره مراعياً لحقوق الناس وأَنه مستمسك بصفة الوفاء. والصفتان معاً من صفات الأنبياء والأولياء، ومما أكدت الشريعة الإلهية تأكيداً قوياً وبليغاً جداً علىٰ التمسّك بهما واعطائهما حقَّهما الأصيل غير المتعتع من المكانة العلياء والاهتمام الشديد علىٰ كلِّ موحِّدٍ للهِ سبحانه وتعالىٰ مؤمنٍ حق الايمان برسالاته السماوية التي أَنزلها سعادةً لعباده، وبقيمه الأخلاقية الرشيدة الحميدة.

هٰذا من جهة الارتباط بين محبة الله سبحانه لحَريز الدَّيْن الواقعة في سياق محبة الله لسمْحِ اليَدينِ. وأما من جهة الارتباط بين السماحة وبين الدَّيْن فمن حيث أن الجُوَداءَ الكُرَماء إنْ كان لهم ما يكرمون به من المال أكرموا، وإن لم يكن لهم فإنهم ـ في حالاتٍ ليست نادرة الوجود في مختلف الأحقاب التأريخية ـ يستدينون المال ويكرمون، لا سيما في القضايا الأساسية أَو المحرجة اجتماعياً أَو الباعثة علىٰ الخجل والحياء أو الضعف والانكسار. وبما أَنَّ (الدَّيْنُ رِقٌّ فلا تبذلْ رقَّك لمن لا يعرف حقَّك[٢]). علىٰ حدِّ مقولة الإمام علي بن أبي طالب، أو (كثرة الدَّيْن تضطر الصادق إلىٰ الكذب، والواعد إلىٰ الإخلاف)[٣] علىٰ حدِّ تعبيره (عليه السلام) كذلك. إذاً لا يفي بالديون ويعيدها الىٰ أَصحابها الشرعيين ـ خصوصاً الديون الثقيلة ـ إلا القليل من الناس كما نلاحظ الأمر تأريخياً واجتماعياً بل وحتىٰ في مجالات سياسية ودولية كثيرة، وإن حَريز الدَّيْن مِن

---

١ – غرر الحكم، الحكمة / ٨٥٣٧.

٢ – ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، الحكمة / ٥٠٣.

٣ ـ المصدر نفسه، الحكمة / ٧٤٤، كما قد قال علي (عليه السلام): الدَّيْنُ غِلُّ اللهِ في أَرضه إذا أراد أن يذل عبداً جعله في عنقه. شرح النهج الحديدي الحكمة / ٣٠٥.

بين الجمـاء الغفيـر من البشرية هو الرضيُّ والمَحبوبُ والأَثيرُ عند اللهِ كما أَحبَّ تبارك وتعالىٰ سمْـح اليَدينِ.

اصحبوا مَن يذكر إحسانكم وينسىٰ أَياديه

١٢٢ ـ يُروىٰ عن الإمام باب مدينة علم الرسول «ص) أنه قال: اصحبوا مَن يذكرُ إحسـانَكم إليه، وينسىٰ أيادِيَهُ عندَكُم[١].

للصاحب والصـديق تأثير كبير علىٰ من يصاحبان ويصادقان سـواء كـان ذلك عن قصـد أو غير قصـد، وسواء كان التأثير سلبياً أو ايجابياً، فكم وكم من إنسان قد سعد غاية السعادة ولولا صديق فاضل وصاحب كريم لم يسعد أَبـداً. وكم وكم من إنسان قد شقي غاية الشقاء ولولا صديق خائن وصـاحب لئـيم لم يشق أَبداً، وأمـثلة ذلك وافـرة جـداً فـي صـفحات التأريـخ وحـياة مـختلف المجتمعات. فعلىٰ هٰذا الأساس لا بدَّ من اختيارهم اختياراً جديـراً بـالاحترام والاجلال من حيث أَنه يُنبأ عن تفكير سليم ورويَّة محمودة، ولهذا أيضاً قد أولت النصوص الدينية كتاباً وسنةً اهتماماً كبيراً جداً بالصاحب والصـديق وضـرورة انتقائهما والابتعاد عمن لا يستحق المواصلة والعـلاقة منهما، كما أَولىٰ الحكماء والعلماء والأدباء ذات الموضوع كبير اهتمامٍ ورعايـةٍ ودقةٍ في التفكير والتنظيم.

ودليل ذلك من القرآن المجيد علىٰ سبيل المثال قوله تبارك وتعالىٰ: «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّـكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَداً * وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَداً * فَعَسَىٰ رَبِّيَ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن

---

١ – المصدر نفسه، الحكمة / ٦٠٣

جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقاً »[1]..

وللإمام علي بن أبي طالب أحاديث وحكم غزيرة عن الموضوع فمن ذلك قوله (عليه السلام): لا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقاً حَتَّىٰ يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلاثٍ: فِي نَكْبَتِهِ، وغَيْبَتِهِ، ووَفَاتِهِ[2].

وكان علي (عليه السلام) يقول كذلك: أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الإِخْوَانِ، وأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ[3].

وأوصىٰ بعضهم ابنه فقال: يا بني إذا نازعتك نفسك إلىٰ مصاحبة الرجال فاصحب من إذا صحبته زانك، وإذا خدمته صانك، وإذا عرضت لك مؤنة أعانك، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت شد صولك، وإن مددت يدك لأمر مدها، وإن بدت لك عورة سدها، وإن رأىٰ منك حسنة عدها، وإن سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك ملمة واساك، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تحتار عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق.

وقال بعض الحكماء كذلك: ينبغي للإنسان أن يوكل بنفسه كالِئَيْن أحدهما يكلؤه من أَمامه، والآخر يكلؤه من ورائه وهما: عقله الصحيح، وأخوه النصيح، فإن عقله وإن صح فلن يبصره من عيبه إلا بمقدار ما يرىٰ الرجل من وجهه في المرآة، ويخفىٰ عليه ما خلفه، وأما أخوه النصيح فيبصره ما خلفه وما

---

١ – الكهف الآية /٣٧ ـ ٤٠. ٢ – المصدر نفسه، ١٨ / ٣٣٠.

٣ – ومن الشعر المنسوب إلىٰ علي (عليه السلام) أيضا:

أخوك الذي إن أجرضتك ملمة من الدهر لم يبرح لها الدهر واجما
وليس أخوك بالذي إن تشعبت عليك أمور ظل يلحاك لائما

الشرح الحديدي لنهج البلاغة ١٨ / ١١٤

أمامه أيضا.

وقد أكثر الكتاب والأدباء والشعراء من القدماء فمن بعدهم في هٰذا الغرض النفيس، ولكنا أعرضنـا عنهم صفحاً روماً للايجاز.

وما قول الإمام أمير المؤمنين (عليه السـلام): اصحبوا من يذكر إحسانكم إليه، وينسىٰ أياديه عندكم. إلا مما يصب في هذه القناة الممتدة ويجري في هٰذا المجرىٰ النقي الصافي. وهو يشترط للصاحب هنا شـرطين رئـيسيين الشـرط الأول: من يذكر إحسانكم إليه. والشرط الثاني: أن ينسىٰ أياديه عـندكم. ومـا أسنىٰ وأسمىٰ وأكرم وأجمل هٰذا الصـاحب الذي دعـا لصـحبته الإمـام (عـليه السـلام)!! إذ أن الشرط الأول دليل علىٰ اتصافه بالوفاء لمن يصحب، والشرط الثاني دليل اتصافه بعلوّ الهمة ورفعة النفس. والصفتان معاً من أعظم ما ينعت بهما أفاضل البشرية وأكابرها وأشرافها، لا سيما أن الإمام (سـلام الله عليه) حثَّ علىٰ مصاحبة من يتوفر ـ في نفس الوقت ـ علىٰ الصفتين الحميدتين كليهما، وهٰذا قلما يتفق إلا أنه من أحسـن ما يُدرك.

دموع التماسيح

١٢٣ ـ قال أميـر المؤمنين علي (عليه السـلام): عشـرةٌ يَـفْتنون أنـفسَهم وغيرَهم، وعدَّ (سَـلامُ اللهِ عَلَيْه) من هذه الأصناف الكثـيرة: الرحـيـم بـالناس يبخل بما عنـده[1].

يا تُرىٰ لماذا يكون فتنةً لنفسه وفتنة لغيره أيضاً ذلك الصـنف مـن النـاس الرحيم بهم والذي هو في الوقت نفسه يبخل بما عنده عليهم كما يؤكد علىٰ هٰذا

---

١ - الصدوق، الخصال، باب العشرة الحديث / ٢٥.

المعنىٰ نصُّ الحديث العلوي المبارك ؟

الواقع أَنه من الصعب الاحاطة بفقه ومضمون هٰذا الحديث حين الاقتصار علىٰ هٰذا المقدار المبتور منه ، فلا بدَّ من مطالعته كاملاً والقاء النظرة الكلية علىٰ كلِّ أصناف المنعوتين بالفتنة لأنفسهم ولغيرهم وذلك من أَجل استلال أَبعاد الفتنة واستخراج علة وجودها في الرحيم بالناس الذي يبخل عليهم بما عنده .

لقد ورد الحديث العلوي كاملاً في كتاب « الخصال » للشيخ الجليل محمد بن علي الصدوق (رض) وفق الصورة التالية : حدثنا أَحمد بن محمد بن يحيىٰ العطار (رضي الله عنه) قال : حدثنا أبي وسعيد بن عبد الله قالا : حدثنا أَحمد بن أبي عبد الله البرقي ، عن الحسن بن علي بن أبي عثمان ، عن موسىٰ بن بكر : عن أبي الحسن الأول عن أبيه قال : قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : عشرة يفتنون أنفسهم وغيرهم :

* ذو العلم القليل يتكلف أَن يعلم الناس كثيرا .
* والرجل الحليم ذو العلم الكثير ليس بذي فطنة .
* والذي يطلب ما لا يدرك ولا ينبغي له .
* والكاد غير المتئد .
* والمتئد الذي ليس له مع تؤدته علم .
* وعالم غير مريد للصلاح .
* ومريد للصلاح وليس بعالم .
* والعالم يحب الدنيا .
* والرحيم بالناس يبخل بما عنده .

* وطالبُ العلم يجادل فيه من هو أَعلم، فإذا علمه لم يقبلْ منه[1].

أَليس من الفتنة المتجسِّدةِ بمكانٍ حينما يتكلف إنســان ما أَن يعلم النــاس كثيراً، وهو ذو حصيلة علمية محدودة وضيقة لا تمكنه من الانبســاط المــعرفي ومن التوسع والانتشــار الكبير!!

أَليس من الفتنة المتجسِّدة بمكانٍ حينما يكون الرجــل الحــليــم ذو العــلم الكثير ليس بذي فطنة، فإذا هو عرضة لاصدار الفتاوىٰ الضارة له وللناس، وإذا هو كذلك مصدر غني بالمعلومات والأفكار والوثائق البلهاء التي تستغلها شياطين الجن والانس!!

أَليس من الفتنة المتجسِّدة بمكانٍ حينما يكون العالــم غير مريد للصــلاح، أو مريــد للصــلاح ليس بعالم!! فإذا بالأول قد أخلَّ اخلالاً عظيماً بوظيفته الروحية والأخلاقية والاجتماعية، وإذا بالثاني قد أخلَّ اخلالاً عــظيماً بــمعرفة الوســيلة الطبيعية الرشيدة الىٰ وظيفته، وإذا كلٌّ منهما غير عارف لقدره، وقد (هلك من لم يعرف قدره) علىٰ حدِّ تعبير الإِمام علي بن أَبي طالب (سلام الله عليه). وهكذا قل بالنسبة الىٰ الأصناف الأخرىٰ. إذاً لا بدعَ أن يكون الرحيم بالناس الذي يبخل بما عنده فتنة لنفسه ولهم. فتنة لنفسه من حيث أن الرحمة تدفع الىٰ مساعدة الناس وإعانتهم والجود عليهم، وسجية البخل يمنعه من الإِحْسان والجــود والارفــاد، وبالتالي فهو في حالة صراعٍ داخليٍّ محتدمٍ لا يقرُّ له قــرار، وفــي وضــعٍ نــفسيٍّ مختنقٍ ومتأزِّمٍ، ما دام يتحسس بالرحمة والانسانية.

وأَما كون هٰذا الرحيم فتنة لغيره فمن حيث أَن استشعارهم لرحمته عــليهم اللائحة علىٰ صفيحة وجهه وألفاظه الحنينة يبعثهم الىٰ انتظار كرمه وترقب فضله وإحسانه، بما يتناسب تناسباً طردياً مع الرحمة والرأفة، بيد أَنهم سيعرفون معرفة

---

١ - المصدر نفسه، باب العشرة، ح / ٢٥.

دقيقة وعملية حاسمة ـ وذلك بعد ضياع الوقت وطول الانتظار والتأمل ـ: أَن التناسب كان تناسباً عكسياً. فوَيلٌ ثم وَيلٌ للمنتظرين والمتأملين.

ثم يا ترىٰ هل أن هٰذا الفتنة لنفسه ولغيره يتصف بالرحمة حقاً أَم زعماً وادعاءً، وكيف يتصف بالرحمة مع البخل إذ لا ريب أن البخل عادةً يعبر عن قسوة القلب وفظاظة التفكير والاحساس؟

الحقيقة ان البخلَ كذلك قَسوةٌ في القلب، وفَظاظةٌ في التفكير، ونشوزٌ في الإحساس، ونُبُوٌّ في المَشاعر، وجُمودٌ في العَواطف، وغِلظةٌ في الطِباع، وقلما ترىٰ بخيلاً يتسم بالرحمة والرأفة والشفقة. إلا أن هٰذا الفتنة المنحوس المشؤوم الذي وقع ذكره في كلام الإمام أمير المؤمنين هو من هٰذا القليل النادر الوجود.

إذا وُضع الإحْسان في الكريمِ أَثْمَر

١٢٤ ـ قال علي بن أَبي طالب (عليه السلام): إذا وُضع الإحْسان في الكريم أَثمر خيراً، وإذا وُضع في اللئيم أَثمر شرّاً، كالغيث يقع في الأصداف فيثمر الدُرَّ، ويقعُ في فَم الأفاعي فيثمر السمّ[1].

الإحْسان هو الإحْسان في جميع الأحوال ـ كعملٍ ايجابِيٍّ ومَوقِفٍ شريفٍ وبَنّاء ـ سواء يقع في يد هٰذا الشهم الحُرّ الكريم أو في يد ذلك العبد الرذل اللئيم، إنه لا نقص فيه، ولا شبهة عليه، ولا ينبغي أن يجادل فيه المجادلون ما أَنصفوا وتعقلوا أبعاد الخير والإحسان. كما لا عيب ولا نقص ولا جدال في حسن الغيث وجمال وقعه وسداد طريقته، أَنىٰ يهطل وينهمر، وأي جديب يسقي ويُروّي. وإذا كان الغيث يقع في الأصداف فيثمر الدرّ، ويقعُ في فم الأفاعي

---

١ – حنا الفاخوري، الجديد في الانشاء العربي، ٤ / ١٥٣.

فيثمر السمَّ.. فهكذا الإحْسان حينما ينتثر علىٰ رؤوس مختلف الناس كـرامـهم ولئامهم، فإنهم يقفون منه مواقف شتىٰ حُسنىٰ وسُوءىٰ، نظـير ما عمل أَصـناف الناس خيارهم وشرارهم إزاء ما قدم لهم رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» وآل البيت النبوي (عليهم السلام) من الفضل والإحْسان حذوَ القذَّة بالقذَّة.

والمحسن المنعم هو المحسن المنعم في جميـع الظروف والأحوال ـكعاملٍ ايجابي وصاحـب موقف شريف وبنّاء ـسواء أكرم الطرف المقابل مَثواه وأحسن جزاءه وشكر سعيه، أم كفر بأنْعُمه وأَساء جزاءَه وجحد فضلَه. كما لا عـيب ولا نقص ولا رَفثَ ولا جدالَ في إحسانِ وفضـلِ من يسقي الغيثَ السخيَّ المُفْضِـل، وينزِّل الغمـام السمْحَ الوَهـوب، ويـزهـرُ الأَفْنـانَ الذاويـة، ويـحيي الأَرض الجديـبة من بعد موت عتيد.

وأَخيراً ينبغي أن لا نغفل عن أن الحكمة العلوية لم تذهب إلىٰ أن الإحسان إذا وُضع في اللئيم لم يثمـر ولم ينتج شيئاً من الخير والجميل، بل ذهبت إلىٰ أنه يثمـر شرّاً، أي أن اللئيم لا يكتفي بعدم الشكر أو بجحود النعمة فقط وإنما يعمد الىٰ اصطناع لونٍ من ألوان الشرّ وما أكثر طرائقها وشعابها. إن الحكمة العلوية لم تنهَ عن التفضل علىٰ اللئيم والإحسان إليه، ولكن تشير من طرفٍ خفِيٍّ الىٰ التنبه والالتفات الىٰ مكائده ومخاطره.

أَيُّها الإنسـانُ البريء احذرِ الكلبَ العَقورَ وأنت ترمي له بالخبز واللحم.

لا يُفَرِّقُ الكَلبُ العَقُورُ بَينَ مَنْ يَرْميهِ وبَينَ مَنْ يَرْمِي لَه.

دفع حثيث لعمليات الكرم والفضل والإيْثار

١٢٥ ـ جـاء في كتاب «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد: وقال (عليه

السلام) لِغالِبِ بْنِ صَعْصَعَةَ أَبِي الْفَرَزْدَقِ فِي كَلامٍ دَارَ بَيْنَهُمَا: مَا فَعَلَتْ إِبِلُك الْكَثِيرَةُ؟

قَالَ: ذَعْذَعَتْهَا الْحُقُوقُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ (عليه السلام): ذٰلِك أَحْمَدُ سُبُلِهَا.

ذعذعتها: بالذال المعجمة مكررة فرقتها، ذعذعته فتذعذع، وذعذعة السر أذاعته، والذعاذع الفرق المتفرقة الواحدة ذعذعة، وربما قالوا: تفرقوا ذعاذع.

دخل غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال المجاشعي علىٰ أمير لمؤمنين (عليه السلام) أيام خلافته ،وغالب شيخ كبير، ومعه ابنه همام الفرزدق وهو غلام يومئذ فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): من الشيخ؟ قال: أنا غالب بن صعصعة.

قال: ذو الإبل الكثيرة؟

قال: نعم.

قال: ما فعلت إبلك؟

قال: ذعذعتها الحقوق، وأذهبتها الحملات والنوائب.

قال: ذاك أحمد سبلها. من هٰذا الغلام معك؟

قال: هٰذا ابني.

قال: ما اسمه؟

قال: همام، وقد رويته الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً.

فقال: لو أقرأته القرآن فهو خير له.

فكان الفرزدق بعد يروي هٰذا الحديث ويقول: ما زالت كلمته في نفسي.

حتىٰ قيد نفسه بقيد وآلى ألّا يفكه حتىٰ يحفظ القرآن فما فكه حتىٰ حفظـه[1].

الذي جرت له القصة مع أمير المؤمنين هو غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم وهو والد الفرزدق الشاعر. وكـان غالب سيداً جليل القدر كبير المنزلة شهماً كريماً من أكابر الأجواد في الجاهلية وتأريخ صدر الاسلام، ولقد صدق في كلامه مع الإمـام (عـليه الســلام)، وإن ادعىٰ أمراً جسيماً وهو ذهاب الإبل الموصوفة بالكثرة ما بين الناس بسبب أداء الحقوق وفخامة الانفاق علىٰ الآخرين حتىٰ نفدت أو كادت تنفد، وإن كانت في حالة انتاج مستمر في أجواء تساعد كثيراً علىٰ التوالد والانتاج. ولكـن اليـمين المعطاء تَغلِـبُ حالاتِ الانتاجِ ووفـرةَ التـناسل. وقـد اسـتحسن الإمـام أمـير المؤمنين صنيع غالب، واستصوب جوده وكرمه، واصفاً عمله بأنه أحمد السبل. وفي ذلك تشجيـع كبير جداً للجود، وترغيب شـديد بـالسخاء، ودفـع حـثيث لعمليـات الكـرم والفضل والإيثار علىٰ مرِّ التأريخ.

وغالب هو الذي قرىٰ مائة ضيف واحتمل عشر ديات لقوم لا يعرفهم؛ وكان من حديث ذلك: أن بني كلب بن وبرة افتخرت بينها في أنديتها فقالت: نحن لباب العرب وقلبها، ونحن الذين لا ننازع حسباً وكرما. فقال شيخ منهم: إن العرب غير مقرة لكم بذلك؛ إن لها أحسابا، وإن منها لبابا، وإن لها فعالا، ولكن ابعثوا مـائة منكم في أحسن هيئة وبزة ينفرون من مروا به في العرب، ويسألونه عشر ديـات، ولا ينتسبون له؛ فمن قراهم وبـذل لهم الديات؛ فهو الكريم الذي لا ينازع فضلا.

فخرجوا حتىٰ قدموا علىٰ أرض بني تميم وأسد فنفروا الأحياء حياً فـحياً وماءً فماءً لا يجدون أحداً علىٰ ما يريدون، حتىٰ مروا علىٰ أكثم بن صيفي فسألوه ذلك فقال: من هؤلاء القتلىٰ ومن أنتم وما قصتكم؟ فإن لكم لشأنا باختلافكم في

---

١ - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ٩٦، الحكمة / ٤٥٥.

كلامكم. فعدلوا عنه، ثم مروا بقتيبة[١] بن الحارث بن شهاب اليربوعي فسألوه عن ذلك فقال: من أنتم؟

قالوا: من كلب بن وبرة.

فقال: إني لأبغي كلباً بدم؛ فإن انسلخ الأشهر الحرم وأنتم بهذه الأرض وأدركتكم الخيل نكلت بكم وأثكلتكم أمهاتكم. فخرجوا من عنده مرعوبين، فمروا بعطارد بن حاجب بن زرارة فسألوه ذلك فقال: قولوا بياناً وخذوها فقالوا: أما هٰذا فقد سألكم قبل أن يعطيكم فتركوه، ومروا ببني مجاشع بن دارم؛ فأتوا علىٰ واد قد امتلأ إبلاً فيها غالب بن صعصعة يهنأ منها إبلا؛ فسألوه القِرىٰ والديات. فقال: هاكم البُزلَ قبلَ النزول؛ فابتزوها من البرك وحوزوا دياتكم، ثم انزلوا. فتنزلوا، وأخبروه بالحال وقالوا: أرشدك الله من سيد قوم لقد أرحتنا من طول النصب ولو علمنا لقصدنا إليك. فذلك قول الفرزدق:

فللهِ عينا من رأىٰ مثل غالبٍ
قَرَىٰ مائة ضيفاً ولم يتكلمِ

وإذ نسبت كلب علىٰ الناس إنهم
أحق بتاجِ الماجدِ المتكرِّمِ

فلم يجل عن أحسابها غير غالبٍ
جرىٰ بسعناني كل أبلج خِضْرِمِ[٢]

---

١ - لعل الصحيح عتيبة بن الحارث الفارس المعروف وهو من أكبر أبطال الجاهلية.

٢ - انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥ / ١٢٩ ـ ١٣٠.

عَاتِبْ أَخَاك بِالإِحْسان إِلَيْهِ

١٢٦ ـ قَالَ إمام الأئمة أَمير المؤمنين (عليه السلام): عَاتِبْ أَخَاك بِالإِحْسانِ إِلَيْهِ، وارْدُدْ شَرَّهُ بِالإِنْعَامِ عَلَيْهِ[1].

لا ينبغي أن يكون لومُ اللوَّم وعَذلُ العُذَّل والردُّ النفسي المنفعل هو الوسيلة الوحيدة للعتاب ما بين الناس، والإجابة الفعلية علىٰ زلة الأخ وشطحة الصديق وخطأ الصاحب وهفوة الحبيب، كما هو حال المسار العملي المشهور والمتعارف عليه ما بين الغالبية الساحقة من الناس، حتىٰ لَيكاد أن يُصبح التعامل المشار اليه هو القاعدة العامة والوحيدة في التصدي واتخاذ الإجراء العملي إزاء كل ما يصدر ويقع من هٰذا القبيل.

بل ثَم وسائل حكيمة وشفافة أخرىٰ متعددة يصحُّ بل يجدر أن تكون هي الحل المناسب أو الإجراء السليم في مثل هذه المواقف. وذلك علىٰ سبيل المثال التلويح دون التصريح بتجاوز الطرف المقابل وارتكابه ما لا يجوز أو ينبغي له في شريعة الأُخوَّة والتآلف وحسنِ المعاشرة، إن كانت الجهة الثانية فيّاضة المشاعر نبيلة العواطف، ومن ذلك علىٰ سبيل المثال أَيضاً غض النظر والتجاهل لما وقع، إن كانت الجهة الأخرىٰ ممن يفطن ويلتفت بذكاء للتجاهل والتغافل، ومن ذلك هٰذا الأُسلوبُ الرائع القدير الذىٰ دعا إليه أَمير الحكماء والعلماء (صلوات الله عليه) بحرص وقوة وتأكيد: عَاتِبْ أَخَاك بِالإِحْسان إِلَيْهِ، وارْدُدْ شَرَّهُ بِالإِنْعَامِ عَلَيْهِ.

هكذا ثم هكذا أَيُّها القراءُ الأَماجدُ نتفقه ونتعلم كيف يكون الإحْسان

---

١ – الشريف الرضي: نهج البلاغة / باب المختار من حكم أمير المؤمنين (عليه السلام) / ١٥٨.

والكرم والانعام في اطار المنهجِ العلويِّ الرائد أسلوباً خلاقاً من الأساليب القويمة في التربية، ودرساً بليغاً من الدروس القيمة في التوجيه الاجتماعي والسياسي والروحي الصحيح.

علىٰ أن الأُسلوب الذي ارتسمه أَمير الحكماء والعلماء (عليه السلام) لا يعني بالضرورة أنه المُتَعَين دون سواه ويعتبر أن كلَّ ما عداه أسلوباً غير صحيح، فإثبات الشيء لا يعني نفي ما عداه، كما هو المسلَّم ما بين الفقهاء. وإنما أراد الإمام (عليه السلام) أن يبين أن هنالك طريقة مُثلىٰ في العتاب ورَدِّ الشرِّ من الممكن جداً الاستفادة منها واعتمادها سبيلاً قويماً من سبل التعامل البناء، يضاف الىٰ ما صَحَّ وحَسن من آليات السبل الأُخرىٰ المعتمدة لدىٰ الناس. فإنه حتىٰ هٰذا الأسلوب من التعامل القاسي أو شبه القاسي المشار اليه في بداية الموضوع، يصح في بعض الأحايين العمل به والارتكاز عليه، بل قد لا يجد حصيف الرأي بدّاً من اتخاذه حصناً للوقاية. هٰذا فضلاً عن سداد الطرائق الأخرىٰ في التعامل إزاء تلك الأخطاء والهفوات والشطحات سواء من الطرائق التي ذكرناها أَو لم نذكرها. واللبيبُ الحَكيمُ إذا ما رُزِق أَخلاقاً ساميَةً يَعرفُ مَعرِفَةً دَقيقَةً أَيَّ طَريقَةٍ من الطرائقِ البَنّاءَةِ يَستثمرُها كُلما دعتِ الحاجَةُ إلىٰ ذلك.

أَطعِموا المَساكينَ فَيَرْبُوَ كسْبُكُم

١٢٧ ـ روىٰ ابن كثير الدمشقي في كتابه «البداية والنهاية»[1]، كما روىٰ الموفق أحمد بن محمد المكي الخوارزمي الحنفي في كتابه «المناقب» بإسناده عن الحافظ علي بن أحمد العاصمي الخوارزمي، عن الإمام شيخ القضاة اسماعيل بن أحمد الواعظ، عن والده أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، عن أبي عبد الله

١ـ البداية والنهاية، ٨ / ٤.

الخافظ، وأبي بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا العباس بن محمد، حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا المختار ـ وهو ابن نافع، عن أَبي مطر[1]، أنه قال: خرجت من المسجد فإذا رجل ينادي من خلفي: ارفع إزارك فإنه أبقىٰ لك وأتقىٰ لك... ثم يذكر أبو مطر بعد ذلك أن المُنادي إنما هو أَمير المؤمنين علي، وأنه مرَّ مجتازاً بأصحاب التمر فقال: يا أَصحابَ التَّمْرِ أَطعِموا المَساكينَ فَيَرْبُوَ كَسْبُكُم[2].

وقد ورد الخبر بتفاصيله في كتاب نزهة الأبصار ومحاسن الآثار لعلي الطبري المامطيري / ١٧٥ ـ ١٧٩. ومما جاء فيه يا أَصحابَ التَّمْرِ أَطعِموا المَساكينَ وابنَ السبيلِ فإن رِبْحَكُم يَرْبُو.

من المحتمل قوياً أن لا يكون لأَصحاب التمرِ امتياز عن غيرهم من أهل المكاسب والمهن المختلفة، أي أن جميع أهل المكاسب والمهن يربو عندهم الكسب وتتمو عملية الانتاج وتزداد خيراتهم وبركة أَرزاقهم بإطعام المساكين وأبناء السبيل، ولكن أمير المؤمنين خَصَّ أصحاب التمر؛ باعتبار أن الحديث كان مُوَجَّهاً إليهم بالخصوص لما مرَّ مجتازاً بهم لا أكثر من ذلك ولا أَقل.

وربو الكسب بإطعام المساكين وأَبناء السبيل إنما يحصل عاجلاً أو آجلاً في الإطار المعيشي للحياة الدنيا، أما أَجر الله وثوابه سبحانه جزاء الإطعام السمح الخالص من المنِّ والأذىٰ فهو في يوم القيامة، وهو لا يتنافىٰ أو يتعارض مع الحصول علىٰ المنفعة الدنيوية، بمعنىٰ أن الكَسَبَة إذا ما أَطعموا المساكين وأبناء السبيل طلباً لوجه الله تعالىٰ ربحت صفقة يمينهم، ونَجَحوا في عَمَلهم، «فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ»[3].

ولكن هل نعلم لماذا تحدَّث الإمام أَمير المؤمنين عن ربو الكسب بإطعام

---

١ – عمرو بن عبيد الله البصري الجهني.

٢ – المناقب / ١٢١.

٣ – آل عمران، الآية / ١٤٨.

المساكين وأبناء السبيل دون أن يذكر معهم الفقراء الذين قد يكونون أهون حالاً منهم؟ قد يكون الأمر راجعاً الىٰ أحد السببين الآتيين أو الىٰ كليهما معاً، السبب الأول إن من لا يرحم المسكين وابن السبيل ويشفق عليه مع فجيعة حاله وسوء وضعه المعاشي فإنه لا يرحم بالطبع من هو أدنىٰ فجيعة منه وأهون وضعيةً وحالاً. والسبب الثاني قد يكون من حيث أن المسكين وابن السبيل إذا ما أُطعم وأُشبع فإنه أدعىٰ الىٰ ربو الكسب وجلب الرزق من الفقير. لا نعني أن إطعام الفقير وإكرامه لا يكون سبباً من أسباب زيادة الأرزاق، وإنما نعني أن إطعام المسكين وابن السبيل وإكرام كل منهما أشد تأثيراً في جلبها وتصاعد بركتها وخيراتها.

قد يسأل بعضنا بعضاً عن قول الإمام: أَطعِموا المَساكينَ وأبناء السبيل فَيَرْبُوَ كَسْبُكُم. كيف يربُو الكسب ويزداد مع أن الرزق مقسوم بين العباد ومحدَّد لهم من السماء «وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ»[1]؟ والصحيح ان الرزق رزقان رزق تطلبه، ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك كما روي عن أمير المؤمنين. والرزق الذي تطلبه خاضع لعِدَّة عوامل كلها تؤثر في مقداره وكميته من قبيل عمل الإنسان ونشاطه وجده في الطلب، فلم تكن كثرة السعي مثل قلته، وليس الساعي كمن لم يسعَ، وإلا فلماذا يصرح القرآن الكريم بأهمية السعي ويدعو اليه في مثل قوله تبارك وتعالىٰ: «هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ»[2]. ولماذا يقول عَزَّ مِنْ قائِل في محكم الذكر الحكيم وهو يذكر الأهمية البالغة للاستغفار من الذنوب وشأنه في تحسين الأوضاع الاقتصادية: «فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً»[3].[4]

---

١ – الذاريات، الآية /٢.

٢– الملك الآية /١٦

٣– نوح الآية /١٠ ـ ١٢.

٤ – روي عن سيدنا رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أنه قال: أكثروا الاستغفار

وللإمام الشهيد الحسين بن علي مقالة سنية في التوفيق ما بين الفكرتين الصحيحتين المعروفتين في نطاق الفلسفة الاسلامية: فكرة الرزق المقسوم والمضمون لكل إنسان، وفكرة ضرورة السعي في طلب المال وابتغاء الرزق يقول (سلامُ اللهِ عليه): يا هذا لا تجاهد في الرزق جهاد المغالب، ولا تتكل علىٰ القدر اتكال مستسلم؛ فإن ابتغاء الرزق من السنة، والإجمال في الطلب من العفة، وليست العفة بمانعة رزقا، ولا الحرص بجالب فضلا، وإن الرزق مقسوم، والأجل محتوم، واستعمال الحرصِ طالب المأثم[1].

احذروا صولةَ الكريم اذا جاع

١٢٨ ـ يُروىٰ عن أمير المؤمنين علي أَنه قال: احذروا صولةَ الكريم اذا جاع، وصولةَ اللئيم اذا شبع[2].

لكل من الرَّجلين المتضادَّين في الأخلاق والتربية صولته المهيبة وتقحمه

فإنه يجلب الرزق

وروي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال من حسنت نيته زيد في رزقه

واعلم أن الدليل على جواز الزيادة في الأرزاق هو الدليل على جواز الزيادة في الأعمار لأن الله تعالىٰ إذا زاد في عمر عبده وجب أن يرزقه ما يغتذي به..

وقال الصادق عن أمير المؤمنين (عليه السلام): إن الله تعالىٰ يبتلي عباده عند ظهور الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات؛ ليتوب تائب، ويقلع مقلع، ويتذكر متذكر، ويزدجر مزدجر، وقد جعل الله تعالىٰ الاستغفار سبباً لدرور الرزق ورحمة الخلق فقال سبحانه: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً».. انظر أعلام الدين للديلمي / فصل مما روي في الأرزاق.

١ – نسبها للامام الحسين الديلمي في أعلام الدين / ٤٢٨.

٢ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ٢٨٥.

القاسي الشديد، ولكن خيرهما وأفضلهما وهو الكريم لا يصول جاهلاً ولا طائشاً ولا أشراً ولا بطراً ولا مفسداً، إنما يصول في حالة واحدة لها مبرراتها المنطقية المعقولة ومسوغاتها القانونية الرزينة، إنها صولة الذي خذله الاخوان والجيران والأصدقاء والأحباب حتىٰ أسلموه الىٰ أعماق حفيرة الحاجة المُتَوثِّبَة والفقرِ المتنمِّر، واعتدىٰ عليه حكم الزمان الأهوج فأغرقه جوعاً وهزالاً، فإذا بلسان حاله يقول بحرقةٍ وغضبٍ ما قاله ذياك الزاهد العابد الكريم أَبو ذَرٍّ الغِفاري: عجبتُ لمن لا يجدُ قوتاً في بيته كيف لا يخرجُ علىٰ الناس شاهراً سيفَه!

ولقد هتفَ هتافَ المُوجَعِ الأَسِفِ مَن هو أزهد من أبي ذر وأكرم: إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ «ص» تَفْوِيقاً، وَاللَّهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ لأَنْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ اللَّحَّامِ الْوِذَامَ التَّرِبَةَ[1].

والآخر من الرَّجلين المتضادَّين وهو اللئيم لا يصول إلا جاهلاً أو طائشاً أو أَشراً أو بطراً أو مفسداً، أو جامعاً لكل هذه الخصال والنعوت الذميمة الدميمة.

---

١ – قال الرضي رحمه الله: قوله (ع) (ليفوقونني) أي يعطونني من المال قليلاً كفواق الناقة وهو الحلبة الواحدة من لبنها. والوذام التربة جمع وذمة وهي الحزة من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتنفض.
اعلم أن أَصل هذا الخبر قد رواه أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في كتاب (الأغاني) بإسناد رفعه إلىٰ الحارث بن حبيش قال: بعثني سعيد بن العاص وهو يومئذ أَمير الكوفة من قبل عثمان بهدايا إلىٰ المدينة وبعث معي هدية إلىٰ علي فلما أتيت علياً قال: لشد ما يحظر علي بنو أمية تراث محمد «ص»، أما والله لئن وليتها لأنفضنها نفض القصاب التراب الوذمة.
قال أبو الفرج الاصفهاني: حدثني أحمد بن عبد العزيز الجوهري عن أبي زيد عمر بن شبة بإسناد ذكره في الكتاب أن سعيد بن العاص حيث كان أَمير الكوفة بعث مع ابن أبي عائشة مولاه إلىٰ علي بن أبي طالب بصلةٍ فقال علي: واللهِ لا يزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا مما أفاء الله علىٰ رسوله بمثل قوت الأَرملة، واللهِ لئن بقيت لأنفضنها نفض القصاب الوذام التربة.
باختصارٍ وتصرفٍ من ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٦ / ١٧٥ ـ ١٧٦.

فليست لصولته مبرِّرات أو مسوغات من العقل أو المنطق أو القانون. بل انه ذلك العبد الحقير الدنيء الذي أبطرته النعم الإلهية المتواترة عليه، وأسكرته خمرة الشبع والغنىٰ والقدرة الكبيرة علىٰ الانغماس في الملذات؛ فَرَكَّبَ من أَدوات الرَّغَد والنعيم والرفاهية أَسلحة فتاكة رهيبة ما طفق يشهرها بوجوه الكرامة الإنسانية وبنحور الصلاح والصالحين والأخلاق والأخلاقيين.

أما يا ترىٰ ما هو الموقف السليم الموزون من هاتين الصولتين المرهوبتين للرَّجلين المتضادَّين؟ الموقف الصحيح فيما يقرر الإمام أمير المؤمنين هو الحذر، وللعلم أن الحذر من الأول يختلف اختلافاً جوهرياً عنه من الثاني، حيث أن الحذر من الأول يتمثَّل في أن لا نمكِّن منه أضراس الأيام ومخالبها الحداد تنهشه وتفري لحمه وعصبه. والحذر من الثاني يتمثَّل في أن لا نمكِّنه ـ ما دمنا عارفين بلؤمه وشراسة أخلاقه ـ من فنون مناهل القدرة يرتع منها كيف يشاء، ولا من مرابِض الثراء والشبع والامتلاء يستغلها أنىٰ يشاء.

«خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ»[1].

مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ يُعْطَ بِالْيَدِ الطَّوِيلَة

١٢٩ – قال إمام الأئمة أَمير المؤمنين (عليه السلام): مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ، يُعْطَ بِالْيَدِ الطَّوِيلَةِ[2].

---

١ – الأَعراف، الآية / ١٩٩.

٢ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٥٩. وعلي الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٧٤٥٣.

قال الجامع لكتاب (نهج البلاغة) الشريف الرضي (رضوان الله عليه): معنىٰ ذلك أن ما ينفقه المرء من ماله في سبيل الخير والبر، وإن كان يسيراً فإن الله تعالىٰ يجعل الجزاء عليه عظيماً كثيراً، واليدان هاهنا عبارة عن النعمتين. ففرق (عليه السلام) بين نعمة العبد ونعمة الرب تعالىٰ ذكره بالقصيرة والطويلة؛ فجعل تلك قصيرة وهذه طويلة، لأن نعم الله أبداً تضعف علىٰ نعم المخلوق أضعافا كثيرة؛ إذ كانت نعم الله أصل النعم كلها فكل نعمة إليها ترجع ومنها تنزع[1].

لا ريب أن عطايا الناس بعضهم لبعض تختلف من إنسان لآخر، ومن حالة الىٰ حالة أخرىٰ، فنرىٰ قسماً كثيراً للغاية من العطايا قليلة ضئيلة، ونرىٰ قسماً منها كثيرة جزيلة، كما هو المعهود بين الناس. بيد أن عطايا الناس مهما كانت ـ في مقاييس الانسانية ما بينها ـ كبيرة أو كثيرة فإنها ضحلة قليلة بالقياس الىٰ ما يمنح ويهب الرَّحْمٰن الرحيم أكرم الأكرمين عَزَّ وجَلَّ. وأين ثم أين تقع عطايا الإنسان ذي الامكانيات المحدودة وذي اليد القصيرة من عطايا الخلاق الكريم ذي اليد الطويلة، بل التي لا تُطال، والذي لَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ، مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ وَالْعِقْيَانِ، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ، مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ، وَلا أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الأَنْعَامِ، مَا لا تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الأَنَامِ، لأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لا يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ، وَلا يُبَخِّلُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ، علىٰ حَدِّ مقالة أمير الحكمة والبيان علي بن أبي طالب من خطبته المعروفة بخطبة الأشباح[2].

---

١ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٥٩.

٢ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٦ / ٣٩٨ / ٩٠ – ومن خطبة له (عليه السلام) تعرف بخطبة الأشباح وهي من جلائل خطبه.

وللإمام علي بن أبي طالب كلمات كثيرة تعبِّر بشتىٰ الصور والأشكال عن مضمون الحكمة الحالية وذلك مثل قوله (عليه السلام): بسطُ اليدِ بالعطاء، يجزلُ الأَجـر ويضاعف الجزاء[1]. أو مثل قوله: جودوا في الله وجاهدوا أنفسكم علىٰ طاعته يعظمْ لكم الجزاء ويحسنْ لكم الحِباء[2].

إذاً قد أصبح لدينا واضحاً أَن مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ، يُعْطَ بِالْيَدِ الطَّوِيلَة، ولكن ينبغي أن يكون معلوماً للجميع أن قصر اليد إنما هو من حيث محدودية العـطاء الانساني وضآلته بالقياس الىٰ عطاء الله تبارك وتعالىٰ وفيوض رحمته ونواله، لا من حيث قصرها بإعطاء ما هو محظور في الشرائع الإلهية المقدسة أو ما لا يجوز الإعانة فيه من الموارد المختلفة، فلا يصحُّ أن تكون هنا يدٌ أساسـاً فضلاً عن أن تكون قصيرة أو غير قصيرة.

«وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ * أَلَـمْ يَـجِدْكَ يَـتِيماً فَـاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ»[3].

الْغِنَىٰ الأَكْبَرُ

١٣٠ ـ قال أَميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السـلام): الْغِنَىٰ الأَكْـبَرُ الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

---

١ – غرر الحكم، الحكمة / ٨٥٧٥. وعيون الحكم والمـواعـظ، الحكـمة / ٤٠١٨. وفـيه يجزيك الأجر بدل يجزل وهو تصحيف.

٢ – عيون الحكم والمواعظ، الحـكمة / ٤٣١٠، وغرر الحكم، الحكمة / ٨٥٧٨.

٣ – الضحىٰ، الآيـة / ٨.

ملاحظات

١ ـ ما أَكثرَ الذين حاولوا الانتفاع بما في أَيْدِي النَّاسِ والاستفادة من امكانياتهم الخاصة ولكنهم ارتدوا علىٰ الأعقاب يحدوهم الفشل وخيبة الأمل ويسوقهم اليأس القاتل، وهؤلاء لم يكونو المقصودين من كلام الإمام أمير المؤمنين في مقولته التي ذكرناها.

٢ ـ وهناك أَقوام أو بتعبير أدقّ أفراد قد رزقهم الله تبارك وتعالىٰ اليَأْس عَمَّا في أَيْدي النَّاسِ ابتداءً فلم يريقوا للوجه ماءً، ولم يريدوا للقامة انثناءً، وهؤلاء بالذات هم المقصودون من كلام الإمام أمير المؤمنين (سلام الله عليه).

٣ ـ لا يعني المفهوم العلوي لليَأْس عَمَّا في أَيْدي النَّاسِ أن لا يتقبل الإنسان هدية الإخوان والأحباب فإن القدوة المثلىٰ رسول الله وأهل بيته (صلوات الله عليهم جميعاً) كانوا يتقبلون الهدايا ويثيبون عليها، بل ولا يعني عدم الموافقة علىٰ مساعدتهم ومعونتهم في الأوضاع الشاقة التي قد تمر عليهم خصوصاً إذا كانوا من ذوي العيالات الكبيرة، بل يعني الترفع الشريف والتنزه العزيز عن الطمع بما في أيدي الآخرين.

تعليق ابن أَبي الحديد

قال ابن أبي الحديد المعتزلي في تعليقه علىٰ مقولة الإمام هذه: في الحديث المرفوع: ازهد في الناس يحبك الله وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس. وكان يقال نعوذ بالله من طمع يدني إلىٰ طبع.

وقال الشاعر:

أَرحت روحي من عذاب المِلاخ

لليأس روح مثل روح النجاخ

وقال بعض الأدباء: هذا المعنىٰ الذي قد أطنب فيه الناس ليس كما يزعمونه لعمري إن لليأس راحة ولكن لا كراحة النجاح وما هو إلا كقول من قال: لا أدري نصف العلم. فقيل له: ولكنه النصف الذي لا ينفع.

وقال ابن الفضـل:

لا أمـــدح اليـــأس ولكـــنه
أروح للـــقلب مـــن المـــطمعِ
أفـــلح مـــن أبـــصر روض المـنىٰ
يُـــرعىٰ فـــلم يـــرعَ ولم يـــرتعِ

ومما يروىٰ لعبد الله بن المبارك الزاهد:

قـــد أرحـــنا واســـترحـــنا
مـــن غـــدو ورواحِ
واتـــصال بـــأمير
ووزيـــر ذي ســـماحِ
بـــعفاف وكـــفاف
وقـــنوع وصـــلاحِ
وجـــعلنا اليـــأس مـــفتاحاً
لأبـــواب النـــجاحِ[1]

منشأ الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاس

في الأعم الأغلب من الحالات الاجتماعية والأخلاقية لا يتأتىٰ الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ ولا يتحصل إلا بشرطين أساسين هما: اشتشعار القناعة التامة

---

١ – انظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩ / ٢٤٦ ـ ٢٤٧، الحكمة / ٣٤٠.

والتزمّل بالثقة بالنفس والهمة العلياء. فحينئذ يجد الإنسان لذَّة الْغِنَىٰ الأَكْبَر ويتنعم في ربيع آفاقه المعنوية الممدوحة، ويعيش في سُبُحات أنوار العزَّة والكرامة واستقلال الشخصية. ومع الايجابيات المذكورة فقد ابتعد عن دائرة السداد والصواب من يقول:

لا أمـــــــدح اليـــأس ولكـــنه
أروح للـــــقلب مـــن المـــطمعِ

لأن الْيَأْس عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ مما يقع في رياض الرحمة والخير والفضيلة، فهو بالتالي يستحق المدح والثناء، ولا يعاب من اتخذه طريقة عامرة وسلوكاً عاماً من طرائق حياته وسلوك معيشته.

إذا سألتَ كريماً حاجة فدعه يفكِّر

١٣١ ـ يُروىٰ عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) القول: اذا سأَلت كَريماً حاجةً فدعه يفكِّر فإنه لا يُفَكر إلا في خير، واذا سألت لئيماً حاجة فغافصه[١] فإنَّهُ إذا فكَّر عاد الىٰ طبعه[٢].

ثَم نقاط للتماسّ الشديد جداً بين فكر الإنسان وتصوراته وآرائه من جهة وبين طبائعه وخلائقه وسماته النفسية من جهة ثانية. فطبائع الكريم مثلاً توقظ عينيه علىٰ الخير والإحْسان ومساندة الآخرين في حياتهم ونمط معايشهم جهد

---

١ – غافصه: خذه علىٰ حين غرَّة، ومنه قول الإمام علي (عليه السلام): غافص الفرصة عند امكانها فإنك غير مدركها عند فوتها.

٢ – ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ٣٠٦، وعلي الجندي وزميلاه، سجع الحمام، الحكمة / ١٣١.

الإمكان، وطبائع اللئيم تطبقُ جَفْنَيْهِ جهدَ الامكان علىٰ الانسحـاب والانقباض عن المساهمـة الجادَّة عن رؤية طرائـق البِّر وسبل الخير والفضـل والسماح. أَي أن السمات النفسية للكريم تُزيِّنُ له الإحسانَ وتُحَبِّـذُ الكَرَمَ والإنعام، وتبررُ لعقله وتفكيره الأَعمالَ الإنسانيةَ والقيمَ الأَخلاقية الفاضلة، فإذا به علىٰ صعيد الممارسة الإجـرائية ذلك الشهم النبيل الغيور علىٰ بني جنسه. وأما السمات النفسية بالنسبة الىٰ اللئيم فإنها علىٰ العكس من ذلك فلا تَفتأ تُزَيِّنُ له الإدخار، وتـحبِّذ البـخل والحرمان، وتبرر لعقله وتـفكيره الأَعـمالَ غـير إنسـانيةَ والقـيمَ البـعيدة عـن الأَخـلاق، فإذا به علىٰ صعيد الممارسة الإجـرائـية ذلك العـبد العُـتُلِّ الزَّنـيم، الغيـور كلَّ الغيرة علىٰ مالِهِ وملكيتِهِ أن تمَسَّها يدُ مستضعف واهن، أو تدنو منها يمين ضيف طارق، أو محتاج قاصد، أو فقير وابن سبيل[1].

ليكن من أَوضح الواضحات أن ليس من منهاج علي بن أبي طالب أن يوصي أحداً بسؤال العبد اللئيم أو بتوجيه الحاجة إليه، أَنىٰ يكون هذا وهو (سـلام الله عليه) القائل: مَن لم تعرف الكرم من طبعه فلا ترجه[2]. كما أَنه (سلام الله عليه) القائل: مَن هانت عليه نفسه فلا ترج خيره[د]. ولكن إذا حـملت الإنسـان مـذلتُهُ وهَوانُهُ علىٰ قصد اللئيم وسؤاله أو إذا مـا اضـطرَّ الىٰ ذلك اضـطراراً، فـعليه أن

---

١ – ولقد قلنا في معنىٰ كلام الإمام أمير المؤمنين (عليه السـلام) شعراً:

واذا رَفَـعْتَ الىٰ كـريمٍ حـاجةً
دعه يفكِّر واستضىء بشـعاعِهِ
واذا رَفَـعْتَ الىٰ لئـيمٍ حـاجةً
عَـجِّلهُ قـبل وثـوبِهِ لطـباعِهِ
فالموت أدنىٰ خـطةً مـن رفـدِهِ
واللحدُ أوسع مجلساً من قاعِهِ

٢ – غرر الحكم، الحكمـة / ٨٦٢٠. د – غـرر الحكم، الحكمة / ٥٦٥٧.

يغافصه في قضاء الحاجة ولا يدعه يفكر في إنفاذها أو عدم إنفاذها، فإن اللئيمَ إذا فَكَّرَ وَقَدَّرَ، عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ[١]، فعاد الىٰ حالته الطبيعية الأولىٰ وإن رأيناه قد تقدَّم بضع خطواتٍ نحو الأَمام، فَمَا أَقرَبَ أَمامَ اللئيمِ مِن وَرائِه وقدّامَهُ مِن خلفِه، وكُلَّما تَقَدَّم اللئيم الىٰ الأَمام عاد أدْراجَهُ عَودةَ الضَّبُعانِ الىٰ وِجارِه، والأَفعوانِ الىٰ أَحجارِه، وهل طبعُ اللئيمِ إلا النحوسة واليبوسة، والتصخُّر والتحجُّر؟

« وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ »[٢].

الفقر من الأموال، من أشدِّ الأهوال

١٣٢ ـ قال الإمام علي بن أبي طالب: من لم يكن له سخاءٌ ولا حَياءٌ [حِباء] فالموت خيرٌ له من الحياة[٣].

ثم روايتان للكلمة التي تلي كلمة سخاء فهي إما حباء بالباء المفردة، وإما بالياء، ونظراً لاختلاف المعنىٰ ما بين الكلمتين فقد علقنا علىٰ الحديث العلوي طبقاً لكلا الروايتين، بالصورة التالية:

الرواية الأُولىٰ: مَن لم يكن له سخاءٌ وحِباء فالموت خيرٌ له من الحياة.

---

١ – انظر سورة المدثر، الآية / ١٥ ـ ٢٣.

٢ – البقرة، الآية / ٢١٩.

٣– غرر الحكم، الحكمة / ٥٤٦٧ وعيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٧٤٦٥.

قد يكون وجه العلة في كون الموت خيراً لهذا من الحياة من زاوية أنه يبخل بما يمتلك ولا يسارع الىٰ أعمال الخير والبِر والإحسـان، وأنَّه علىٰ قصد وعمد لم يصنع ما فيه شرفه ومجده وفضله، ومَن لم يكن كذلك فالموت خيـرٌ له من الحياة في حكـم العقل والمنطق، فـإن البـخيل اللـئيم مـيت الوجـدان والأحـاسيس والمشاعر الانسانية. ويا حبذا لو يعجل الله سبحانه وتعالىٰ بموت قواه البدنية، وأن تتجمد وتتصلب دماؤه، كما ماتت وتصلبت قبل ذلك مشاعره وأحـاسيسه وعواطفه إزاء الآخرين.

الروايـة الثانية: كما قد يكون وجه العلة في كون الموت خيراً لهذا من الحياة من زاوية أنه قد بلغ به الفقر مبلغاً شديداً بحيث لا يستطيع أن يهب شيئاً أو يسخو بشيء وليس له ما يسمىٰ بالعِباء أو العطاء. عن مثل هذه الحالة يقول الإمام علي بن أبي طالب: (الفقر مع الدَّيْن الموت الأحمر)[1]. (القبر خير من الفقر)[2].

لا ريب أنه (شر الفقر فقر النفس)[3]، كما لا ريب أنـه (لا فـقر أشـد مـن الجهل)[4]. علىٰ حدٍّ ما يقول باب مدينةِ علمِ الرسـولِ «صـلىٰ اللـه عـليه وآله وسلم». ولكنه بحسب ما أعتقد أو أتصور أَنَّ الفَـقْرَ مِـنَ الأَمْـوال، مِـنْ أَشَـدِّ الأَهْوال. وهٰذا النمط من الفقر وإن كان في الضر والشر دون ضر وشر فقر النفس أو الفقر من العلم أو الفقر من الدين ولكن فيه من البلايا والشدائد والأخطار علىٰ الدين والدنيا ذلك الأمر الجسيم. ونستجير بالعلي العظيم من كل ألوان الحـاجة والفقر إلا الحاجة والفقر اليه عَزَّ وَجَلّ.

١- غُرر الحكم، الحكمة / ٨٢١٠.
٢ - المصـدر نفسه، الحكمة / ٨٢١٧.
٣ - المصدر نفسه، الحكمة / ٤٦٤٩.
٤ - المصدر نفسه، الحكمة / ١١١٠.

لا يختلف بِشْرُ اللئيمِ عن تقطيبه إلا بمقدارِ مكرِهِ وخداعِه

١٣٣ ـ يُروىٰ عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: بِشْرُكَ أَوَّلُ بِرِّك، وَوَعْدُكَ أَوَّلُ عطائِك[١].

ينبغي أن يكون هٰذا الحكم العلوي المبارك خطاباً موجهاً بالذات الىٰ جنس الكريم دون جنس اللئيم، أَي أنه خاص وليس خطاباً عاماً، أو أنه خطاب لخواص الخواص فحسب، وذلك لما يعرف أساساً وطبقاً للممارسة والتجربة من صفات كرام الكرام وسجاياهم الطيبة الحميدة؛ فبِشْرهم أَوَّلُ بِرِهم، وَوَعْدُهم أَوَّلُ عطائهم. ولو أَردنا تطبيق هٰذا الأمر ـ بقسميه ـ علىٰ اللئيم وأمثال اللئيم، فنكون حينئذ قد جافينا وجهة الواقع، وحكمنا بخلاف ما تنطق به أَلسنة التجارب الاجتماعية في تأريخها الطويل الطويل، وفي دروسها الوافرة الوافرة، والمتوغلة في القدم. ومتىٰ كان بشر اللئيم ـ وهو هو بُعداً عن البرّ والسماح ـ في أي مرحلة من مراحل تصرفاته وتعامله الاجتماعي والإنساني دالاً علىٰ برِّه، حتىٰ يكون دالاً علىٰ أول بِرِّه، ومتىٰ كان وعد اللئيم ـ وهو هو فراراً عن الوفاء والعمل بالمواعيد ـ في أي مرحلة من مراحل تصراته وتعامله الاجتماعي والانساني دالاً علىٰ عطائه، حتىٰ يكون دالاً علىٰ أول عطائه!

إنَّ في منطق التجارب والممارسات، ما يغني عن أَقاويل التنظيراتِ والدراسات. وإنَّه لا يختلف بِشرُ اللئيمِ عن تقطيبِهِ إلا بمقدار ما يحاوِلُ مِن المكرِ والخديعة. وإذا صَحَّ أن بشرَ الكريم أول برِّه، فإنَّ بشرَ اللئيمِ أَولُ مكره. وإذا صَحَّ أن وَعْدَ الكريمِ أَوَّلُ

---

١ ـ عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٤٠١٠.

عطائِه[١]، فإنَّ وَعْدَ اللئيم أَولُ انكفائِه.

خيرُ البِرِّ ما وَصَلَ إلىٰ الأَحْـرار

١٣٤ ـ قال علي (عليه السـلام): خيرُ البِرِّ ما وَصَلَ إلىٰ الأَحْـرار[٢].

لقد كان الإمام أمير المؤمنين كثير التأكيد علىٰ الإحْسان للأَحرار وإكرامهم وتقديمهم علىٰ غيرهم في موارد النوال والجود كما نرىٰ في مثل قوله (عليه السلام): أفضل الكنوز معروفٌ يُودع الأحرار، وعلمٌ يتدارسه الأخيار[٣]. وفي مثل قوله: حسن الاختيار، واصطناع الأحرار، وفضل الاستظهار، من دلائل الإقبال[٤]. وفي حكم العقل الراجح والمنطق السليم ليس من شبهة أو ريب في أن خيرَ البِرِّ ما وَصَلَ إلىٰ الأَحْرار، إلا أن السؤال الذي يبحث بإلحاح عن الجواب من هم هؤلاء الأَحرار الذين إذا وصل البر اليهم فقد وصل الىٰ غاية ما يُرجىٰ منه ويُبتغىٰ من إدراره المنفعة والكرامة علىٰ أفضل أَهليه وأولاهم بالاستفادة منه؟

---

١ – الحسن بن سهل وزير المأمون العباسي: المطل يذهب رونق البرّ ويكدر صفو المعروف ويحبط أجر الصدقة ويعقل اللسان عن الشكر، وللتعجيل حلاوةٌ وإن قلَّت العارفة ولذةٌ وإن صغرت الصنيعة، وربما عرض ما يمنع الإنجاز من تعذر الإمكان وتغير الزمان؛ فبادر المكنة وعاجل القدرة وانتهز الفرصة.

وما أحسن ما يقول الأعور الشني:

لو علم الماطل أن المطالْ ... فَقْدٌ به يذهب طعم النوالْ

وأن أعلىٰ البرّ ما ناله ... طالبه نقداً عقيب السؤالْ

عجَّلَ للسائل معروفه ... مهنئاً من طول قيل وقالْ

٢– غرر الحكم، الحكمة / ٨٨٩٤، ومستدرك الوسائل ١٢ /٣٥٠ ٤ – باب تأكد استحباب فعل المعروف.

٣ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٨٤٣.

٤– غُرر الحكم، الحكمة /١١٠٤٠.

لا شك أن الإمام لا يقصد من الأحرار الأحرار بالمفهوم الرسمي ولا الفقهي للكلمة ويراد به من لم يكونوا من طبقة العبيد والمماليك، كما لا يقصد به الأحرار بالمفهوم العلماني والاستبدادي والمتحلل ويراد به من أَطلقوا لأنفسهم أو أُطلقت لهم حريَّة التصرف والاغتصاب والاباحية، حتىٰ وإن امتدّوا مساحات واسعة علىٰ حساب الآخرين. بل يقصد الإمام بكلمة الأحرار ما كان طبق مفهوم الفلسفة التربوية والأخلاقية، والذي نبه عليه الحديث الشريف المروي عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: أنا وعلي أبوا هذه الأمة، ولَحَقُّنا عليهم أعظم من حق أبوي ولادتهم؛ فإنا ننقذهم إن أطاعونا من النار إلىٰ دار القرار، ونلحقهم من العبودية بخيار الأحرار[1].

وهو المعنىٰ الذي صرح به الإمام أمير المؤمنين في حكمته الشهيرة: عجبتُ لمن يشتري العبيدَ بماله فيعتقهم، كيف لا يشتري الأَحرارَ بإحسانه فيسترقهم[2].

وهو الذي قد أشارت اليه امرأة العزيز لما مرَّ عليها الصديق يوسف (عليه السلام) في موكبه، وهي تعبد في غرفة لها، فنادته بصوت حزين: أيها الراكب طالما أحزنتني، ما أحسن التقوىٰ كيف حررت العبيد، وما أقبح الخطيئة كيف عبَّدت الأَحرار[3].

١- بحار الأنوار ٢٣ / ٢٥٩ باب ١٥- تأويل الوالدين والولد و٦٦ / ٣٤٣ باب ٣٨ - جوامع المكارم وآفاتها، والمناقب ٣ / ١٥٠، فصل في أنه المعني بالانسان والرجل.
نقله رحمه الله عن مفردات أبي القاسم الراغب.

٢- غرر الحكم، الحكمة / ٨٧٨٦، وبحار الأنوار ٧١ / ٤٠٨ باب ٣٠ - فضل الإحسان والفضل والمعروف.

٣- قال الشيخ محمد بن الحسن الطوسي: أخبرنا جماعة، عن أبي المفضل، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الخالق، قال: حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع السكوني، قال: حدثنا

والذي قد أَشارت اليه أيضاً أسماء بنت أبي بكر لما دخل عليها ولدها عبد الله بن الزبير وقد تفرق عنه أصحابه وخرج كثير منهم إلىٰ الحجاج في الأمان فقال لها: خذلني الناس حتىٰ ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا من ليس عنده من الدفع أكثر من ساعة، والقوم يعطونني من الدنيا ما سألت فما رأيك؟

فقالت: أنت يا بني أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك علىٰ حق، وإليه تدعو فامض له؛ فقد قتل أكثر أصحابك فلا تمكن من رقبتك يتلاعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت؛ أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن كنت قاتلت علىٰ الحق فلما وهن أصحابك قلت: ضعفت فليس هٰذا فعل الأَحرار، ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن. فدنا عبد الله منها فقبل رأسها[1]..

الإِحْسانُ في التجربة التأريخية والاجتماعية

١٣٥ ـ قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): تضييع المعروف وضعه في غير عَروف[2].

إذا ما قال لك أحد الحكماء قولةً جادَّة: رأس الرذائل اصطناع الأراذل.

مخلد بن الحسين بالمصيصة، عن موسىٰ بن سعيد الراسبي، قال: لما قدم يعقوب علىٰ يوسف عليهما السلام خرج يوسف عليه السلام فاستقبله في موكبه، فمرَّ بامرأة العزيز وهي تعبد في غرفة لها، فلما رأته عرفته فنادته بصوت حزين: أيها الراكب،، طالما أحزنتني، ما أحسن التقوىٰ كيف حررت العبيد، وما أقبح الخطيئة كيف عبَّدت الأحرار. الأمالي للطوسي /المجلس السادس عشر.

١- ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٣ / ٢٤٩، وابن طيفور، بلاغات النساء / ١٨١. وهو من الأخبار المشهورة في التأريخ.

٢- غُرر الحكم، الحكمة /٨٨٥٦.

وقال لك في نفس الوقت: إن مقابلة الإساءة بالإحسان، وتغمد الجرائم بالغفران، لمن أحسن الفضائل وأفضل المحامد. فكيف توفق بين معنىٰ الحكمتين المختلفتين في الظاهر؟

وإذا ما قال لك أحد الحكماء قولةً جادَّة: إن إحسانك إلىٰ من كادك من الأضداد والحساد، لأغيظ عليهم من مواقع إساءتك منهم وهو داع إلىٰ صلاحهم. وقال لك في نفس الوقت: اصطناع الكفور من أعظم الجرم.

فكيف توفق بين معنىٰ الحكمتين المختلفتين في الظاهر؟

وإذا ما قال لك أحد الحكماء قولةً جادَّة: أحسن إلىٰ المسيء تملكه. وقال لك في نفس الوقت: تضييع المعروف وضعه في غير عروف[1]. فكيف توفق بين معنىٰ الحكمتين المختلفتين في الظاهر؟

الحقيقة ان الجواب علىٰ هذه الأسئلة المتقاربة في المضمون لا يتطلب عناءً، بل إنها لا تحتاج الىٰ أكثر من شيءٍ يسيرٍ من الدقة. وإنما أوردنا عدةً من الأمثال عليها لأن أمير الحكماء قد أكثر منها.

وللايضاح ورفع الاشكال نقول: إنه ينبغي أن يقسم المسيئون من الناس الىٰ قسمين رئيسيين وهما:

القسم الأول: من يسيئون ولا يجدي معهم الإحْسان والافضال والتكريم، وذلك لانحطاط أخلاقهم ودناءة نفسياتهم فمهما أحسن معهم الإنسان وعاملهم بلطفٍ تربويٍّ مائِزٍ فإنهم لا يثوبون الىٰ الخير والصلاح ولا يشكرون المنعم والمفضل. إنهم حقاً مطبوعون علىٰ الشرِّ والكفران، وليس الشرُّ والكفران عارضين علىٰ صفاتهم، ولا الخطأ والإساءة والدناءة حالةً طارئةً علىٰ

١- هذه الحكم المذكورة للامام علي (ع).

مســارهم الاجتماعي.

ولقد دلت التجارب التأريخية والاجتماعية الوافرة جداً علىٰ عدم جدوىٰ الإحْسان لهؤلاء والافضال عليهم ولعـل فـي أذهـان القـراء الكـرام مـن الأدلة والأمثلة علىٰ ذلك ما يستغني بها عن تجارب أو محفوظات غيرهم.

القسم الثـاني : من يسيئون ولكن يجدي معهم الإحْسان والافضال والتكريم، وذلك لارتفاع صعيد نفسياتهم وجمال أفق أخلاقيتهم بشكل عـام ـ وإن أَسَـاؤُا ذات مرة أو مرتين مثلاً ـ إنهم مطبوعون علىٰ الخير ولو نوعاً ما، وليس الخيـر والشكر عارضين علىٰ سماتهم وشخصياتهم.

فماذا يُنْتَظَرُ من الفيلسوف الأكبر للتربية الأصـيلة الرائـدة أن يـنصح فـي التعامل معهم؟ لا ريب أَنه يوصي بإكرامـهم والإحْسـان اليـهم «وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ»[1].

ولقد دلت التجارب التأريخية والاجـتماعية الوافـرة جـداً عـلىٰ جـدوىٰ الإحْسان والاكرام لهؤلاء والافضال عليهم. قدم رجل المدينة وكان يبغض علياً فقُطِع به فلم يكن له زاد ولا راحلة، فشكىٰ ذلك الىٰ بعض أهـل المـدينة فـقال: عليك بحسن بن علي.

فقال له الرجل: ما لقيت هٰذا إلا في حسن وأبي حسن.

فقيل له: إنك لا تجد خيراً منه.

فأَتاه فشكىٰ اليه، فأمر له بزاد وراحلة.

فقال الرجل: اللهُ أعلم حيث يجعل رسالته.

---

١ - فصلت، الآية / ٣٤.

وقيل للحسن (رض): أتاك رجل يبغضك ويبغض أباك فأمرت له بزاد وراحلة!

قال: أَفَلا أَشتري عِرضي منه بزاد وراحلة[1].

الاستماعُ لشكوىٰ الملهوف

١٣٦ ـ يروىٰ عن الإمام أَمير المؤمنين (عليه السلام): مِن السؤْدَد وكمالِ المعروف، الصبرُ لاستماعِ شكوىٰ الملهوف[2].

ـ قد يكون معنىٰ المعروف هنا ما يقابل المنكر، كما نقول علىٰ سبيل المثال: دعت الرسالة الإلهية المتمسكين بها الىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد يكون بمعنىٰ الجود والتفضل والإحسان، كما جاءت به الكثير من الأحاديث والأخبار والقصص، واشتهر في النصوص الأدبية نثراً وشعراً، لا سيما في العصور القديمة ـ الجاهلية، صدر الاسلام، العصر الأموي ـ والمعنىٰ الثاني هو الراجح في هٰذا الحديث العلوي، كما لعله بَيِّن واضح من السياق، خصوصاً مع اقترانه مع كلمة السؤْدَد، وأن الصبر لاستماعِ شكوىٰ الملهوف ليس معروفاً فحسب وإنما هو كمال المعروف. الأَمر الذي يشير الىٰ أن الإمام (عليه السلام) يريد أن يتكلم ـ بالتحديد ـ عن منزلة عُلْيا من منازل السمو الروحي والأخلاقي، وعما ينبغي أن يكون عليه الانسان الفاضل الكبير، الطامح الىٰ الاتصاف الجدي والفعلي بمكارم الأَخلاق، وبأحاسن الشمائل الانسانية العريقة.

ـ لقد أكدت الأحاديث الشريفة بشكل قاطع وأكيد علىٰ ضرورة إغاثة

---

١ – محمد باقر المحمودي: ترجمة الإمام الحسن من تاريخ مدينة دمشق / ١٥٠.

٢ – عيون الحكم والمواعظ، الحكمة /٨٦٠٨.

الملهوفين، وحلِّ عُقَد المكروبين، وانقاذ المستضعفين، وإعانة المحرومين، وأوضحت ببيانات شافية ما لمن يقومون بأداء هذه الواجبات الدينية والأخلاقية من الأجر العظيم، والثواب الجزيل، واستجلاب غيدق رحمة الله سبحانه ولطفه ورأفته. ولِما لهذه الأعمال المقدسة الجليلة من آثار إيجابية كبرىٰ في الدنيا والآخرة، لمن يتصدىٰ لها بنفس متواضعة تواقة الىٰ رضوان الله تعالىٰ وبقلب خاشع سليم. فمن جملة الأحاديث والروايات الواردة عن الرسول وأئمة أهل البيت النبوي «ص»:

١ ـ في كتاب «أعلام الدين»: قال النبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: مَنْ سَرَّهُ أن ينفس الله كربته، فلييسرْ علىٰ مؤمن معسر وليدعُ له؛ فإن الله تعالىٰ يحب إغاثة الملهوف[١].

٢ ـ وفي «أعلام الدين» عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أنه قال: أعظم الناس أجراً من سعىٰ في حاجة أهله، ومن ضيع أهله وقطع رحمه حرمه الله حسن الجزاء يوم يجزي المحسنين، وضيعه ومن ضيعه الله فهو يتردد مع الهالكين، حتىٰ يأتي بالمخرج ولن يأتي به. ومن أقرض ملهوفاً فأحسن طلبته، قيل له: استأنف العمل، فقد غفر لك. وأعطاه الله بكل درهم ألف قنطار، ومن فرج عن أخيه كربة، فرج الله عنه سبعين كربة من كرب الدنيا والآخرة[٢].

٣ ـ جاء في «مجموعة ورام» عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أنه قال: أَربعة ينظر الله اليهم يوم القيامة ويزكيهم: من فرج عن لهفان كربه، ومن أَعتق نسمة مؤمنة، ومن زوَّج عزباً، ومن أَحجَّ صرورة[٣].

٤ ـ وجاء في «غرر الحكم» عن الإمام أَمير المؤمنين (عليه السلام) إن

---

١ – الحسن بن أبي الحسن الديلمي، أعلام الدين / ٢٨٣.

٢ – المصدر نفسه / ٤٢١.

٣ – مجموعة ورام، ٢ / ١.

كنتم لا محالة متعصبين، فتعصبوا لنصرة الحق، وإغاثة الملهوف[١].

٥ ـ وفي «غرر الحكم» عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): زكاة السلطان إغاثة المَلهوف[٢][٣].

٦ ـ وورد في كتاب «ارشاد القلوب) عن أبي جعفر (عليه السلام): مَنْ مشىٰ في حاجة أخيه المؤمن أظله الله عز وجل بخمسة وسبعين ملك، ولم يرفع قدماً إلا وكتب له بها حسنة وحطَّ بها عنه سيئة ورفع له بها درجة، فإذا فرغ من حاجته كتب الله بها بكل ما قضاه له أجر حاجٍّ ومعتمر[٤].

٧ ـ وورد في «كتاب المحاسن»: البرقي عن محمد بن حسان عن محمد بن علي عن عبد الرَّحْمٰن بن أبي نجران عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: أُقعد رجل من الأَحبار في قبره فقيل له: إنا جالدوك مائة جلدة من عذاب الله. قال: لا أطيقها.. فلم يزالوا يقولون حتىٰ انتهىٰ إلىٰ واحدة، فقالوا: ليس منها بد. فقال: فبم تجلدوني؟ قالوا: نجلدك لأنك صليت صلاة يوماً بغير وضوء، ومررت علىٰ ضعيف فلم تنصره. فجلد جلدة من عذاب الله، فامتلىء قبره نارا[٥][٦].

---

١ – غرر الحكم / ٩٨١. ٢ – المصدر نفسه / ٧٨٠٣.

٣ – كما روي عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): بإغاثة الملهوف يكون لك من عذاب الله حصن غرر الحكم / ١٠٣٥٧. وروي أيضاً عنه (عليه السلام): ما حصل الأجر بمثل إغاثة الملهوف. عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٨٦٩٨، وغُرر الحكم، الحكمة / ١٠٣٦٣.. وغير ذلك. ٤ – إرشاد القلوب، ١ / ١٤٦.

٥– أحمد بن محمد بن خالد البرقي، المحاسن، ١ / ٧٩.

٦– وكذلك عن أبي عبد الله جعفر الصادق (عليه السلام): من سعىٰ في حاجة أخيه المسلم طلب وجه الله، كتب الله له ألف ألف حسنة، يغفر فيها لأقاربه وجيرانه وإخوانه ومعارفه. وقال (عليه السلام): من أعان أخاه المؤمن اللهفان عند جهده فنفس كربته، وأعانه علىٰ نجاح

٨ـ وفي «أعلام الدين» عن الإمام علي بن موسىٰ الرضا (عليه السلام) أنه قال: أجل الخلائق وأكرمها: اصطناع المعروف، وإعانة الملهوف، وتحقيق أمل الآمل، وتصديق مخيلة الراجي، والاستكثار من الأصدقاء في الحياة يكثر الباكين بعد الوفاة[١].

إنَّ مَنْ لا يرحم الضعفاء والمنكوبين، ويجير الملهوفين والمقهورين، ويلبي صرخة المساكين والمستغيثين، بعد سماعه أو قراءته لهذه الأحاديث وغيرها مما هي أكثر منها، فذلك الذي لا ينتفع بالنصائح والمواعظ، ولا يستجيب لنداء الخير والكرامة، ولا يُرجىٰ لإنقاذ غيره في الحياة الدنيا، ولا يستطيع أن يجير نفسه في الحياة الآخرة، إنه ذلك الصديق الحميم المطيع الذي ارتضته الشياطين غنيمة سنية وهدية ثمينة لأنفسها، واصطفته وَلياً وناصراً لها، واجتبته رمزاً من رموزها في الأرض، وجعلته من المقربين، فعليه ما يستحق.

«أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ»[٢].

مَنْ وَثِقَ بإحْسانِك، أَشفقَ علىٰ سُلْطانِك

١٣٧ ـ قال باب مدينة علم الرسول علي بن أبي طالب: مَنْ وَثِقَ بإحْسانِك، أَشفقَ علىٰ سُلْطانِك[٣].

حاجته، كتب الله بذلك اثنتين وسبعين رحمة يعجل له منها واحدة يصلح بها أمر معيشته، ويدخر له إحدىٰ وسبعين رحمة لأفزاع يوم القيامة وأهواله – إرشاد القلوب، ١ / ١٤٧.

١– أعلام الدين / ٣٠٨.

٢– الماعون الآية / ١ ـ ٧.

٣– عيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٧٤٣٧.

إنَّ أصحاب العقائد الراسخة المتينة هم الذين يحافظون بقوة واستماتة علىٰ الحكم والسلطان الذي يؤمنون بانطباقه علىٰ عقائدهم ويذودون عنه بشتىٰ الوسائل المتاحة، حتىٰ وإن كان ذلك أحياناً علىٰ حساباتهم الشخصية ومصالحهم الذاتية [١].

بيد أنه من الواضح والمُسلَّم به عندنا أن الذين نعتناهم بأصحاب العقائد الراسخة المتينة لا يشكلون إلا النسبة القليلة ما بين طبقات المجتمعات المختلفة، وأما الأكثرية الذين يُراد منهم الحيطة علىٰ الملك والسلطان، فهم يندفعون الىٰ ذلك بمقدار ما تصبُّ عوائدُ الحيطة والدفاع ومنافعهما في قنواتِهم الشخصية المحدودة وفي إطار أَهدافهم القريبة..

وفي كلام الإمام علي: (مَنْ وَثِقَ بإحْسانِك، أَشفقَ علىٰ سُلْطانِك) نَظْرَةٌ واقعيَّةٌ سديدةٌ الىٰ الحَياة السياسة والاجتماعية، فالثقة بالإحْسان الشخصي من قبل الحاكم الىٰ بعض المواطنين هو العامل السائد بشكل عام في سرعة الاستجابة الىٰ ما يروم ويبتغي من الحفاظ علىٰ النظام الحاكم وتحريك الاشفاق علىٰ السلطان.

قال الملك اليماني أَسعد الكامل بن حسان بن تُبَّع: ما من شيء إلا وله أَصل وأَساس، وأصلُ الملك وأساسُه الرجال، وأَساسها الإحْسان اليها، ومن أحسن الىٰ الرجال أطاعته وسمعت له، ومن سمعت له الرجال دانت له البلاد ومن فيها، وما كان لمالكها أن يستديم له الملك بها إلا بالعدل والإحسان؛ فإنَّهُ لا طاعةَ لمن

---

١ – قال الإمام علي: واللهِ لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هٰذا علىٰ أن يبغضني ما أبغضني، ولو سقت الدنيا بحذافيرها إلىٰ الكافر لما أحبني، وذلك أنه قضي ما قضي علىٰ لسان النبي الأمي: أنه لا يبغضني مؤمن، ولا يحبني كافر. وقد خاب من حمل ظلما. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢ / ١٩٦.

لا عدلَ له، ولا ملكَ لمن لا إحسانَ له[١].

فاقةُ الكَرِيـمِ أَحْسَـنُ مِنْ غِنىٰ اللئيم

١٣٨ ـ تروىٰ عن علي (عليه السـلام) الحكمة التالية: فاقةُ الكرِيـمِ أَحْسَـنُ مِنْ غِنىٰ اللئيم[٢].

هل أَن فاقة الكريم أحسـن من غنىٰ اللئيم بالنسـبة لكل واحد منهما، أو بالنسبة الىٰ المتعايشين معهما والطالبين لكرمهما وسيْبهما؟ أَو بـالنسبة الىٰ كـلا الجهتين؟

الذي نعتقده أن ذلك يخصُّهما معـاً، كما يخصُّ الآخرين، ويتمُّ توضيحُ الأَمرِ إن شاء الله بالصورة التالية:

الناحيَـةُ الأُولىٰ: من حيث أَنَّ الغنىٰ المالي مسؤولية شرعية وأخلاقية فمن أدّىٰ ما عليه وأعطىٰ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه فقد فاز في هٰذا المجال، ومـن احـتوش الأَموال واكتنزها لنفسه ومنع منها الضيف والقانع والمعترَّ... فقد أهلك نفسه وشان عِرضه وأضرَّ بدينه وبدنياه. فأما الكريم الفقير فإنه لا يُحاسب ولا يُـعاتب فـي الدنيا والآخرة علىٰ رقة حالته، ولا يعاقب علىٰ ضعف مقدرته في عدم كون داره

---

١ ـ حينما تخيب الآمال من فضل الرؤساء فـإنها تـنصرف عـنهم طـائفة أو تـبقىٰ مـعهم مكرهة. قال المسعودي: أظهر عبد الله بن الزبير الزهد في الدنيا وملازمة العبادة مع الحـرص على الخلافة وشبر بطنه فقال: إنما بطني شبر فما عسىٰ أن يسع ذلك الشبر؟ وظهر عنه شحّ عظيم علىٰ سائر الناس ففي ذلك يقول أبو حمزة مولىٰ آل الزبير:

إن المـوالي أمست وهـي عـاتبة ... علىٰ الخليفة تشكو الجوع والحربا
مـا ذا علينا ومـا ذا كـان يـرزؤنا ... أي الملوك علىٰ مـا حـولنا غـلبا

٢ـ عيون الحكم والمواعظ / ٦٠٥٤ وغرر الحكم / ٥٦٠٠.

مأوىٰ الضيفان وملجأ القانع والمعترّ.. بل يُشكرُ ويُحمدُ بين الناس بما أسدىٰ من جميل وإحسان وإن كان محدوداً، ويجازىٰ بالحسنىٰ عن ذلك ويبيضُّ وجهه يوم تبيضُّ فيه الوجوه. وأما الغني اللئيم فيقع عليه عتاب المعاتبين وحساب المحاسبين في الدنيا والآخرة، ويسودُّ وجهه يوم تسودُّ فيه الوجوه، ولقد كنت ولم أزل أعتقِدُ أَنَّهُ: مَنْ كَانَ عَبْداً لَئيما، فَسَوْفَ يُعَاقَبُ عِقَاباً أَلِيمَا.

الناحيَةُ الثانية : من حيث أَنَّ الكريمَ بالرغم من ضآلة ملكيته فإنه يكرم بحسب ما يستطيع[1]، ويهشُّ للقادم، ويرحب بالوافد، وقد يكون واسطَةً مُجْدِيَةً ومؤثِّرةً في استجلاب الخير والعطاء الجزيل لمن يتوسط له، إذاً نرىٰ في شخصية الكريم النفع للآخرين علىٰ كلِّ حال. وأَما الغني اللئيم فمن المعلوم البيِّن أَنَّه لم يكن طبقاً لهذه الصورة الطيِّبة، أوكما قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام). (كذلك يشرفُ الكريمُ بآدابه، ويفتضح اللئيمُ برذائله)[2].

مَنْ مَنَعَ الإحسان، سُلِبَ الإمكان

١٣٩ – قال إمام الأئمة أَمير المؤمنين (عليه السلام): مَنْ بَسَطَ يَدَهُ بالإنْعام، حَصَّنَ نِعْمَتَهُ من الانصِرام[3].

من حصافة العقل بمكانٍ رفيع أن يسعىٰ المرء الىٰ الازدواجية المشروعة في العوائد والمنافع من حيث أنه ينفع نفسه وينفع الآخرين في نفس الوقت، ولم يكن بَسْط اليَد بالإنْعام الذي أفصح عنه الإمام أمير المؤمنين والذي يُكْرَمُ

---

١ – قال الإمام علي (عليه السلام): الكريم من جاد بالموجود.

٢ – غرر الحكم، الحكمة / ٤٢. ٣ – المصدر نفسه، الحكمة / ٨٥٨١.

الآخرون بموجبه، بفائـدة لهم فحسب، بل إن له فائدة للباسط يده كـذلك، مـن حيث تحصين نِعْمَته وصيانتها من الذهاب والانصِرام، هٰذا إضافة الىٰ غير ذلك من الفوائد المعنوية والمادية الكثيرة علىٰ صعـيد الدنيا والآخرة والتي يلخِّصها جميعاً قول علي (عليه الســلام): إن بأهل المعروف من الحاجة إلىٰ اصطناعه، أكثر مما بأهل الرغبة إليهم منه[١].

وفي سياق كلمة الإمام علي (عليه الســلام) (مَنْ بَسَطَ يَدَهُ بالإنْعام..) قد عثرنا له علىٰ كلمات وافرة كلها تؤكِّد علىٰ هٰذا المعنىٰ، وتتَّسق مع مؤداه الفكري، فمن ذلك ما كان يقوله (عليه الســلام) في مناسبات مختلفة:

ــ كافِـلُ دوام الغنىٰ والإمكان، إتباع الإحْسان الإحسـان[٢].

ــ كلُّ نعمَة أُنِيل منها المعروف، فإنها مأمونَةُ السَّلب، مُحَصَّنَةٌ من الغِيَر[٣].

ــ من منع الإحســان، سُلِب الإمكـان[٤].

ــ من قطع معهود إحسانه، قطع الله موجود إمكانه[٥].

إنَّ الكفر الصارخ بالنعم ـ معاذ الله ـ هو الصادُّ والمـانعُ الحـقيقي لنـموِّها

---

١ – المصدر نفسه، الحكمة / ٨٨٤٧.
٢ – المصدر نفسه، الحكمة / ٨٨٣١.
٣ – المصدر نفسه، الحكمة / ٨٨٢٩.
٤ – عيون الحكـم والمواعظ، الحكمة / ٧٨٩٢.
٥ – المصدر نفسه، الحكمة / ٧٧٣٢.

دخلت زوجة مروان بن محمد وهي عجوز كبيرة علىٰ الخيزران في خـلافة المـهدي وعـندها زينب بنت سليمان بن علي فقالت لها زينب: الحمد لله الذي أزال نعمتك وصيَّرك عبرةً؛ أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك نساؤنا يسألنك أن تكلمي صاحبك في أمر إبراهيم بن محمد فلقيتهن ذلك اللقاء وأخرجتهن ذلك الإخراج؟ فضحكت، وقالت: أي بنت عمي وأي شيء أعجبك من حسن صنيع الله بي عقيب ذلك حتىٰ أردت أن تتأسي بي فيه؟ ثم ولت خارجة.

وزيادتها وسموقها وإرساء أُصولها وازدهار فروعها، وهو الذي يرمي بها بعيداً الىٰ حيث الدَرَك الأسفل من الحفائر العميقة التي أَعدَّتها معاولُ تقلُّبات الليالي والأيام لعمليات الاندثار والاندراس والغِيَر..

قِصَّةُ الجوادِ المُفَدّىٰ

١٤٠ ـ قال الإمام أميرُ المؤمنين (عليه السلام): الكريمُ يشكُرُ القَليل، واللئيمُ يَكْفُرُ الجَزيل[١].

طُبِعَت شخصيةُ الكريم علىٰ النبل والخير والفضيلة، فالكريم يمنح ويهب ويحسن، وينظر الىٰ من يسدي اليه نعمة من النعم ـ قليلة كانت أو جزيلة ـ نظرةً طيبةً ايجابيةً ينبغي أن يقابلها بالشكر والثناء والمكافأة بالمثل علىٰ الحدِّ الأدنىٰ. وبذلك يحقق الكريم لنفسه ما يرضيها ويبهجها، ويساند لها هدفاً من أهدافها المهذبة السامية في الحياة[٢]، بل ويحقق للمجتمع شيئاً جليلاً مما يسعده

١ـ غُرر الحكم، الحكمة / ٦١٠٧.

٢ – من أفضل الأمثلة التأريخية علىٰ شكر الكريم ومكافأته الوفية علىٰ حسن الصنائع ما ذكره أحمد بن يحيىٰ البلاذري وعلي بن الحسين الأصفهاني أن قريشاً أصابتها أزمة وقحط فقال رسول الله «ص» لعمية حمزة والعباس: ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المَحْل؟ فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم فقال: دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم. وكان شديد الحب لعقيل. فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً وأخذ محمد «ص» علياً وقال لهم: قد اخترت من اختاره الله لي عليكم علياً.

قالوا: فكان علي في حجر رسول الله «ص» منذ كان عمره ست سنين. وكان ما يسدي إليه «ص» من إحسانه وشفقته وبره وحسن تربيته كالمكافأة والمعاوضة لصنيع أبي طالب به حيث مات عبد المطلب وجعله في حجره. وهذا يطابق قول علي (عليه السلام): لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة سبع سنين.

ويقر عينيه.

وأما شخصية اللئيم فقد طُبِعَت علىٰ منع الخير والانقباض عن اللطف والنبل والإحسان، فاللئيم في أساسيات مكوناته الأخلاقية ينظر نظرة مجحفةً ظالمة للإحسان؛ فلا هو من الواهبين له والراغبين في تقديمه بين يدي الناس، ولا هو من الشاكرين له والحامدين لأصحابه. فإن كان الإحْسان قليلاً استصغر منحه؛ لأن وزن شخصيته أعظم من ذلك، وإن كان جزيلاً نهىٰ النفس عن التفضل به أو نهته عنه؛ لأن لسان حال اللئيم ناطق بأن الإحْسان مَضْيَعَةٌ للأموال مَهْلكَة للجهود. وإن أكرمه إنسان بإحسانه فلا شكراً ولا حمداً، لأنه أكبر منه إن كان قليلاً، وأعجز عن شكره إن كان جزيلاً، فهو يستره ويكفره لئلا يفتضح بعدم الشكر والثناء كما توحي اليه شياطين الأوهام والوساوس، ولئلا يجازي المحسن عن إحسانه، كما توحي به ملائكة الصدق والواقع.

ونشيح بوجوهنا وأبداننا وأرواحنا عن الإطالة في الحديث عن اللئيم لئلا يكدِّر الهواء الطلق بأنفاسه الكريهة وآرائه البغيضة والعقيمة، ولنعد الىٰ الكريم استنشاقاً من عبقات أنفاسه وأريج روحه الفواحة بعطر الخير والفضل والشمم، ولنأخذ مثالاً جميلاً للغاية من أمثلة أخلاقه وسلوكه البارع الخلاق متجسِّداً بالجواد المفدّىٰ الحبيب محمد بن عبد الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» حيث يشكر الإحْسان بأضعاف أضعافه ويودُّ لو يكون الأمر أكبر وأرحب من ذلك فقد أَسند الكلينيُّ عن عليٍّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن محبوب عن جميل بن صالح

أقول: وفي رواية أخرىٰ عن أُم هانىء بنت أبي طالب أن عمر علي (عليه السلام) آنذاك أربع سنين، وهي الأصح والأنسب لقوله (عليه السلام) الذي ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ١٣ / ١٩٧: وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ «ص» بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلِيدٌ يَضُمُّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ.

عن يزيد الكناسِيِّ عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إِنَّ رسولَ اللَّهِ «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» كان نزل علىٰ رجلٍ بِالطَّائِفِ قَبْلَ الإِسْلامِ فَأَكْرَمَهُ، فَلَمَّا أَنْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّداً «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» إِلىٰ النَّاسِ قِيلَ لِلرَّجُلِ: أَتَدْرِي مَنِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلىٰ النَّاسِ؟

قال: لا.

قالوا له: هو محمدُ بن عبد اللَّهِ يَتِيم أَبي طالِبٍ، وهو الَّذي كان نزل بك بِالطَّائفِ يومَ كذا وكذا فَأَكرمته.

قال: فقدمَ الرَّجلُ علىٰ رَسُولِ اللَّهِ «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» فسلمَ عليه وَأَسْلَمَ، ثُمَّ قال له: أَتَعْرِفُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: وَمَنْ أَنْتَ؟

قال: أَنَا رَبُّ المَنْزِلِ الَّذي نزلتَ به بِالطَّائفِ في الجاهليَّةِ يومَ كذا وكذا فَأَكْرَمْتُكَ.

فقال له رسولُ اللَّهِ «ص»: مَرْحَباً بِكَ سَلْ حَاجَتَكَ.

فقال: أَسْأَلُكَ مِائَتَيْ شَاةٍ بِرُعَاتِهَا. فَأَمر له رسولُ اللَّهِ «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» بما سَأَلَ. ثُمَّ قال لأَصحابِهِ: ما كانَ علىٰ هذا الرجلِ أَنْ يَسْأَلَني سُؤالَ عجوزِ بني إِسْرَائِيلَ لِمُوسىٰ (عليه السلام)!

فقالوا: وما سَأَلَتْ عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لموسىٰ؟

فقال: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ ذِكْرُهُ أَوْحَىٰ إِلىٰ موسىٰ أَنِ احْمِلْ عظامَ يُوسُفَ مِنْ مِصْرَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ منها إِلىٰ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ بِالشَّامِ. فَسَأَلَ موسىٰ عن قبرِ يُوسُفَ (ع). فجاءه شيخٌ فقال: إِنْ كان أَحَدٌ يَعْرِفُ قَبْرَهُ ففلانة؛ فَأرسلَ موسىٰ (عليه السلام) إليها فلمَّا جَاءَته قال: تَعْلَمِينَ مَوْضِعَ قَبْرِ يُوسُفَ (عليه السلام)؟

قالت: نَعَمْ.

قال: فَدُلِّيني عَلَيْهِ وَلَكِ مَا سَأَلْتِ.

قالت: لا أَدُلُّكَ عليهِ إلا بِحُكْمِي.

قال: فَلَكِ الْجَنَّةُ.

قالت: لا إلا بِحُكْمِي عليكَ.

فأَوْحىٰ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إلىٰ مُوسَىٰ لا يَكْبُرُ عَلَيْكَ أَنْ تَجْعَلَ لها حُكْمَها.

فقال لها موسىٰ: فَلَكِ حُكْمُكِ.

قالت: فإِنَّ حُكْمِي أَنْ أَكُونَ مَعَكَ فِي دَرَجَتِكَ الَّتِي تَكُونُ فِيها يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الجَنَّةِ.

فقال رسولُ اللَّهِ «صلىٰ الله عليه وآله وسلم»: ما كانَ علىٰ هذا لو سَأَلَنِي ما سَأَلَتْ عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيل[1].

العِبَـرُ المُسْتَقَـاة

تَتَمَثَّلُ العِبر المستقاة من قصة عجوز بني إسرائيل التي أَثارها الرسول الخاتم «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» في نقاط عدَّة من أَهَمِّها:

١ ـ أَن للبادىء بالفضل والإحسان حقّـاً كبيراً علىٰ المُستفيد مـن نـعمته، فينبغي أن يُجازيه بما هو أفضل وأجزل.

٢ ـ أن يُبادر المُنْعَمُ عليه الىٰ إكرامه ومقابلة الجميل بما هو أجمل وأحسن ما

---

١ - الكافي، ٨ / ١٥٥، ١٤٤ ـ حديث الذي أضاف رسول الله «صـلىٰ اللـه عـليه وآله وسلم» بالطائف، وقريب منه ما في بحار الأنوار ٢٢ / ٢٩٢، باب / ٦ - نـادر في قصة صديقه (عليه السـلام) قبل البعثة.

أمكن ذلك دون مماطلة وتسويف والتواء، مقتدياً بما في الخبر من قول الرَسُول للرجل الطائفي: مَرْحَباً بِكَ سَلْ حَاجَتَكَ. وأنفذ له «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» ما يريد عاجلاً.

٣ ـ أن يتوجَّه صاحب النعمة والإحسان بهمَّته ومقصده من أعماله الكريمة نحو ثواب الدار الآخرة بمقاماتها العُليا وسعادتها الأَبدية ونعيمها الزخار، فيطلب الجزاء والثواب من هنالك مَا كان طالباً، فقد ضربت له العَجُوز الاسْرَائِيلية مثلاً رائعاً في طلب الجزاء الكريم، وإن لم يفعل ذلك ولم يكن له تفكير أوسع وأبعد من استحصال الجزاء القريب العاجل والتقاط فتات موائد الحياة الدنيا فإن همَّته سوف تكون أَدنىٰ من همَّة عَجُوزٍ بالية، في سوالف الأيام الخالية، ومن قَعدت بهِ الهمَّةُ عن مَعالي الأمورِ فقد أَضرَّ بدنياه وآخرته.

أحبُّ الناسِ اليك من كثرت أَياديه عندك

١٤١ ـ يُروىٰ عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): أَحَبُّ الناسِ إِليك مَن كَثُرَت أَياديه عِندَك، فإن لم يَكُنْ فَمَن كَثُرت أَياديك عِندَه[1].

إِنَّ العَطاء رِشاءُ المَحَبَّة، وإن الحُبَّ لَيَتَوَهَّجُ مع كثرةِ العَطاءِ وتعدُّدِ النوال، سواء كنتَ المعطي أو الآخذ.

ولكن التفكيرَ الواقعيَّ عن حالات الإنسان بشكل عام يحمل علىٰ القول الجادِّ بتقديم حُبِّ مَنْ كثرت أَياديه عندك، علىٰ حبِّ مَنْ كثرت أياديك عنده.

---

١ – ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ٣٠٨، وسيد حيدر الحلي، العقد المفصل، ١ / ٤٣.

ولنتصفح أكداس الأوراق التأريخية من أجل استلهام شـيء مـن الأمـثلة التطبيقة الدالَّة علىٰ صحَّة ما نقوله من كون العطـاء رِشاء المَحَبَّة بطرفيه معاً، أي سواء بالنسبة الىٰ المستفيد أو المفيد، وسوف نكتفي بإضمامَةٍ جميلةٍ واحدةٍ مـن الأزاهيرِ الفوّاحة العبقة:

١ ــ في «صحيح مسلم»، و«رسائل ابن أبي الدنيا»، عن صفوان بن أمية أنه قال: أَتيت النبي «ص» وهو من أبغض الناس إليَّ، فأَعطـاني، ثم أَعطاني، ثم أَعطاني، فَلَهُو أَحَـبُّ الناسِ إليَّ.

٢ ــ قيل للفرزدق: إنك لَتمدح آل المُهَلَّب وتحبهم بعد أن لم تكن علىٰ ذلك؟ فقال: أَما علمت أن إعطاء اللُّهىٰ يفتح اللَّهىٰ[١] ويغـرس الهوىٰ[٢].

٣ ــ قام رجل من مجلس خالد بن عبد الله فقال خالد: إني لأُبغض هـذا الرجلَ وما له إليَّ ذنب. فقال رجل له: أَوْله خيراً تحبه. فأولاه معروفاً، فما لبث أن كان من المحظيين عنده[٣].

هٰـذا لو اقتصرنا في تفسير كلمة الأيادي علىٰ التفسير المادي لها، أمـا إذا أعطينا للتفسير صفةً تعميميةً بحيث تشمل ألـوان الفـواضـل والخـيرات والنـعم المعنوية منها والمادية، والدينية منها والدنيوية، فهنالك لا تصبح العطيات والمنح والهبات مهما بلغت من الثمن الباهظ إلا جانباً واحداً من جوانب معنىٰ الأَيادي، ولكنه علىٰ كل حال جانـبٌ مهمٌّ جداً لدىٰ جُـلِّ الناس، إن لم يكن لدىٰ كلِّـهم.

---

١ – اللُّهىٰ بمعنىٰ العطايا وهي جمع لُهْوَة، واللَّهىٰ بمعنىٰ اللحوم المشرفة علىٰ الحلق وهي جمع لَهاة.

٢ – الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب وبـالراغب الاصـفهاني مـحاضـرات الأدباء، ٢ / ٤٢٠.

٣– محاضـرات الأدباء، ٢ / ٤٢٠.

اغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ في حالِ غِناك

١٤٢ ـ جاء في رواية الشريف الرضي عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ في حالِ غِناكَ لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ في يَوْمِ عُسْرَتِكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُوداً الْمُخِفُّ فِيها أَحْسَنُ حالاً مِنَ الْمُثْقِلِ، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْها أَقْبَحُ أَمْراً مِنَ المُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَها بِكَ لا مَحالةَ إِمَّا علىٰ جَنَّةٍ أَوْ عَلىٰ نَارٍ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزولِك، وَوَطِّئِ المَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ المَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ ولا إِلىٰ الدُّنْيا مُنْصَرَفٌ[1].

١ ـ إذا كان تأسيس الكتاب وبناؤه علىٰ جود أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (سلام الله عليه) وإيثاره نظريّاً وعمليّاً، فما يحقُّ له الحديث عن القرض والمقرض، حتىٰ يثبت أَن القرض من آيات الجود ومعالم الكرم.. فهل هو كذلك؟ الصحيح أن القرض ـ لا سيما إن كان باهظاً وثقيلاً علىٰ مالك المال ـ لَمِن آيات الجود والسخاء بمكانٍ رفيع، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من قول الرسول الأمين «ص»: الصدقة بعشرة، والقرض بثماني عشرة، وصلة الإخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربع وعشرين[2]. ولا ريب أن الصدقة جودٌ وإحسانٌ خصوصاً إن كانت جزيلة جليلةً من غنيّ، أو مُبْهِظَةً مُكلِفةً من فقير، فما ظننا بما هو خير منها وأحسن أَملاً طبقاً للحديث الشريف.

٢ ـ أَما تعليل كون القرض أَعظم ثواباً من الصدقة، فمن جهة كون مال القرض يعود الىٰ صاحبه فيكمنه أن يقرضه مرَّة ثانية وثالثة.. كما رأينا تعليل ذلك

---

١ – ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٦ / ٨٦.

٢ – بحار الأنوار ٧١ / ١٠٤، ٧١ / ٣١١.

في بعض المؤلفات الفقهيّة. ويمكن أن نضيف اليه أن المعتاد في الصدقة أنها شيء يَتَبَرَّع به الإنسـان ويصرف عنه تفكيره، فلا قلقَ ولا حيرةَ ولا اصـطبار، وأمـا القرض فصاحبه في انتظار عودة المال اليه، وقد يطول انتظاره ويمتدُّ ويتعبه كثيراً رجوع المال، وقد لا يرجع اليه ولا يراه أبداً حتىٰ يوم التناد، كما جـرَّبنا وكـما جرَّب المجرِّبون طوال التأريخ، ولهذا قال الإمام علي بن أبي طالب الذي جرَّب ذلك أَشَـدَّ مما جرَّبنا وأَقسىٰ: مَن أَحَب أن يصرمَ أَخاه فليقرِضه ثم لِيَتَقاضه[1]. والىٰ مشكلة معاناة المُقرض، ومسألة انتظاره واصطباره علىٰ رجوع المال اليه، يشـير ذيل الحديث النبوي الشريف الذي رواه علي (عليه السـلام) قائلاً: قال رسول الله «ص»: مَن أقرض قرضـاً كان له مثله صدقة. ثم قال بعد ذلك: مَـن أقرض قرضاً كان له مثله كلَّ يومٍ صدقة. قلت: يا رسول الله، قلتَ لنا قبل هذا له مثله صدقة، وقلتَ لنا اليوم له مثله كلَّ يوم صدقة! قال: نعم من أقرض قرضـاً فهو كمن تصَـدَّق به، فإن أخَّره عن محلِّه، كان له مثله كلَّ يوم صدقة[2].

٣ ـ مما لا شكَّ فيه أن اقراض الناس مبلغاً من المال يزيد من شرف الإنسان المُقرِض ويرفع درجته في الدنيا والآخرة، ولكن أمير المؤمنين عـلياً فـي هـذا الكلام يتحدَّث عن اليوم الآخر من حيث كونه الأهمَّ والأجدرَ بالفات النظر وبدفع صاحب المال الىٰ ما ينفعه كثيراً يوم الدين، يوم العَرض الأكـبر، يوم الحسرة التي لا نظير لها ولا مثيل، حيث يرىٰ الإنسان بأمِّ عينيه أَمامه (عَقَبَةً كَئُوداً الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَـنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ أَمْراً مِنَ الْمُسْرِعِ..) فإذا ما تـمثَّل صاحب المال هذه الصور المفظعة الأليمة، وتجسَّدَت أهوالُها وقوارِعُـها تـلقاءَ وجهه، فسوف تُحَرِّكُه بفعاليةٍ ونشاطٍ الىٰ أن يسمح بالمال أو يجود بالقرض ولا

---

١ – شرح نهج البلاغة ٢٠ / ٣٢٤، الحكمة / ٧٠٩.

٢ – دعائم الاسلام «١٢٤٥».

يبخل بامكانياته علىٰ الآخرين لا سيما إن كانوا من أهل الدين واليقين أو من الأوفياء الصادقين، ذلك إن كان ممن يعقل عن الله سبحانه، أو يفكِّر في بعد الطريق ومشقَّة السفَر الطويل، ولقد أرشدنا رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» قائلاً: من أقرَضَ ملهُوفاً فأَحسن طلبته استأنف العمل وأعطاه الله بكل درهم ألف قنطار من الجنة. ومن فرَّج عن أخيه كربةً من كرب الدنيا، نظر الله إليه برحمته فنال بها الجنة وفرَّج الله عنه كربةً في الدنيا والآخرة[1].

٤ ـ كثير من الأثرياء المُتَموِّلين يفرّون من القرض والمقترِضين ـ في كلِّ الحالات أو جلِّها ـ فراراً لا يلوون فيه علىٰ شيء، ولسوف يأتي الموعد الفاصل الذي يعضّونَ فيهِ الأَناملَ من الغَيْظِ علىٰ أنفسهم ويندمون ولا حينَ مَنْدَم[2]. هكذا كان ولا يزال هؤلاء، أما أَمير المؤمنين علي فإنه لا يُوصي بإقراض المحتاجين فحسب وإنما يعتبر ذلك فرصة ثمينة ينبغي أن يستَثْمِرها الغنيّ استثماراً كبيراً ويغتنمها اغتنام الحازم (وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ في حالِ غِناكَ لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لك في يَوْمِ عُسْرَتِكَ[3].

٥ ـ لا يصحُّ ولا يجدر أن يَحُول المشاكسون في الوفاء بالقرض والمماطلون في أَدائه دون الاسهام الفعّال في حَلِّ المشكلات الماديَّة لكثير من الناس

---

١ ـ بحار الأنوار ٧٣ / ٣٦٩.

٢ ـ في كتاب «من لا يحضره الفقيه» ٤ / ١٥، و«بحار الأنوار» ٧٣ / ٣٣٥ عن رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» أنه قال: مَن احتاج إليه أخوه المسلم في قرض وهو يقدر عليه فلم يفعل حرم الله عليه ريح الجنة.

٣ ـ وفي «الكافي» ٣ / ٥٥٨ ـ باب القرض أنه حمىٰ الزكاة الحديث / ١ : عدَّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن ابن فَضَّال والحَجَّال عن ثعلبة بن ميمون عن إبراهيم بن السِّنديِّ عن يونس بن عمَّار قال: سمعت أَبا عبد اللَّه (عليه السلام) يقول: قَرْضُ الْمُؤْمِنِ غَنِيمَةٌ وَتَعْجِيلُ أَجْرٍ إِنْ أَيسر قَضاك، وَإِنْ مات قبل ذلك احْتَسَبْتَ به من الزَّكاةِ.

وانتشالهم مما وقعوا فيه من فتنة الاقتراض وكربة الاستلاف وبلاء الحاجة الىٰ المال، لا سيما إن غلب علىٰ ظنِّ المسؤول صدق نِيَّة المستقرِض وعزمه علىٰ ارجاع الحقوق الىٰ أهلها، إلا أنه مما يؤسف له أن البخلاء وأشباههم يجعلون من بعض تجاربهم مع أشابات من الأفراد وسيلةً شديدة من وسائل المنع والاعتذار المغلق، بل إن منهم من لم يقرض أحداً أبداً ولكنه يبني من تخوفه وقبح بخله وحرصه جداراً سميكاً عالياً أو سدّاً قويّاً منيعاً دون كلِّ خير وعطاء واقراض، فيأتي المحتاجون وإذا بهم يصطدمون بذلك السدّ المنيع « فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا »[1].

كافلُ دوامِ الغنىٰ والإمكان

١٤٣ ـ قال الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): كافلُ دوامِ الغنىٰ والإمكان إتباعُ الإِحْسان الإِحْسان[2].

لا ريب أن للإحسان الذي نقدِّمه للناس أثراً غير ضعيف أو مُسْتَرذل في الدفاع والذود عن حريم الغنىٰ والامكان وحراسة النعم والفواضل، ولكنَّ مثل هذا الدفاع لا يصل الىٰ حَدِّ الاستماتة المريرة والذَّبِّ القاهر الغلاب في دحر معسكرات الهجوم علىٰ الغنىٰ والإمكان واستمرارية النعم. بل إن قطع موادِّه وعدم الاستمرارية فيه كثيراً ما يسبِّب في زوال النعمة واندثارها أو محق البركة واندراسها قال الإمام علي: «مَن قطع معهود إحسانه قطع الله موجود إمكانه»[3]. أما الذي يتكفَّل بذلك تكفُّل القدير الوفيِّ المخلص في الدفاع والتصدي للمقاومة

---

١ – الكهف، الآية / ٩٧.

٢ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٨٣١، وعيون الحكم والمواعظ، الحكمة / ٣١.

٣ – غُرر الحكم، الحكمة / ٨٩٠٨.

الحُـرَّة الباسلة فهو لا مجرَّد الإحسان، بل متابعة الفضل بالفضل واتباع الإحْسان الإحْسان، كما أرشدنا الىٰ ذلك الإمام علي (عليه السلام). إذاً فالفارق كبيرٌ بل كبير جداً ـ في مواقع الحماية والدفاع ـ ما بين الحارس العارض المُؤقَّت، وما بين الكفيل المقتدر الأَمين الذي يأخذ علىٰ عاتقه الحراسة التامَّة العامة والدفاع الدائم الحازم.

إن علىٰ العاقل البعيد النظر أن يستهدي بنور الله تبارك وتعالىٰ ويتخلَّق بأخلاقه العظيمة ما كان الىٰ ذلك سبيل، ومن أخلاق الله سبحانه الإحسان تلو الإحسان والانعام إثر الانعام للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم شاكرهم وجاحدهم طوال الحياة الدنيا، وإن لم نستطع القيام بهذا اللون من الأخلاق العليا فلا أَقَلَّ من أن نواصل الإحسان والانعام ونستمر فيه بدرجةٍ ما الىٰ من هم علىٰ شاكلتنا ونمطنا في الدين والمعتقد، أو في التفكير العام، أو في إطار الرؤية السياسية، أو في حدود العلاقات الشخصية والقرابات وصلة الأرحام.

لا تزكو الصنيعة مع غير أصيل

١٤٤ – في رواية عن أمير المؤمنين علي بن أَبي طالب أنه قال: لا تزكو الصنيعة مع غير أَصِيل[1].

لا ريب أن اسداء الخير والانعام والفضل والصنيعة لا يزكو أو تثمر نتائجه مع غير أصيل، فإنه من غير المتوقع والمأمول أن يجزي غير الأصيل الإحسان بالإحسان والإنعام بالإنعام، ولو بصورة من الصور المناسبة للمقام. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه مَن هو الأَصيل في خصوص هذا الكلمة العلوية؟ فأيٌّ واحدة

---

١ – المصدر نفسه، الحكمة / ٨٨٧١.

من النقاط التالية يكون هو المقصود منها؟

أ ـ الأَصيـلُ مَنْ وُلد من حـلال، ولم يكن لأحد من شياطين الإنس والجنِّ في نطفته وأصل خَلقه من نصيب.

بـ الأَصيـلُ مَنْ شَرفت آباؤُهُ وكرمت أُصولُهُ وطهرت أعراقُه. ومثاله ما قاله يحيىٰ بن نوفل ـ من الهجّائين في العصر الأموي الثاني ـ في هجاء خالد بن عبد الله القسري والي العراق:

تـــرومُ الفـــخر فـــي أعـــراب قســـر
كـــأنك مـــن سَـــراة بـــني جـــريرِ[1]

جـــرير مـــن ذوي يَـــمَنٍ أصـــيـــل
كـــــريم الأصـــل ذو خـــطر كـــبيرِ

وأمك عـــــلجة وأبـــــوك وَغْـــد
ومـــــا الأذنـــاب عِـــدل للـــصدورِ

جـ الأَصيـلُ مَنْ كانت له ديانة راسية وعقيدة راسخة وإيمان قويم.

د ـ الأَصيـلُ مَنْ يتَّسم بالثبات في الرأي وحسن التفكير، والظاهر أن هذا المعنىٰ هو المراد من كلام الإمام أمير المؤمنين (سَلامُ اللهِ عَلَيه) وهو يصف مالك بن الحارث الأَشتر: حليم في السلم، رزين في الحرب، ذو رأي أصيل، وصبر جميل. كما أنه المراد من قول معاوية بن أبي سفيان مخاطباً عبد الله بن عباس: لله درُّك يا ابن عباس ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيل، ورأي أصيل.

---

١ ـ أي جرير بن عبد الله البجلي فإنه وإن كان من قسر ـ بطن من بجيلة ـ إلا أن كبار أهل بيته في تصور الشاعر يمتازون عن خالد القسري.

لا أُحبُّ التسرعَ في الجواب الشخصي

لا أُحبُّ أن أَتسَرَّع في الجواب الشخصي وأَتَعَجَّل الىٰ حسم النتيجة النهائيَّة ، فيا ليت أَمير الحكماء قد سُئل عن هذا فأجاب الجواب القطعي ، وإن كنت أَستشفُّ من قوله (عليه السلام) : لا تصحب مَن فاته العَقل ، ولا تصطنع من خانه الأَصل ؛ فإن من لا عقل له يضرُّك من حيث يرىٰ أنه ينفعك ، ومن لا أصل له يسيء إلىٰ من يحسن إليه[1]. ما ينشر الضوء الأخضر علىٰ الجواب ، وأن المراد من كلمته (لا تزكو الصنيعة مع غير أصيل) أَصيل النسب . والمقصود منه أن يكون أَصيلاً في شرعية ولادته فإن من لم يكن كذلك فليس بأصيل ، وأصيلاً في جودة الأبوَّة والجدود وكرم الأصول وسموِّ المَحْتِد .

وأما بالنسبة الىٰ أَصالة الديانة والايمان فإن من كان كذلك فإن الصنيعة تزكو معه وتُورق أفنانُها وتنمو ثمراتُها ، ولكننا لا نستطيع نفي حسن الجزاء عن كلِّ أحد سواه فنَصِفُه بعدم الوفاء .

وأما بالنسبة الىٰ أصالَة ثبات الرأي وحسن التفكير فهو كذلك ، أي أننا لا نستطيع نفي حسن الجزاء والوفاء عن كلِّ أحد في الأرض إلا عن صاحب الثبات في الرأي .

بعد أن عرفنا أن الصنيعة لا تزكو مع غير أصيل ، فهل علينا أن نجتنب الإحسان والفضل مطلقاً الىٰ غير الأُصَلاء من البشر ؟ لا ، لا ، ليس الأمر كذلك لا سيما مع الاطلاق ، ولكن لا بدَّ من الاشارة العابرة الىٰ قضيتين أساسيَّتين وهما :

١ ـ إن امكانياتنا وقدراتنا علىٰ الإحسان والصنائع إمكانيات وقدرات محدودة ولو بالقياس الىٰ كثرة من يحتاجون الىٰ الإحسان أو المؤازرة المادية

---

١ – غرر الحكم، الحكمة / ٨٨٧٠.

والمعنوية، وعلىٰ هذا الأساس لا بدَّ من تحديد أَولويّات سديدة للعطاء والمؤازرة، ومن القبيح والمستهجن عقلاً وشرعاً أن ندع الأصلاء المحتاجين والظامئين الىٰ الدعم والفضل جانباً ـ وهم بمرأىً منا ومسمع ـ ونصرف وجوه طاقاتنا وعناياتنا الىٰ من لا يُوازَنون بهم أبداً.

٢ ـ لم يأمرنا علي (عليه السلام) أن لا نحسن الىٰ غير الأصلاء بشكل مطلق، وكيف يأمر بذلك وهو في الوقت ذاته كان يقوم بعمليات مُثلىٰ من الإحسان والاغاثة الىٰ عدد غير قليل منهم ـ طبقاً للمصلحة العامة ـ وإنما أراد أن يبيِّن أن الصنيعة لا تجدي معهم، فلا ينبغي علىٰ المحسن إليهم أن يتوقَّع منهم الوفاء أو يترصَّد طيب المكافأة، إلا ما شذَّ منهم أو ندر.

أُمِرَ أَهلُ البيتِ بالاطعام والايواء في النائبة

١٤٥ – عن أبي جعفر الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قال: كان علي (عليه السلام) يقول: إنا أهلُ بيتٍ أُمرنا أن نُطعِمَ الطعام، ونُؤوي في النائبَة، ونُصلي إذا نامَ الناس[1].

١ ـ اطعام الطعام، والايواء في النائبة، من مكارم الأخلاق وسنيِّ الشيم ومحاسن الخلال، بل حتىٰ الصلاة اذا هجع الناس ينبغي أن تُعدَّ من مكارم الأخلاق في بعض جوانبها؛ لأنها تعبِّر بحقٍّ عن الوفاء وخلوص العلاقات مع الله ـ إضافة الىٰ وجهتها التعبُّديَّة الخالصة ـ

---

١ – الكافي ٤ / ٥٠، باب فضل اطعام الطعام، وكتاب المآكل من المحاسن، باب الإطعام، الحديث / ٤، ووسائل الشيعة (٢١٦٨٣) و(٣٠٥٦٨)، وبحار الأنوار ٧١ / ٣٦٠ و٨٤ / ١٥٤.

٢ ـ لا يكبر المجتمع ولا يُقَدَّسُ أو يُجِلُّ أُولئك الذين لا يتسمون باطعام الطعام، والايواء في النائبة، من القادة والعلماء والأكابر والأعيان، حتىٰ وإن كانت لهم مواصفات جميلة في جوانب أخرىٰ، بل يكونون موضعاً للهمز واللمز والانتقاص، ولا ينبغي أبداً لمحمد وآل محمد «سلام الله عليهم»، بل ولا للمقتدين بسيرتهم والمقتفين آثارهم الجميلة أن يحلّوا وينزلوا في وِهادِ مثل هذا الموضع المشين المهين.

٣ ـ لقد أُمر الناس أن يطيعوا أهل البيت ويحتكموا اليهم، ويسلِّموا اليهم تسليماً، فهل أُمروا أن يطيعوا ويحتكموا ويسلِّموا تسليماً الىٰ من لم يُؤمروا بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات؟ أو لم تكن هذه الأمور كلُّها من شمائلهم العريقة وخلالهم الحميدة؟ هيهات واللهِ ثم هيهات.

٤ ـ من يسبر أغوار المجاميع الحديثية نصّاً وروحاً يجد أن أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام) طالما يُوصون باطعام الطعام، والايواء في النائبة، والتهجّد بالليل، ويحثّون علىٰ ذلك حثّاً شديداً. فهل يصحُّ منهم أو يرتضي الله وعباده لهم أن يوصوا ويحثّوا علىٰ قضايا لا يعملون بها ويجسِّدونها تجسيداً حيوياً في واقعهم الفعلي؟

٥ ـ لو لم يُؤمر أهل البيت (صلوات الله عليهم) باطعام الطعام، والايواء في النائبة، والتهجّد بالليل، لكان لهم من طيب غراسهم وعذب سجاياهم وسموِّ طبائعهم ما يحرِّضهم علىٰ ذلك تحريضاً بليغاً أكيداً، ويدفعهم اليه دفعاً قوياً شديداً لا تَردّدَ فيه ولا التباسَ معه، فكيف وقد أُمروا به من قبل الله سبحانه وتعالىٰ، أمراً وجوبياً علىٰ الأرجح أو أمراً ارشاديّاً علىٰ احتمال.

٦ ـ قد تكون العلَّة من جمع أمير المؤمنين في حديثه بين اطعام الطعام،

والايواء في النائبة، وبين التهجّد بالليل، من حيث أنه (عـليه الســـلام) أراد أن يضفي علىٰ التهجُّد بالليل طابعاً أخلاقياً كما هي الحال الواضحة بالنسبة الىٰ اطعام الطعام، والايواء في النائبة. أو أن يضفي طابعاً عبادياً وروحياً علىٰ إطعام الطعام، والايواء في النائبة باقترانهما مع التهجّد بالليل. أو أنه أراد أن يلفت الأنظار الىٰ أَن دين الله سبحانه دين العلاقات الايجابية مع الناس كما أنه دين العلاقة الايجابية مع الله تعالىٰ في نفس الوقت. أو أنه أراد أن يبيِّن بأن أهلَ البيتِ رجالُ اللهِ حَقّاً حَقّاً في أَخلاقهم الكريمة المتيِّزة، وفي عبادتهم الخاصَّة التي لا تُضارعها عبادة العابدين، ولا ينالها تهجُّد العارفين. أو أنه أراد التأكيد علىٰ هذه الأمور جميعـاً.

مثـالٌ تطبيقي

لنأخذ مثالاً تطبيقياً علىٰ ما يقوله الإمام علي (إنا أهل بيت أُمرنا أن نـطعم الطعام: خرج النبيّ «ص» يوماً إلىٰ خـارج مكة، ثم رجع طالباً منزله، فأُخبر عبد اللّه بن جُدْعان التيمي بجواز النبيّ «صلّىٰ اللّه عليه وآله» علىٰ بابه، فخرج يسعىٰ حتّىٰ لحق به وقال: يا محمّد بالبيتِ الحرامِ إلا ما شَرَّفتني بـدخولك إلىٰ مـنزلي وتحرّمك بزادي. فأجابه النبيّ «ص» إلىٰ ذلك، ودخل منزله وتحرَّم بزاده، فلمّا خرج «ص» خرج معه ابن جدعان مشيِّعاً له، فلمّا أراد الرجوع عنه قال له النبيّ «ص»: إنّي أُحبُّ أن تكون غداً في ضيافتي أنت وتَيْم وأتباعها وحلفاؤها عـند طلوع الغزالة.

ثم افترقا ومضىٰ النبيّ «ص» إلىٰ دار عمّه أَبي طالب وجلس متفكِّراً فيما وعده لعبد اللّه بن جدعان، إذ دخلت عليه فاطمة بنت أسد (سـلامُ اللهِ عـليها) زوجة عمّه أبي طالب وكانت هي مُربّيته، وكان يسمّيها الأُمّ فلمّا رأتـه مـهموماً قالت: فداك أبي وأُمّي، ما لي أراك مهموماً أَعارَضَك أحد من أهل مكة؟ فقال: لا.

قالت : فبحقّي عليك إلا ما أخبرتني بحالك . فَقَصَّ عليها قصَّته مع ابن جدعان وما قاله وما وعده من الضيافة ، فقالت : يا ولدي لا يضيقنَّ صدرك ، معي مشار عسل يقوم لك بكلّ ما تريد . فبينما هما في الحديث إذ دخل أبو طالب (رضي اللّه عنه) ، فقال لزوجته : فيما أنتما ؟ فأعلمته بذلك كلّه ، وبما قال النبيّ « ص » لابن جدعان ، فضمَّه إلىٰ صدره وقبَّل ما بين عينيه ، وقال : يا ولدي باللّه عليك لا تضيقنّ صدرك من ذلك ، وفي نهار غد أقوم لك بجميع ما تحتاج إليه إن شاء اللّه تعالىٰ ، وأصنع وليمة تتحدّث بها الركبان في سائر البلدان ، وعزم علىٰ وليمة تعمّ سائر القبائل ، وقصد نحو أخيه العباس ليقترض من ماله شيئاً يضمّه إلىٰ ماله ، فوجد بني عبد المطلب في الطريق فأقرضوه من الجِمال والذهب ما يكفيه ، فرجع عن القصد إلىٰ أخيه العباس ، وآثر التخفيف عنه ، فبلغ أخاه العباس ذلك فعظم عليه رجوعه ، فأقبل إلىٰ أخيه أبي طالب وهو مغموم كئيب حزين فسلّم عليه ، فقال له أبو طالب : ما لي أراك حزيناً كئيباً ؟ قال : بلغني أنَّك قصدتني في حاجة ثم بدا لك عنها فرجعت من الطريق ، فما هٰذه الحال ؟ فقَصّ عليه القصّة . فقال له العباس : الأمر إليك ، وإنّك لم تزل أهلاً لكلّ مكرمة وموئلاً لكلّ نائبة .

ثم جلس عنده ساعة وقد أخذ أبو طالب فيما يحتاج إليه من آلة الطبخ وغير ذلك ، فقال له العباس : يا أخي لي إليك حاجة . فقال له أبو طالب : هي مقضيّة فاذكرها . فقال العباس : أقسمت عليك بحقّ البيت وشيبة الحمد إلا ما قضيتها . فقال : لك ذلك ولو سألت في النفس والولد . فقال : تهب لي هذه المكرمة تشرّفني بها . فقال : قد أجبتك إلىٰ ذلك مع ما أصنعه أنا .. فنحر العباس الجزر ونصب القدور ، وعقد الحلاوات ، وشوىٰ المشوي ، وأكثر من الزاد فوق ما يراد ، ونادىٰ سائر الناس ، فاجتمع أهل مكة وبطون قريش وسائر العرب علىٰ اختلاف طبقاتها يهرعون من كلّ مكان ، حتىٰ كأنّه عيد اللّه الأكبر ، ونصب للنبيّ « صلّىٰ اللّه عليه

وآله» منصباً عالياً، وزيَّنَه بالدرِّ والياقوتِ والثيابِ الفاخـرة، وبقي النـاس مـن حسن النبيّ «صلّىٰ اللّه عليه وآله» ووقاره وعقله وكماله متحيِّرين، وضوؤه يعلو نور الشمس، وتفرَّق الناس مسرورين وقد أخذوا في الخطب والأشعار ومـدح النبيّ «ص» وعشيرته علىٰ حسن ضيافتهم.

فلمّا بلغ النبيّ «ص» أشدَّه وأوحىٰ اللّه إليه ونبّأه، وأظهره علىٰ المشركين، وفتح مكة ودخلها مُؤَيَّـداً منصـوراً، أوحىٰ اللّه إليه: يا محمّد إنّ عمَّك العباس له عليك يَدٌ سابقةٌ وجميلٌ متقَدِّم، وهو ما أنفق عليك في وليمة عبد اللّه بن جُدْعان، وهو ستون ألف دينار مع ما له عليك في سائـر الأزمان، وفي نفسه شـهوة مـن سـوق عُكاظ، فامنحـه إيّاه في مدَّة حياته ولولده بعد وفاته. فأعطاه ذلك[1].

تسابق الهاشميين الىٰ اصطناع الخير

وهٰذا الخبر التأريخي لَيَدلُّ علىٰ تسابق الهاشميين الىٰ اصطناع الخير وحسن الضيافة والىٰ الجود علىٰ أكبر عدد ممكن من مختلف الناس، فالنبي «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» هو الفاتح النبيل لمصراعي باب الكرم والإحسـان، فأراد أن يطعم قبيل بني تيم كلّها وحلفاءها وخدمها وفاءً وجزاءً بالحسنىٰ لما أطعمه أحد أفرادها وجبة واحدة أو نحوها لا أكثر، وفي عقيدتي أن أَفضَـل الشِّيَـم وَفاءٌ يُتَوَّجُ بالكَـرَم، وهكذا بالنسبة الىٰ فاطمة بنت أسد قد شاءت أن تـمضي ارادة الفـاتح النبيل وتنفِّذ دعوته الكبيرة بما لديها من كميّات وافـرة من العسل، وكلّ من أبي طالب والعباس بن عبد المطلب يتباريان في إكرام الناس واطعامهم، ليس دعوة بني تيم وخدمها وحلفائها فحسب، بل جميع أهل مكة وبـطون قـريش وسـائر

---

١ - نقلناها بتصرّف واختصار عن بحار الأنوار ٣٠ / ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

العرب القريبين من مكة. فهؤلاء حقاً هم أهل بيت الكرم والجود في تأريخ الجاهليَّة والاسلام، وإنهم لهم المتساندون علىٰ الفضل والانعام، والمتسارعون رجالاً ونساءً الىٰ كلِّ نفعٍ وبِرٍّ وسَمَاح.

أَطعم المؤمن من أطيب ما في بيتك

١٤٦ – يُروىٰ عن علي (عليه السلام) أنه قال: إذا دخل عليك أخوك المؤمن فأطعمه من أطيب ما في بيتك، وإن كان صائماً فادهنه[١].

إنَّها الكرامة والتعزيز والمجاملة الصادقة تُزفُّ بطيب وتبجيل الىٰ الضيف العزيز في شتىٰ حالَتيْه اللتين لا يخلو منهما أبداً من الافطار أو الصيام، فإن كان مفطراً يُطعم من أطيب ما في البيت من الطعام، وإن كان صائماً فيُتحفه بالدهن يُجمِّلُ به نفسه مع ما فيه من المنافع الأُخرىٰ[٢]..

أي أن علىٰ المُضيِّف أن لا يستقبل أخاه بحفاوة وحسن لقاء وبشاشة فحسب، أو أن يضيف الىٰ ذلك حسن الحديث والمجالسة فقط، حتىٰ وإن كانت في غاية الفائدة العلمية أو الوعظية والارشادية وغير ذلك، بل إن هنالك جانباً مهمّاً لا يتغافل عنه أو يراوغ فيه إلا بخيل لئيم، أو جاهل بقوانين الضيافة، وهو

---

١ – قاضي القضاة أبو حنيفة النعمان، دعائم الإسلام (٣٤٢).

٢ – مرَّ علينا قول علي في حديث الأربعمائة: الدهن يلين البشرة ويزيد في الدماغ ويسهل مجاري الماء ويذهب بالقشف ويسفر اللون، وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: من دهن مسلماً كرامةً له، كتب الله عز وجل له بكل شعرة نورا يوم القيامة.

مراعاة الجانب المادي من إطعامٍ للضيف المفطر، واتحافٍ ـ ولو كان يسيراً وبسيطاً ـ للضيف الصائم.

وإذا كان العمل بقوانين الضيافة حَسَناً رائعاً في جميع الأحوال، وإذا كنّا نتحمل مسؤوليَّة إكرام الضيوف من مختلف الناس ولا يحول دون ذلك حائل عقائديٌّ أو فكريٌّ أو قوميٌّ أو قطريٌّ أو قبليٌّ، فلا ريب أن الأولىٰ بالاكرام من بين هؤلاء جميعاً من اتصف بالتقوىٰ والايمان، ليكون أدعىٰ الىٰ الأجزل من الثواب والأكبر من التزلف الىٰ رضا الله تبارك وتعالىٰ، ولنكرِّر النظر في كلمة أَولىٰ، إنها لا تعني تكريم المؤمن دون سواه، بل تعني تقديمه علىٰ غيره. والىٰ هذا التقديم في التكريم أبان الإمام أمير المؤمنين عن رأيه قائلاً: رأس الإحسان الإحسان إلىٰ المؤمنين[1]. وقال كذلك: من أفضل الإحسانِ الإحسانُ إلىٰ الأبرار[2].

إن قول علي (عليه السلام): إذا دخل عليك أخوك المؤمن فأطعمه من أطيب ما في بيتك. يشير بقوَّة الىٰ مجيئه لزيارة أو لحاجة أو غير ذلك من الأمور الواقعة في دائرة رغبته هو في اللقاء، من دون استدعاء أخيه له، ولو كان من جهة استدعاء أخيه له فلا تقتصر عبارة الإمام (سلام الله عليه) علىٰ اطعامه أَطيب ما في البيت من الطعام، بل لا مانع من شراء أطعمة من السوق ونحوه[3].

---

١ – غرر الحكم، الحكمة / ٨٩٠٠. ٢ – غرر الحكم، الحكمة / ٨٩٠٢.

٣ – سيجيء في ملحقات الكتاب في موضوع (من مكرمة الرجل لأخيه) قول علي (عليه السلام) للحارث الأعور لما دعاه الىٰ بيته: علىٰ أن لا تتكلف شيئاً. فأتاه الحارث بكسر، فجعل أمير المؤمنين (عليه السلام) يأكل. فقال له الحارث: إن معي دراهم وأَظْهَرَها فإذا هي في كمه، فقال: إن أذنت لي اشتريت. فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): هذه مما في بيتك.

إحسانُكَ الىٰ الحُرِّ يحرِّكهُ علىٰ المكافَأَة

١٤٧ ـ قال الإمام علي بن أبي طالب: إحسانُكَ الىٰ الحُرِّ يحرِّكهُ علىٰ المكافَأَة، وإحسانُكَ الىٰ النَّذْلِ يبعثُهُ علىٰ معاودةِ المَسْأَلة[١].

١ ـ ما هي النظرة الواقعيَّة السديدة الىٰ الحياة من حيث الأخذ والعطاء؟ أما الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) فيرىٰ أنها بذل وعطاء قبل كلِّ شيء، وأما الفيلسوف الفرنسي Jean _ Marie Guyau فيرىٰ أنها ليس مجرَّد غذاء، بل هي انتاج وخصوبة، فالحياةُ انفاق بقدر ما هي اكتساب[٢]. وأما اللئيم النذل فيرىٰ أنها حرص وشحّ وسؤال ومعاودة علىٰ المسألة.

٢ ـ الاستغلال صفة قبيحة وطبيعة مشينة تبتعد عنها ـ ما أمكن الابتعاد ـ الصفوَةُ من خيار الناس وأبرارهم، لأَن الاستغلال يعبِّرُ بصورة شديدة عن الشراهة والطمع واللؤم والدناءة، بل إن الاستغلال يعبِّرُ عن الظلم والاعتداء الجبان الأثيم ـ ولو بدرجة من الدرجات ـ من حيث يشعر المستغلّ كما هو الغالب، أو من حيث لا يشعر.

٣ ـ مِن زاوية الإحسان والخير يتعامل الحُرُّ حقّ الحرّ مع شتىٰ أفراد

---

١ – ابن أَبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ٢٦٩، الحكمة ١١٢. قد نُسبت هذه الحكمة خطأً الىٰ الفيلسوف اليوناني افلاطون، غير أن الدكتور عبد الرحمٰن بدوي في كتابه «افلاطون في الاسلام» نفىٰ صحة نسبتها اليه، افلاطون في الاسلام / ١٧٤. والنص المنسوب الىٰ افلاطون: إحسانُكَ الىٰ الحُرِّ يحرِّكهُ علىٰ المكافَأَة، وإحسانُكَ الىٰ الوَغد يُحرِّكُهُ علىٰ معاودةِ المَسْأَلة.

٢ – الدكتور عبد الرحمٰن بدوي، موسوعة الفلسفة ١ / ٤٥١.

المجتمع علىٰ أَساسين لا ثالث لهما: إما الإحسان اليهم والتفضل عـليهم، وإمـا الجزاء بالشكر والحسنىٰ لمن أحسن اليه منهم ما استطاع الىٰ ذلك سبيلا. وهـذا يعني بدقَّةٍ أن الحُـــرّ حـقّ الحـرّ ليس مسـتغلاً لكـــرم الكـرماء ولا لإحســـان المحسنين في سلوكه الاجتماعي ومواقفه العامَّة والخاصَّة.

٤ ـ ما قلناه عن الحُـرّ من الأوصاف والنعوت هل يمكن أن نقوله بحقيقـةٍ وصـدقٍ عن النَّذْل، ولو مع التساهل في الحكم والتسامح في التعبير؟ لعمرك إن السجلات التأريخيَّة الكثيرة لا تساعد علىٰ ذلك أَبـداً، كـما أنَّ فـي التـجاربِ الاجتماعيَّةِ والسياسيَّةِ ما يُنبيءُ عن صحَّةِ الثراءِ التأريخيِّ لوْ تأَمَّل المتأَمِّـلون.

٥ ـ من الواضحات اللغويَّة والعرفيَّة أن لفظة الحُـرَّ تقابل لفظة العبد، إلا أن الإمام علي بن أبي طالب في كلمته هذه قد جعل الحُـرَّ مقابل النَّذْل، كأنه ليدلّنا ـ انطلاقاً من قاعدة أن الأشياء تُعْرَفُ بأضدادِها ـ علىٰ أن الحرَّ في كلامه لا يعني مَن ليس يمتلكه سيد من الأسياد، بل من لم تمتلكه المواصفات القبيحة، فَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ لا سَيِّدَ لَهُمْ مِنَ البَشَـر، إلا أَنَّ لَـهُمْ أَسْـيَاداً مـن جُـنُودِ الحَـقَارةِ واللُّـؤْمِ والسُّقُوط. وكأنه ليدلّنا أيضاً علىٰ أن العبدَ من عَبَّدته جنود الطمع والخيانةِ والهوانِ الأَخلاقيّ، وليس العبد من كان مُجْبَراً علىٰ طاعة ارادة السيِّد وإن كان حُـرَّ الخلق والطبيعة والسلوك، وبكلمة وجيزة: العَبدُ حَقُّ العَبدِ مَن هو النَّذْل حَقُّ النَّذْلِ فـي طبيعتِه وخصالِه. وأَيُّ عُبُوديَّةٍ ورِقيَّةٍ أشدّ مِن النَّذالَة؟

الإحسان يغيظ الأعداء ويدعو الىٰ الصلاح

١٤٨ – يُروىٰ عن أمير المؤمنين علي (عليه السـلام) أنه قال: إن إحسانَك

إلىٰ من كادَكَ مِن الأَضدادِ والحُساد، لأَغيظُ عليهم من مواقعِ إساءتِك منهم، وهو داعٍ إلىٰ صلاحهم[1].

١ ـ لا ريب أن «كلّ ذي نعمةٍ محسود» كما جاء في الحديث النبويّ الشريف، ولا ريب أن كلَّ جليل القدر مُعادىٰ من قبل بعض الناس أظهروا العداء أم أخفوه، ولكن ما هي الوسائل العملية التي يجدر اتخاذها في سبيل المقاومة وكفّ الاعتداء؟ إنها الوسائل كثيرة من بينها شدَّة الكلام والخصام والصدام، ولكنَّ لهذه الوسائل أدواراً محدَّدة تنفع وتجدي ضمن مجالات معينة، ولا تنفع وتجدي في مجالات أُخرىٰ تستدعي أساليب غير التي ذكرنا، وقد أوقفتنا النصوص الدينية المقدَّسة علىٰ قسط جدير بالعناية والرعاية منها، مثل الأسلوب الذي نَصَّ عليه قوله تبارك وتعالىٰ: وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ»[2].

وقول أمير المؤمنين علي بن أَبي طالب: إن إحسانك إلىٰ من كادك من الأضداد والحساد، لأغيظ عليهم من مواقع إساءتك منهم، وهو داعٍ إلىٰ صلاحهم. ولكن من الناس من يتصورون أن مثل هذا الاسلوب القرآني البديع والاسلوب العلوي الناجع مجرَّد قضيَّة خياليَّة لا تنطبق علىٰ الواقع المعاش ولا تغني في ردِّ جماح الأعداء وحَسَدَة النعم، فحسب هؤلاء جهلهم وضلالهم وقصورهم الحادّ في المديات البعيدة. «وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ»[3].

---

١ – غرر الحكم، الحكمة / ٨٨٤٨. وقد نسب قريب من هذا المعنىٰ الىٰ افلاطون، غير أن الدكتور عبد الرحمٰن بدوي في كتابه «افلاطون في الاسلام» نفىٰ صحة نسبتها اليه. افلاطون في الاسلام / ١٨٧.

٢ – فصلت، الآية / ٣٤.

٣ – فصلت الآية / ٣٥.

٢ ـ إن إحسانك إلىٰ من كادك من الأضداد والحساد، ليغيظهم ويحرجهم احراجاً مُؤلماً عنيفاً في كثير من الحالات، كما أنه يوقعهم في مَطَبّات الحياء والخجل أحياناً، ويكون أشدَّ عليهم من أساليب الكفاح والمواجهة والتصدي، هذا اضافة الىٰ أنه طريقة ناجحة وناجعة من طرائق التهذيب الأخلاقيِّ المعتمد، والاصلاح الاجتماعي المنشود.

٣ ـ من الأمثلة التطبيقية علىٰ صحة ما يرسمه لنا باب مدينة علم الرسول «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» من المخططات الاجتماعية والسياسية القيِّمة: ما يحدثنا به التأريخ عن ابن عائشة من أنه دخل رجل من أهل الشام المدينة فرأىٰ رجلاً راكباً بغلةً حسنةً قال: لم أرَ أحسنَ منه فمال قلبي إليه فسألت عنه فقيل لي: إنه الحسن بن علي بن أبي طالب. فامتلأ قلبي غيظاً وحنقاً وحسداً أن يكون لعلي ولد مثله. فقمت إليه فقلت: أنت ابن علي بن أبي طالب؟ فقال: أنا ابنه. فقلت: أنت ابن مَن ومَن ومَن وجعلت أشتمه وأنال منه ومِن أبيه وهو ساكت حتىٰ استحييت منه، فلما انقضىٰ كلامي ضَحِك وقال: أحسبك غريباً شامياً؟ فقلت: أجَل. فقال: فَمِلْ مَعي إن احتجت إلىٰ منزل أنزلناك، وإلىٰ مالٍ أرفدناك، وإلىٰ حاجة عاوناك. فاستحييتُ منه وعجبت مِن كَرَمِ أخلاقه، فانصرفت وقد صرت أحبه مَا لا أُحِبُّ أَحَداً غيره[1].

مَنْ قطعَ معهودَ إحسانِه قطع اللهُ موجودَ إمكانِه

١٤٩ – قال الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): مَنْ قطعَ معهودَ

---

١ – الاربلي، كشف الغمة، ١ / ٥٦١.

إحسانِه، قَطَعَ اللهُ مَوجودَ إمكانِه[١].

من الأمور البديهيَّة لدىٰ أَصحاب الديانات السماويَّة أن التقدير الإلهيّ لأرزاق العبادِ قَضيَّةٌ غامضةٌ عندنا، إنها لَتضرب في أَعماق الغيوب، فبيننا وبينها ستائر مَنشورة، وحُجُبٌ مَسدولَة، فتُبرَم وتُحكَم وتُقضىٰ بمعزلٍ عن رؤية الإنسان الواعي البصير، وعن تفكير العالم ومعرفته، فضلاً عن غيرهما من سائر طبقات البشريَّة.

إلا أن الأَفكار الدينيَّة المودعة في النصوص المقدَّسة قد أطلعتنا علىٰ أسباب متعدِّدة لزيادة الأَرزاق ونُموِّها واطِّرادها، أولنقصانها وضمورها بل قطعها. فقال تبارك وتعالىٰ حول المجال الأَول علىٰ لسان نبيه نوح (ص): «فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰراً»[٢]. وقال تبارك وتعالىٰ حول المجال الثاني: «ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»[٣]. ومعنىٰ الفساد في هذه الآية المباركة هو نقصان النعم وتدنّيها وقلة الانتفاع بها بسبب ما كسبت أيدي الناس من عصيان الله سبحانه والتمرّد علىٰ شرائعه. وليس معنىٰ الفساد هنا الانحراف والضلال، لأن معنىٰ الآية يكون حينئذ ظهر الانحراف والضلال بسبب ظهور الانحراف والضلال وهذا لا يمكن. فالآية المباركة قريبة الشبه بما يقوله رسول الله «صلىٰ الله عليه وآله وسلم» «.. وإذا منعوا الزكاةَ منعت الأَرض بركاتها من الزرع والثمار والمعادن»[٤].

---

١ - غرر الحكم، الحكمة / ٨٩٠٨.
٢ - نوح، الآية / ١٠ ـ ١٢.
٣ - الروم، الآية / ٤١.
٤ - بحار الأنوار، ٧٤ / ١٥٨.

ومن جملة أسباب المجال الثاني ما جاء في الحديث العلوي (مَنْ قطعَ معهودَ إحسانِه، قطع اللهُ موجودَ إمكانِه). فالذين يحسنون الىٰ طائفة من الناس جديرين بالإحسان اليهم ثم يقطعون الإحسان عنهم بلا مُبرِّر مستساغ في قانون الشريعة والأخلاق، فإن القائم علىٰ عوالم الغيب سوف يقطع عنهم ما كان يمدُّهم به من رزق مُعين أو غير مُعين، ويلقِّيهم جزاءَ ما قدَّموا، ويلقِّنهم عاقبة ما أبرمو.. «وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ»[1].

ونستفيد من مراجعة الحكمة العلوية المذكورة في هذا الكتاب (تَنْزِلُ الْمَعُونَةُ عَلَىٰ قَدْرِ الْمَؤونَةِ) في متانة الربط والانسجام بينها وبين الحكمة الحاليَّة في المنهج الغيبي والمُؤَدّىٰ العملي؛ فإنه ما كانت المعونة إلا كانت المؤونة تحكي وزنها وقدرها، وإن قَطَعَ الانسان معهود الإحسان، قَطَعَ اللهُ عنه موجودَ الامكان.

إن من معالم التوفيق الإلهي الأعظم: ايواء الغريب، ومعونة النكيب، وصلة الإخوان، ومساعدة الجيران، وانعاش الفقير، وجبر الكسير. فما أَسنىٰ مقام العاملين بذلك في الدنيا والآخرة!! وإنها لَمُتعة رُوحيَّة كبرىٰ أن يرىٰ الانسان الفاضلُ نفسه قد أدّت حقوقاً جليلة لله سبحانه بأداء حقوق عباده المستحقين لها، والشاكرين للواحد الأحد علىٰ ما ألهم بعض المحسنين بتكريمهم وارفادهم. وإنها لخسارة كبرىٰ أن يقطع المحسنون ما كانوا عليه من الفضل والاحسان فيفقدون محبة اخوانهم ومعارفهم، ويبترون بأيديهم سواعدَ المَدَدِ الإلهي الزاخر، وبالتالي يصبحون ويمسون كما تُصبحُ وتُمسي الشجيراتُ المقطوعةُ الرؤوسِ مَنظَراً ومَخبَراً.

---

١ - آل عمران الآية / ١٨٢.

لا يحصل الأَمانُ بمثل الإيمانِ والإحسان

١٥٠ - قال علي بن أَبي طالب (عليه السلام): ما من شيء يحصل به الأمان، أبلغ من إيمانٍ وإحسان[١].

١ ـ لا نعرف بشكل عميق وصريح القيمة الكبرىٰ للإحسان، حتىٰ نعرف القيمة الكبرىٰ للأمان باعتباره ناتجاً تَرّاً من نتائج الايمان، والإحسان، وغير ذلك. وأَوَدُّ أَن أُلخِّص رأيي في مفهوم الأَمان وآثاره العظيمة بالكلمات القصيرة التالية:

ـ الأَمانُ رَبيعُ فصولِ الزمان.

ـ الأَمانُ حَياةُ الحَياة.

ـ الحياةُ الدنيا وسيلةٌ والأَمانُ غاية.

ـ الأمانُ طمأنينة القلب وسكون المشاعر.

ـ بلغَ كميل قمَّة الأمان وهو يواجه سيف الحجاج وطغيانه.

ـ ليس من الضرورة المنطقية أن يكون الأَمان خلاصاً من الشرور والأخطار.

ـ طفحَ الكَيْل، ومَا خَافَ كُمَيْل.

---

١ - غرر الحكم، الحكمة / ١٤٨٨.

٢ ـ أما عن الأسباب التي من خلالها تتمُّ وتتجسد صور كثيرة ورئيسيَّة من صور الأمان، ففي قـراءة النصوص التالية ما يجلّيها، ويفرز ما بين الأسباب التي تؤدي الىٰ الأَمان الدنيوي، وما بين أسباب الأمان الذي يشمل الدنيا والآخرة:

ـ قال علي (عليه السلام): مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوائِلِهِمْ[١].

ـ قال علي (عليه السلام) في يوم الشـورىٰ: فنحن أَهْـــل بيت النـبوة، ومعدن الحكمة، أمان لأهل الأرض، ونجاة لمن طلب[٢].

ـ قال علي (عليه السلام): مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ ومَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ ومَنْ خَافَ أَمِنَ[٣].

ـ قال علي (عليه السلام): وُصول المرء إلىٰ كل ما يبتغيه: من طيب عيشه، وأمْن سربه، وسعة رزقه، بحسن نيته، وسعة خُلُقه[٤].

ـ قال علي (عليه السلام): الإيمان أمان[٥].

ـ قال علي (عليه السلام): إن آمنت بالله أمن منقلبك[٦].

ـ قال علي (عليه السلام): إذا آمنت بالله واتـقيت مـحارمه أحـلَّك دار الأمان، وإذا أرضيته تغمدك بالرضوان[٧].

---

١ ـ شرح نهج البلاغة، ٢٠ / ٤ الحكـمة / ٤٠٩. وكـان يـقال: إذا نـزلت عـلىٰ قـوم فـتشبه بأخلاقهم فإن الإنسان من حيث يوجد، لا من حيث يولد.

٢ ـ المصدر نفسه، ١٩ / ١٣٤.

٣ ـ المصدر نفسه، ١٩ / ٢٨، الحكمة / ٢٠٤.

٤ ـ غُرر الحكم، الحكمة / ١٦٠٧.

٥ ـ المصدر نفسه، الحكمة / ١٤٨٣.

٦ ـ المصدر نفسه، الحكمة / ١٤٨٥.

٧ ـ المصدر نفسه، الحكمة / ١٤٨٦. وفي كتاب «بحار الأنوار» ٧٣ / ١٢، عن أبي عبد الله

ومن أَقوىٰ أسباب الأَمان وأبلغها في حصوله هو ما يحدِّثنا به أمير المؤمنين علي (صلوات الله عليه) قائلاً: ما من شيء يحصل به الأمان، أبلغ من إيمانٍ وإحسان.

٣ ـ ولكن هل يا ترىٰ ان الدور الكبير للإحسان في تحقيق الأمان راجع الىٰ الأمان الدنيوي أم الأمان الأخروي؟ نعتقد أنه للدارين معاً، فأما في الدنيا فلأن الإحسان يكتسب الأرواح والقلوب ويشغفها حُبّاً، ويخفف كثيراً من حالات التوتّر والعداوة والشحناء، بل قد يزيلها ويقلبها رأساً علىٰ عقب. وأما في الآخرة فَلِما أعدَّ الله تبارك وتعالىٰ للمحسنين من الأمان والسلام والنعيم المقيم، كما طالعتنا به عشرات النصوص الدينيَّة، أو مئات النصوص، وقد ذكرنا قسطاً منها في هذا الكتاب.

الصادق (عليه السلام) أنه قال: السلامُ تحية لملتنا، وأمان لذمتنا.

المُحْتَـوَيات

الموضوع ..... الصفحة

البَحْـرُ الزّاخِـرُ ٧

مقدمـةُ المؤلف ٩

إيثـارُ عَلِيٍّ وجُـودُهُ في القرَنِ الكريم ١٩

الإنفاق ليلاً ونهاراً سـرّاً وعلانيةً ٢١

معايير الاقتصـاد والتجارة ٢٣

رواية في التفسـير ٢٥

سبب النـزول / رأي أهـل السنة ٢٨

سبب النزول / رأي الشيـعة ٢٨

مناقشة وتحقـيق في رأي الرازي ٣٠

تحقيـق في معنىٰ الأتقىٰ والأشقىٰ ٣٣

نقاشٌ مع العلامة الزمخشري ٣٤

اسم التفضـيل ٣٥

المحصلة النهائية ٣٦

تعدُّد النزول ٣٦

مطارحَـة فكريَّة جميـلة ٣٩

تفسـير سورة الإنسـان ٤٣

غايـة الإيثار ٤٦

تفْسـير آية المناجاة..... ٤٨

المناجاة عشر مرّات ٥٠

سبعون حديثاً في تحديد العامل الوحيد بآية النجوىٰ ٥٢

القرآن الكريم يفضِّل علياً علىٰ سائر الهداة المهديين..... ٥٤

وسَق من تمر لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا ٥٥

تفسير آية الولايـة ٥٧

أجودُ مَن فِي الوُجود مَن لَيس لِجُودِه حدود..... ٦٤

ما أقربَ الشبهَ ما بين التفكيرين..... ٦٥

المِعراجُ القدسيُّ المركَّبُ من الصلاةِ والزكاة ٦٥

الجـواب..... ٦٦

التنظيرُ للجودِ والإيْثار في الأَحاديثِ والحكمِ النبوية ٦٩

رسـول القـيم والنـبل والـكرم ٧١

تفسير «لَن تَنَالُوا الْبرَّ حَتىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تحِبُّونَ»..... ٧٣

السخاء والبخلُ طريقـا الجنة والنار..... ٧٥

يأبىٰ ذلك إطعامهم الضيف وإكرامهم البيت..... ٧٧

من الكرم تبجيلُ الكرماء ٧٨

لا يُقتل الأسير اذا كان سخياً..... ٧٩

فيما يأكل السَّبع والطير أجر..... ٨٣

تعليـق ٨٣

لا يجاور الله في الجنة بخيل ٨٥
صنائع المعروف تقي مصارع السوء ٨٧
تلافىٰ نفسه بالصدقة فدفع عنه ٨٧
جود المؤمنين وإحسانهم ٨٧
تصدَّقنَ ولو من حليكنَّ ٨٩
ليس الجود من مختصات الرجال دون النساء ٩١
معرفةُ حَدِّ الجوار تُوسِّعُ مِن مديات الكرم والاتحاف ٩٢
ولايـة الحكمـاء ٩٣
الصيام والقيام يبعثان علىٰ الجود ٩٥
الغنىٰ غنىٰ النفس ٩٧
الجهة الأولىٰ ٩٧
الجهة الثانية ٩٧
مِن الأمثلةِ الحيويةِ لِغِنىٰ النفس ٩٨
من موجبات المغفرة ٩٩
أهون أهل النار عذاباً عبد الله بن جُدْعان ١٠٢
شخصية الجواد ابن جدعان ١٠٢
ما أسعدَ الكريمَ وأرفعَ شأنَه ١٠٣
السماحة الخصيبة أفضل من العبادة الجديبة ١٠٥
أي داءٍ أدوىٰ من البخل ١٠٧
التأريخُ يعيدُ نفسه ١٠٧

الجود شيمة ١٠٩
الجود والمعروف والجنَّة ١١٢
مَنْ أرادَ الدنيا والآخرة فليحسن ١١٢
السخاء شجرة من أشجار الجنَّة ١١٣
ثلاثة مصطلحات ١١٥
التَّنظيرُ العَلَوي للجُودِ والإيْثار ١١٩
الْجَوَادُ الَّذِي لا يَغِيضُهُ سُؤالُ السَّائِلِين ١٢٤
الاقتداء بجود الله تعالىٰ ١٢٦
تجلِّياتٌ مشرقةٌ من الإحْسان والنوال ١٢٧
إذا أَردتَ أَن تدعو فمجِّدِ اللهَ واحمدْه وسبِّحْه ١٢٨
مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّة ١٣٠
عبادة المقرَّبين ١٣٤
البخل فقر ١٣٦
البخل جامع لمساوي العيوب ١٣٨
اعملْ فِي مالِكَ ما تُؤثرُ أن يُعمَلَ فيه من بعدِك ١٤٢
توظيف الجاه والاستعانة بأكفُّ الأفاضل ١٤٣
الجودُ حارسُ الأعراض ١٤٦
العدلُ سائسٌ عام والجودُ عارضٌ خاص ١٤٨
من صفاتِ القائد ١٥٠
وَقعنا فيما حذرتنا ١٥١

من كتم الإحْسان عوقب بالحرمان ١٥٤
شيطانُ التقتير لا يقلُّ خبثاً عن شيطانِ التبذير ١٥٦
خيرُ المسلمينَ مَنْ وَصَلَ وأَعانَ ونَفَع ١٥٧
المعايير السليمة في التفضيل ١٥٨
من المقاييس الموضوعية عند الإمام علي ١٥٨
لا تناقض في فلسفة الإمام علي ١٥٩
أَجْمَلُ الإحْسَان مَا آسْتَقْطَبَ الاسْتِحْسَان ١٦٠
حصيلة الرغبة الىٰ الكريم والخسيس ١٦٢
عوِّد نفسك السماح ١٦٣
النظر الىٰ البخيل يقسي القلب ١٦٥
النظر البصري النافع ١٦٦
النظر البصري الضار ١٦٧
تبريراتٌ عشوائيةٌ يفضحُها الواقعُ السليم ١٦٩
مِن أَمثلة الفطنة والتغافل ١٧١
أثارةٌ من علمٍ تُقتفىٰ ١٧٢
لا تدخلنَّ في مشورتك بخيلاً ١٧٣
شرحٌ وايضاح ١٧٣
تأثير المستشار علىٰ المُستشير ١٧٤
العاقلُ من بَذَل نَداه ١٧٥
البخلُ عار ١٧٧

استجادة واستلهام..... ١٧٩
المطلُ أَحَد المنعين..... ١٨٠
المالُ لا ينفعك حتىٰ يفارقك..... ١٨٣
الإيْثارُ أفضلُ عِبَادَة..... ١٨٦
الإيْثارُ أعلى الايمان..... ١٨٧
الأمر الأول..... ١٨٨
الأمر الثاني..... ١٨٨
الأمر الثالث..... ١٨٩
البخلُ إزراءٌ في الدنيا والآخرة..... ١٩٠
السبب الأول..... ١٩١
السبب الثاني..... ١٩١
البخل يكسب الذمّ..... ١٩٣
البذل يكسب الحمد..... ١٩٨
قَبَسٌ مِنْ حَمْد الأجواد..... ١٩٩
الإحْسان غُنْم..... ٢٠٢
صنائع مجانية..... ٢٠٣
السيِّد مَن تحمَّل المؤونة..... ٢٠٥
المخذول من كانت له الىٰ اللئام حاجة..... ٢٠٦
التعليلُ الوافي..... ٢٠٧
تعساً لفخر اللؤماء..... ٢٠٩

القاعدةُ العامةُ أَن يكونَ الشجاعُ جواداً ٢١١
الجواد محبوب محمود ٢١٣
الفضيلة بحسن الكمال ومكارم الأفعال ٢١٥
أمَّهاتُ الفَضائل ٢١٦
التدبيرُ نظامٌ عقليٌّ مُتكامِل ٢١٧
المواقف الشاخصة إزاء الخيريَّة والبرُّ ٢١٨
فضل إطعام الإخوان ٢٢٠
في تفضيل إطعام الإخوان على تحرير الرقاب ٢٢٣
مفهومُ التبذيرِ في القرآنِ والفكرِ العلوي ٢٢٦
تأثير الكرامة سلبياً وايجابياً ٢٣٣
الكريم من صان عِرضَه بماله ٢٣٤
أَمسِكْ مِن المالِ بِقَدْرِ ضَرورتك ٢٣٥
قَدِّم المالَ ليومِ فَاقَتِك ٢٣٦
استفسار وإجابة ٢٣٨
التفكيرُ الجدّيُّ بما يقولُهُ المنظَّرُ الالهيُّ الكبير ٢٣٨
إشكال وحلّ ٢٤٠
الجواب ٢٤٠
سؤالٌ وجواب ٢٤١
أشجع الناس أسخاهم ٢٤٢
مَن حسن عيش الناس في عيشه ٢٤٣

كفُّ الأذىٰ وبذل الإحْسان ٢٤٤
الحافز الروحيّ للعمليّات السلوكيَّة ٢٤٥
آفة الغنىٰ البخل ٢٤٨
الغنىٰ بنفسه غير ممدوح حتىٰ يستتبعه النائل ٢٤٩
إعادة النقد والموازنة ٢٥٧
بالصدقة تُفسح الآجال ٢٥٩
الاستدلال علىٰ الكرم ٢٦٢
عدمُ التعارضِ في فلسفة الإمام ٢٦٤
تمجيدُ القناعة ٢٦٦
تعليق واستدراك ٢٦٨
موعظةُ القُبَّرة ٢٦٨
المُسرِفُ لا يُحْمَدُ جودُه، ولا يُرحَمُ فقرُه ٢٦٩
الاشكال الأول ٢٧٠
الاشكال الثاني ٢٧٠
الجواب عن الاشكال الأول ٢٧٠
الجواب عن الاشكال الثاني ٢٧١
سُلَّمُ الشرفِ التواضعُ والسخاء ٢٧١
مثالٌ تطبيقي لسُلَّمِ الشرف ٢٧٢
ظلُّ الكرامِ رَغَدٌ هنيء ٢٧٣
معرفةُ الأساس ٢٧٥

أَفتزهدون في مكارم الأخلاق ٢٧٦
الإيْثار يكشف عن جواهـر الكُرَماء ٢٧٧
منزعُ الكَريـم ٢٨٠
تقديمُ العِرْضِ وبذلُ العَرَض ٢٨١
من أَشْرَفِ الشَّرَفِ الكَفُّ عن السَّرَفِ ٢٨٢
كشف الضرِّ عن الناس صفةٌ روحيَّةٌ وقدسيَّة ٢٨٥
تعليـقات ٢٨٥
تعليـلٌ وتعليـق ٢٨٦
أُسس المعايير التقييمية ٢٨٨
وَقودُ النَارِ يَـوْمَ القِيامة ٢٨٩
وَعدُ الأَكارمِ أَحَـدُ العَطاءَين ٢٩١
من جمع المال لينفع به الناس أطاعوه ٢٩٤
مقابلةُ الإِحْسان والجميل بالاساءة ٢٩٥
مواقعُ الجُـودِ والإِيْثار ٢٩٦
الاستثنـاءاتُ الدقيقـة ٢٩٧
البخيل ظالم أثيم ٢٩٨
أَفضلُ الأَموالِ أحسنُهَا أَثَراً عَلَيك ٣٠٠
الإبقاء على الأموال أو الرجال ٣٠٢
المؤثرونَ منْ رجالِ الأَعراف ٣٠٣
الإيثار فضيلة، الاحتكار رذيلة ٣٠٦

الاحتكارُ في أَحاديث الإمام ٣٠٧
كِرامُ المُتْخَمين ٣٠٨
أَولىٰ الناس بالإحسان اليهم ٣١١
شقاء الحرص ومذلة الطلب ٣١٤
أَكرم ضيفَك وإن كان حقيراً ٣١٦
مِن الأَمثلة التطبيقية علىٰ إكرام الضيف الحقير ٣١٦
إنَّ التعاملَ معَ الناسِ تَعاملٌ معَ الله ٣١٧
أَدبُ الضِّيافَة ٣١٨
من الفكر الاجتماعي في الاسلام ٣١٩
لا تندم علىٰ معروف صنعت ٣٢٠
أَحسن الصنايع ٣٢١
أفضلُ المُروءةِ مواساةُ الإخوان بالأموال ٣٢٤
تحليلٌ وتعليق ٣٢٦
السخاء ما كان ابتداءً ٣٢٨
جود الولاة بفيء المسلمين جور وختر ٣٣٠
ما هو أقبح البخل ٣٣٣
لا يجتمع حبُّ المال والثناء ٣٣٤
حجب الحقوق المالية ٣٣٦
إن لتغير النعمِ وزوالِ اليسارِ عللاً وأسباباً ٣٣٨
عِلمٌ لا يُصلِحُك ضَلال، ومالٌ لا ينفَعُك وَبال ٣٤٢

الشُّحُّ في اللغةِ العربيةِ والعرفان ٣٤٤
توجيـهه ٣٤٥
في الشُّحُّ المَسَبَّة ٣٤٦
كثرة التعلُّل آية البخل ٣٤٨
لا تخلفن وراءك شيئاً من الدنيا ٣٤٩
الحريصُ والشَّرِهُ والبخيـلُ جهلاء ٣٥١
الكريم يلين إذا استُعطف ٣٥٣
البخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب ٣٥٥
علي بن أبي طالب يستثير مكامن العقول ٣٥٦
القائدُ المِثاليُّ أَوْلىٰ مَنْ أَسعَف وأَسْعَد ٣٥٨
اعطِ ما أعطيت هنيئاً ٣٦٠
شـرح وتعلـيق ٣٦٠
معنىٰ الإجْـمال ٣٦١
معنىٰ الإعْـذار ٣٦٢
في تواضُعِ الواهبين تتجسَّدُ المنفعةُ للمعطينَ والآخذين ٣٦٤
جِماعٌ من الكرم وشُعَبٌ من العُرْف ٣٦٦
اللهَ في الطَبَقَةِ السُّفلىٰ مِن الذين لا حيلةَ لهم ٣٦٨
المقياس في أفضلية بعض القادة والأمراء ٣٧٠
قضاء حوائـج الناس ٣٧١
بحثٌ في الحَوافِز ٣٧٢

القناعةُ بالقليل والجود بالجزيل ٣٧٤
البخل بما لا نملك مبالغة في الرذيلة ٣٧٧
الوجهة الأولىٰ ٣٧٧
الوجهة الثانية ٣٨٠
الجواب ٣٨٠
وَجْهُ الحِكْمَة ٣٨١
يا للداهية الدهياء ا..... ٣٨٢
الزاوية الأولىٰ: ٣٨٣
الزاوية الثانية:..... ٣٨٣
الحريص فقير ولو ملك الدنيا بحذافيرها ٣٨٤
الغني بالتحديد العرفي ٣٨٦
الغني بالتحديد الفقهي ٣٨٦
الغني بالتحديد الفكري أو الفلسفي ٣٨٦
لا مُرُوَّةَ مع شُحّ..... ٣٩٠
ثيابُكَ علىٰ غيرِكَ أَبقىٰ لكَ منها عَليك ٣٩٢
أَمثلَةٌ تَطبيقيَّة..... ٣٩٦
من معالم الفوارق ما بين الكرام واللئام ٣٩٨
لا يتكبَّرُ علىٰ المُنعَمِ عليهِ غَيْرُ المُتبطِّر بالنعمة ٤٠٠
لا تَسْتَحِ مِنْ إعْطَاءِ الْقَلِيل..... ٤٠٤
شَرُّ الإِخْوَانِ مَنْ تَكَلَّفَ لَهُ ٤٠٨

الضِّيافة ضِيافَتَان ٤٠٨
مَنْ صَحِبَ الثَّقِيل فَقَدْ صَحِبَهُ الشَّرُّ الوَبِيل ٤٠٨
تعليل ابن أبي الحديد ٤٠٩
المَالُ حياةٌ للأَسخيَاءِ وموتٌ للبُخلاء ٤١٠
أَلوان من الشماتة ٤١٠
انتظار المصير برهنة علىٰ مدىٰ صحة تقييم المسير ٤١٤
تحريك حافز التنافس علىٰ الخير والإحسان ٤١٥
شرح ابن أبي الحديد : ٤١٥
تحريضٌ وتفعيل لا مُجَرَّدَ إخبارٍ وتَحليل ٤١٦
لا يغرُّنا طِيبُ الطعامِ معَ خُبث المُطعِم ٤١٧
الرياء في المفاهيم الإسلامية ٤١٨
يحبُّ الله كلَّ سمْحِ اليَدينِ حَريزَ الدين ٤٢١
اصحبوا مَن يذكر إحسانكم وينسىٰ أَياديه ٤٢٣
دموع التماسيح ٤٢٥
إذا وُضع الإِحْسان في الكريمِ أَثْمَر ٤٢٨
دفع حثيث لعمليات الكرم والفضل والإيثار ٤٢٩
عَاتِبْ أَخَاك بِالإِحْسان إِلَيْهِ ٤٣٣
أَطعِموا المَساكينَ فَيَرْبُوَ كَسْبُكُم ٤٣٤
احـذروا صولةَ الكريم اذا جاع ٤٣٧
مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ يُعْطَ بِالْيَدِ الطَّوِيلَة ٤٣٩

الْغِنَىٰ الأَكْبَرُ ٤٤١
ملاحظات ٤٤٢
تعليق ابن أَبي الحديد ٤٤٢
منشأ الْيَأْس عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاس ٤٤٣
إذا سألتَ كريماً حاجة فدعه يفكِّر ٤٤٤
الفقر من الأموال، من أشدِّ الأهوال ٤٤٦
لا يختلف بِشْرُ اللئيمِ عن تقطيبه إلا بمقدارِ مكرِهِ وخداعِه ٤٤٨
خيرُ البِرِّ ما وَصَلَ إلىٰ الأَحْرار ٤٤٩
الإحْسانُ في التجربة التأريخية والاجتماعية ٤٥١
الاستماعُ لشكوىٰ الملهوف ٤٥٤
مَنْ وَثِقَ بإحْسانِك، أَشفقَ علىٰ سُلْطانِك ٤٥٧
فاقةُ الكَرِيمِ أَحْسَنُ مِنْ غِنىٰ اللئيم ٤٥٩
الناحيَةُ الأُولىٰ ٤٥٩
الناحيَةُ الثانية ٤٦٠
مَنْ مَنَعَ الإحسان، سُلِب الإمكان ٤٦٠
قِصَّةُ الجوادِ المُفَدّىٰ ٤٦٢
العِبَرُ المُسْتَقَاة ٤٦٥
أحبُّ الناسِ اليك من كثرت أياديه عندك ٤٦٦
اغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ في حالِ غِناك ٤٦٨
كافلُ دوامِ الغنىٰ والإمكان ٤٧١

لا تَزكو الصنيعةُ مع غير أصيل ٤٧٢

لا أُحبُّ التسرعَ في الجواب الشخصي ٤٧٤

أُمِرَ أَهلُ البيتِ بالاطعام والايواء في النائبة ٤٧٥

مثالٌ تطبيقي ٤٧٧

تسابق الهاشميين الىٰ اصطناع الخير ٤٧٩

أَطعم المؤمن من أطيب ما في بيتك ٤٨٠

إحسانُكَ الىٰ الحُرِّ يحرِّكهُ علىٰ المكافأة ٤٨٢

الإحسان يغيظ الأعداء ويدعو الىٰ الصلاح ٤٨٣

مَنْ قطعَ معهودَ إحسانِه قطع اللهُ موجودَ إمكانِه ٤٨٥

لا يحصل الأَمانُ بمثل الإيمانِ والإحسان ٤٨٨

والحَمد للهِ علىٰ فَضلِهِ وتَأييدِهِ، وَلَهُ الشكرُ دائماً سَرْمداً، وهو حَسْبُنا ونعم الوكيلُ. وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد النبي الأُمي وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين وعلىٰ الأَنبياء والمرسلين والمخلصين والصالحين جميعاً حتىٰ قيام يومِ الدين.

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١١٣٣٨١
التاريخ / ٣ / ٤ / ١٤٠٠

إنهُ لَيَنبَغي لَنا أَن لا نَتَحَدَّثَ عن المَاضي المُشرِقِ بِما أَنهُ مُجَرَّدُ فَخرٍ طَويل، ومَجدٍ أَثِيل، بل كذلكَ بِما أَنه ينفَعُ حاضِرَ البشريَّة ومستقبَلَها، ويُغَيِّر مناهجَ التفكيرِ وطرائقَ التعامُلِ فيما بينَها نحوَ الأَحسَنِ والأَفضَل. وتَأسيساً على هٰذا فليس يَهدِفُ الكِتابُ الذي بينَ أَيدينا أَن يُجَسِّدَ إطلالَةً فِكريَّةً وتَأريخِيَّةً من أَخلاق الإمامِ علي بن أَبي طالبٍ وأَفكارِهِ العَصماءِ فَحَسب، وإنما يَهدِفُ أَيضاً الىٰ أَن يكونَ مُخَطَّطاً فِكرِياً وتَربَوياً مِن أَجلِ العَمَلِ الجادِّ والحازِمِ علىٰ تَعميقِ الروابطِ الإسلاميَّة وتَنمِيَةِالعلاقاتِ الإنسانيَّةِ وَبَثِّ الروحِ الأَخويَّة والتعاملِ علىٰ أَساسِ تقديمِ الخيرِ وبذلِ الإحسان للقريبِ والبَعيد، ونَبذِ حالاتِ البخلِ والشحِّ واللؤم، بمعنىٰ التعاملِ علىٰ منهج رُوحيٍّ بَهِيٍّ سامِق، فإنَّ الشحيحَ اللئيمَ وَجهٌ آخرُ للشيطانِ الرجيم. وإن المُحْسِنَ المُعِينَ وَجهٌ آخرُ للمَلاكِ الكَريم.

من كلمات المؤلف في خاتمة الكتاب / خِتامُهُ مِنْ تَسْنيم.

ISBN 978-9953-546-60-5
9 789953 546605

دار الولاء
للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس: 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - ص.ب. 307/25
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com
E-mail:daralwalaa@yahoo.com